

فی صحرائیسیا

محمد حسنین

قصدا الكتاب رواية عن علي
مور في لول الطون وغربها
في السيرة أو عن زرقية في الغاب
نظري ونشر في فصول كتاب

سوق



حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر

الحمد لله رب العالمين

بنورك القديت في مجالس الصوامع فاقتمتها بحمدوني صوتي لاصل
في زمان وتظاني عايتك في جودها اللوح وشمها المحرقة
وبعطفك وتجميعك فضيت فدون لي صعبها وسهل خزنها
وقصري مداتها البعيد فطوبى لها كما ينطوي لهذا الكتاب الذي
نشره باسمك على ما يكره لك عبدك الخاضع من اخلاص وولاء
واني لا أقدم به اليك كما يتقدم قاطف الزهرة الى غارسها
وساقها ومجتنى الثمرة الى منعه لها وراعيها ولازلت يا مولاي

عبدك الطامع المييع
الامير محمد حسين

مقدمة

حسن جميل أن يقوم المرء بسياسة شاقة ليحصل رضى النفس من جراء الوجدانات المتنافرة التي يجدها . يلقى بنفسه فى المفاظات يحصل الاحساس بالوحشة فاذا منحه له غزال أو بدا له سرب من القطا فى النهار أو طلع فى الليل نجم ألفه من قبل حصل نوعاً خاصاً من الاحساس بالأنس . يعروه كذلك إحساس القوة القادرة ويدخل الى نفسه شىء من الاعجاب بذاته كلما ذكر تفرد به بالحال التى هو فيها وتفوقه فى اقتحام الاخطار على نظرائه ويثته . يتناوبه الخوف والطمأنينة كلما قل مأوه ثم ورد بترأ أو ظن الهلاك ينتظره فى بعض الطريق ثم نجاة منه . كل هذه الاحاسيس تجعل للنفس رضى لا يعرفه إلا أهل الأسفار الشاقة اذا ذاقوه مرة قل أن يقنعوا بما نالوا منه . بل يطلبون المزيد من هذا الرضى فيصير لهم السفر لذة مقصودة لذاتها يباشرونها كلما استطاعوا كما يباشرونهم لذات الإقامة سواء بسواء

وحسن جميل أيضاً أن يحمل المرء نفسه على مشاق السياحة الخطرة وأهوالها لأن به هذا الميل الذى ذكرنا . ولكنه يقتحم صنوف هذا العذاب ليصل الى تقرير حقيقة اتنولوجية أو تعيين

مواقع جغرافية أو ضبط معلومات جوية أو ارساد فلكية .. الخ الخ .
 فاذا ظفر بطلبته حصل على رضى للنفس لا نظنه من النوع
 الأول ولكنه رضى لا يقل عنه فى أثره السعيد بل يزيد عليه كثيراً
 فى قيمته وفى بقائه

وأحسن من دينكم وأجل أن يقع الوفاق بين رغبة النفس
 ومطلب العقل ، أو بعبارة أخرى بين اللذة وبين الواجب . فيعرض
 السائح نفسه لأخطار القفار لأن اقتحام الخطر فى ذاته يلذ لنفسه
 ولا أجل أن يحقق النفع العام بما يحاول من الاستكشاف وتنمية
 العلم الانسانى أو تجديده . كذلك كان صديقنا احمد حسنين بك
 حين اقتحم صحراء ليبيا وحين وضع بما وجد فيها من اللذة الشخصية
 وما وفق اليه من الاستكشافات العلمية هذا الكتاب الذى تقدمه
 لقراء العربية

أقرأوا كتابه تروا حبه لآفاق الصحراء وغرامه بكل ما فى
 الصحراء يتجلى فى كل موطن بارزاً يُغشَى كل ما دونه من
 الاحساسات الأخرى . وليس فى الصحراء إلا الوحشة والتفرد
 بنوع ما وانقطاع النظر عن المراثيات المألوفة والسمع عن الأحاديث
 المعتادة والنفس عما فى المدينة من دواعى الرجاء وبواعث الخوف
 على السواء . يقص علينا هذا الرحالة النابه أنباء ما استشعره من

تلك الأحاسيس المتباينة جد التباين يبسط لنا وصف ما لقيه من الضيق يوماً ومن الفرج يوماً آخر . يتحدث إلينا بكل ذلك في نوع من الحنين إلى الصحراء والشوق إلى امتشعار تلك الاحساسات كأنه لم يفارق الصحراء ومشاق الصحراء إلا كارهاً ولم يرجع إلينا إلا بعد أن خلف هناك في تلك المفاوز موضوع حب ما زالت تساوره ذكراه ومنازل نعيم ما زالت معقد حنينه وموضع مناه .

هذه النزعة البدوية من ناحية وهذا الاخلاص للعلم والتضحية به بالمال وبالراحة من ناحية أخرى ليسا موهبة عادية ولكنهما من خصال الطبع الاستثنائي أو قد يكونان أثراً نامياً من آثار الانتقال الوراثة القريب . فما كل امرئ رحالة ولا كل نفس تطيق ما أحبته نفس الرحالة احمد حسنين ابن أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين ابن المرحوم احمد حسنين باشا . لقد امتزج في نفسه حب السياحة بحب العلم والاخلاص له فاتخذ من لذته الشخصية وسيلة للاستكشاف وأداء الواجب العلمي . وما أحسن أن يكون القيام بالواجب طوعاً لا إكراه فيه ولذة لا يشوبها ألم .

نعلم شيئاً غير قليل من الصفات العامة المميزة للشعوب العربية من غيرها ومن بعضها والبعض الآخر . وأكثر ما نعلمه من ذلك قديم لأنه يرجع في جملته إلى كتب السير القديمة ودواوين الشعر

القديمة وبقية كتب الآداب ، وقل منا نجد الآن من الثقات من يخالطون البدو عن يمين مصر وعن شمالها ليحققوا تلك المميزات التكنولوجية التي لا شك في أن يد الدهر قد تناولتها بالتغيير والتبديل والحذف والمسح والتحسين . حتى كانت هذه الرحلة المباركة فكشفت عن مواطن جيراننا في الصحراء الغربية وشيء غير قليل من عاداتهم ومواطن تفاؤلهم وتطيرهم في وصف لذيذ وعناية تامة بالتفاصيل والنقائق .

قد يظن الحضرى أن من السهل أن يركب الجمل في قافلة تسير في الأرض أسابيع أو أشهراً في رفقة كيفما اتفق . هذا الخطر أبعد ما يكون عن حقائق الأشياء . فإن رحلة مثل رحلة حسنين بك في جوف الصحراء لا سلامة منها إلا بأعجوبة أو بتوفيق من الله عظيم . ان المسافر في مثل هذا الطريق وفي مثل هذه القافلة التي ليس بينه وبين أحد أفرادها شبه في منازع النفس ولا في الترية ولا في فهم الحياة ولا في مقومات الأخلاق معرض كل ساعة للهلاك من خيانة من معه ومن خطا الدليل ومن خور الرواحل ومن عادات الطبيعة التي لا ترحم عاداتها متى أثارت رياحها رمال الصحراء فتدفن أحياء أولئك الأشباح الانسانية التي تمايل على ظهرها كأنها تعاقبها على ترك مواطنها الطبيعية وغشيان ما شاءت الطبيعة أن

يكون قفراً من كل ساكن وعلى الخصوص من بنى آدم . وعلى هذا النحو ينبغي أن تقدر شجاعة رحلتنا المصيرية ومقدار إخلاصه للاستكشاف . الواقع أنها رحلة شاقة . قال الدكتور هيوم :

« ان رحلة احمد بك حسنين قد فتحت أمامنا منطقة عظيمة كانت حتى الآن من مجاهل الارض »

لو أن الطريق معبداً والشقة محتملة لما كان هناك ما يمنع من أن يجوب تلك الناحية من خلال الصحراء كل سائح . ولكن لا أذكر حالاً قام بمثل هذه الرحلة منذ نبلاء « فيلي » في القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد

ومع ذلك فإن بعض القطع القليلة التي وجدت من رحلاتهم لا تدل على أنهم سلكوا تلك السبيل الوعرة التي سلكها احمد حسنين بك . بل على العكس من ذلك ربما كانت كل القرائن متضافرة على أن سبلهم كانت قريبة من نهر النيل وان كانت في صحراء ليبيا عنها

لأنظر أن الجمع بين احمد بك حسنين وبين النيلين « ميخو » و « هيركوف » في هذا المعنى يؤذن بالتلازم في مصر بين النيل وبين الرحلات الخطرة وإن كان النبلاء أقدر عليها من غيرهم في العادة لا من حيث أنهم أطمح الى المجد بنفسه ولكن لأن الرحلات

من هذا القبيل. قد تستتبع استعداداً خلقياً وأداة غالية بوجه ما .
 .. لأن كان هيركوف موفداً من قبل فرعون مصر « ميتيزوفيس الأول »
 فلقد لقي حسنين بك بعد عودته من رعاية ملك مصر
 صاحب الجلالة فؤاد الأول وعطفه ما يشجع في الواقع على مثل
 هذه الرحلات الخطرة .

عاد هيركوف في رحلته الثالثة بأنواع من الجلب أهمها قزمة
 فرح به الملك الشاب « يوبى الثانى » خليفة « ميتيزوفيس الأول »
 واتخذ ضحكة له وأغدق من أجل ذلك على هيركوف نعماً وتشاريف
 كانت تضرب بها الأمثال .

لم يعد رحالتنا احمد حسنين بقزمة ضحكة ولكنه عاد بأرصاد
 فلكية وتعينات جغرافية قضى في تحليل نتائجها الدكتور بول مدير
 قسم مساحة الصحارى مدة شهرين وفي خلاصة هذه التحاليل
 يقول الدكتور بول : « ربما يسمح لى أن ألقت النظر إلى أن رحلة
 احمد بك حسنين، كما يظهر لى ، هى فوز يكاد يكون فريداً فى تاريخ
 الاستكشاف الجغرافى . » وجاءنا أيضاً بنماذج جيولوجية قال فيها
 الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية « ان احمد حسنين بك
 قد حصل برجلته على مجموعة ثمينة من النماذج الجيولوجية والصور
 الفوتوغرافية تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى

المصرية خبرة عملية أن يصلوا الى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها . »

كتاب رحالتنا حسنين بك على ما فيه من الحقائق العلمية ملحة أدبية. لم يكن رحالتنا مشهوراً قبل الآن بالتفوق فى الكتابة كما اشتهر بالتفوق فى العلم وفى وسائل الشجاعة والرياضات . ولكنه لما تهيأ له ظرف الكتابة والوصف سما فى أطف الى المعانى وترتيبها وحسن الذوق فى ايراد الحوادث والتبسط فى عرضها الى حد يصح اعتباره نموذجاً كتابياً . أثراه ، كما يظهر لى ، قد ترك العمل ناحية ولم يزد على أن رسم بقلمه صورة ساذجة للمعانى التى أثرت فى نفسه أثراً عميقاً ؟ يظهر لى أن لطف الحس فى هذا المقام له أثره العظيم فى رشاقة التعابير وجذابة القصص .

مباركة هذه الرحلة التى اكسبت الوطن نوعاً جديداً من المجد واكسبت علوماً عدة زيادة فى موضوعاتها وضبطاً فى تعييناتها وأجدت على النابغة احمد بك حسنين مجداً يبقى بقاء المعلومات التى أضافها الى العلم . لا شك فى أن بقاء الكتب رهن بما حوت من حق وبما أعطت لقارئها من لذة . وكل ذلك بين دفتى هذا الكتاب الذى يسرنى السرور كله أن أقدمه الى قراء العربية .

احمد المنفى السيد

مدير الجامعة المصرية

الفصل الأول

الصحراء

كنت في رحلتى الأولى وسط الصحراء قد نذرت نذراً
ضللنا الطريق وأضعنا معه الأمل . فلا أثر للواحة التى
التمسناها . ولا سبيل الى بئر قريبة منا . هدت التعب أجسامنا .
وتسرب اليأس الى نفوسنا . وكانت الصحراء قاسية عاتية .
فندرت إن خرجنا منها أحياء أن لا أعود اليها ثانية

مضى عامان على ذلك النذر فاذا بى فى نفس الصحراء .
وفى عين البقعة التى ضللنا عندها الطريق . ثم اذا بى عند ذات
البئر التى أنقذت حياتنا فى الرحلة السالفة

أجل قد يكون للصحراء متاعها ولها أيضاً ملاذها وهى
التي تستهوى عشاقها وتجذبهم اليها . افتتن بها كل من جاب
فيافيها . افتتن بعظمتها المتمثلة فى فضاءها الواسع وسكونها العميق

وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . بل هي تلك المخاطر نفسها التي
تفتنه بل يفتنه الموت المنتشر في كل بقعة من بقاعها
تبسم فما أحلى ابتسامها . وتعبس فما أقسى عبوسها تضحك
نجومها فتستهوى عابر سبيلها ويحتكم فضاؤها في القلب فتوقعه في
أسرها فيسير مقتبط النفس هانها سير المؤتدس بها المولع بجمالها
المفتون بعشقها ولكنها كالغائيات شيمتها الغدر فلقد تريك بعد
تمام الرضا غاية الغضب ونهاية المساواة .

الصحراء ساحرة جذابة . إذا عرفها تعلقت بها نفسك أبد
الدهر . ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها ولا سبب
خلايتها . بل كل ما تعرفه أنها تناديك فينفذ نداؤها الى صميم
قلبك . وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال اليها صاغراً
يسوقك الحنين . وتدفعك الذكرى
وأية ذكرى !!

تكون قد سرت عامة يومك على أقدام مقروحة
حتى السير أهون عليك من ركوب الإبل !
تلازم القافلة ساجي العينين تبرز قدميك على وقع خطاه
الإبل وقد جف ريقك وتشقق حلقك ولا أثر لبئر تروى منها

يسير رفقاؤك في هدوء وسكون وقد خفت أصواتهم
وانعدمت فيهم رغبة التغي . قلص وجوههم الجهد . وحالت الى
لون الدم عيونهم تبعث نظرة شاردة حائرة ملؤها اليأس، تستطلع
الأفق وتستبين ذلك الخط الذي تلتق عنده زرقة السماء بصفرة
الرمال فاذا به دائما باهت بعيد.

السكون شامل لا تصدعه إلا خضخضة النزر اليسير الباقي
من الماء في القرب المتهدلة على جوانب الإبل
إننا في الصحراء لا نتحدث كثيراً . فالصحراء تعلم
السكوت . وإذا أهدق بنا الخطر تحاشينا النظر بعضنا الى بعض
وغنينا عن الحديث

وماذا يجدى الكلام ؟

كل منا يعرف ما هو واقع . وكل منا يحتمله بصبر وجلد إذ
التضجر ضرب من اللوم على الله القدير . وهذه معصية لا يقدم
عليها بدوى قط . ففي عقيدته ان الله كتب عليه هذه الحياة .
وقدر عليه سلوك هذه الطريق . وقد تقوده الى الموت الذي
اختاره له . فلا بد له من الرضاء به . والبدوى يقول لا مفر مما
كتبه الله و« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج
مشيدة »

في مثل هذه الساعات تقطع على نفسك الموائيق والعهود
أن لا تعود الى الصحراء قاطبة اذا خرجت منها حياً

ثم ينتهي عمل اليوم وتحط الرحال ولا تنصب الخيام لان
الرجال مجهودون غافلون عن التفكير في أجسامهم

وكأنما الشمس قد نالها ما نالنا من تعب . وكأنما النهار الذي
قطعته وإيانا في نضال الصحراء قد أسفر عن انهماكها كما أسفر
عن انهماكنا . وكأنما صراع الصحراء قد أدمى وجهها فاذا قرصها
المهزول يرسل أشعة حمراء ضعيفة كأنها خيوط الدم . وكأنما
الشمس قد عمدت مثلنا الى الانزواء تضمد تخنن جروحها وتجدد
منهوك قواها حتى اذا تم لها ذلك عادت وعدنا في نورها الى
مصارعة الصحراء . ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعها
وتصرعنا ... قصة كل يوم

ثم يهبط الظلام شيئاً فشيئاً تطارد طلائعه فلول النور .
ويسجو الليل زاهر النجوم أو وضاح البدر . وربما كان ليل
الصحراء أعجب نواحي الحياة فيها

يفشاك السكون ثم تحن الى الحديث بعد سكوت يوم
طويل . وتبدأ الملح فآخرة فيجرو صغير القافلة أن يقذف بنكتة
طريفة على نبرات الصوت عن رفقاته وان لم يكن طرب الفؤاد



الأمير السيد محمد ادريس السنوسي

ثم تتوافق أصوات البدو غير شاعرين وترتفع وتترنن في
ذلك المقام... فيدور الحديث

هكذا الصحراء تبدأ سحرها

يسرى نسيم الليل طليلاً فينعش أرواح القافلة ولا تمضي
دقائق قليلة حتى يبدأ النقر على « الفناطيس » الخالية . ويدور
الرقص والغناء . والرجال يتعهدون الإبل أو يرتبون الحوائج
ويصلحون السروج فما يكاد يقع في آذانهم أول صوت من أصوات
النقر أو الغناء حتى يتجمع شملهم حول رماد النار الخالية فيتوسم
كل منهم وجوه رفقاته ليطمئن عليهم ويتيقن سلامتهم . ويحاول
كل منهم أن يكون أشد بهجة من جاره ليقوى عزيمته ويجدد في
نفسه الثقة والأمل والطمانينة

ونعتمد الى مغالطة أنفسنا . وهي مهمة تبدأ ثقيلة شاقة .
نحاول أن نظرب وأن نبعث في ظلام حيرتنا ومتاعبنا نوراً .
فيقول أحدهنا : « ان جمال القافلة على ما يرام ، لقد تعهدت ذلك
الجرح فاذا به أخف مما كنت أظن » . ويقول آخر : « أخبرنا
بوحسن أنه رأى شارة البئر على مقربة الى اليمين » . وهكذا
نستدرج أنفسنا لنقنعها بأن كل شيء على ما نود ونرغب . وربما
كان هذا كله تقريراً منا بأنفسنا ولكنها الصحراء قد

خلبت ألبابنا وتغلب سحرها على عقولنا .
 شأننا في ذلك شأن رجل شديد الوله بغادة فاتنة ساحرة
 ولكنها قاسية جافية . تعرض عنه فتظلم الدنيا في وجهه . حتى اذا
 جن الليل وبسنت له استحالت الدنيا بأسرها الى جنة ضاحكة .
 كذلك الصحراء تبسم لك فتنسى كل شيء . تنسى متاعبك
 وآلامك . تنسى الصعاب التي لاقتك والمشقات التي تنتظرك .
 تنسى كرب الحر والعطش . تنسى انك أشرفت اليوم على الموت
 وانه يرقبك غداً وانه كامن لك عند كل خطوة . تبسم الصحراء
 فلا يبقى بعدها مكان جدير . بان تعيش فيه ولا تطيب لك الحياة في
 غيرها . من بقاع الارض

تبسم الصحراء فيما ودك حبها وتقبل عذرها . وتغفر ذنبها
 وتنقض عهد هجرانها

ويسطو الرقص والغناء على ما بقي في نفوس القوم من قوة
 وجلد بعد جهد النهار . فتفتر العزائم . ويغلب النعاس على الاجفان
 فيرقدون تحت قبة السماء الصافية الجميلة وقد رصبتها النجوم
 قليلون من أهل المدن يعرفون لذة الجلوس في حلقة الظلام
 ورعى النجوم . ولا عجب اذا كان العرب أسنانذة علم الفلك .
 فالأعرابي اذا انتهى من عمل يومه خلا الى نفسه وانقطع الى رسم

حركات النجوم وامتناع روحه بما تبعثه فيها من الراحة والشعور
بالسمو الى ما فوق العالم الارضى

وتقع النجوم من نفسه موقع الاصدقاء الاقربين الذين يلقاهم
كل يوم حتى اذا دارت بها قبة الفلك لم تغب فجأة كما يختفى المسافر
عند الرحيل ولكنها تحتجب تدريجاً كما يذوب الراحل في عين
مودعه على أمل اللقاء القريب

وينصل الليل فينبعث من فم أول مستيقظ من رجال القافلة
« حىّ على الصلاة . الصلاة خير من النوم » وما زال في السماء
قليل من النجوم المتناثرة فيستيقظ القوم وكأنهم يجمعون
عظامهم فكل عضو من أجسامهم متألم وكل حلق جاف ومع هذا
فما أعظم التغيير الذى طرأ عليهم ... سرى فيهم الأمل وتولدت
الثقة بل قد يعتقدون في ضمائرهم أن سيجرى كل شيء على ما
تهوى النفوس

والدنيا بعد فضاء مكفهر رطب . ونيران وقود الصباح
وحدها تمزق برودة نسيم الشمال . فاذا كان الجو صحواً لا سحاب
فيه انتشر في السماء نور ضئيل يرمى خلف الرجال والإبل ظلالاً
مستطيلة رواغة دقت حتى ما تكاد تسميها ظلالاً . ثم يتخضب
الفضاء بحمرة تبعث الدفء . وانما تبين ألوان الصحراء بين الفجر

وبزوغ الشمس . حتى إذا طلعت ذكاء لم يبق في الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة وصفرة . ثم تنصل الزرقة شيئاً فشيئاً حتى إذا انتصف النهار انمحت الألوان من السماء

ويخلق الصباح قوة جديدة كما يبعث الليل السلام والسكينة تلك هي الساعات التي يتجلى فيها للانسان سحر الصحراء وجمالها . في سكون هذا الفضاء المتسع يدق الاحساس حتى إنه يشعر قاطع الصحراء أحياناً بقرب واحة عامرة . وتغلب غريزته أيضاً فيحس بمئات الاميال التي تبعده عن كل كائن حي وفي تلك اللانهاية الساكنة يصفو الجسم والعقل وتنقى الروح فيشعر الانسان بأنه أقرب الى الله عز وجل ويحس وجود قوة قاهرة ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها . ويتسرب الى نفسه الايمان بالقدر الغالب والاعتقاد بحكمة ما كتب الله . فيصبح شديد الاستسلام حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم . وهناك حقاً أوقات يشعر فيها بان الحياة قليلة الوزن هينة

وتكشف الصحراء من نفس الانسان عن جوانبها الشريفة . فانك اذا واجهت أهل المدن بالخطر ناضل كل منهم عن سلامة نفسه أما في الصحراء فتعظم نفس الانسان وتندم الأناية ويفرغ كل قصارى جهده في خدمة زملائه ومساعدتهم . فاذا

هدد الخطر قافلة من القوافل وعنّ لأحد أفرادها سبيل النجاة
 تنكب عنه ولم يترك رفقاءه لينجوا بنفسه
 وأشد ما يهولك في الصحراء أن ينزُر الماء وربما دار بخلدك
 في مثل هذه الحال أن تستبقى لنفسك ما لديك منه . ولكنك
 بدلا من هذا لا تلبث أن تجدك حاملا زجاجة الماء . وهي إذ
 ذاك أتمن ما تملك . تدور على الرجال تسأل كلا منهم هل يريد
 جرعة . تسألهم غير مكترث كأنما أفرخ في روعك ان الماء غزير
 فائض عن حاجتك . تسألهم دون أن تفكر في سلامتك الشخصية .
 وهكذا تنعدم في الصحراء الأثرة والأناية . فتقول لنفسك
 مهما يكن مما قدر الله أن يقع فليقع لرجال القافلة جميعاً إذ أنك لا
 تريد النجاة وحدك . ذلك هو الشعور الذي يستولى عليك

لا أزال أزداد إعجاباً بالبدوى كلما فكرت في ثباته وسكينته
 وشجاعته التي لا يزعزعها شيء
 يدخل البدوى الصحراء وعماده ثلاثة : الجمال . والماء .
 والدليل .

أما الجمال فقد يخور أقواها وينفق لغير سبب ظاهر كما وقع

لحي حين تركت الكفرة ونفق جبل من خيرة جمالي في الليلة التالية
بينما قام أضعفها من الكفرة يتمايل تحت حملة ثم قطع نحو ١٢٠٠
كيلومتر ودخل الفاشر يقارب في خطواته

وكنت قد أخذت على صاحبه احضار تلك الدابة الضعيفة
فقال « الله يحفظه » وقد حفظه الله حقاً وحفظنا كذلك لان
موت جبل من جمال القافلة كارثة عظيمة معناها القاء جبل أحماله
ان لم نقل كلها

أما الماء فيحمل أكثره في قرب ولكنها قد تنتشر فجأة رغم
تعهداتها أياماً وأسابيع أو يتبخر الماء منها . وربما اصطدم جمالان في
خطكة الليل فتنفجر قربة أو قربتان

بقي الدليل

قد يقول الدليل — والاسباب كثيرة — إن الارض تدور
برأسه ومعنى هذا ان رأسه طاح . وقد يضل الطريق اذا غامت
الشمس بضع ساعات أو أخطأ في رسم علم من أعلام الطريق
عماد البدوي في اجتياز الصحراء كما قلت ، ثلاثة : الجمال والماء
والدليل ولكنها جميعها لا تغني عن شيء آخر هو الايمان .
الايمان الثابت الذي لا يتزعزع . الايمان الراسخ الوطيد
ولطالما كنت أغمض عيني وأستعرض ما مر بي في مدى

سبعة شهور طويلة فاشعر باننى لافضل لى فيما قت به وائى 'لا
 أستطيع أن أنخر بنجاح رحلتى واذا رجع كل رحالة الى ضميمه
 لما استطاع ان يقول فعلت وكل ما يقوله وفقت وما التوفيق
 الا من عند الله

قد تتجمل الصحراء ويلين مهادها . وقد يكون رجال القافلة
 نضر الوجوه مرعى الخواطر . ولكنها قد تكون أيضا قاسية
 فتاكة . يضرب فيها على غير هدى أولئك التعساء الذين كتب
 عليهم سوء الطالع أن يهيموا فى نواحيها مستيثسين . فاذا تهدلت
 رؤوس الأبل من العطش والإعياء . ونزر الماء وما من أثر لبئر
 قريبة . ووجم رجالك وتطرق اليأس الى نفوسهم . ونظرت فى
 الخريطة فلم تجد أثرا يهديك لان الطريق الذى تسلكه لم يكشفه
 أحد بعد . وسألت دليلك عن الطريق فهز كتفيه وقال الله اعلم .
 وذرعت بنظرك الأفق فاذا هو ذلك الخط الغائم المضطرب
 الممتد بين زرقة السماء الباهتة وصفرة الرمال . وأمعنت النظر فى
 كل ما يحيط بك فما رأيت شارة أو علامة تبعث على بصيص من
 الأمل . وضائق دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقا
 يضيق حول عنقك ويغل حلقك الجاف . فهنا يشعر البدوى
 بافتقاره الى قوة كبرى ، اكبر من قوة تلك الصحراء

الفتاكة القاسية . وهنا يجأر باستدوار رحمة الله ولطفه . حتى اذا
ضلت دعواته الطريق ضم « جرده » الى جسده وتهالك على الرمال
ينتظر الموت المحتوم في سكينه واستسلام
هذا هو الايمان الذي لا بد منه لمجتاز الصحراء



الرحالة بملابسه البدوية

الفصل الثاني

وضع خطة الرحلة

هذه قصة رحلة قمت بها سنة ١٩٢٣ من السلوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط الى الأبيض عاصمة مديرية كردفان بالسودان . وهي مسافة قدرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قطعت على ظهور الإبل وقد وفقت فيها إلى العثور على واحتين مجهولتين هما (اركنو) و (العوينات) وكانتا غير معروفتين قبل ذلك للجغرافيين

وقد كانت الغاية الأولية من رحلتى هذه علمية ولكنى حاولت فى هذا الكتاب أن أتجنب إرهاق القارئ بذكر المصطلحات الفنية وأن أقدم إليه حكاية أرجو أن تكون شائقة حتى لمن يجهل مصر والسودان وصحراء ليبيا

كان أكبر همى طول أيام حياتى أن أجوب صحراء ليبيا وأصل إلى (الكفرة) . وهى مجموعة من الواحات فى صحراء ليبيا لم يزرها قبلى الا مستكشف واحد فقد نجح المستكشف

الاماني المقدام (دولفس) سنة ١٨٧٩ في القيام بهذه الرحلة ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته بعد أن خسر جل مدوناته ونتائج ملاحظاته العلمية

وقد أسعدني الحظ سنة ١٩١٥ بقاء السيد إدريس السنوسي في القاهرة عند عودته من الحج . والسيد إدريس هو شيخ الطائفة السنوسية التي مقر ملكها واحة الكفرة . وفي سنة ١٩١٧ أوفدت في بعثة الى السيد إدريس المذكور مع اللواء تالبوت باشا أحد مشاهير الضباط البريطانيين المتدينين للخدمة في الجيش المصري . كان قد ترك الخدمة العسكرية وعاد اليها عند نشوب الحرب المظلي

وكان أهم مقاصد هذه البعثة الاتفاق مع السيد إدريس على منع العرب من الاعتداء على حدود مصر الغربية ومنع القلاقل التي قد تحدثها الحرب

وقد انتهزت هذه الفرصة فجددت علاقتي مع السيد إدريس في (الزويتينة) وهي ثغر صغير بالقرب من (جدايه) في برقة وكاشفته بغايتي . وقد عطف على السيد إدريس وسألني أن أحيطه علماً بموعد سفرى متى شرعت في القيام بهذه الرحلة

حتى يقدم لى المساعدة والرعاية اللتين لا بد منهما لكل مسافر
يقصد (الكفرة)

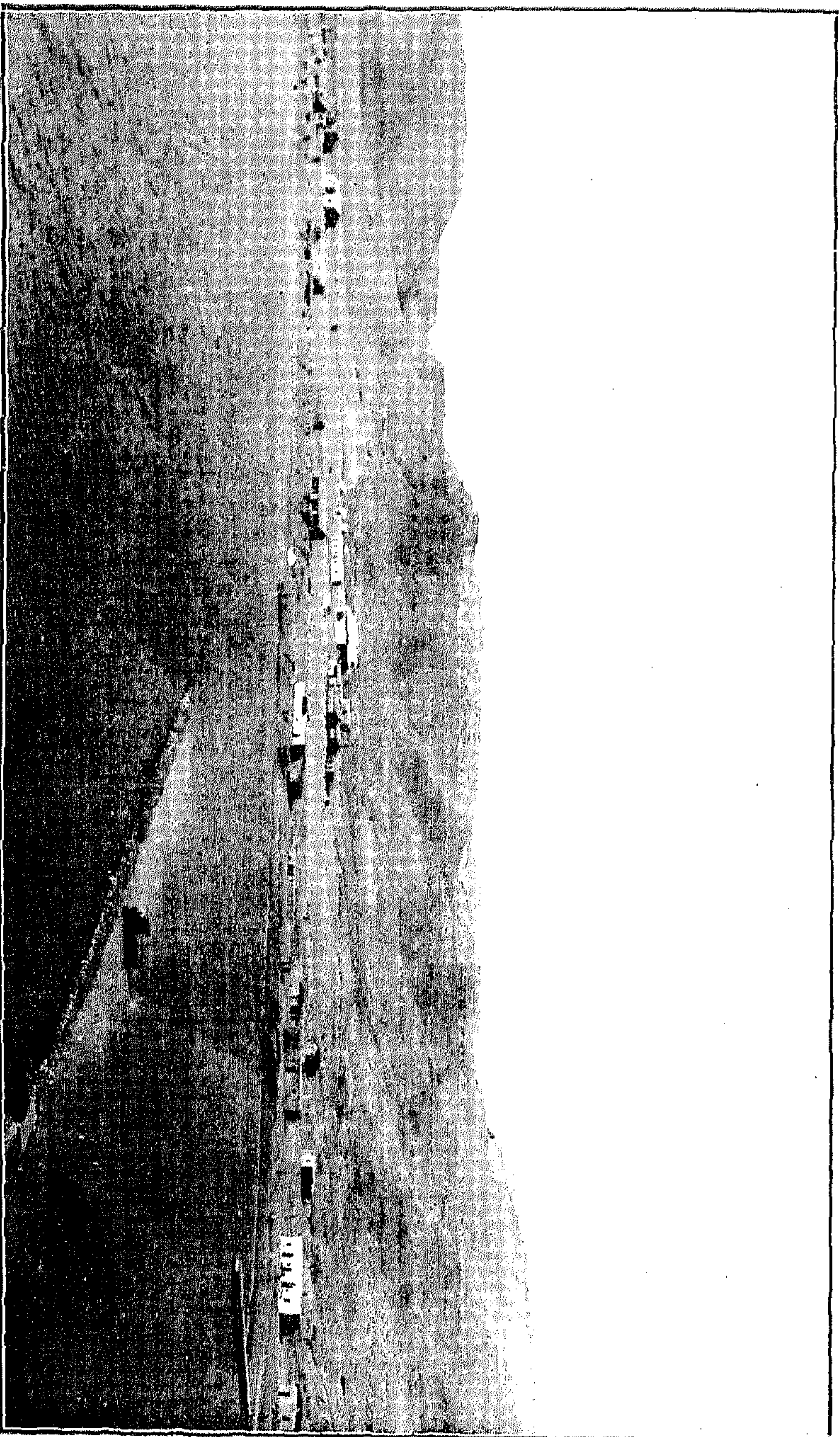
وقابلته بعد ذلك فى « عكرمة » بالقرب من « طبرق »
وأخبرته بعزمى على القيام بالرحلة بعد انتهاء الحرب الأوروبية
وكان معى إذ ذاك فى « طبرق » المستر فرنسيس رود وهو صديق
لى قديم ترجع صلتنا إلى عهد الدراسة فى كلية (باليول) بجامعة
أكسفورد فاتفقنا أن تترافق فى هذه الرحلة

وانتهت الحرب فجاءتنى مسز روزيتا فوربس (وهى الآن
مسز مجراث) وتقدمت الىّ بخطاب من صديقى رود راجية أن
ترافقنا كذلك . فبدأت برسم خطة لرحلة يرافقانى فيها ولكن
الموانع حالت دون مصاحبة المستر رود لنا وقد أوشكنا أن تنتهى
من كل ترتيب وانتهى الأمر بسفر مسز فوربس معى سنة ١٩٢٠
مزودين بمساعدة السيد إدريس الذى قدم لنا ما يلزم للقافلة فوصلنا
الكفرة فى يناير من سنة ١٩٢١

ولكن هذه الرحلة الى الكفرة لم تزدنى إلا حياء فى التوغل
فى أحشاء تلك الصحراء الممتدة وراءها . وكان هنالك إشاعات
عن واثنين مجهولين لا يعرفهما كثير من أهل الكفرة إلا فى
أساطير الأولين وأخبارهم

فلما عدت من الرحلة الأولى الى القاهرة صممت على القيام
 برحلة ثانية وعزمت على الانحدار الى الجنوب مختاراً تلك الصحراء
 المجهولة الى وادى والسودان . وزادنى رغبة فى القيام بهذه الرحلة
 الثانية ان كل ما كان معنانياً فى الرحلة الأولى من المعدات العلمية لم
 يزد عن بارومتر وبوصلة . ولذلك لم يكن فى وسعى أن أقوم بعمل
 خريطة دقيقة للجهات التى اخترقناها ولا أن أضبط مواقع الآبار
 وواحات الكفرة بالدقة . فذاخنى ميل شديد الى التحقق من
 النتائج العلمية التى وصل اليها « رولفس » والتثبت من مكان
 الكفرة على الخريطة الجغرافية

وفى سنة ١٩٢٢ تشرفت بفرض خطة رحلتى مختاراً الصحراء
 من البحر الأبيض المتوسط الى السودان على حضرة صاحب
 الجلالة الملك فؤاد الأول الذى كان قد تفضل فأبدى اهتماماً
 لرحلتى الأولى ومنحنى نوط الجدارة فأظهر عناية شديدة
 بفكرتى وسمح بإعطائى اجازة طويلة وتفضل باصدار أمره الى
 الخزينة المصرية بمنحى جميع النفقات التى تتطلبها هذه الرحلة
 بجلالته من تقدير العبد المخلص الذى يجهر بان كل ما وفق اليه من
 النجاح فى هذه الرحلة راجع الى معونة جلالته الثمينة



ميناء السلوم

وانتهيت من ترتيباتي وجمعت حوائجى فى ديسمبر سنة
 ١٩٢٣ فى دار أبى حنى احظى ببركته وصالح دعوانه وفقاً لتقاليدنا
 القديمة قبل بدئى بعمل هذه الرحلة

سَدُّ اللَّهِ خَطَاكَ

« سدّد الله خطاك » تجاوزت أركان الغرفة الفسيحة بهذه الدعوة الطيبة التي امتزجت ألفاظها بما انتشر في الجو من ضوء الشموع وسحب البخور المتناثرة

وكانت إلى جانب الحوائط أكداس من حوائج السفر بين صناديق متفاوتة الأحجام من كبير وصغير وقرب الماء « وفناتيس » من الصفيح لملء أيضاً . وحقائب مفعمة زاداً . ورزم من الخيام وجعب مختلفة من الجلد والمعدن تحوى بعض الأجهزة العلمية وكذلك أمتعى الخاصة

سكنت جلبتنا من إعداد كل شيء بعد حزمه وترتيبه فوقفنا وسط الغرفة واجين وليل مصر يسدل ستاره والنسيم يحمل إلينا من ناحية الحديقة تلك المهمة الخافقة التي تسرى عند المساء في أحياء القاهرة

كنا ثلاثة . أنا وعبد الله وأحمد . أما عبد الله فنوبى من اسوان وثقت به الثقة كلها وكان عند حسن ظنى به . وأما أحمد

فتوبى من اسوان أيضاً صحبته فى رحلتى فكان طاهيها البارع
وروحها الهفافة

ووقف أمامنا شيخ طويل القامة ذو لحية بيضاء مسترسلة
يلبس قفطانا من الحرير البرتقالى . وينبعث من وجهه الوسيم
المتغضن نور الصلاح والطمانينة والتقوى وتتساقط بين أصابعه
الطويلة المنشرحة حبات سبحة من الكهرمان . ووقف الى جانبه
خادم يحمل مبخرة من الفضة يتصاعد منها بخور زكى الرائحة .
ينشر فى فضاء الغرفة حلقات رقيقة

وضع ذلك الشيخ التقي سبحة جانباً ثم رفع يديه نحو السماء
وتتم بصوت خافت من فعل السنين واضح من أثر اليقين .
دعاء يستمطر به رحمة الله بالراجلين . ويضرع إليه تعالى أن يسدد
خطانا ويكمل بالنجاح مسعانا ويعيدنا سالمين غانمين
وجعل يغادى فى أنحاء الغرفة ويرواح بالمبخرة على كل حزمة
من حوائج السفر مرددا دعاء قصيرا

تلك هى حفلة التبرك . حفلة مباركة الأمتعة والحوائج التى
استنتها العرب وجعلتها الأجيال المتعددة واجبا مقدسا قبل
الرحيل .

وقد فرط فيها الخلف وقل استعمالها فى أيامنا الأخيرة . أمه

أبي الذي يضيء سبل حياته سنا العرفان ويشع فيها نور الرسول
فقد أبي إلا أن يؤدي هذا الواجب لابنه الوحيد المقبل على سفر
طويل بعيد

وقفت أمام ذلك الشيخ الصالح أتلقى البركة فلم أعد ذلك
المصري المتحضر وإنما كنت بدوياً يعود إلى الصحراء حيث
أقام أجداده وأسلافه قوائم خيامهم . ثم درت ويمت أبي
لقد قضيت وإياه خمسة عشر عاماً - منذ أرسلت لتلقي العلم
في أوروبا - تختلف مشاربنا وآراؤنا وتتباعد طرائقنا في الحياة .
على انني طالما تمنيت لو أنني توفرت على درس ما مال اليه من العلوم
حتى أقتبس من معارفه الواسعة وأغترف من بحر علمه الغزير
سمعت ذات يوم يقول عني لأحد زملائي : إنه مخلوق لغير
زمان فدعه يحصل ما يقتضيه زمانه من العلم والتهذيب « وهكذا
نشأت في غير نشأته

وهكذا كان شأن أبي وشأني أما الآن وقد أقبلت على العودة
إلى الصحراء التي نشأ فيها أجدادي فقد التقت خواطرننا
واجتمعت أفكارنا واتحد شعورنا وعرف كل منا ما يخالج
ضمير الآخر فتفاهمنا صامتين وغشينا سكون قصير ثم وضع

يديه على كتفيّ وقال « سر يا بني رافقتك السلامة وسدد الله
خطاك ووهبك القوة وأنجح مسعاك »

بوركت حوائج السفر وخرج عبد الله وأحمد الى السلوم بما
ثقل منها وخلياً الى الادوات العلمية وآلات التصوير .. وفي اليوم
التاسع عشر من شهر ديسمبر أقلمت بي الباخرة من الاسكندرية
الى السلوم

ما كدت أنتهي من وضع هذا الكتاب حتى فوجئت
بموت أبي ففقدت بفقده خير النصراء النصحاء . فقدت الأب
البار الشفيق . كنت إذا اشتدت صروف الحوادث واستحكمت
حلقاتها أجد عنده الكلمة التي تفرج الكرب والنصيحة التي تفتح
أبواب الفرج . والعظة التي تعيد للنفس المضطربة بأسمها وللحواس
المضعضة قواها . وللعزيمة المزعزعة ثباتها

كان الصديق الصادق إذا ضاقت السبل وانقطعت
الأسباب وتعقد الأمر وتكاثفت الظلمات واشتدت الحيرة
فلا عجب إذا كان مصابي بفقده جللاً وخطي بموته جسيماً
وإذا أحسست بعد غيابه بفضاء واسع وفراغ كبير كان يملأه
صلاحه وتقواه وسمعه الله برحمته واسكنه الجنة والرضوان

الفصل الثالث

الزاد والمتاع

رست بي الباخرة في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٢ في ميناء السلوم وهي ثغر صغير قريب من حدود مصر الغربية . وكان الترتيب أن نأخذ الجمال من السلوم ونذهب عن طريق « الجغبوب » الى « جالو » وهي المركز المهم لتجارة الصحراء حيث يتم تنظيم كل شيء للبدء في رحلتنا إلى الجنوب

ولمثل رحلتى هذه دائماً مراحل عدة ينتابك في كل مرحلة منها شعور خاص وتلقى فيها تجارب تختلف عما تلقاه في غيرها فاني ساعة وقفت في دار أبي في تلك الغرفة التي يشيع في أرجائها البقاة عبق البخور رأيت القيام بهذه الرحلة ضرباً من الأحلام يخلب لي باحتمال تحقيقه وان اليقين منه كان بعيداً - أما في السلوم فقد واجهتني الحقيقة الواقعة التي تستلزم جمع الزاد والمتاع وحزم كل شيء بحيث يصغر حجمه ويسهل تناوله وجرد كل شيء للتحقق من وجوده ثم الاتفاق مع أصحاب الإبل على المرحلة الأولى من الرحلة

وعند « جالو » تبدأ المرحلة الثالثة حيث أتقدم القافلة وأستقبل طريق « الكفرة » التي قطعها من قبل ثم تنكرت لى معالمها . حتى اذا وصلت الكفرة بدأت مرحلتى الاخيرة ضارباً فى أحشاء تلك الفيافى المجهولة التى لم تطأها قدما مكتشف من قبل وقد سبقنى الى السolum عبد الله واحمد ومعهما أمتعنى الضخمة وكانا قد رتبنا كل شىء يختص بسفرنا عن طريق الجنبوب فأخذنا جميعاً فى تحضير المتاع والزاد ولا يفوتنى أن أصف فى هذه المناسبة ذينك المصريين اللذين صحباني فى هذه الرحلة .

كان عبد الله نوبيا من اسوان متين البناء متناسب الأعضاء . قويا . له عينان صغيرتان غائرتان . . يلوح فيهما الذكاء والشم . وكان يبلغ من العمر أربعين سنة خرج منها بعلم واف واستظهار للقرآن الكريم .

وكان أول لقائى به سنة ١٩١٤ حين كان فى خدمة الأسرة الأدرسية بالقاهرة . وقد ملت اليه منذ رؤيتى له لما توسمت فيه من مخائل الذكاء والولاء . وكان من الامانة بمكان فاستودعته المئون والذخائر وكان يعمل للطوارىء حساباً فلا يخلو متاعه مما تحتاج اليه من سيور جلدية وإبر غليظة لرتق الاحذية الى أدوات

أخرى لاقامة المعوج وإصلاح المكسور من أعمدة الخيام وكان دائماً على استعداد لمواجهة كل ظرف من الظروف فكان في وسعه أن يظهرني بدوياً من عرب مصر الرحّل أو تاجراً أو موظفاً كبيراً في الحكومة كما حدث حين هبطنا ميدان الحياة الرسمية بالسودان . غير أن عبد الله كان فيه خاصية غريبة هي أن النوم يغشاه بين الغروب وبعده بساعة أو اثنتين فيصعب كثيراً إيقاظه من غفوته وكان يتغلب النعاس عليه أحياناً وهو جالس يتحدث فلا يتمالك نفسه من أن يهوم . ولاني لا أذكر أننا فرغنا من العشاء ذات مساء وحلت ساعة تهويمه فأنهز هذه الفرصة رفيق البدوي الأمين « الزروالي » وكان قد انضم إلينا في « جالو » وأراد مداعبته فأخذ جانباً من الزعتر ووضع في كوب الشاي الذي كان أمامه وصحبا عبد الله فتذوق كوبه وعرف الأمر فلم يقل شيئاً وأعاد كوبه إلى موضعه وبعد قليل من الزمن التفت إلى الزروالي وقال « أظن أنك تنتظر زيارة قادم ولاني لا أسمعه مقبلاً » وما كاد الزروالي يقوم للتحقق مما سمع حتى أبدل عبد الله كوبه بكوب الزروالي وكان نصيب الأخير أن جرّع تلك الكوب الحريفة بينما عبد الله يهوم كماداته آمناً مطمئناً وقد تجملت في عبد الله غريزة الاتجار في أجلى مظاهرها حين

وصلنا في نهاية رحلتنا الى بعض البلاد الآهلة وقد أعوزنا الطعام
فقد جمع كل ما فاض عن حاجتنا مما خلا من علب الصفيح
وزجاجات الأدوية الى بعض أسلحة الأمواس المستعملة واستبدل
بكل ذلك من السكان زبدا ولبناً وتوابل وجلوداً

وكان من الشم وطيبة القلب على شيء كثير وقد تألم عند
عرضي شريط رحلتى أثناء إلقائي محاضرة شرفها جلالة الملك فؤاد
في دار الاوبرا بالقاهرة . فان عبد الله حين رأى نفسه في كثير
من الصور في ثوب مهمل آلمه أن يظهر في تلك الحال الزرية
أمام ملكه وسألني بعد ذلك إن كان في المقدور أن أغير تلك
الصور بحيث يظهر فيها أحسن هنداماً وأسلم توباً

أما أحمد فكان كذلك نوبياً من إسوان منسرح القامة
صلب القناة وكان خادماً الخماص وطاهياً . وقد اختار حرفة الطهي
على مبلغ تعلمه لأنه أراد أن يكون طليقاً وقد أبى أن ينزل على
إرادة أبيه حين اختار له حياة دينية لأنه لم يأنس إلى ما في تلك
الحياة من بساطة وزهد وتقشف . وكان طروباً أبداً محبوباً من
جميع أفراد القافلة رغم صبه اللعنات والشتائم من وقت لآخر .
ولو أن غيره فاه بكلمة واحدة من الفاظ السباب التي يفوه بها

للكانت كافية لاراقة الدماء بين رجال القافلة ولكنهم اعتادوا ذلك
منه وكانوا يتفكهون به .

وكان من عادته اذا انتهى من الطهى أن يجلس الى الأعراب
ويهزأ من مبلغ معرفتهم بقواعد الدين . ويظهر التفوق عليهم
بانشاء مقاطيع من شعر الزهد ويحسن اختيار أشعار الغزل
وروايتها وطائفة من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام

وكان احمد هذا مخلصاً الى متفانياً في خدمتي لم يكن يفوته أن
يقدم لي كوباً من الشاي في أخرج الظروف وأقلها ملائمة لذلك.
وامني لا أذكر أننا سرنا ليلة كاملة ثم حططنا الرحال وكان يشكو الما
في قدمه فقلت له اعتباطاً حين أخذنا في نصب الخيام اني لم اكن
في حاجة الى الفطور أو الشاي حتى أضحو من نومي وسمحت له
بالنوم فتركني وما كدت أفرغ من إعداد غطائي حتى جاءني
بكوب من الشاي يتصاعد منه البخار

وكان على سبابه ولعنه رفقاءه البدو لا يتوانى عن الاهتمام
بتخفيف آلام ممن يمرض منهم فقد أخذ عني بالتدريج فهم استعمال
الأدوية التي معي وكان كلما أشكل عليه معرفة دواء يجيئني
بزجاجته للتحقق مما بها

ان ما يحتاج اليه الانسان في قطع الصحراء بسيط . والأشياء

التي يحملها مجتازوا الصحراء معروفة تكون متماثلة في كل حالة
فغذاء الصحراء هو الدقيق والأرز والسكر والشاي وسكان
الصحراء يحبون اللحم ولكنه لا يمكن حمله بطبيعة الحال فلا بد
للإنسان من الصيد إذا أراد أو الاستغناء عنه

أما الشاي فهو شراب أهل صحراء ليبيا وهم يفضلونه عن
القهوة لسببين أولهما ديني والثاني عملي . فقد حرم السيد ابن علي
السنوسي على أتباعه عيش الترف وأمره نافذ لأنه مؤسس الطائفة
السنوسية المهيمنة على أمور البلاد التي أزمعت اختراقها . وقد
تناولت أوامره تحريم الدخان والقهوة ولكنها لم تتناول الشاي
لأمر ما . ولهذا تجد كل أتباعه يحبون الشاي إذا صحت المقارنة
بين ذلك السائل العكر المر الذي يبعث النشاط في النفوس . نفوس
الأعراب أثناء السير . وينعشها آخر النهار وبين ذلك الشراب
الذهبي الشهى ذي الرائحة الزكية الذي يوسع حافات الموائد في
بلاد الحضارة

والسبب الثاني الذي يجعل أهل الصحراء يؤثرون الشاي
على القهوة أنه منشط على العمل وهم يشربونه عقب كل طعام
ويختتمون به رحلة اليوم

والبلخ من أهم الأطعمة في الصحراء إن لم يكن أهمها جميعاً فإنه غذاء الرجال والجمال إذا نهد الزاد أو ضاق الوقت عن طهي شيء . وليس بلخ الصحراء تلك الفاكهة الحلوة الشهية التي يتلذذ بأكلها أهل الغرب على موائدهم ويحملونها معهم في سياحاتهم القصيرة . فإن البلخ الذي يحمله قاطع الصحراء يجب أن يكون قليل مادة السكر لأن السكر يسبب العطش ولا بد من الاقتصاد في الماء إذا أبار على مسافة أيام من بعضها البعض

وقد أخذت معي بعض الأطعمة المحفوظة في العلب مثل لحم البقر والخضر والفاكهة . ولكن هذه العلب ثقيلة والإكثار منها يتطلب زيادة في عدد جمال القافلة . وكان معي بعض البن ولكنني لم أشرب القهوة إلا قليلاً وقدمته هدايا إلى من صادقنا أثناء الطريق . وكان معي كذلك قليل من زجاجات أقراص اللبن المركز وقد نفعتنا كثيراً عند نقص مقدار الطعام ولكن البدو لم يميلوا إلى هذه الأقراص لأنها كما كانوا يقولون تشبعهم بدون إمتاعهم بلذة التذوق

هذا ما كنا نحمله من الأغذية مضافاً إليه الملح والتوابل وأخصها الفلفل لعمل (العصيدة) ولا تخلو هذه الأغذية من التنوع القليل . ولكن التنوع في المأكول شيء يجب الاهتمام به في

الصحراء حيث تنقل المؤن ذواب تعيش في الغالب على أكثر ما تحمله . ولم يكن معي طعام خاص شهى استعين بلذته على إساءة الارز والخبز والبلع والشاي لأن من يجرب السفر في الصحراء ويتعلم دروسه يدرك أنه يجب أن لا يختص نفسه بشيء دون رجال القافلة . فلا يحمل من لذائذ المأكولات ما لا يكفيهم جميعا إذ في الصحراء تنحى الفوارق كلها فلا تميز بين رفيع ووضيع . غير أن التبغ كان الشيء الوحيد الذى ميزت به نفسى عن بقية الرجال ولكن هذا لم يكن فى الواقع خرقا للقاعدة اذ لم يكن بين رجال القافلة من يدخن الا شخص واحد شاركنى لذة التدخين التى نعمت بها أثناء الرحلة لكثرة ما حملت معى من السجائر المصرية والطباق

ويجىء الماء بعد هذا وهو المعضلة الدائمة فى الصحراء فقد رأينا رجالا يمسكون عن الطعام أياما عديدة ويصومون الى آجال لا يصدقها العقل . إما لحاجة قضت بذلك أو على سبيل التجربة . أما اذا أمسك رجل عن الماء فى الصحراء أربعة أيام فانه يكون قد أتى بمعجزة . والصحراء لم تُسم صحراء الا لخلوها من الماء . والماء أهم ما يتحتم على مجتازها التفكير فيه والعناية به .

ولقد حملنا الماء على طريقتين فأخذنا حاجتنا منه في خمس وعشرين قرية من جلد الغنم على أن هذه القرب سهل انفجارها إذا اصطدم جملان ليلا في طريق صخرية ولذلك أودعنا الماء الذي ربما مست اليه الحاجة في فناطيس مستطيلة من الصفيح مدلاة على جوانب الجمال . وكان معنا ثمانية فناطيس . يسهل الواحد منها ما يملأ ثلاث قرب فكان كل ما معنا من الماء يكفي جميع أفراد القافلة في أطول المراحل بين بئر وأخرى . وقد قصرنا وضع الماء الاحتياطي على الفناطيس وان كانت أسلم عاقبة من القرب لأن هذه لا تشغل حيزا كبيرا إذا خلت فقد يكفي حمل واحد لحمل الخمسة والعشرين قرية الخالية . بينما لا تزيد حمولة الجمال الواحد عن أربعة فناطيس . سواء أكانت مملأة أم خالية ولم يكن معنا جمال نغني عنها

وكان معنا كذلك بعض (زمزميات) من القماش ولكننا ألقينا معظمها لأنها كانت تضايقنا كثيرا في حماها وقد نفعا القليل الباقي في تبريد الماء بعد ذلك عند اشتداد الحر في السودان فان تبخر الرطوبة من منافذ قماش الخيش يحفظ للماء درجة حرارة معتدلة وكان من ضمن متاعنا أربع خيام منها ثلاث ناقوسية الشكل والرابعة مستطيلة وكذلك من أدوات الطبخ أهمها (حلة) كبيرة

من النحاس لطفى الأرز وكان معنا استعدادا للطواريء صندوق
صيدلة يحوى الكينا واليود والقطن والأربطة وساليسلات
البرموت لمعالجة الدسنتاريا وأقراص من المورفين وحقنة ومصل
ضد لسع العقرب تفعلنا كثيراً أثناء الرحلة فى حالات حرجة
ودهان من الزنك لأجل الأجزاء وأقراص ملينة وملح فواكه
وكان معى بعض الجهايزات وبعض أسلحة الجراحة الطبية وأدوات
وأدوية لمعالجة أمراض الأسنان

وكانت هذه الأدوية والجهايزات تساعدنا كثيراً فى علاج
الأمراض البسيطة العادية أما إذا اشتد المرض على عليل وضقت
ذرعاً بعلاجه فكان لا مناص لى من تفويض أمره لله قائلًا كما
تقول العامة الشفاء من عند الله

وأخذت معى لقصد الصيد ودفع الطواريء ثلاثة مسدسات
كبيرة وثلاث بنادق وبندقية أخرى لصيد الطيور أهديتها قبل
عودتى . يئنا زدت أسلحتى ست بنادق أخرى ومسدساً كبيراً
ولما وصلت تلك الأسلحة الى السلوم فى صندوق غريب
الشكل تهامس الناس أنى أحمل مدفعاً رشاشاً لغاية خفية اختلقوها
وفقاً لأهوائهم ولم تخل هذه الاشاعة من الرواج
وحملت معى خمس آلات للتصوير رغبة منى فى أخذ مناظر

الرحلة بحيث تظهر التفاصيل التي أعوذ بها عنها وافية واضحة ناطقة . وكان ثلاث آلات منها من نوع كوداك . وقد قامت بتأدية وظيفتها على أحسن ما يرام حتى آخر الرحلة وواحدة من نوع آخر وقد أتلها تسرب الرمال إليها وكانت الآلة السادسة من آلات السينما توغراف

وقد استعملت في التصوير بهذه الآلات (فلما) من نوع (ايستان كوداك) حفظته بعناية شديدة في علب صفيحية محبوكة القفل ثم وضعت هذه العلب في صناديق من الصفيح ملأها بنشارة الخشب ووضعت كل هذا في صناديق من الخشب . ولم تكن العناية بهذه (الأفلام) زائدة عن الحد نظراً للحرارة الشديدة في مبدأ الرحلة والأ مطار الغزيرة التي هطلت بعد ذلك في السودان

وكان طول الشريط السينما توغرافى الذى حملته معى ٩٠٠٠ قدم .

وقد كنت موفقاً فى كل ما أخذته من الصور ولم أحمض الجزء الكبير منها حتى عدت الى مصر بعد ذلك بثمانية أشهر ولكن الذى خسر منها قليل بالنسبة لمجموعها

أما لباسى فكان ثوب البدوى العادى المكون من قميص



الشيخ عبد الله الصادق والاسطى احمد المصريين
من اصوان الذين رافقا الرحالة في رحلته

وسروال وصديري من نسيج قطنى أبيض وجرد عربى (والجرد هذا حرام من الصوف) وكوفية وعقال . وأخذت بعض ملابس حريرية وسراويل من الجوخ للبسها فى مواقف خاصة عند دخول الواحات والخروج منها ومقابلة رؤساء العشائر وكبار أهل الصحراء وحضور ما دبرهم وغير ذلك

ولم أرد أن أتزيا بزي أهل الصحراء حتى انتهى من المرحلة الأولى فتركت السلوم فى (بدلة) من الخاكي وسراويل ركوب نال منها القدم وكنت غريب الهيئة وأنا انتعل تلك المراكيب الصفراء التى لا ينفع غيرها للسير فى الصحراء وألبس تلك القلنسوة الصوفية دفعا للبرد الشديد

والعادة عند السفر فى أراضى مجهولة فى البلاد الشرقية أن يقوم الانسان بتقديم الهدايا الى الرجال المشاهير الذين يلقاهم فكان معى كمية وافرة من الحرير والالوانى النحاسية والمباخر المطعمة بالفضة وزجاجات الروائح العطرية والمناديل الحريرية وأباريق واكواب للشاي من الفضة واجراس فضية يسر البدوى أن يستعملها فى دعوة خدمه بدلا من التصفيق بيديه . وكنت عند قيامى بهذا المقدار العظيم من الهدايا أظن أنى عائد بنصفه . ولكنى لاحظت عند وصولى الكفرة أن الميل الى قبول الهدايا

لم يقتصر على من أدى لى خدمة فى هذه الرحلة . ولكنه تجاوزهم الى كل من أدوا لى أية خدمة فى رحلتى السابقة مهما صغرت تلك الخدمة . ولذلك رأيت ان كل ما حملت لم يكن كافياً لارضاء من توقع الهدية قبل عودتى ومن استحقها فى رحلتى الثانية . ولم تكن هذه الهدايا منى طلباً لخدمة أو توقعاً لنفع وانما كانت بمثابة تحية أو تذكار من بدوى من المدن الى أخيه البدوى المقيم فى الصحراء . وكان أهم ما خرجت منه بفائدة عظيمة من هذه الرحلة من حيث الابحاث العلمية والتاريخية تلك الاجهازات العلمية والأدوات الفنية التى ذكرها الدكتور بول فى تقريره الطبوغرافى فى ذيل هذا الكتاب .

وقضيت فى السلوم اسبوعين كنت فىهما شديد الاهتمام بتهيئة أسباب الرحلة صارفاً عنايتى فى تنسيق كل شىء وترتيبه لان الاشياء التى تنقل على ظهور الإبل ويتحتم حملها كل صباح وانزالها كل مساء وصفها فوق بعضها ليكون منها حائل يدفع البرد ويرد الاعتداءات المتوقعة لا بد أن يعتنى بحزمها والتأكد من سلامتها فقد يحدث بعد سفر يوم طويل أن يستسهل الحمالون الذين نال منهم التعب أو تغلب عليهم الإهمال أن يتركوا الاحمال تزل عن جوانب الجمال بدلا من أن ينزلوها عنها برفق وعناية

الفصل الرابع

التأمر والتأمر

انتهيت من وضع خطتي للانحدار جنوباً الى الجغبوب ولكن
 حادثة وقعت لى قبل اليوم المحدد للسفر يومين شغلت بالى وذلك
 أنى كنت جالسا ذات مساء فى غرفتى بمنزل استراحة الحكومة
 اشتغل بفحص أجهزتى العلمية فاذا بطارق على الباب . وحررت
 فى التكهّن بمن يريدنى فى تلك الساعة . ولكنى تقدمت الى
 الباب وفتحته قليلا فرأيت بدوياً لا أعرفه ملتحفا بمجرد فاقفلت
 الباب فى وجهه وسألته من أنت ؟ فقال صديق . ولكنى لم
 أطمئن الى ذلك فسألته عن اسمه وعما يريد فأجبنى من وراء الباب
 « أأنا صديق اريد أن اسرّ اليك شيئاً لا بد من اخبارك به »

ففتحت الباب وسألته الخبر فدخل وقال بلهجة المستفسر :

أظنك ستسير الى الجغبوب من الدرب (الطوالى)

فأومأت برأسى أن نعم . فقال وفى لهجته شدة : لا تذهب

فقلت : ولم هذا ؟

فأجاب : ان البك غنى يحمل معه ثروة طائلة والاعراب

أهل شره ونهم والداثر على الألسنة ان معك صناديق مملوءة ذهباً .

قال لي هذا بينا ينطق في عينيه اعتقاده بصحة هذه الاشاعة وإن ادعى غير ذلك . ثم ثنى قائلاً : لقد اتفق الجمالون مع أصدقاء لهم في الطريق على الكمون لك ونهب ما معك وقد تضيع مالك وتنفد حياتك اذا سلكت تلك الطريق

فاجبته : ان في وسع كل إنسان أن يدافع عن نفسه وعن ماله فقال : ذلك محتمل ان كان معك العدد الكافي من الرجال ولم يكن معي ذلك العدد الكافي فتطرقت في الحديث معه الى الاستفسار عن صحة هذا الخبر فقص عليّ القصة وكان صادقاً وزاد يقيني في صحة اخباره انه كان قريباً لرجل أدت له خدمة حين أوفدت في بعثتي الأولى الى السنوسيين

وشكرته على اهتمامه بتحذيري واختفى الرجل في ظلام الليل نخلوت بنفسى أعرض عليها التفكير في الخروج من ذلك المأزق الحرج

وأهل الصحراء سريعون الى التهكن بمقاصدك ان امكنهم ذلك . فان عجزوا ظنوا الظنون في كل ما تفعل او تريد ان تفعل . وكان أكثر متاعنا في صناديق والاعراب لا تفهم من الصناديق

إلا انها تحوى كنوزا وليس عجيباً منهم وقد ظنوا مدفعاً تلك
 العلبة التى جئت بها وفيها ثلاث بنادق ان يحسبوا آلات التصوير
 والأجهزة الفنية التى حملتها معى نقوداً ذهبية أو سفائح من الاوراق
 المالية . وليس بعيدا ان يكون الرجال الذين أكريت جمالهم قد
 ظنوا انى مخترق الصحراء بهذه الثروة الطائلة لسبب خاف عنهم
 ففكروا فى سرقتى

ولست اكنم القارىء انى لم ارتح الى هذا الخبر فان استهلال
 رحلة بقتال لا يدعو الى التفاؤل أو يشرح النفس مهما اولينا فيه
 من فوز وخرجنا منه سالمين ولذلك فضلت اجتناب هذه العقبة
 عن التعرض لها

وأصبح الصباح فاستغنيت عن أصحاب الجمال الذين انكشف
 لى سر مؤامرتهم واعتضت عنهم بأخربن يوصلوننى الى واحة
 سيوة واستبدلت الطريق المستقيمة الى الجغبوب بطريق تضطرنى
 الى قطع ضلعى المثلث الذى تكوّن مواضع السجوم وسيوة
 والجغبوب رؤوس زواياه . وقد أطلال هذا التغير مسافة القسم
 الاول من الرحلة ولكن الزمن والمسافة هينان فى سبيل سلامة
 الوصول

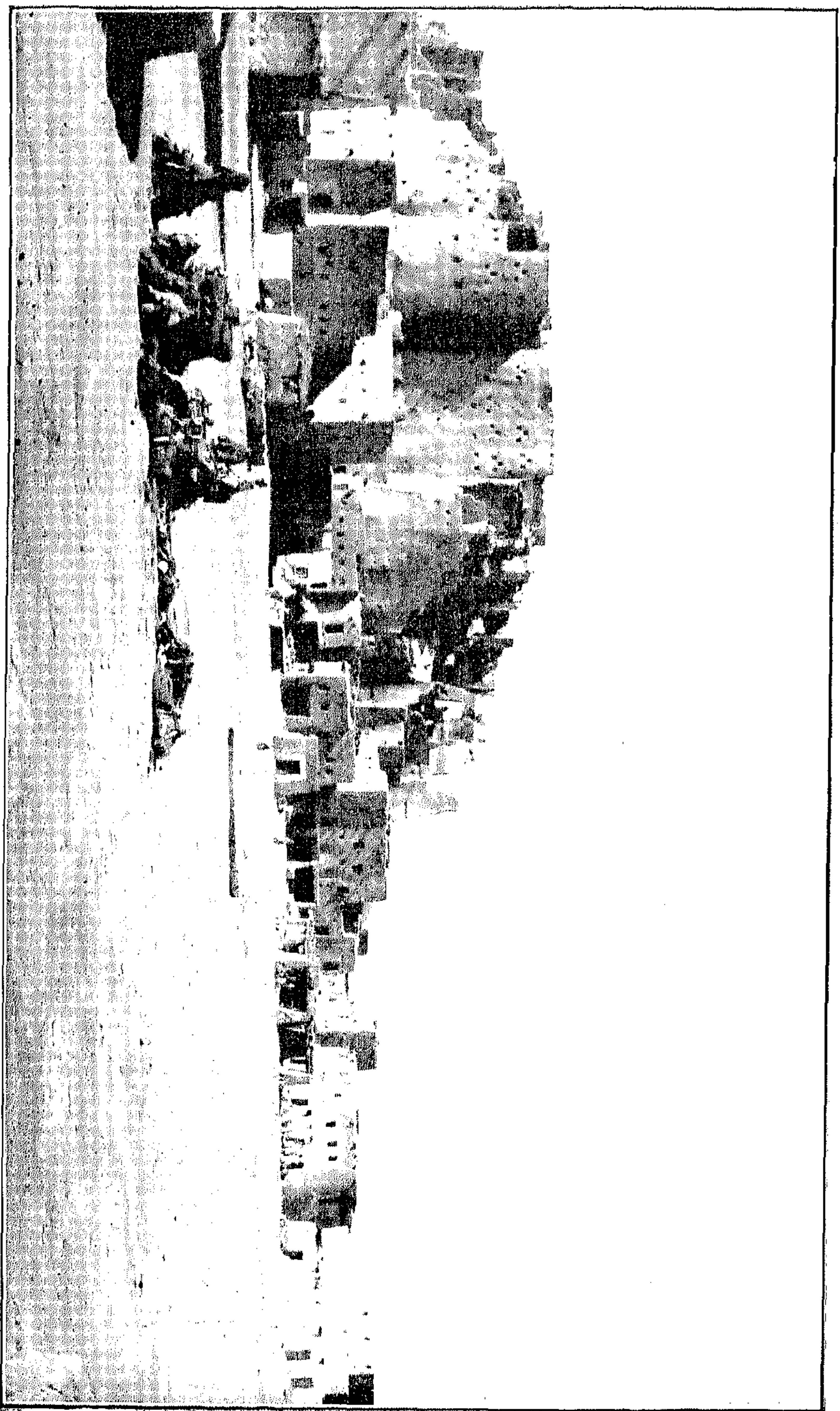
وللسفر بطريق سيوة ميزات كثيرة لان هذه الطريق

واقعة في الاملاك المصرية لا في تلك الاصقاع التي تسكنها القبائل
التي ينتهي اليها الجمالون الخونة ولأنها طريق مطروقة لا يجسر
قطاع الطرق ان يقدموا على اغتيال المسارة فيها بدون التعرض
للخطر . وقد حال اسراعنا في الرحيل بعد تغيير خطة السفر دون
تفكير المتآمرين علينا في إعداد خطة جديدة لتهبنا ان كانوا قد
فكروا في ذلك

وهكذا ظننت السلامة في هذا التغيير والتبديل ولم اكن
مخطئاً في هذا الظن .

وبدأت القافلة سيرها في أول يناير وبعد قيامها بثلاثة
أيام تفضل الملازم « باثر » فاستصحبني في سيارة للحاق بها عند
بئر « دجنيش » على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من السبوم . ثم
ودعت ذلك الضابط الرقيق وأخذت مكاني بين رجال القافلة
وكانت المسافة الى سبوة ستة أيام قضينا وقتاً منها في إخفاء
ضناديقنا وعلبنا بين طيات حوائجنا بحيث ظهر مجموعها كأنه
أثاث عادي من أثاث البدو

ولم يقع لنا في بحر هذه الستة الأيام امر ذو بال اللهم
الاحداث كان أول ثلاثة بعثت في نفوس الفأل الحسن بنجاح
الرحلة وذلك ان رأيت في عصر اليوم الخامس غزالا يرعى على



ستو

مقربة من طريقنا فتعقبته بحثنى الميل الى تذوق اللحم الطرى
وماكدت اتقدم له حتى سمعت صراخا وعويلا خافى قصد
يهما رجال القافلة تثييط همتى فى صيده . ولم أفهم بادىء الامر ما
دعاهم الى منعى من صيد ذلك الغزال مع ما أعرفه فى البدوى من
حب اللحوم وظننت أنهم خافوا على البعد عنهم وتعطيل سير
القافلة فلم أحفل بصراخهم وتقدمت الى الغزال وبعد أن طاردته
قليلا أطلقت النار عليه فأصيبته فى مقتل

وماكدت ألحق بالقافلة حاملا طريدى حتى نالتنى الدهشة
مرة أخرى فقد تقدم الرجال الى يلوحون بأيديهم ويرسلون
صراخا يمزج فيه الفرح بالتهانى ولم ينقص عجبى من وقوفهم دون
صيدي الغزال وترحيبهم بى بعد صيده حتى سمعت منهم تفسير
ذلك ففهمت ان البدو يعدون أول طلقة من رئيس القافلة على
طريدة بعد البدء فى سير القافلة فاصلة فى حظ الرحلة من النجاح
أو الخيبة فأن أخطأ الرامى أصاب القافلة مصيبة قبل انتهاء
الرحلة وان أصاب بسم الحظ لها وكتب لها النجاح . ولذلك
أشفق الاعراب من رؤيتى أقطع فى حظ القافلة بهذه السرعة .
ولو كنت أدري هذه النظرية لأبقيت الطلقة الاولى حتى وصلنا
الفاشر بعد ذلك بستة أشهر

واقمنا في سيوة ثلاثة أيام قضيناها في تأجير جمال أخرى
 للرحلة الى الجغبوب وعمل بعض الترتيبات النهائية
 وسيوة آخر مركز يتصل بالعالم المتمدين الذي أخلفه ورأى
 فعندها تنتهى اعمال البريد والاشارات البرقية ولا يوجد بعد سيوة
 شيء يباع الا محصولات الصحراء والقليل من الارز والقماش
 وهذا غالى الثمن ان فرض وجوده

وقد اكرم وفادتي وقام بمساعدتي في بحر الثلاثة الايام
 حضرة المأمور أحمد افندى كامل والموظفون والملازم (لور)
 قومندان قوة مصلحة أقسام مصلحة الحدود المرابطة هناك

وسيوة اكبر الواحات واجملها تتفجر فيها عيون الماء
 العذب وتنمو فيها الفاكهة اللذيذة وأخصها أجود أنواع البلح
 في العالم . وتقع العين فيها على مناظر بديعة وعادات لاهاليها
 غريبة ومن هذه العادات ان المرأة إذا فقدت بعليها أمسكت عن
 الاستحمام أربعين يوماً واحتجبت عن الانظار يقدم لها الطعام من
 ثغرة في الباب . فاذا انقضت هذه المدة ذهبت تستحم عند بئر
 من الآبار فتكسب كل انسان عن المرور في طريقها وسماها الناس
 (غولة) ونجنبوها لأنهم يعتقدون انها تجلب النحس لكل من
 يقع نظره عليها في ذلك اليوم

وفي سيوة تكس الكوام البلح في سوقه الخاصة التي يطلق عليها اسم (المسطاح) وهذه الكوام مقسمة حسب أنواع البلح من جيد ودرى ولا يقوم بحراستها أخذ ولكن الأيدي الغريبة لا تمتد إليها ولا تخلطها قصد الانتفاع على أن لكل انسان أن يدخل هذه السوق وينال كفايته من أجود أنواع البلح بدون أن يدفع مليا واحدا ولكنه ليس في حل من أن يحمل معه شيئا

وفي سيوة مقام لأحد الأولياء يودع الناس حوله أشياءهم ليأمنوا عليها فاذا فكر أحد في السفر أخذ متاعه الثمين وتركه بالقرب من هذا المقام فلا تمتد إليه يد انسان ولا يفكر أحد في التعدي على الأشياء المودعة عند هذا المقام مهما غلا ثمنها لأن الاعتقاد السارى الذى لا يتزعزع هو أن الانسان الذى يمد يده عند هذا المقام الى شيء لا يملكه يبتلى بالنحس وسوء الطالع طول أيام حياته

وعند تأهبي للقيام من سيوة تضاعف عدد رفقائى فقد أضفت من السلوم الى عبد الله واحمد رجلا من قبيلة (المنفى) اسمه حمد وكان أشد رجال القافلة إقبالا على العمل وأصبرهم

على التعب فلا اذكر أنى رأيتـه مرة متعباً وكان مشغوفاً بالجمال
خيراً بأحوالها وشئونـها فعهدت اليه ببعيرى

وأما رابع الرجال فكان اسماعيل وهو شاب من سيوة
يظهر عليه الضعف ولكنه كان آخر من يتعب من السير ويمتطى ناقة
وقد عهدت اليه بالجواد الذى حصلت عليه فى «جالو» واختصصته
بمرافقتى فى تجوالى للبحث عن بعض عينات من طبقات الارض
أو عند الاشتغال ببعض الابحاث الفنية . فان نشأته فى واحة
مصرية لها اتصال بحياة المدنية بواسطة البريد والتلغراف لم تخلق
فيه تلك الزينة التى اختص بها أهل الصحراء وجعلتهم يؤولون أقل
عمل يأتية الغريب تأويلات غريبة بعيدة عن الحقيقة فان من البدو
من كان يظن انى اقتطع الاحجار لانها تحوى ذهباً أو أنى ارتاد
تلك الاصقاع لأهد سبيل غزوها فيما بعد . وقد أحبت اسماعيل
لأنه لم يكن كذلك ولا أنه كان يطيعنى طاعة لا يتسرب اليها سوء
الظن بما أفعل

وتركنا سيوة بعد استبدال جمالنا فى اليوم الرابع عشر
وانقطعت آخر حلقة من حلقات اتصالنا بالعالم الخارجى وماكدنا
نقف بعد المرحلة الاولى حتى خلعت ذلك الثوب البالى من الخاكي
ولبست ثياب البدو وظننتنى رجلاً من رجال الصحراء . وكان



عصارۃ زیتون بسپوہ

تأثير هذا التغيير سريعاً في رجالى فقد تعودت منهم قبل ذلك أن
يقربونى مرتبكين حيارى ولكنى ساعة تزيت بزيتهم تقدموا الى
مقبلين علىّ وشدوا على يدي على طريقة البدو وقالوا: الآن
صرت منا

ووقعت لنا الحادثة الثانية التى تفاءلنا منها خيراً بعد تركنا
سيوة ببضعة أميال فقد وجدنا بلحا في طريقنا كان قد تناثر من بائع
أثناء ذهابه الى السوق . والبلح المتثور في طريق القافلة فال حسن
بنجاح الرحلة . وقد يحدث أحياناً أن يعتمد أصدقاء البدوى نثر
البلح في طريق قافلة قبل بدئها في السير حتى يعثر بها في سبيله .
وقد زاد هذا الفأل الأمل في نجاح الرحلة بعد حادثة الغزال .
ولكن الحادثة الاخيرة كانت أبعد الحوادث على حسن التفاؤل .
وذلك أنى كنت أرسلت رجلين من رجالى يحملان خطاباً الى
السيد إدريس في الجنبوب أعلمه فيه بقرب وصولى فان العادة في
الصحراء ألاّ يفجأ الانسان صديقاً او ذا حيثية بدون سابق
إعلان بمجيئه لان هذا الاعلان يمكن كلا منهما من ارتداء الملابس
التي يليق في مثلها لقاء أهل الفضل والوقار

وحدث بعد تركنا سيوة بيومين . وكنت في مؤخرة
القافلة . أن وقف سير الجمال فسألت عن سبب هذا الوقوف غير

العادي فكان الجواب ان رسلا جاءوا يحملون خبر وصول السيد
إدريس بعد ساعة . فما كاد رجالي يسمعون هذا الخبر حتى بان
في عيونهم الطرب فان تقدم شيخ السنوسيين نفسه للقائنا في
أول الرحلة يفسر بفأل حسن . وقال الرسل إنه يرجو البك أن
ينصب خيامه حتى يجيء اليه . وهذا يشعر بأداب الصحراء ويدل
على السنن والعادات المتبعة فيها . ولم نكد نستقر حتى رأينا طلائع
قافلة السيد إدريس التي وصلت بعد قليل ونصبت خيامها على
مقربة منا وبعد ذلك بنصف ساعة تقدم السيد إدريس يحف به
حشمه الى خيامنا وتقدمت أنا الآخر للقائه فقابلني بمقابلة ودية
وجددنا مراسم تلك المعرفة القديمة يظهر في وجهي أثر السرور
ويلوح الابتهاج على محياه ولست اكنم القارئ ان الرحلة الاولى
لم تصب ذلك النجاح الا برعاية السيد إدريس لنا وعنايته بنا فما
بالك بأثر هذه الرعاية في رحلتنا هذه وهي أطول من تلك ثلاث
مرات وأدعى الي توغلي في أرض اجهلها كل الجهل

ودعانا لتناول الغداء في خيمته وكان مكونا من الارز والدجاج
المحشو وفطير البدو المسكر يعقبه بعد ذلك أكواب الشاي المعطر
بالنعناع وماء الورد وشرحت له خطتي وحدثته بنخب العالم فسرره
كثيراً علمه بنتيجة معاهدة فرساي وطلب مني بعد ذلك ان أدعو

جميع رجالى الى خيمته ليباركهم فجاءوا ووقفنا جميعا نصنى الى تلك
 الالفاظ تنحدر من بين شفثيه فعادت الى ذاكرتى تلك الساعة
 التى وقفت فيها أمام أبى فى تلك الغرفة المعطرة بعبق البخور اتلقى
 مباركته ودعائه لى بينا يلوح فى خاطرى طيف الصحراء
 والإبل والحياة البدوية . لقد كان ذلك خيالا تصورته أما الآن
 فبدت لى الحقيقة ورأيتنى فى لباس البدو أتقدم القافلة واستقبل
 الطريق المؤدية الى قصدى

وكانت مباركة السيد إدريس لرجالى باعثة فى نفوسهم على
 الأمل العظيم بنجاح الرحلة وسلامتها من كل خطر . وحل وقت
 العصر فودع كل منا الآخر ورفعت الخيام وسارت القافلتان
 فأنحدرت قافلة السيد إدريس شرقاً الى مصر وتقدمنا غرباً الى
 الجغبوب وما وراءها من صحراء مترامية الاطراف وأراد رجالى
 أن يستزيدوا من بركة السيد إدريس فصمموا على أن يتبعوا
 فى سيرهم الطريق الذى سلكته قافلة شيخ السنوسيين وهى قادمة
 الينا .

الفصل الخامس

السُوسيون

لا يكمل سرد قصة عن صحراء ليبيا بدون ذكر السُوسيين الذين هم أهم عامل من عوامل النفوذ في تلك الأصقاع وهذا الموضوع كبير أحق به أن يفصل في كتاب خاص ولكن أقدم للقارئ في هذا الفصل القصير أهم نقط تاريخ السُوسيين

لا يكون السُوسيون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية وإن كان فيهم من هذه الأشياء خواص كثيرة على أنهم من البدو الذين يسكن معظمهم صحراء ليبيا ويسيطون نفوذهم على مساحة عظيمة من تلك النواحي وتسلم حكومات النواحي بأنهم قوة حقيقية في شؤون أفريقيا الشمالية الشرقية . وهم مسلمون . وأحسن وصف لهم أنهم رابطة دينية زعامتها وراثية ونفوذها قوى في إدارة شؤون سكان صحراء ليبيا

ويمكن تقسيم تاريخ هذه الطائفة الى أربعة عصور اكتسبت الطائفة صبغتها في كل عصر منها من شخصية الزعيم . والزعماء

الأربعة هم على التوالى السيد ابن على السنوسى مؤسس الطائفة
والسيد المهدي ولده والسيد احمد ابن أخ المهدي والسيد إدريس
ابن المهدي زعيم الطائفة الحالى .

ولد السيد محمد بن على السنوسى المعروف بالسنوسى الكبير
فى الجزائر سنة ١٢٠٢ هجرية وهو من نسل الرسول عليه السلام
توافر على دراسة العلوم فى جامعة القيروان وفى فاس وفى مكة
حيث أخذ العلم عن الفقيه الشهير سيدى احمد ابن إدريس الفاسى
وقد مالت نفسه الى التقشف وتمكن من نفسه اليقين بأن الدين
الاسلامى مفتقر للرجوع الى تلك الصورة الخالصة التى وضعها
تعاليم النبي عليه السلام

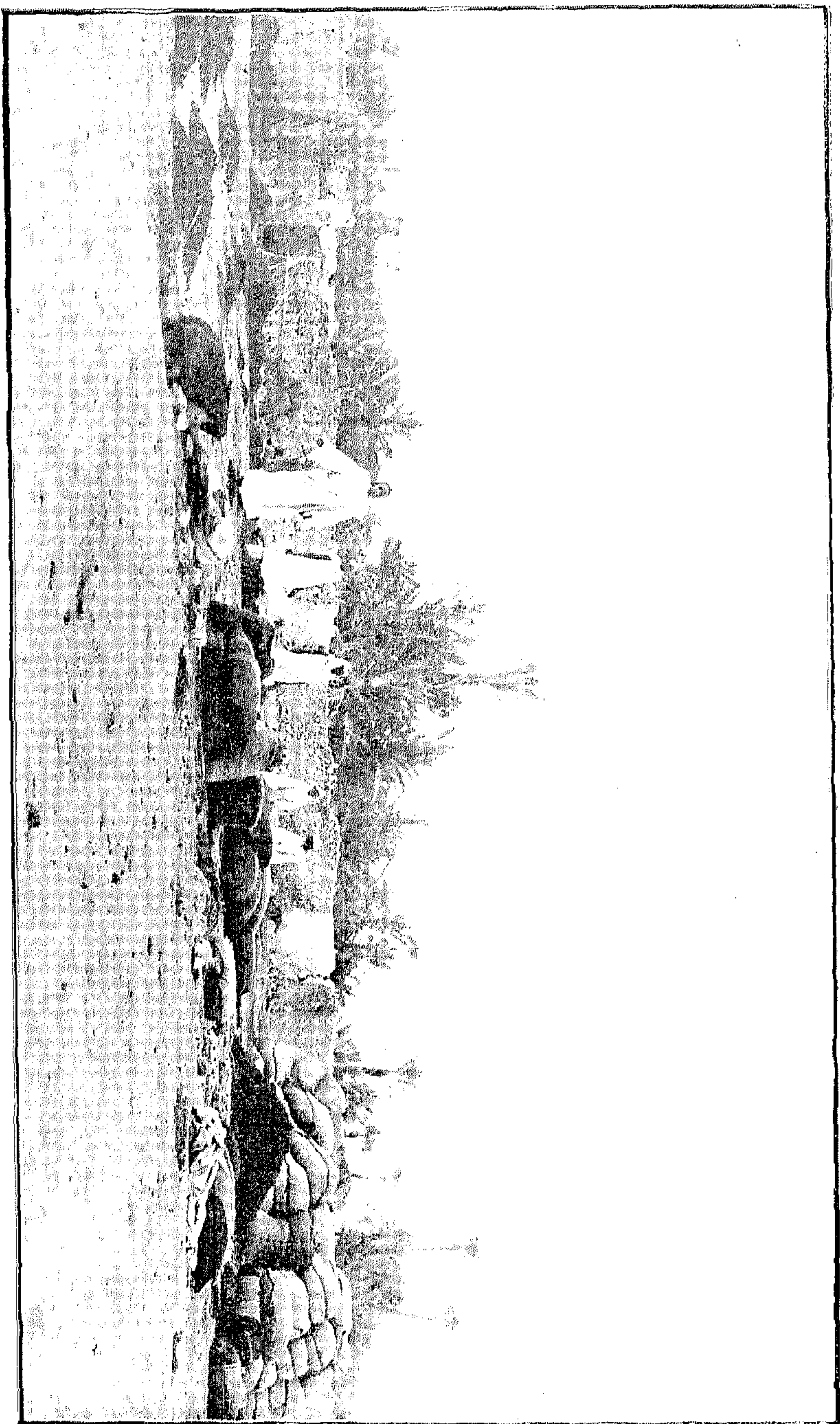
وقد اضطر أن يترك مكة فى السنة الأولى بعد الحسين
من عمره مدفوعاً بمعارضة المتقدمين فى السن من المتفقيين
الذين خالفوه فى بعض آرائه الدينية فعاد عن طريق مصر الى
برقة وأخذ يؤسس المعاهد لبث تعاليمه بين أهل البادية وسنتناول
فى شرح هذه التعاليم ذكر ثلاثة أشياء لا مندوحة عن تفسيرها
وهى الزاوية والاخوان والوكيل

أما الزاوية فبناء مكون غالباً من ثلاث غرف ويتوقف
حجمها على أهمية المكان الذى تقام فيه واحدى هذه الغرف

خاصة بأعطاء الدروس التي يتلقاها صغار البدو عن الاخوان
والثانية مضيعة ينزل فيها المسافرون لتمضية ثلاثة الأيام التي
يقضى بها كرم البدو والغرفة الثالثة لسكنى الاخوان وتقام الزاوية
عادة بالقرب من بئر يقف عندها المسافرون ويمجاور الزاوية
في أغلب الأحيان قطعة من الأرض يزرعها الاخوان
والاخوان هم الأعضاء العاملون في هذه الطائفة وهم الذين
ينشرون تعاليمها وأغراضها والاخوان لفظ يطلق على المفرد والجمع
(في اصطلاحهم) وأما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسيين والقائم
عنه بالامر

رأى مؤسس هذه الطائفة مسلمى برقة سادرين في غيابات
الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية
والخلقية فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط ولما لنسوق بعض
الأمثال لتلك الأعراض التي غيرت من معالم الدين الحنيف
أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو في الجبل
الاخضر شمال برقة ضرباً من الكعبة قصدوا به تقليد البيت
الحرام الذي قضى الاسلام بحجه على كل من استطاع اليه سبيلا
وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا في أذهان
البدو ان زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام

مسحاح الناحیه



وأراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان
والا تقطاع فيه الى العبادة فابتدعوا لذلك بدعة هي أن يذهبوا
تقبل حلول رمضان بأيام الى واد اسمه وادي زازا وهو معروف
بقوة رجع الصدى الذي تردده جوانبه ثم يصرخون جميعاً سائلين:
«أى وادي زازا أنصوم رمضان أم لا؟» فيجيب الصدى بالكلمة
الآخيرة من هذه الجملة وهي « لا لا » ويتصور من سأل ذلك
الوادي أنهم أصبحوا في حل من الإفطار فيفطرون غير مقيدين
بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الامر صدر اليهم بعدم الصوم
ومما يذكر أنه في بداية تعاليمه أقيمت الصلاة فدخل المسجد
لعراقي اسمه « مجرم » ووقف في الصف الأول يصلي لأول مرة
فقراً الامام آية « ألم نهلك الأولين » فتأخر الى الصف الثاني
فقراً الامام « ثم تتبعهم الآخرين » فتأخر مجرم الى الصف
الآخر فقراً الامام « كذلك تفعل بالمجرمين » فخرج مجرم من
بين المصلين يعدو مهرولا الى داره . فسأله امرأته وقد رآته
مضطرباً ما خطبه « فقال « هادوة الصلاة دوة وعرة . هلك
الأولين توخرت . هلك الآخرون توخرت نادى بالاسم يا مجرمين
عدت »

وكان في بدو تلك النواحي بقية من العادات البربرية القديمة فكانوا يقتلون البنات خشية ما قد يجلبنه عليهم من العار وهذه العادة المردولة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدم الى مصاف ناشري الدعوة للاسلام .

رأى مؤسس البطائفة السنوسية كل ذلك . فحاول في تعاليمه وارشاداته أن يعود بالاسلام الى قواعده في ذلك العهد الطاهر . وأسس السيد ابن علي أول زاوية في أرض أفريقية في واحة سيوة . وتقدم من تلك الناحية غربا الى برقة فأسس الزوايا في (جالو) و (اوجله) وتوغل غربا في طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو . وكان قد تقدمته الى تلك النواحي شهرته الدينية والعلمية فطلب وفادته شيوخ البدو وتنازعوا في سبيل أكرامه . . وعاد الى برقة سنة ١٢٥٨ هجرية فأسس زاوية كبيرة في الجبل الاخضر بالقرب من درنة ودعاها الزاوية البيضاء . ولم يكن له حتى هذا العهد مركز ثابت لانه كان كثير التجوال ينشر تعاليمه في كل مكان . فأقام في الزاوية البيضاء واستقبل الزوار من رؤساء قبائل برقة . وكانت أهم تعاليم شيخ السنوسيين الدعوة الى الدين الاسلامي الحق والتمسك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم وليس أدل على تعاليمه من ذكر فقرة من كتابه الى أهل (واجنجه)

في (واداي) وقد رأيت أصله في الكفرة وفيه يقول :

« أسألكم باسم الاسلام أن تطيعوا الله ورسوله فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ويقول « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ويقول « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »

« أسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدوا الصلوات الخمس وتصوموا رمضانا وتؤتوا الزكاة وتؤدوا فريضة الحج الى بيت الله الحرام وتجتنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس وشرب الخمر وتأذية شهادة الزور وغير ذلك مما أمرنا الله باجتنابه فاذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمته الأبدية ومنحكم الخير والرزق الدائم »

وكان أهم ما عني به مؤسس الطائفة السنوسية الدعوة الى الحياة الدينية الطاهرة فلم يعمل لأن يكون زعيما سياسيا أو صاحب قوة زمنية وكان في كل أعماله مثالا صالحا للتقوى التي دعا الناس الى التحلي بها . ولم تكن له تعاليم خاضعة في الفقه أو آراء شخصية

في تفسير قواعد الدين . وكان اكبر همه اتباع رجاله لقواعد الاسلام لا الاكثار من رسوم العقائد، والشئ الوحيد الذي أضافه الى العبادات الدينية دعاء وضعه وردده السنوسيون بعد ذلك وهو « حزب » على نحو الأحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن وانما هو تعبير موافق لما جاء في محكم التنزيل .

وقد جاء في كتابه الى أهل واجنجه الذي سبقت الاشارة اليه فقرة أخرى تبين الفكرة التي أقام عليها دعوته في سبيل رضا الله وخدمة الدين وهي :

« تنبيه الغافل . وتعليم الجاهل . وهدى من ضل سواء السبيل »

وقد نهى عن حياة الترف كل من انضم الى طائفته فمنع حيازة الذهب والجواهر الا في حلى النساء . وحرم تدخين التبغ وشرب القهوة . ولم يأمر بطقوس أو فروض جديدة وانما طلب الى الناس أن يتبعوا قواعد الدين في أبسط مظاهره كما أنزل الله على رسوله الكريم . وكان في بدء دعايته لا يجوز اتصال رجاله بالأجانب كي لا يفسدوا عليهم عقائدهم الى أن تتأصل تعاليمه في

تقوسهم بل كان لا يجوز اتصاّهم بأهل البلاد الاسلاميّة التي
يعتقد أنّها حادت عن جادة الدين الحنيف

وفي سنة ١٢٧٠ هجرية أسس السيد ابن علي في الجنبوب الزاوية
التي أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان للطائفة السنوسية . ولم
يكن اختياره الجنبوب اعتباطاً أو اتفاقاً وإنما نظر في اختياره هذا
بعين الحكمة والروية فقد قصد باختيارها أن تكون مركزاً
للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية السلام بينهم جميعاً .
وقد جاء في خطابه المتقدم الى أهل واجنجه وهم من السود
« يا أهل واجنجه انا نريد أن نشر السلام بينكم وبين الاعراب
الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم
وانا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به في كتابه العزيز حيث قال
سبحانه وتعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا
بينهما »

ويقول عز وجل : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا
الله ورسوله ان كنتم مؤمنين »

وكانت جنبوب مركزاً أحسن اختياره وضالّحاً لأغراضه
فهي وسط قبائل في الشرق والغرب كان النزاع بينها مستمراً

ومن ثمّ امكن السنوسى الكبير أن يسط نفوذه على المتنازعين وأن يصلح ذات بينهم كما أمر بذلك الرسول

وليست جغوب من الوجهة العملية ناحية تصلح أن تكون مركزا علميا أو دينيا كما فكر السنوسى الكبير لأنها ليست فى خصب الواحات ان صبح أن تسمى واحة فإن النخيل فيها قليل والماء غير عذب والتربة مستعصية على الزراعة . ولكن مركزها السياسى لا نزاع فى صلاحه ولذلك اتخذها مقرا له بدون تردد وقد انقطعت فعلا بعد إقامته هناك تلك الإغارات التى كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب وكان له الفضل فى إيقافها ولم يقتصر نفوذه على تلك النواحي بل تعداها الى قبائل برقة فقضى على ما كان بينها من عدااء قائم من قديم الزمان

وعاش السيد ابن على ست سنين بعد أن اتخذ جغوب مقامه . ومدّ نفوذه شرقا وغربا حتى دعتة الى الكفرة قبيلة (زوى) - التى اشتهر رجالها بقطاع طريق برقة وكانوا معروفين بين العرب بأنهم لا يخافون الله ولا يخشون الناس - وهى مركزهم المهم وسأله أن يؤسس زاوية له هناك وقد رضوا أن يقفوا الإغارات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى وعرضوا عليه ثلث أملاكهم فى الكفرة اذا رضى بأن يوفد اليهم أحد



بنت فی سیوه

إخوانه ينشئ بينهم زاوية ينشر فيها تعاليمه ويعلم أبناءهم . ولم يتمكن السيد من الذهاب بنفسه فأرسل أحد مشاهير الإخوان وهو سيدى عمر أبو حواء فأسس زاوية فى (جوف) بالكفرة وبدأ ينشر تعاليم السنوسى الكبير بين أهالى قبيلة (زوى) . وأرسل السنوسى إخوانا آخرين الى جهات أخرى من صحراء ليبيا ولم يمت حتى أصبح جميع البدوالمقيمين على حدود مصر الغربية وفى جميع نواحي برقة وطرابلس تلاميذه وأتباعه وقد مات سنة ١٢٧٦ هجرية فى الرابعة والسبعين من عمره ودفن فى القبر الذى تطله القبة الشهيرة بالجغبوب

وخلف السنوسى الكبير ولده سيدى محمد المهدى وكان فى السادسة عشرة من عمره عند موت أبيه . وقد قوى مركزه بين السنوسيين على الرغم من حداثة سنه حاملان مهمان أولهما أنه كان فى مجلس أبيه وأراد الانصراف فقام أبوه وأصلح وضع حذاء المهدى بنفسه وكان قد خلعه قبل أن يدخل على أبيه - وفى ذلك مافيه من المهابة والتواضع - ثم التفت بعد ذلك الى جلسائه وقال « اشهدوا أيها الحضور ان ابن على أصلح بنفسه وضع حذاء ولده المهدى » . وقد فهم الناس ساعتئذ أنه أراد بذلك أن يشعرهم بأن الولد لن يخلف أباه فقط بل يقوم بعده أيضا فى صلاحه وتقواه .

أما العامل الآخر فهو انه جاء في بعض الأُنباء القديمة أن المهدي المنتظر الذي يرفع لواء الاسلام في نهاية العالم يصل سن البلوغ في غرة محرم سنة ١٣٠٠ هجرية وأن يكون من أب اسمه محمد وأم اسمها فاطمة وقد جمع المهدي في نفسه كل الصفات التي قيل إنها وردت في أحد كتبهم ولذلك تم اختياره خلفا لكبير السنوسيين

وانتشرت زوايا السنوسيين حتى صارت عند بلوغ السيد المهدي ثمانيا وثلاثين زاوية في برقة وثمانى عشرة في طرابلس وتناثرت غيرها في بقاع أفريقية الشمالية ولم تخل مصر من نحو عشرين زاوية. وقد قدر المحصون أن عدد من انضم لطائفة السنوسيين وأقر بالزعامة الدينية للمهدي عند ما خلف أباه كان يتراوح بين مليون ونصف مليون وثلاثة ملايين

والمهدي أشهر أفراد أسرة السنوسى فقد رأى من أول الأمر ان نفوذ الطائفة يجد في جهات الكفرة والبلاد الجنوبية مجالا أوسع مما يجده في الشمال فنقل مركز إقامته سنة ١٣١٢ هجرية من الجغبوب الى الكفرة وقبل أن يترك مقره القديم أطلق جميع عبيده من الرق ولا يزال بعض هؤلاء العبيد وأولادهم مقيمين في الجغبوب

وكان انتقاله الى الكفرة فاتحة عصر جديد فى تاريخ السنوسيين فقد تقدمت التجارة فى عهده بين السودان وشاطئ البحر الابيض المتوسط عن طريق الكفرة حتى صارت الطريق الوعرة الخالية من الماء بين بئر (بو الطفل) بالقرب من (جالو) وبين بئر (الظيغن) فى شمال الكفرة طريقاً تختلف اليها القوافل التجارية ويرتادها المسافرون لزيارة الكفرة مركز طائفة السنوسيين . وبلغت الحركة فى تلك الطريق حدا قال لى بدوى عنه أنه كان فى وسع الانسان أن يسير نصف يوم من أول القافلة الى آخرها . وكانت الطريق من الكفرة الى (واداى) وعرة خطيرة فى تلك الايام فحفر المهدي بئر (بشرى) و (ساره) فى الطريق الموصلة من الكفرة الى (تكرو)

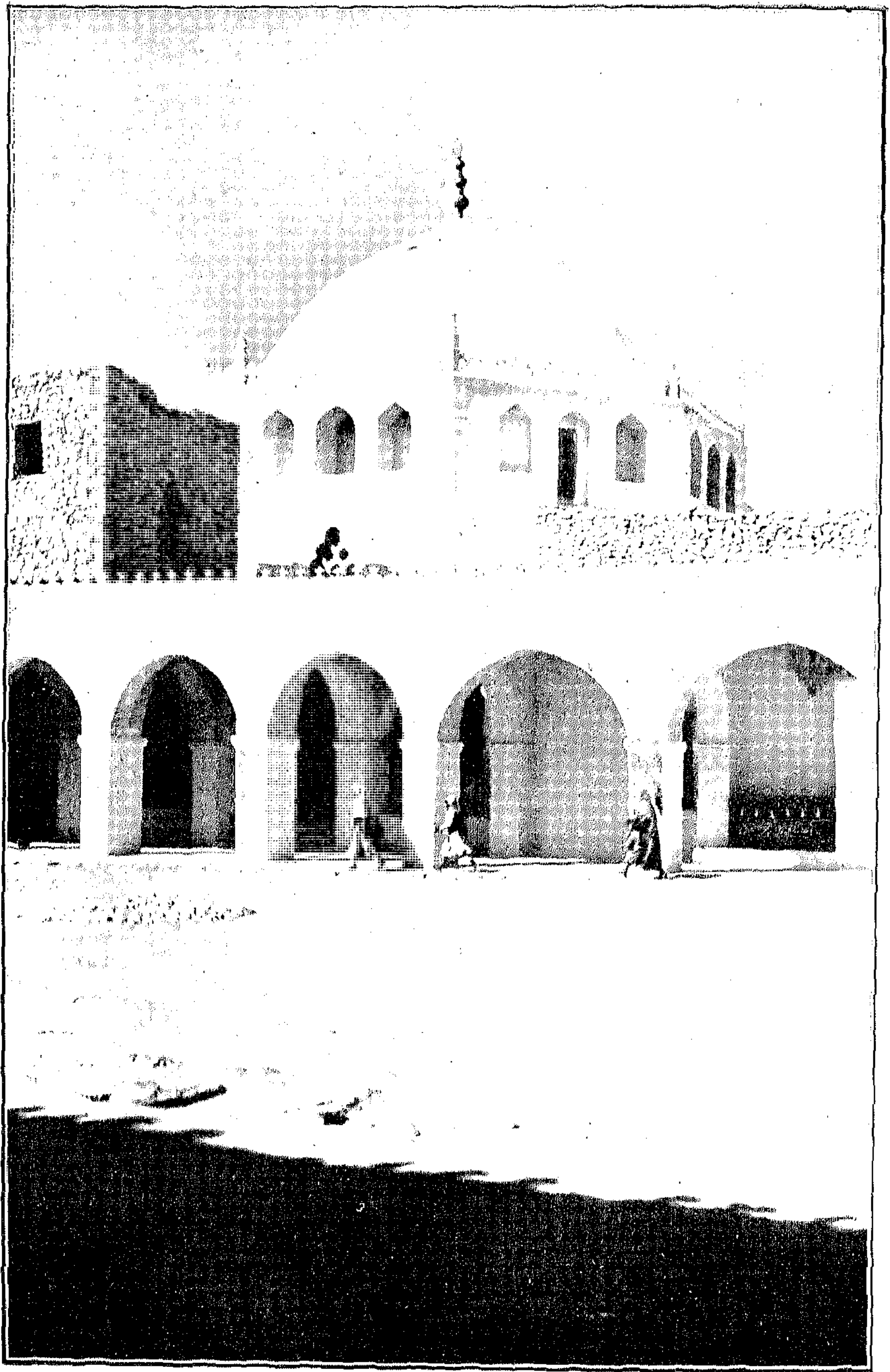
وكانت واحات الكفرة فى أيام قبيلة (زوى) البدوية التى انتزعتها من قبيلة (التبو) السود مركزا مهما للسطو والاغتيال فى صحراء ليبيا . وكان أفراد هذه القبيلة المتمردة ميالين للقتال لا يخضعون لقوة أو قانون ولا يرحمون من يهترق أراضيهم فلم تفلح قافلة تمر بالكفرة من النهب والسلب أو الاضطراب لدفع جزية . وجاء المهدي فجعلهم ينزلون عن طلب تلك الجزية لأنه أراد

أن يؤمن الطريق الممتدة في صحراء ليبيا من الشمال الى الجنوب
وأن ينمي تجارة تلك الأصقاع وعمل على ذلك حتى قال لي أبو
منطاري - وهو من شيوخ قبيلة « زوى » في الكفرة - أنه صار في
وسع المرأة أن تسير من برقة الى وادى بدون أن يتعرض
لها أحد

وبسط المهدي نفوذ السنوسيين في جهات كثيرة وأرسل
الإخوان يؤسسون الزوايا في البلاد الواقعة بين مراکش
وفارس ولكن أعظم أعماله كانت في الصحراء بين البدو والقبائل
السود القاطنة جنوب الكفرة فقد جعل من السنوسيين قوة
روحية في تلك الأصقاع وعاملاً قوياً على بث السلام والإخاء بين
القبائل بل جعل منهم فوق هذا هيئة تجارية كبرى بفضلهم نمت
التجارة وأزهرت وأراد أن يبسط نفوذ الطائفة بنفسه في أواخر
أيامه فأنحدر الى الجنوب حتى وصل (جرو) جنوب الكفرة
وهناك وافاه القدر المحتوم فجأة سنة ١٩٠٠ ميلادية

مات المهدي ولم يترك بين أولاده بالغاً خلفه في زعامة
السنوسيين ابن أخيه السيد أحمد وصياً على السيد إدريس أكبر
أبناء المهدي وخليفته الشرعي .

وخرج شيخ السنوسيين الجديد عن مناهج أسلافه فأراد



قبة الجامع بالجَنُوب

أن يجمع بين القوتين الزمنية والدينية فانه حين أخذ الايطاليون
برقة وطرابلس من الأتراك حاول السيد أحمد أن يضيف الى قوته
الروحانية ما تركه الأتراك من القوتين الزمنية والحرية . وقامت
الحرب العظمى فأراد أن يهاجم تخوم مصر الغربية تحت تأثير
البعثات التركية والألمانية وفشلت مساعيه حتى اضطر الى السفر
الى تركيا في غواصة ألمانية

وهكذا خالف ثالث الزعماء السنوسيين سياسة السنوسى
الكبير وابنه المهدي فانهما رأيا ان الزعيم الدينى لا يمكن
منازعة في زعامته أو القضاء على مكانته . أما إذا خرج يتطلب
السلطة الزمنية فان يضع هزائم حرية تكفى للقضاء على سلطانه
وتدمير شهرته

وقد كانت قوة السيد ابن على والسيد المهدي راجعة الى
صفتيهما الشخصية وما يشع من تأثيرهما الروحاني فخالفهما السيد
أحمد في ذلك باعتماده على الأسلحة والذخائر والظروف حتى اذا
خانتها كلها لم يبق في يده من الأمر شئ . غير أنه مشهور بصلاحه
وتقواه وله مكانة عظيمة عند البدو لشدة تمسكه بأمور الدين
الحنيف ولما بذله من المساعي في محاربة الطليان واجتهاده في تخليص
بلادهم من ربة الاحتلال

ولما خرجت الزعامة من يد السيد احمد عادت الى الوارث.
الشرعى السيد إدريس الذى يستمد بأخذه من صلب السيد
المهدى قوة عظيمة وتقوذا كبيرا وهو على تمتعه بهذه الميزة.
أهل لتكوين نفوذ السنوسيين وإنجاح أغراضهم تحت زعامته بما
يتحلى به من الصفات الشريفة من لين فى الاخلاق الى شدة فى
الحق ولذلك لا يقر له بالطاعة والولاء الاخوان السنوسيون
فقط بل أهالى صحراء ليبيا أيضا

وفى سنة ١٩١٧ حصل اتفاق بين السيد إدريس وبين
الحكومة الايطالية أقرت فيه ايطاليا للسيد بحقه فى إدارة شؤون
واحات (جالو) و (اوجله) و (جداليا) و (الكفرة) وقد
تجددت المصادقة على هذا الاتفاق بعد ذلك بسنتين فى (رجه)
وحدث لسوء الحظ سنة ١٩٢٣ إن وقع خلاف بين الطرفين
المتعاقدين فوقف سير الاتفاق . وانى لا أرجو أن يتجدد الاتفاق
بين السيد إدريس والحكومة الايطالية فيعود الى تلك الواحات
ما كان لها من أمن ورفاهية

ولا نزاع فى أن للنفوذ السنوسى فى حياة سكان تلك
النواحي أثرا طيبا فالأخوان السنوسيون لا ينشرون العلم
ويقيمون قواعد الدين ويدشون دعوته فقط بل يقضون ويوفقون.

أيضاً بين الرجال والقبائل . وليس أدل على روح التوفيق والرغبة
 في نشر لواء السلام من خطاب السنوسي الكبير الى أهل
 (واجنجه) الذي ألقى تلك المهمة على عاتق السنوسيين الإخوان
 ولم يخرج ولده المهدي عن هذا الميل في التوفيق ان لم يكن زاده
 وقواه .

ومهما كان ما قلناه فانتا لم نقال فيما ذكرناه عن أهمية مظاهر
 الحكم السنوسي في حفظ الأمن وضيانة السلام والسعي لما
 فيه خير أهل صحراء ليبيا

الفصل السَّادِسُ

بغيبوب الراية

في عصر اليوم التالي لمقابلة السيد إدريس رأينا قبة مسجد الجغبوب البيضاء تنيف على المدينة فاتبعنا عوائد البدو وحططنا رحالنا على مسافة من المدينة وأرسلنا رسولا يحمل خبر وصولنا فعاد بعد ساعتين يخبرنا باستعداد القوم للقائنا . وتقدمت القافلة الى المدينة حتى اذا صارت على مقربة من أسوارها أرسلنا طلقات النار في الهواء وقابلنا بباب المدينة سيدى حسين الوكيل وهو ممثل السيد إدريس في تلك المدينة ويرافقه جمع من الإخوان المدرسين في جامع الجغبوب . واصطف الطلبة على جانبي الطريق ورحبوا بنا مهللين ونحن نخترق صفوفهم فكان لهذا الترحيب صدى سرور يتردد في قلوبنا

دخلت الجغبوب وكأني عائد الى وطنى فقد كانت في رحلتى الأولى منذ سنتين قريبة من غايتى غير أنها الآن النقطة التى تبدأ منها رحلتى الثانية أو في الواقع نقطة من عدة نقط لكنها على أى حال بداية الرحلة الطويلة النائية التى تنتظرنا

وأحسست عند دخولها برد فعل يعترى كل من انتهى
من سفر طويل وكان شعوري خليطاً من التشوّف والتأثر لأن
الانتهاء من رحلة واستئناف السفر الى أخرى ظرفان متباينان
يهيج كل منهما في النفس عواطف متباينة

وقد كنت قلقاً أود الإسراع في الرحيل ولكن عدم وجود
الجمال اضطرني الى الإقامة في الجنبوب نحو خمسة أسابيع . وكنت
قد أرسلت قبل قيامي من السلوم رجلاً اسمه السيد علي السعيطي
وكلفته أن يسبقني الى الجنبوب بالطريق المستقيمة ليؤجر جمالاً
ويعدّها حتى ألحق به عن طريق سيوه ولكني لم أجده وسمعت
أنه انحدر الى الغرب الى جداليا غير موفق لأن الأعراب الذين
لقيهم بعد سفره من السلوم لم يرضوا أن ينزلوا له عن دوابهم التي
كنت في حاجة اليها . ولم يوفق عليّ الى إيجاد الجمال في جدالية
كذلك . ولم تصلني أخباره لمدة أسبوعين . وبعد ذلك عرفت السبب
في عدم توفقه وهو أن الطريق من الجنبوب الى جالو وقف علي
رجال قبيلتي زويّ والمجبرة لا يجرؤ على اجتيازها غيرهم من رجال
القبائل الاخرى الا باذن منهم

وأنساني جمال الجنبوب وهدوؤها شوقي الى استئناف السفر
فانها بلد عامر بالعلم والدين وان لم تكن مركزاً للتجارة أو الزراعة

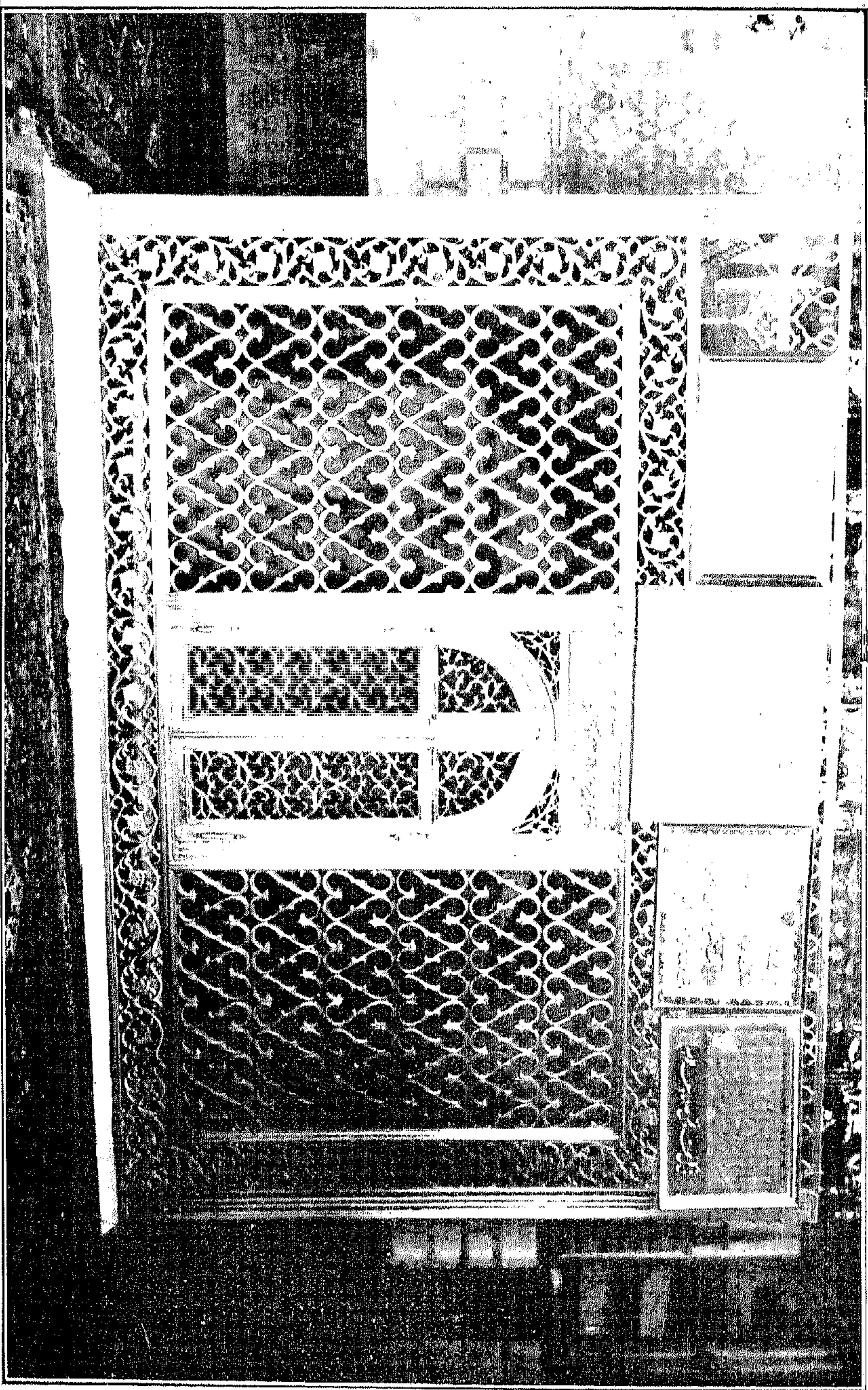
إذ الصالح للزراعة فيها بقاع متناثرة من الأرض تخرج القليل من
الخضر. والبلح ويستغلها الغبيد الذين أطلقهم السيد المهدي عند
انتقاله إلى الكفرة.

ومركز حياة الجغبوب مسجدها الكبير الذي يسع زهاء
الستائة نسمة. ومدرستها وهي مركز التعليم الديني لطائفة السنوسيين
ويحيط بالمسجد بعض منازل يسكنها أفراد الأسرة السنوسية
والإخوان. ويتناثر داخل أسوار المدينة وخارجها قليل من المنازل
الخاصة ويسكن زهاء الثلاثمائة طالب في منازل صغيرة بالقرب
من المسجد.

وقد وصلت الجغبوب إلى أوج شهرتها في عهد السيد بن علي
السنوسي الكبير حين اتخذها قصبة لطائفته. ووليّه ابنه المهدي
فظلت حافظة شهرتها مدة اثنتي عشرة سنة حتى انتقل إلى الكفرة
فأصبحت هذه مركز أعمال السنوسيين.

ورجعت الجغبوب إلى عهد الزاهر أيام السيد أحمد
الشريف الذي كان وصياً على السيد إدريس قبل بلوغه. وكانت
أهميتها تزيد وتقل تبعاً لترك السنوسيين لها أو رجوعهم إليها فإن
فرض أن جعلها السيد إدريس عاصمة السنوسيين أصبحت مدارسها
ومنازلها في بحر شهرين غامرة بأعضاء الطائفة والطلاب يقصدها
الأتقياء من كل ضروب لزيارة ضريح السنوسي الكبير ولكن

قبر السيد ابن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية في الجغبوب



عند زيارتي لها لم أجد بها الا ثمانين طالبا بدويا تتراوح سنهم بين الثامنة والخامسة عشرة يأخذون العلم عن الاخوان . وانما قل عدد الطلاب لقلة عدد المدرسين فان السيد ادريس الذي تفضل بمقابلتنا في طريقه الى مصر كان يقيم في ذلك الوقت ببلدة جديا الواقعة على مسافة بعيدة من غرب الجغبوب

ومسجد « الجغبوب » به غرفة داخلية تحوى مقصورة من النحاس فيها ضريح ذلك الرجل الكبير الذى طلب لقومه مظهر الاسلام الطاهر المتين فى بساطته والذى لا تشوبه شائبة من الحياة المادية. ويزور هذا الضريح كل من قدر على السفر ممن اتصل بالطائفة وأراد أن يجدد الميثاق على اتباعه تعاليم السيد السنوسى الكبير . وانما يقصد الطلاب الجغبوب لاصرين فاما أن يتهاؤا ليصبحوا اخوانا للطائفة أو ليعودوا الى ديارهم فى الواحات المختلفة وقد تزودوا من العلم ما يجعلهم يهيمنون هيمنة دينية على رجال قبائلهم .

ولم يكن يشغلى شاغل فى هذه المدينة الهادئة الا اهتمامى باستحضار الابل التى توصلنى الى جالو الواقعة على مسافة ٣٥٠ كيلو متر تقريبا الى الغرب . وفيما عدا هذا قضيت أيامى فى الجغبوب فى التبصر والتأمل واعداد ما يلزم للرحلة .

وللصحراء في العقل والروح تأثير يغاير تأثير حياة المدن
 الصاخبة فاني أيام جست خلال هذه المدينة الصغيرة أو خرجت
 الى الواحة التي تحيط بها أو وقفت تحت ظلال المسجد الندية أو
 جلست في برجه أساجل علماء البدو مختلف الحديث وأرى الليل
 يمد رواقه على القبة البيضاء وما تشرف عليه من تلك الأبنية
 المتلاصقة خلصت من توافه المشاغل التي تبعثها حياة المدن
 المزدهمة بسكانها المتناحرين على الحياة

ومرت بي الايام تباعا فقضيتها بين تنزه في الصباح وأداء
 صلاة الظهر في المسجد ثم تناول الطعام في هدوء حتى اذا
 انتهيت منه قضيت وقتا في تعهد معداتي العامة وآلات التصوير
 ثم ضليت العصر واسترحت قليلا . وتناولت العشاء وجلست الى
 رجلي أوزع عليهم اكواب الشاي على طريقة البدو . وبعد أن
 أصلي العشاءين أخلص الى النجوم فاناجيها وأطلق خيالي في سماء الليل
 الساكن ثم أنقلب الى فراشي فأهنا بنوم لا يذوقه ساكن المدن
 وقد راقني من بين الاخوان الذين رأيتهم في الجيوب رجلا
 استرعى لي لعدم اختلاطه بي أو محادثته اياي وقد حاولت أن أعلم
 سر ذلك من بقية الاخوان فلم أفلح حتى علمت أخيرا قصة هذا
 الرجل بطريق الصدفة

الثقافة في زوابع بين الجعبي و جالو

كان سيدى..... شيخاً ذا وجه صبيح يظهر فيه الكبر وتلوح
 دلائل احتقار الحياة في شفته المتقلصة وان لم تنصفه الدنيا في أيامه
 الأخيرة . وكنت في زيارتي الأولى للجغبوب قد أقمت في داره
 الخالية وحاولت أن أطيل معه الحديث فلم تتح لى الفرصة المناسبة
 ولما هبطت الجغبوب هذه المرة جاءنى يرحب بى ليلة وصولى
 فأحسست فى ضمير ذلك الشيخ مأساة يخفيها عن الناس . وهو
 رجل من قبيلة البراعصة من خيار رجال البدو أهل الشم
 ولكنه كان ينمى على الأقدار ولا يستسلم لحكم الدهر . وكثيرا
 ما أدهشنى ذلك منه فأتى أعرف فى نفوس العرب الرضا بصروف
 القضاء . وكان كل من يحيطون بى فى الجغبوب يمثلون الانسانية
 الخيرة الرضية الا سيدى..... فكان وحده دون بقية
 الاخوان صورة محزنة للكبرياء المحطمة

وحدث لى ذات مساء عند عودتى من المسجد ان لقيت
 مبروكا وهو من عبيد سيدى المهدي الأقدمين فخيته ورد التحية
 بأجل منها ثم جلست أجاذبه أطراف الحديث فبدأنا بذكر قطعة
 الأرض الصغيرة التى يتعهد زرعها فقال : « ليس لدينا من الغذاء
 شىء كثير ولكن بركة سيدى المهدي تجعل من قليلنا كثرة » .
 وفى هذه اللحظة اجتاز صحن المسجد وقد بدأ الغسق يرخى

غلالته رجل منسرح القامة في ثوب أبيض يمرق كأنه شبح من
 الأشباح . وكان ذلك الشيخ البراعضي فأشرت إليه بأصبعي
 وقلت لجليسى « لست اكتمك ان صحة هذا الرجل لم ترقنى حين
 زارنى اليوم . انى لأعجب ما خطبه » . فأجابني مبروك قائلاً :
 « ان هذا الشيخ لا يشكو داء وانما يتألم لخيانة أخيه التعس الذى
 جلب على نفسه غضب أسيادنا السنوسيين » واستطرد بعد ذلك
 فى قصته فانكشف لى سر ذلك الشيخ الحزين

كان أخوه سيدى..... وكيلا أميناً للسيد المهدي فى الجغبوب
 صاحب أمر ونهى . حدث له أيام طفولته ان سقط عليه حائط
 فجطم رأسه . وكان السنوسى الكبير على مقربة منه فأسرع اليه
 وعصب رأسه قائلاً ستكون هذه الرأس فى مقبل أيامها منبعاً
 للعلم والعرفان . وقد صدقت نبوءته فقد أرسله أبوه الى الجغبوب
 أيام اقامة السنوسى الكبير بها وتركه يطلب العلم فى مسجدها العام
 وأصبح بعد ذلك كبير الاخوان وشيخ المدرسين فى الجغبوب
 وشاعرا نابغا يخطو الى المجد

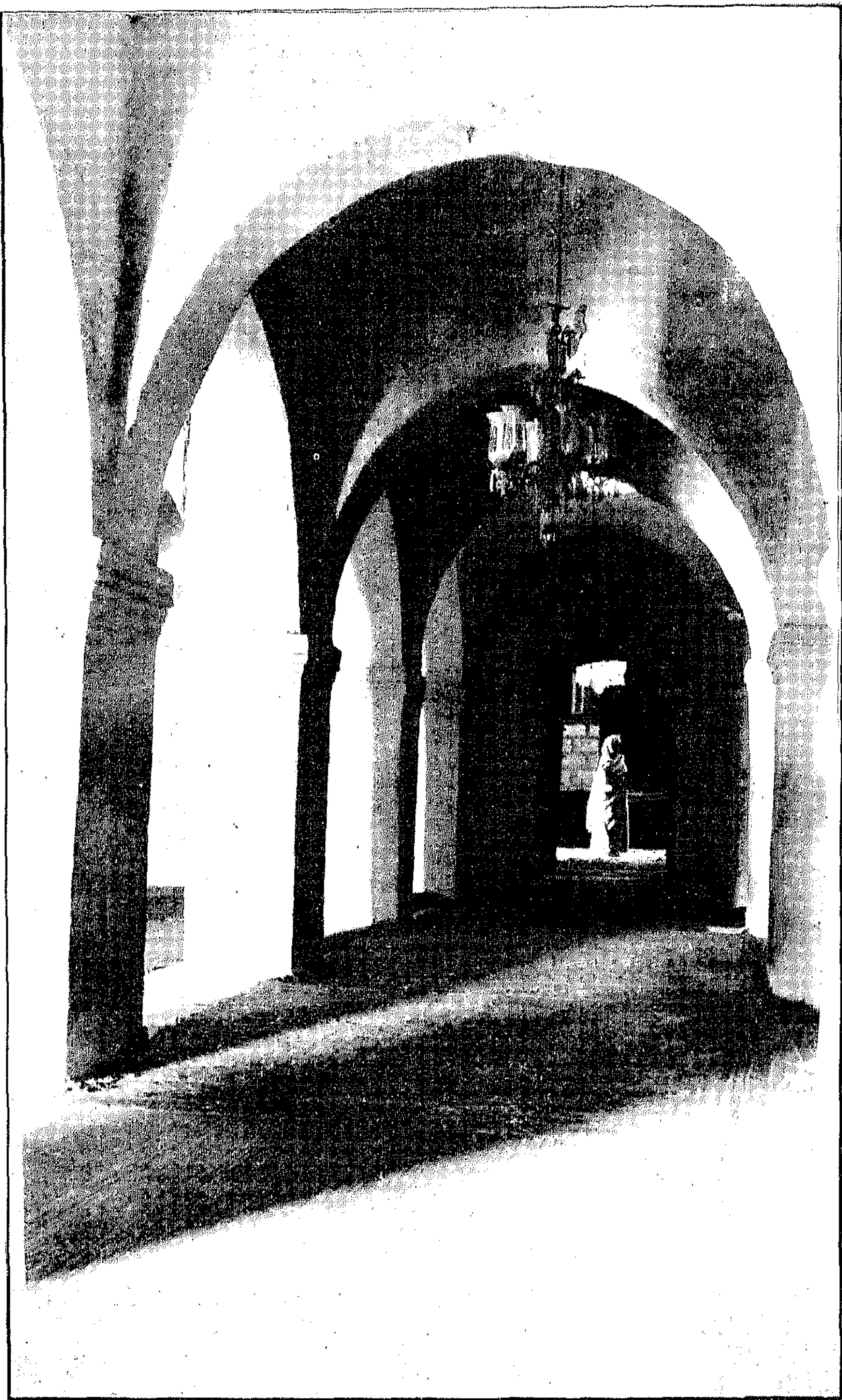
ومات السنوسى الكبير فاتخذ سيدى المهدي وكيله الوحيد
 فى الجغبوب حين نزع الى الكفرة وأثمنه على أملاكه ووكل
 اليه ادارة كل شىء فى تلك المدينة ولكن الله أراد أن يضربه

مثلاً لمن يخون السيد ولا يكون عند حسن ظنه به فقد أغوته الحياة الدنيا فمال إليها وبدد أكثر أملاك المهدي وباع الكثيرين من عبيده وابتز كل ما وصلت إليه يده من المال

وكتب الله عليه العقاب ففضح سر خيائته وكان آخر مظهر من مظاهرها — والخبر مفتقر إلى الأدلة — أنه كتب إلى كبير من الكبراء في مصر — قيل إنه أجنبي — يخبره أن السيد المهدي بعيد في الكفرة وأن الجغبوب لا تمنع في إلقاء مقاليد أمورها لمن يستولى عليها . وكان سيدي محمد العابد السنوسي يقيم في الجغبوب في ذلك الوقت فسمع بكتابة ذلك الخطاب وعرف أنه مرسل إلى مصر عند هجوم الليل فأرسل في الحال اثنين من الإخوان يكمزون للرسول في الطريق ويأخذون الرسالة منه . وجيء بالرسول بعد يومين فاطلع سيدي العابد على الكتاب ولم يقل شيئاً ولكنه هياً قافلة للرحيل إلى الكفرة وسأل الوكيل أن يصحبه فاول الاعتذار بكبر سنه وضعف صحته . ولكن العابد أصر على مرافقته له فاضطر إلى القبول وقطعوا الصحراء صامتين حتى وصلوا الكفرة فأظهر العابد ذلك الكتاب إلى السيد المهدي

وفي يوم الجمعة التالي لوصولهم دعا السيد المهدي جميع الإخوان للاجتماع بعد صلاة الجمعة في مسجد التاج ثم وقف بينهم

مافتتا الى الوكيل وقال «يا سيدى انك لتعلم علم اليقين ما فعلت» فوجم الحضور وعلوا أن فى الأمر شيئاً فاشترأبت أعناقهم الى سماع الحديث واستطرد المهدي فى حديثه فقال : «ولكننا لن نجزيك على ذلك.. سندعك تعيش ونجرب عليك رزقك المألوف والله يتولى عقاب من يخفر ذمتنا . غير اننا نطلب اليك أن تقرأ على الجمع الخافل من الاخوان هذا الكتاب الذى خطته يدك» . فلم يسمع الرجل الا الاذعان لأمر المهدي فقرأه والاخوان تلوح فى وجوههم الدهشة من خيائته وهو موضع ثقة المهدي . وانتهى الرجل من قراءة الكتاب فقال المهدي «سنغفيك بعد الآن من مشقة النظر فى أمورنا» . ثم صرفه المهدي فانقلب المسكين الى داره مريضاً ومات بعد ذلك بأيام قليلة وتبعه ولداه بعد بضعة أشهر وتزوجت بنتاه من رجلين من الأسرة السنوسية . وقد استولت الأسرة السنوسية على جميع أملاكه وكتبه وكانت مكتبته من أعمر مكتبات الطائفة ولم يبق من أسرته الا أخوه هذا الشيخ البالى الذى ورث عنه بيته الخالى فى الجغبوب وغارة الملقق به : ويموت هذا الأخ تنقض أسرة هذا الشقى الذى وثق به السيد السنوسى فلم يكن عند حسن ظنه به .



داخل الجامع بالجغبوب

الفصل السابع

الولايم والأدوية

لقد أظهر الزعماء السنوسيون من دلائل كرمهم شيئا كثيرا
 وجروا على سنة البدو في اظهار ذلك تبعاً لمكانة رب البيت
 والضيف ووفقاً للظروف ومناسباتها فان المسافر اذا حل بواحة
 أو بلدة في الصحراء كان معه رجال قافلته وما يحتاج اليه من
 ضرورات العيش . ولا ينزل ذلك المسافر في فندق أو في دار
 صديق وانما يتخذ له مقاماً منفرداً فينصب خيامه ويقيم فيها
 أو يسكن في دار توضع تحت تصرفه كما حدث لي في الجنبوب
 وجالو والكفرة . فاذا حل ضيف المدينة أظهر كبراًؤها كرم
 الضيافة نحوه فدعوه الى تناول الغداء او العشاء في منازلهم
 أو ارسلا اليه الطعام بخيامه أو داره . وسأفيض في وصف كرم البدو
 اذا دعوا احدا الى منازلهم عند التكلم عن اقامتي في جالو فقد
 دعاني في هذه المدينة زهاء الخمسة عشر وجيها من وجوهها اما
 في الجنبوب فقد ابدوا لي ذلك الكرم بارسال ألوان الطعام الى

دارى وقد تمتد ضيافة البدوى لضيافته ثلاثة أيام أو سبعا تبعا لمنزلة الرجلين

وقد حدث بعد وصولي الجنبوب ببضعة أيام ان تفضل فتيان في الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما وهما سيدى ابراهيم وسيدى محي الدين وهما اصغر ابناء السيد احمد المقيم الآن بالحجاز والذي كان الوصى على السيد إدريس — فأظهرا نحوى من دلائل الكرم ما ترك لهما في خاطرى اجمل الذكرى فقد وصل الى دارى بدوى ومعه عبدان ينوءان تحت عبء الأُطعمة ونثرا أمامى صحاف الطعام المتنوع فوجدتنى مضطرا الى تذوق ما لا يقل عن عشرين صنفاً وجلس ممثل ضائفى بأدب واحتشام لا يمد يده الى شيء بينما أصبت قليلا من كل صحفة وظل يشرف على تقديم ما يجعلنى راضيا ويسامرنى أثناء تناولى الطعام . وهذا البدوى من قبيلة البراعصة التى اشتهر رجالها بانهم الطبقة الراقية لاهل الصحراء وامتازوا بطول القامة وجمال الخلقة وعزة النفس والشجاعة فان البراعصى لا يحجم عن مقابلة الاهانة بالسيف . ولو انفرد بين رجال قبيلة بأسرها

جلست أتناول الطعام ترعاني عين هذا البدوى ويخدمنى العبدان ولست أدري لكثرة ما قدم ان كان فى امكانى ان

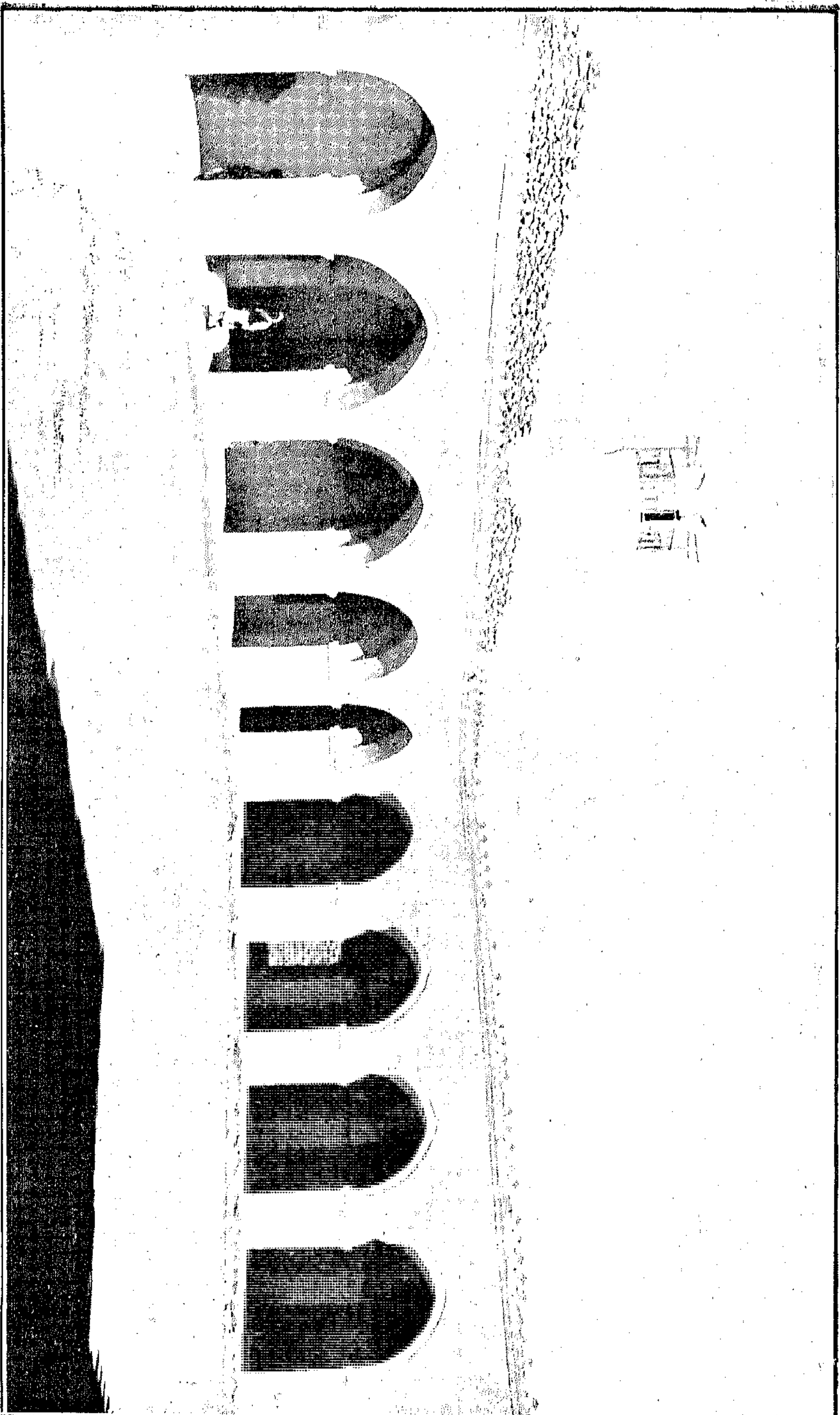
أذكر الألوان الشهية التي ملأت الخوان ولكنى أذكر ان ذلك
لم يخل من جميع أصناف اللحم والخضر والقطائر
واللحم من أهم أنواع طعام البدوى وأخصه لحم الخراف
وهو قوام حياة البدوى اذا لم يكن مسافرا ولا تكمل ضيافة
البدوى لنزله الا بتقديم اللحوم التي أحضرت خصيصاً له فاذا
أراد البدوى أن يدعو أحدا لتناول الطعام نحر له شاة والعادة ان
لا يجهز شيئا او يذبح ذبيحا حتى يحضر الضيف فيرى بنفسه
ان كل شىء قد أعد له وحده وربما طلب رب الدار من ضيفه
سكينا يذبح بها الشاة حتى يؤكد له أنه يقوم نحوه بكل
انواع الاكرام

وانما يبين كرم البدوى في كثرة الوان الأطعمة التي
يقدمها لضيفه فان الطعام في الصحراء أهم مظاهر الكرم وهو في
تلك الأصقاع الساذجة كل ما يتحدث به الناس ولم تخل اقامتى
في الجفوب من حادثتين أباتتا لى أن الشرق والغرب على كثرة
ما بينهما فى الاختلاف متفقان اتفاقا ظريفا فى بعض الميول .
وأولى هاتين الحادثتين فكهة والثانية لا تخلو من عاطفة
تشوبها فكهة

كنت قد أمرت رجالي أن لا يردوا أحدا يقصدني في طلب دواء فجاءني أحد الإخوان السنوسيين يطلب دواء لسعاله فأعطيته زجاجة من الشراب الخاص بـمداواة السعال وجاءني بعد يومين قائلاً ان الجرعات الأولى التي تناولها أفادته فائدة عظيمة دفعته الى افراغ ما في الزجاجة وسألني أن أعطيه زجاجة أخرى ثم انصرف وكان عبد الله خاضراً فالتفت الى وقال هازناً « لا أعجب إذا طلب سيدي الإخواني زجاجة أخرى فان الشراب شهى لذيذ وانه ليشر به متلذذا بطعمه لا متداوياً ». وأظن أن عبد الله كان مصيباً في تعبيره فطالما لاحظت أثناء اقامتي بالجملة ان الأطفال يؤكدون لا بأنهم فتك السعال بهم وان برثوا منه وانما يدفعهم الى ذلك حلاوة الدواء وطيب مذاقه

وقد اعتاد رجالي أن يفخروا أمام البدو بأنني أحمل في خواني الدواء لسكل علة فجاءني فتى تحت تأثير تابعي أحمد يسألني شيئاً يداوى به جارية من السهو والنسيان فكان جوابي على ذلك اني رأيت بعد تجاربي العديدة في كثير من الممالك ان منع الخدم من النسيان لا يقل صعوبة عن منع الماء من الغوص في الرمال

أما الحادثة الثانية فكان بطلاها رجلين يختلفان كل الاختلاف: جاءني عبد أحد الإخوان يستشيرني في شيء كلفه سيده بعرضه



صحن الجامع بالخفوي

علىّ لانه لا يحمل به أن يسره الى شخصيا فان آداب البدو تقضى أن لا يذكر انسان زوجه أمام غيره بل أن لا يذكر سيدة لا يعرفها المتحدثان . أما العبد فيمكنه أن يقول ما تأبى كرامة السيد التصريح به

جاءني ذلك الخادم فقال : « ان زوج سيدى عاقر وان ذلك يؤلم بعلمها كثيرا وان سيده واثق ان ازالة ذلك العقم لا بد في استعمال الأدوية التى أحملها من عجائب علم الغرب » : وما كاد يتم حديثه حتى عادت بي الذكرى الى أيامى الأخيرة فى اكسفورد فذكرت خادما فى الجامعة كان لطيف العشرة ولكنه شديد الحياء .

جاءني ذلك الخادم ذات يوم وكنت أهى أسباب عودتى الى مصر وبعد ان استجمع كل جرأته للجهر بما يضر سألنى هذا السؤال « اذا سمحت يا سيدى أن أسأل فضلك أفضيت اليك بحاجة لى . أن زوجى عاقر والطبيب عاجز عن مداواتها وليس لديه ما يقترحه فاذا عدت ياسيدى الى بلدك الذى سمعت أنه يحوى طلاسم عجيبة تؤثر فى كل شىء فتنازل بالبحث لى عن طلسم للحبل وأرسله عسى أن يرزقنا الله ولدا . ولست اكتمك يا سيدى انى لا أعتقد بالسحر ولكن الحيل ضاقت بى فى سبيل هذا الأمر »

ولم يسعني وقد رأيت انشغال باله وكشفه لى عن بنات صدره الا
 أن أجييه بجد وعطف انى سأفعل ما أنا قادر عليه ولم تدعنى الحاجة
 بعد ذلك الى البحث عن طلبته لانه مات قبل أن أعود الى اكسفورد
 تاركا وراءه ذكرى طيبة بين جميع طلبة كلية (بليول)

ذكرت كل هذا وعبد ذلك الاخوانى منتظر ولكنى لم
 يسعنى أن أبطىء فى اعطائه ما طلب الى سيده . وأتيحت لى فكرة
 للخروج من هذا المأزق فأعطيت الخادم نصف زجاجة من أقراص
 اللبن المركز وأمرته أن يجعل السيده تتناول ثلاث حبات منها حتى
 تنفرج الازمة وانصرف الخادم ففكرت فى المقابلة الغربية بين
 هاتين الحادثتين فهناك فى اكسفورد أهاب علم الغرب بقوة الشرق
 الروحية وقد أعوزت تجاريه السبل فى إيجاد دواء للحمل وهنا فى
 الجنبوب طلب الشرق مساعدة العلم الغربى بعد أن ضاقت به الحيل
 فى العلوم الروحانية وهكذا يظل الشرق والغرب معتقدين فى قوة
 المجهول العجيبة .

وطالت على الإقامة فى الجنبوب ولمكن عيشتى الهادئة
 وتمتعى بلطف البدو وبشاشتهم لم ينسيانى التفكير فى أمر الإبل
 فبعثت الرسل الى جميع النواحي المجاورة فى طلبها وزدت مبلغ
 الأجر لأصحابها ولكنى لم أظفر بعائل وسألت السيد حسينة

مساعدته ولكنه أقر لي بعهذه عن عمل أى خدمة لي وأرسلت رسولا الى سيده يحمل اشارة برقية الى السيد ادريس في مصر أعلمه فيه بحيرتى وأسأله المساعدة فجاءني الزد منه بأسرع مما كنت انتظر طالبا الى السيد حسين أن يقدم لي ما في طوقه من المساعدة ولكن السبل كانت مسدودة وأخيرا وقد سدت منافذ الأمل وصلت قافلة من قبيلة (زوى) كانت قد تركت جالوا الى سيوة في طلب البلح فأردت تأجير إبل القافلة ولكن أصحابها لم يرغبوا في العودة بدون البلح الذي قصدوا استجلابه غير أنى وجدت في آخر الأمر طريقة لحملهم على النزول عن جمالهم فأعلمتهم بواسطة سيدى حسين ان الأوامر صدرت من الحكومة المصرية بمنع رجال قبيلة زوى من الدخول في الأراضى المصرية حتى ينحسم النزاع بينهم وبين أولاد على المقيمين في مصر ذلك النزاع الذى نشأ عن ثأر متحكم بين رجال القبيلتين منذ بضع سنين

ورأى رجال القافلة ان التقدم الى مصر غير ميسور خوف العقاب فلم يبق أمامهم وقد حُجزوا في الجنبوب الا العودة من حيث أتوا فكان ذلك ما قصدت وساعدنى على رضائهم بتأجير إبلهم إخبارهم بأوامر الحكومة المصرية وكتاب السيد ادريس واستمالة السيد حسين لهم ووعدى باعطاء أجر باهظ جرونى اليه

لاحتياجى الى جهالم وانتهت تلك الايام السعيدة التى قضيتها تحت
ظلال القبة البيضاء

وانقضت كذلك أيام الهدوء والتفكير والتأمل فى ظل القبة
البيضاء وأيام القلق للرغبة فى السفر والبحث عن ممهّداته فأدرت
وجهى الى الغرب قاصدا جالو فى ٢٢ فبراير بعد أن أقمت فى الجغبوب
٣٤ يوما كاملة



البيد حسين وكيل الامير السيد إدريس السنوسي بالجغبوب

الفصل الثامن

زوابع الرمال في طريق "ببالو"

تركت الجنبوب في يوم من خير الايام التي جرت عادة البدو
إن يتفألوا بها .

كان ذلك يوما عاصفا تسنى فيه الريح الرمال والعرب يقولون
إن القافلة التي تبدأ رحلة في عاصفة يكون نصيبها التوفيق وتصيب
حظا طيبا

وأكبر ظنى أن العرب ابتدعوا هذه الفكرة قديما للرضا بما
هم واقعون فيه كل يوم . والنزول على ما تضطرم اليه طبيعة الصحراء
والآ فان البدوى في هذا يكون كالمصرى أو السودانى اذا قال إن
السفر محبوب في يوم مشمس أو الإيقوسى اذا تمنى اليوم المطر
لسفره . إذ زوابع الرمال في الصحراء أمر عادى قد يلقاه مجتازها
في أى مكان وآونة. على أنها تجربة شاقة ومحنة قاسية يعانى الانسان
هولا شديدا في احتمالها

يصبح السماء صافية والجو خال مما يندر بعاصفة أو يشعر

بريح . وتبسم الصحراء لنا ونحن نهم بالرحيل فتتحرك القافلة فرحة
مبتهجة وتسير فرحة طروبة . وما هو الا قليل زمن حتى يهب
نسيم بليل لا يعرف مأتاه ينضى همسا فوق الرمال ثم يشتد دون أن
نشعر بذلك والى هذا الحد لانلقى من هبوبة ما يضايقنا

ثم ينظر الانسان الى وجه الصحراء فاذا سطح الارض قد
تغير تغيرا غريبا واذا ذرات الرمال ترتفع قليلا وتنبجس . وتدور
كانها بخار يتصاعد من ثقوب لاعد لها في أنابيب مدت تحت ذلك
السطح . وتزيد ثورة الرمال شيئا فشيئا كلما ازدادت الرياح قوة
حتى يحيل للانسان أن سطح الصحراء كله يرتفع اطاعة لقوة دافعة
رافعة تحته

ويتطاير الحصى ويتناثر فيصيب قصب الأرجل والركب
والانخاذ ويتصاعد رشاش حبات الرمال الراقصة على الأجسام
حتى يلطم الوجه ويدوم فوق الرؤوس
ثم تغيم السماء فلا يرى البصر الا أشباح الجمال القريبة منه
وتثور الطبيعة فكان في الجو قوى خفية تصب العذاب لطما
وقدفا ولدغا

وخير لمن تدهمه الزوبعة أن تهب الرياح من ورائه لان لطم
الرمال وجهه عذاب أليم . وفوق هذا فليس في وسعه أن يبقى

مفتوح العينين ولا هو يجسر أن يغمضهما فلئن كان لدغ حبات
الرمال شرا وبلاء ففقد الطريق شرًّا أعظم وبلاء كبير

ولحسن الحظ أن الريح تهب في عصفات متلاصقة تتراوح
بين الثلاث والأربع وتعقب كل طائفة منها ثوان قليلة تسكن
فيها الريح فتريح النفوس . ذلك أن الإنسان عند عصفها يدير وجهه
ويبقى الرمال بطرف (كوفيته) ويكاد يمسك عن التنفس حتى
تجىء فترة السكون فيكشف عن وجهه ويلقى نظرة سريعة يتبين
الطريق ويعجل بالتأهب للهبة الثانية . وكأن هنالك شيطانا هائلا
عاتيا ينفخ تلك العصفات والهبات الداوية في الرمال فيشففها
فوق رؤوس المسافرين ويدوى في الفضاء صوت يصم الآذان
وكان هذا الصوت من يد ذلك الشيطان تضرب بأصابع قوية
خشنة ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير

متى بدأت زوبعة الرمال لم يكن المسافر إلا أن يندفع في
سيره غير وان فان الرمال اذا أصابت شيئا ثابتا سواء أ كان ذلك
الشيء عامودا أم جملا أم رجلا تكدست حوله حتى تصبح ركابا
وهكذا اذا كان في السير عذاب وأهوال ففي الوقوف الموت
الزؤام

وقد تظل زوبعة الرمال على أشدها خمس أو ست ساعات
وليس في ميسور القافلة أن تتابع التقدم حينئذ إلا مع الحرص
الشديد على تبيين الطريق حتى لا تخطئه

وإذا تمردت العاصفة واشتدت فإن الإبل تكاد لا تتقدم
ولكن غريزتها تجعلها تتوقع الموت إذا وقفت عن السير . ويتجلى
ذكاؤها الغريزي فيها عندما يبدأ نزول المطر اذ لا تحس خطراً
فتقف بغتة أو ترقد

وتدفع العاصفة ذرات الرمل فتخترق كل شيء يحمله الإنسان .
تملاً ثيابه وطعامه . تملأ حوائجه وآلاته العلية . تبحث عن موضع
الضعف فيما يذروها فتنفذ إليه منه حتى يحس بها ويتنفسها ويأكلها
ويشربها . وربما نفذت ذرات الرمل الدقيقة في مسام جلده فأذته
كثيراً

ويعرف البدوي خصائص هذه العواصف فيحيط بها علماً
كل غريب عن الصحراء . يقول البدوي إن الريح التي تنذر بالعاصفة
تهب مع النهار أو تقر مع غروب الشمس . ولا تقوم العاصفة في
ليلة مقمرة ولا تثور بين العصر والمساء . ولكن كل هذه القواعد
الطبية اختلت في رحلتنا إلى « جالو » فقد ثارت العواصف والقمر
مشرق . وثارت والليل بهيم . وأصابتنا زوابع بدأت قبل الفجر

وأخرى ظلت الى ما بعد الغروب بزمن طويل ودهتنا عواصف
جمعت بين العصر والمغرب حتى ما أحسنا لضوء النهار بين
هذين فارقا

واختلفت أنواع العواصف التي أصابتنا . فكان منها الضعيف
والقوى . والقصير الامد والطويل المهبوب . والثائر بالنهار
والقائم بالليل

هذا حال الصحراء في شدتها وقسوتها . في غضبها وثورتها .
على أنها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل وتطلع علينا
بصحيفة جديدة من صحف سحرها فقد يحدث في المساء أن نكون
في صراع هائل مع كتائب الرمال السافية فتسكن الريح فجأة
كأنها أمرت فامتثلت ثم تفر حبات الرمل الدقيقة كأنها ضباب
يستقر . ويشرق القمر فتأخذ الصحراء شكلا جديدا تحت ضوءه
السحري الباهت الذي يغمر نواحيها ...

أكانت هناك منذ هنية زوبعة ثائرة كادت تودي بحياة
القافلة ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك ؟ هل يعقل أن هذا الفضاء
المهادى البديع كان قاسيا قط ؟ من يستطيع أن يصدق هذا ؟
وهكذا لم تكن رحلتنا الى جالو بالسهلة فقد كانت زوابع
الرمال تضايقنا باستمرار . وبلغت في بعض الاحايين حد الخطر .

وكان الشق الثاني من الطريق مملوءا بغرود من الرمل اضطرت
القافلة الى تجنبها بالسير حولها مع ما في هذا التعرج من اجهاد
للفكر ومشقة كبرى في تتبع البوصلة .

وقد زاد هذا الواجب مشقة من جراء ثورة الزوابع وسفيتها
الرمال في أبصار رجال القافلة ورغمهما من هذا تابعنا السير مجدين
وكان لنا ساعات لهو وسرور أثناء هذه المرحلة رغم ما لا قينا من
أذى الرمال ، فان الذاكرة لا تنسى الليالي البهيجة التي كنا نجتمع
فيها حول نار الحطب نتناول كؤوس الشاي بعد العشاء . فبدأ
الحديث رفيقنا مغيب الشيخ الكبير وألسنة النيران الراقصة
تنعكس على لحيته الشعشاء التي وخطها الشيب . ويقص علينا فصولا
من تاريخ قبيلة زوى أيام كان جدّه يقصد واداي لمحاربة قبائل السود
وينغم الجمال والعبيد

ويتبعه الرفيق صالح فيطرفنا باخبار الريح الطائل الذي جناه
ابن عمه حين سافر سفرته الأخيرة الى واداي فلم يحارب احدا وإنما
جاء منها بالجلود وریش النعام والعاج وباع كل ذلك في أسواق برقة
وكانت تميل نفسي الى سماع أغنية من أغاني العرب فاطلب
ذلك من علي . وكان شاعرا وخطيبا لاخت حسين الذي تم صباحة
وجهه عن جمال اخته . وهنا تتجه أنظار علي الى عمه مغيب كأنما
يسأله أن يأذن له إجابة طلبه وهو مشغول عنا بسبحته متعمدا عدم

الالتفات الى مجرى الأمور الجديد لان الشيخ البدوي لا يليق
لوقاره أن يستمع أغاني الحب من صغار الشبان . ولكن احترامه الى
يدعوه الى الرضا بذلك وعدم ترك المجلس فيقول لعل بصوت
خافت « غن البك ما دام يحب أغاني البدو » فيبدأ على الغناء بصوته
الرخيم الذي تحمله أجنحة نسيم الليل البليل بينا تهالك حبات
سبحة مغيب بين أصابعه منتظمة متوافقة كأنما لا يشغله شاغل عن
الانقطاع لاداء فروض تعبدية ويغنى على فيقول

مَضَيْتُ أَغْنَى وَكُلَّ النَّجْعِ يَسْمَعُ لِي

حمرا مثل الدم مخروطة عود البشَم

خَضْرَه يَعْرِفُهَـا السَّيِّمُ (١)

ان كان لقيتها في الطريق خرقة نُرُشَّها دم
ويسكن صوت على فلا أدري أى الشيثين أسرع اعدارا
أخيالى فى مسراه البعيد أم حبات سبحة مغيب بين أصابعه ؟ ثم
يغنى على

يَا بِصِيْلَاةَ (٢) السَّقَايَ (٣)

يَمِّمُ (٤) رَيْقًا عَسَلَ فَوْقَ السَّنُونِ جَرَّأَي

السَّمِيحِ خَشْمِكَ وَنَابِكَ الْعَوَّايَ (٥)

يَا مُصَيِّلِيَا (٦) مَرْقُوقَ بَصِيدِ الْخَلَا جَرَّأَي (٧)

(١) الجميع (٢) نرجسه (٣) البستاني (٤) يا أم (٥) الايض مثل العاج

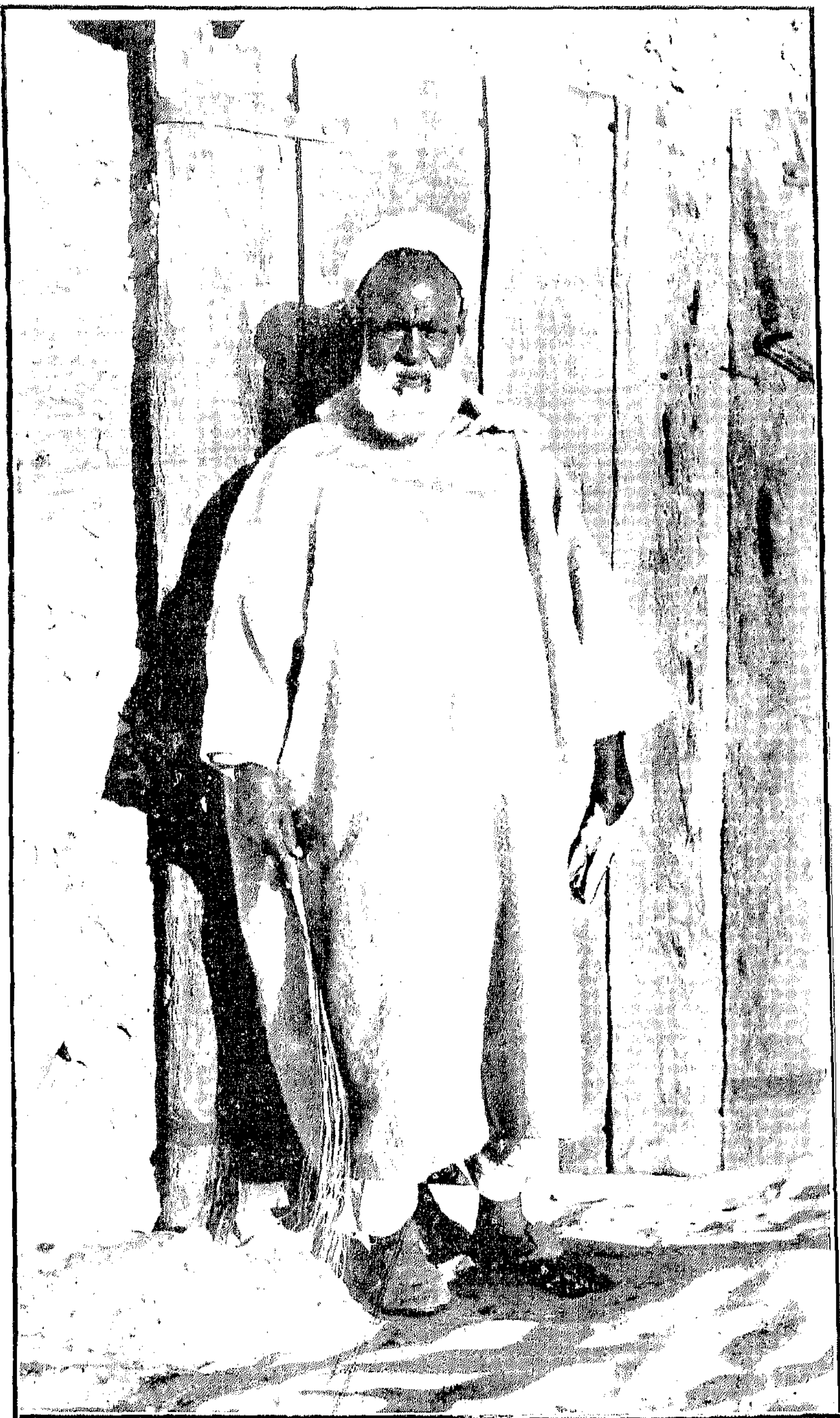
(٦) ذات الوسط (٧) أى مثل الاسد وهو يجرى

أَتَلَمِّينِي مَعَاكَ وَلَا صَابِكَ رَايَ (١)
 بَطْنِكَ ضَامِر سَوْط (٢) مَرَقْدَ صَدْرِكَ جَنَّةِ
 النِّىِّ مَا يَتَخَبَّأُ وَالْأُجْلُ عِنْدَ اللَّهِ

حتى اذا انتهى من غنائه غشى القافلة سكينته شاملة اللهم الا
 أزيز النار الخامدة والصوت المتناسق المنبعث من حبات السبحة
 التي تغير هزجها تغيرا محسوسا لان أصابع مغيب وقفت بغتة ثم
 أسرع في اطلاق الحببات كأنما أراد ذلك الشيخ أن لا يشعرنا
 بوقوفه عن التسبيح . وانما الهاء عن الاضطراد في تسبيحه تحليق
 خياله في سماء الماضى الذى كان فيه شابا محباً والذى هاج ذكرياته
 غناء على . ومن يدرى اذا كان كل جالس معنا عاشقا وكان من
 حسن حظه انه لم يمسك سبحة تفضح سره .

واجتزنا بئر ابي سلامة وهى بعد الجغبوب بسفر يوم فاخترقنا
 ناحية بها بقايا غابة متحجرة وكنا نمر فى سيرنا بقطع كبيرة من
 الاحجار قائمة كأنها أعلام فى الطريق . وقد كانت هذه الصخور
 منذ أجيال بعيدة أشجارا نامية ولكن عوامل الطبيعة نقلتها من
 مملكة النبات الى مملكة الجماد . وكان هناك قطع قليلة متناثرة من
 الاخشاب المتحجرة ولكن أغلبها كان مدفونا تحت الرمال . وانما
 بقيت القطع الكبيرة ظاهرة لان عوائد الصحراء تقضى على من
 يمر بعلم ساقط من هذه الاعلام أن يقيمه . ومن العادات أيضا ان

(١) هل تقبلينى أم أنت تحبين شخصا آخر (٢) أى مثل السوط الرقيق



قاضی جالو

توضع في الدروب الجديدة اكدام من الصخر متقطعات تدل
القوافل على تلك الدروب

وقد يحدث ان يمر الانسان بشجرة او شجيرة قد علق بها
خرق من الاثواب ويتعين عليه ان يضيف اليها شيئا من حوائجه
فيكون تكدس هذه الاشياء دليلا على وجود الشجرة في درب
مطروق يشجع التابعين على مواصلة السير فيه . لان الشعور بمرور
زميل سابق امر ينعش قاطع الصحراء في ذلك السكون الشامل
والفضاء الممل بتشابه مناظره . وان رؤية روث الجمل وعظامه
المبيضة بل العثور بهيكل عظمي لمسافر قضى في الطريق يسرعين
المر بها لانها تؤكد له مرور قافلة في تلك الطريق من قبل .

وبعد تركنا الجغبوب بقليل عثرنا بعلم مغاير لعلام الطريق
المألوفة وكان ذلك اكواما صغيرة من الرمل كأنها بيوت النمل
ممتدة تعترض السبيل ويسمى هذا العلم علم « بو الظفر » وهو في
الحقيقة رمز لعادة بدوية ظريفة . فان المتعارف انه اذا مرت قافلة بهذا
العلم وكان فيها من مر به لأول مرة فعلى المسافرين الجدد ان ينحروا
شاة للمسافرين القدماء الذين مروا به من قبل وهذه العادة مشهورة
بعادة بو ظفر . فاذا لم ينتبه سالكو هذه الطريق لأول مرة الى اداء
هذا الواجب نههم اليه من سبقهم الى قطعها بان يتقدموا القافلة
ويهيلوا اكوام الرمل في سبيلها حتى اذا أوشكت القافلة ان تجتازها

صرخوا قائلين «بو الظفر» -- «بو الظفر» فانتبه رفقاؤهم ونحروا الشاة واقامت المأدبة المألوفة .

وكان في قافلتنا كثيرون لم يعبروا تلك الطريق من قبل وكنت بين هؤلاء . وأعددت العدة قبل تركي الجغبوب فاشتريت شاة انحرها لمن تقدمني في اجتياز تلك الطريق من افراد القافلة ولذلك لم يكن رفقاؤى في حاجة الى تكديس اكوام الرمل في سبيلي وتنبهى الى هذه العادة الطريفة .

وقد أسعدنا الحظ في هذه الرحلة فوجدنا مراعى الجمالنا على طول الطريق حتى وصلنا جالو وقد وقع لنا أحيانا أننا حدنا عن الطريق السوى للوصول الى البقاع العشبية ولكننا كنا موقنين دائما الى إيجاد ما ترعاه إبلنا

وتنمو في هذه النواحي ثلاثة انواع من الاعشاب . فالبلبال عوسجة ذات أوراق لاتصلح طعاما للجمال . وهى لاتنمو الا على مقربة من الآبار ولا تمسها الإبل عادة الا اذا أحست بجوع شديد . وهنا يخشى عليها من المرض اذا لم يراقبها اصحابها مراقبة شديدة . والضمران عوسجة اخرى تشبه البلبال ولكن اوراقها اشد سوادا ومسيقانها سمرء تصلح وقودا وهى جافة . وهذه الشجيرة طعام جيد للجمال التى تقبل على اكلها بشهية . اما النوع الثالث من هذه

الشجيرات فاسمه النشا وهي شجيرة ذات أوراق رقيقة متوشجة يصل ارتفاعها الى علو قدم وهي صالحة لأكل الجمال . وانما تنمو هذه الشجيرات في فصل الشتاء حيث يسقط المطر القليل ولذلك لا يقوى البدوى على قطع المسافة بين الجغبوب وجالو في فصل الصيف مالم يكن قد حمل معه علف ابله .

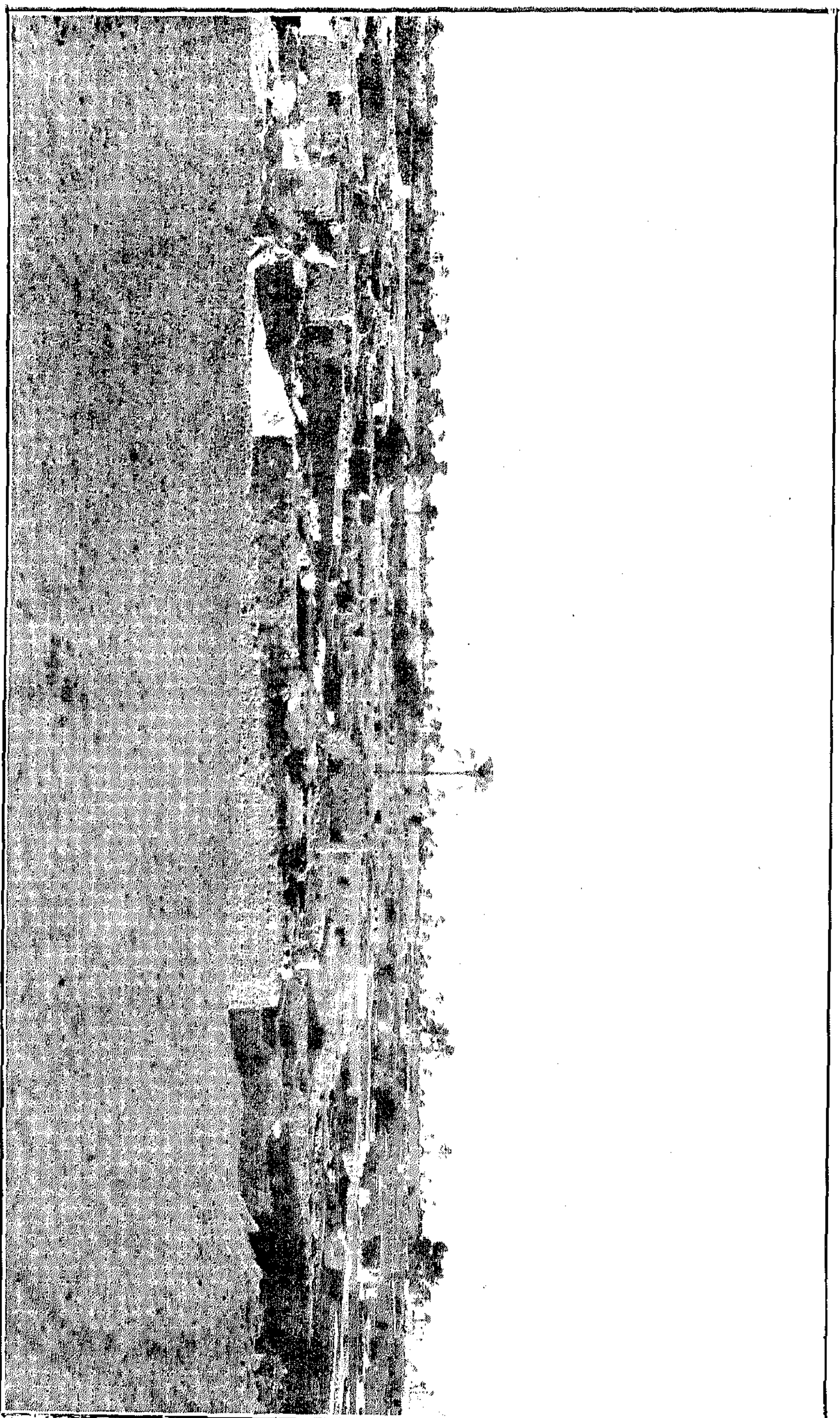
ووصلنا بئر عزيلة — وهي اول بئر بعد بئر ابي سلامة في اليوم العاشر من رحيلنا عن الجغبوب . وعلم هذه البئر قليل من الشجر والادغال الصغيرة المخضرة . وقد أمكننا ان نصل الى الماء العذب بعد ان جرفنا الرمال الهديلة على جوانب البئر . ولكننا لم نصب منه كثيرا لان مذاق ماوصلنا اليه بعد ذلك لم يكن في عذوبة ماوصلنا اليه اول الامر .

وبعد ذلك بيومين اشرفنا على ظاهر واحة جالو ولم نكد نقرب الواحة حتى اندفع الينا رسول جاء لمقابلتنا حاملا خطابا من سيدى محمد الزروالى — وهو من الاخوان السنوسيين — الذى امره السيد ادريس ان يرافقنا الى الكفرة . وطلب منى الرسول ان أحط رحالى حتى يتها القوم لمقابلتنا بما يجب من الحفاوة والاكرام .

وكان السيد ادريس قد اخبر رجال جالو عند تركه جالو قبل ذلك بشهرين انى قادم اليهم وأمرهم ان يتلطفوا فى لقائنا وقد توقع اهل المدينة وصولنا مدة طويلة حتى اذا أبطأنا عنهم ظنوا اننا غيرنا الطريق الى الكفرة

ونصبنا الخيام على مقربة من المدينة وبعد ذلك بساعات قليلة جاءنا جمع من البدو ووقفوا صفا طويلا مهيب الهيئة على طول طريق قرية (الآبه) وهى احدى القريتين اللتين تكونان جالو. وتقدمنا اليهم ونحن فى اجمل لباس واصلاحه لذلك اللقاء الرسمى. وكان مع رجالى من الذخيرة ما يكفيهم لطلقات الترحيب.

واقتربت منهم فصاغت سيدى السنوسى قد ربوه. وهو قائم تلك الناحية وصاغت كذلك أعضاء مجلس جالو واشرافها. وخطبنا القائمقام مرحبا فرددت عليه واطلق رجالى النار مرحبين ثم دخلنا المدينة فقصدت الدار التى وضعت تحت تصرفى واستقبلت أعضاء مجلس جالو وسيدى الفضيل عم السيد ادريس وتناولت العشاء مع سيدى قد ربوه السنوسى وقضيت المساء اناقش سيدى ذروالى فى وضع الخطط لرحلتنا الى الكفرة



بلدة جالو

الفصل التاسع

في واحة جالو

جالو واحة من أهم واحات برقة وهي على مسافة ٢٤٠ كيلو متر من أقرب نقطة من شاطئ البحر الأبيض المتوسط وراء جدايا وعلى مسافة ٦٠٠ كيلو متر من الكفرة الواقعة في الجنوب مباشرة وهي الواحة التي تخرج أكبر كمية من البلح في جميع تلك الجهات وفوق هذا فإنها المنفذ الذي تصدر عن طريقه حاصلات واداي ودارفور بعد مرورها بالكفرة

ويعز بجالو كل ما يرسل من الجهات الأخرى الى الكفرة ولقد نعتها السيد البشاري وهو من كبار مشيوخ قبيلة المجابرة فقال ان الصحراء بحر وجالو ثغر ذلك البحر

وقد كانت هذه المدينة في أوج عزها منذ نحو ثلاثين عاما أيام كان المهدي متخذا الكفرة قصبة للطائفة السنوسية فكان يرتادها كل أسبوع قوافل مؤلفة من مائتين الى ثلاثمائة جمل

تسير بينها وبين جهات الجنوب ولكن هذه الحركة كانت قد
نزلت الى العشر أيام زرتها غير أنها تزداد ثانية في الصيف أيام
موسم البلح . وجالو مؤلفة من قريتين تفصلهما مسافة ميل وهما
(العرق) و (اللبة) وتتناثر أجمات النخيل بين هاتين القريتين
وحولهما ولا يقل عدد نخيل هذه الناحية عن مائة ألف نخلة

وتقع « أوجله » على مسافة اثني عشر ميلا من غرب جالو
وهي الواحة القديمة التي قال عنها هيرودوت انها شهيرة ببلحها
وفي « أوجله » هذه قبر عبد الله الصحابي الذي اشتهر بأنه
كان كاتب النبي عليه السلام وهذه القصة مشكوك في صحتها .
على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كاتبا اسمه عبد الله
الصحابي وان هذا الصحابي هبط شمال أفريقيا وان هنالك قبرا
لرجل بهذا الاسم في « أوجله » وكم من أخبار صحت في الأذهان
على أسان أو هي من هذه الشواهد ويروون أن السنوسي الكبير
وجد جثة سيدي عبد الله الصحابي مدفونة في ناحية بعيدة ورأى
في بعض أحلامه روح ذلك الجسد النائي تقول له « أخرج جسدي
من مقبره وضعه على جبل وحيثما وقف بي الجمل ابن لي ضريحا »
وأطاع السنوسي الكبير الأمر وسافر بالجثة حتى وصل أوجله

وعندها وقف الجمل بغتة وأبى أن يتقدم في سيره فأقيم ضريح
محل وقوف البعير

ويعتقد الناس أن لمؤسس الطائفة السنوسية وأعضاء الأسرة
السنوسية وكبار الأخوان قوة خفية ومعرفة بالغيب. وكان للسيد
المهدى قوى خفية غريبة يسميها البدو كرامات وقد أخبرني أحد
الأخوان في جنجوب بقصة عنه قال :

جاء المهدى اعرابى جاهل يريد طلب العلم عليه في جنجوب
ولم يكد يفتح المهدى في أمره حتى تذكر ان موسم البذر قد حل
وان ليس له من يتعهد أرضه في غيابه . فرأى الصلاح في السفر
الى بلده حتى ينتهى من موسم الحصاد ثم يعود لطلب العلم وقصد
السيد المهدى ليودعه قبل سفره فدخل غرفته وأخذ مجلسه وانتظر
حتى يبدأ المهدى الحديث كما جرت العادة وتغافل المهدى عنه
لحظات فغلب البدوى النعاس وأغفى قليلا ثم استيقظ على صوت
المهدى الخافت بقوله له « الآن هداً بالك وقرت نفسك لانك
تعلم أن الأُمور هيئت لك على ما يرضيك » وقد هداً بال البدوى
حقا لانه رأى في تلك الغفوة القصيرة حلما تمثل له فيه أخوه
يحرث الارض ويسذر حب الشعير واستطرد المهدى في حديثه
فقال « انزل علينا ضيفا وتوفر على الدرس وأسأل الله أن يهديك

سواء السبيل ولا تخف شيئا فقد رأيت كيف سارت أمورك على ما تحب وان الله رحيم يلحظنا جميعا بعين عنايته « فأقام الرجل بجنبوب ولم يعد الى بلده الا أيام الحصاد وعاد بعد ذلك الى جنبوب فأخبر أحد الاخوان بتحقيق رؤياه في دار المهدي حين رأى أخاه يبذر الحب في أرضه وزاد على هذا ان قطعة الارض التي رآها تبذر في رؤياه كان يجري فيها العمل في نفس الوقت الذي شاهد فيه الرؤيا

وأخبرني حاكم جالو بقصة أخرى قال : « كنت مسافرا مع جماعة من الرفقاء من بنغازي الى جنبوب لزيارة السيد المهدي فاخطأنا موضع بئر في الطريق وشعرنا بضيق شديد لقلة الماء وأمسي المساء فالتفت الى أقل رجال القافلة رغبة في زيارة المهدي وقال « أما وقد أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل التقى ذى الكرامات فهلا سألته أن يرسل إلينا ما يبيل أوامنا ان كان من التقوى والصلاح بحيث تقول « وحدث في تلك الليلة بجنبوب ان السيد المهدي استيقظ من نومه ونادى عبيدين من عبيده وأمرهما أن يقوموا في الحال فيحملوا الزاد والماء على خمسة جمال وان ينطلقا الى الصحراء ويأخذوا السبيل التي أشار إليها فلا يفتان حتى يلتقيا

بقافلة في الطريق فمضيا سبيلهما وتلاقيا بقافلتنا وقد أشرف رجالها
على الهلاك »

ولا يزال بين رجال الطائفة اخوان قدماء يخشاهم أعضاء
الأسرة السنوسية أنفسهم خوفا من تأثير قواهم الخفية ومن بين
هؤلاء رجل يعيش في الكفرة وكان في ماضى أيامه اخوانيا في
زاوية بركة فاحضر أحد البدو غنمه تستقي من البئر القريبة من
الزاوية فشرذ بعضها واكل الشعير الناجم في قطعة الارض المجاورة
للزاوية . وانذر الاخواني ذلك الاعرابي أن يقف غنمه عن
إتلاف الزرع فأظهر الطاعة والسهر على قطيعه ولكنه كان ناويا
في نفسه أن يطلق غنمه على الزرع فتأتى عليه ولذلك أطلقها في غفلة
من الاخواني وخرج هذا من الزاوية فرأى الغنم تقتك بشجيرات
الشعير فصب عليها اللعنة قائلا « أهلك الله الغنم التي تأكل زرع
الزاوية » ويقول رواية هذه القصة أنه لم تخرج شاة واحدة وهي
حية من مزرعة الزاوية

ولا يزال البدو الى هذه الأيام يخشون أسرة السنوسيين
لا لسلطتهم الزمنية وانما للقوة الروحية التي يعتقدون وجودها
فيهم فان السنوسى اذا صب لعنته على أحد ظل طول عمره خائفا

متوقعا أن يصيبه مكروه وقد يتحاشاه اخوانه بل وأهله حتى لا ينالهم أذى مما يصيبه .

ومن المسائل المشهورة في هذا الشأن مسألة رئيس كتبة السيد المهدي الذي يعيش الآن في الكفرة نصف مشلول وقد زوته فرأيته سعيدا راضيا رغم عجزه عن تحريك جسمه ثم رأيته مرة أخرى فأنس إلى وسألني وهو يتردد بين الاعتقاد والشك ان كان بين أدويتي شيء يقيه من مرضه وترددت في الإجابة عليه لاني لم أرد أن أقطع أمله . ورأى ذلك في عيني فلم يترك لي الوقت الكافي للرد عليه وقال « لقد كتب الله علي ما أنا فيه وكان الذنب ذنبي . أمرني السيد المهدي ان اسافر شمالا فلم اقو على عصيان امره ولكني اردت ان اخلص من تلك الرحلة بعد ان وصلت الهوا اري فكتبت اليه مدعيا المرض وجاء رده باعفائي من اتمام الرحلة ان كنت صادقا فيما ادعيت وفي اليوم التالي اصابني الشلل وحملت الى الكفرة ولا أزال بها الى الآن وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة

وقد اخبرني حاكم جالو بقصة أخرى حين كنا تتناقش في الكرامات قال « قامت عاصفة شديدة في اوجله اسفت الرمال حتى غطت قبر السيد عبد الله الصحابي فأحضر العبيد لرفع الرمال

المهيلة عن القبر وبينما كان الفعلة دائبين في عملهم دخل الحاكم
 الغرفة التي بها المقام فنشق رائحة بخور قوية ونادى أحد العبيد
 فسأله هل أطلق أحد بخورا فأنكر الرجل . ولا يزال زائر هذه
 الغرفة في هذه الايام يشم تلك الرائحة الزكية وان لم ينطلق أى
 بخور في نواحيها

وجالو مركز قبيلة المجابرة « البدو » شيوخ تجار صحراء ليبيا
 وبها بعض رجال قبيلة (زوى) ولكن اكثرية الألفين الذين
 يقيمون فيها من المجابرة . وهؤلاء ميل غريب للتجارة فان الرجل
 منهم يفخر بان أباه مات فوق سرج جملة كما يفخر ابن الجندى بان
 أباه مات في ميدان القتال

وكانت العلاقات متوترة ايام اقامتى بجالو بين السلطات
 الايطالية وبين السيد ادريس فمنعوا ارسال البضائع من بنغازى
 وغيرها من ثغور برقة الى البلاد الداخلية ولذلك ارتفعت اثمان
 الحاجيات ارتفاعا شديدا في مدن الصحراء كجدايا وغيرها وسمع
 تجار المجابرة من اهل جالو بحالة التجارة في جهات الشمال وكان
 معهم بضائع كثيرة من مصر فلم يترددوا في الاستفادة من هذه
 الفرصة وغيروا وجهتهم فساروا شمالا بدلا من ان ينحدروا جنوبا

وباعوا بضائعهم في جدايا فربحوا ربحا وافرا ثم عادوا سراعا الى مصر والجنوب يطلبون بضائع اخرى وعادوا بها الى جالو فقارنوا بين ارتفاع الاثمان في جدايا والكفرة ثم اختاروا منها اعمرهما سوقا لتجارتهما

وأعجب ما في الصحراء سرعة انتقال الاخبار من بلد الى آخر مع ما هنالك من بعد الشقة بين تلك البلاد فان المسافة بين جالو وجدايا خمسة ايام وبين جالو والكفرة زهاء الخمسة عشر يوما ومع ان القوافل تسير بسرعة غير كبيرة . واحسب ان التعليل الصحيح لهذا هو ان كل شيء في الصحراء نسبي فالأخبار تسير مع خطو الجمال وكذلك كل ما عداها

وان اشتهر المجاورة بالتفوق على غيرهم في الاشتغال بالتجارة فان لقيلة (زوى) ما يدعو الى الفخار . والمنافسة بين هاتين القبيلتين كامنة تهيجها الظروف من وقت لا آخر

والزوى محسودون من جميع قبائل برقة لان منهم على باشا العابديه وهو الذى يلى السيد ادريس فى المرتبة بين السنوسيين . وعلى باشا هذا جندى ماهر وكان سندا قويا للسيد ادريس وموضع ثقة عنده

وقد تناولنا ذات ليلة حديث المنافسة بين زوى وباقي القبائل

وكان ذلك في جالو بعد تناول العشاء فناقش سيدي صالح وهو من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينتسب لأي قبيلة في برقة — مع رجلى مغيب الزروالى وهما من قبيلة زوى في شأن تلك المنافسة وبعد أن سمع منهما الافراط في مدح قبيلتهما هز رأسه ثم قال « قد يكون تاريخ الزوى مجيدا كما يقول سيدي مغيب ولكنهم قوم لا يخشون الله » فانطلق مغيب قائلا « والله يامسيدي صالح انهم يخشون الله ولكنهم لا يخافون الانسان . والويل لمن يتعرض لقافتهم أو يسطو على خيامهم » . ثم التفت الى وقال « لقد باركنا السيد المهدي اذ هبط علينا في الكفرة قصبتنا ثم اختفى منها » . ولم يقل مات لان السنوسيين لا يفوهون بكلمة الموت وانما يستعملون كلمة اختفى وما مثلها في التعبير اذ الشائع بينهم ان المهدي لم يموت وانه يهيم في نواحي الارض حتى يعود الى رجاله أهل الصحراء . وأحب شيوخ السنوسيين الى الزوى السيد المهدي لانه نقل مركز حركة الطائفة الى الكفرة وبني فيها قبة المسجد التي هي اجمل مظاهر نحر تلك المدينة

وقد علمت بعد تجارب عديدة أن أفراد قبيلة زوى يضمرون العداء للأجانب فقد وضع لي وأنا المسلم ابن ذلك الرجل التقى العالم بالأزهر الشريف وموضع ثقة السيد ادريس انهم لا يرضون إقامتي

في الكفرة وبان لي ذلك جلياً حين سمعت أن أحدهم تمنى لو أنني أفارق الكفرة الى الأبد بعد مغادرتي لها . على اني بالرغم من معرفتي بهذا النفور لا أظن ان في استطاعتي ان أجدر رجالاً أقدر على قطع الصحراء وأعلم بطرق السير فيها من أفراد هذه القبيلة الذين كونوا جزءاً من قافلتى فقد كان الزروالى وهو مثال الزوى الصحيح أمتع رفيق لي في السفر وأحق أفراد القافلة باعتمادى وثقتى .

وبدوى برقة يجرى في عزوقه دم العرب الذين اجتنازوا شمال أفريقية في طريقهم الى الأندلس وهو بالرغم من اختلاطه برجال القبائل الاخرى محافظ على كثير من تقاليد العربية القديمة . جريمة القتل عند السنوسيين تفصل فيها قوانين البدو الخاصة . والعادة أن يتداخل الاخوانى في الخصومات ويصلح ذات اليمين بين المتخاصمين فيأخذ القاتل وشيخاً من شيوخ قبيلته ويقصد خيام المقتول فينصب خيامه على مقربة منها ثم يتقدم مع القاتل الى أفراد أسرة القتيل قائلاً « معى قاتل رجلكم » ثم يأخذ بيده ويقول « هذا قاتل ولدكم أسلمكم إياه فافعلوا به ما أنتم فاعلون » فيكون الجواب عادة « سامحه الله وأنزل عليه عدله ورحمته » ثم يأخذ الاخوانى بعد ذلك في تسوية مقدار الدية وهى فى الغالب ثلاثة آلاف ريال وعبد يكون معروف الثمن فى سوق الرقيق .

ولأقارب القتل حق الاختيار بين قبض المال أو أخذ قيمته جمالا
وغنما وما اليهما من حوائج البدو . فان آثروا المال قسم دفعه على
أقساط تجرى من سنة الى ثلاث سنين واتفق على ذلك وانتهى
الأمر . وقد يحدث في الأحوال نادرة أو يقع اذا كان طلب الثأر
مستحكما بين رجال القبيلتين أن يرفض قبول الدية ومعنى هذا
أن في نية قبيلة القتل أن تقتل قاتله أو أحد أقاربه أو رأسا من
رؤس قبيلته

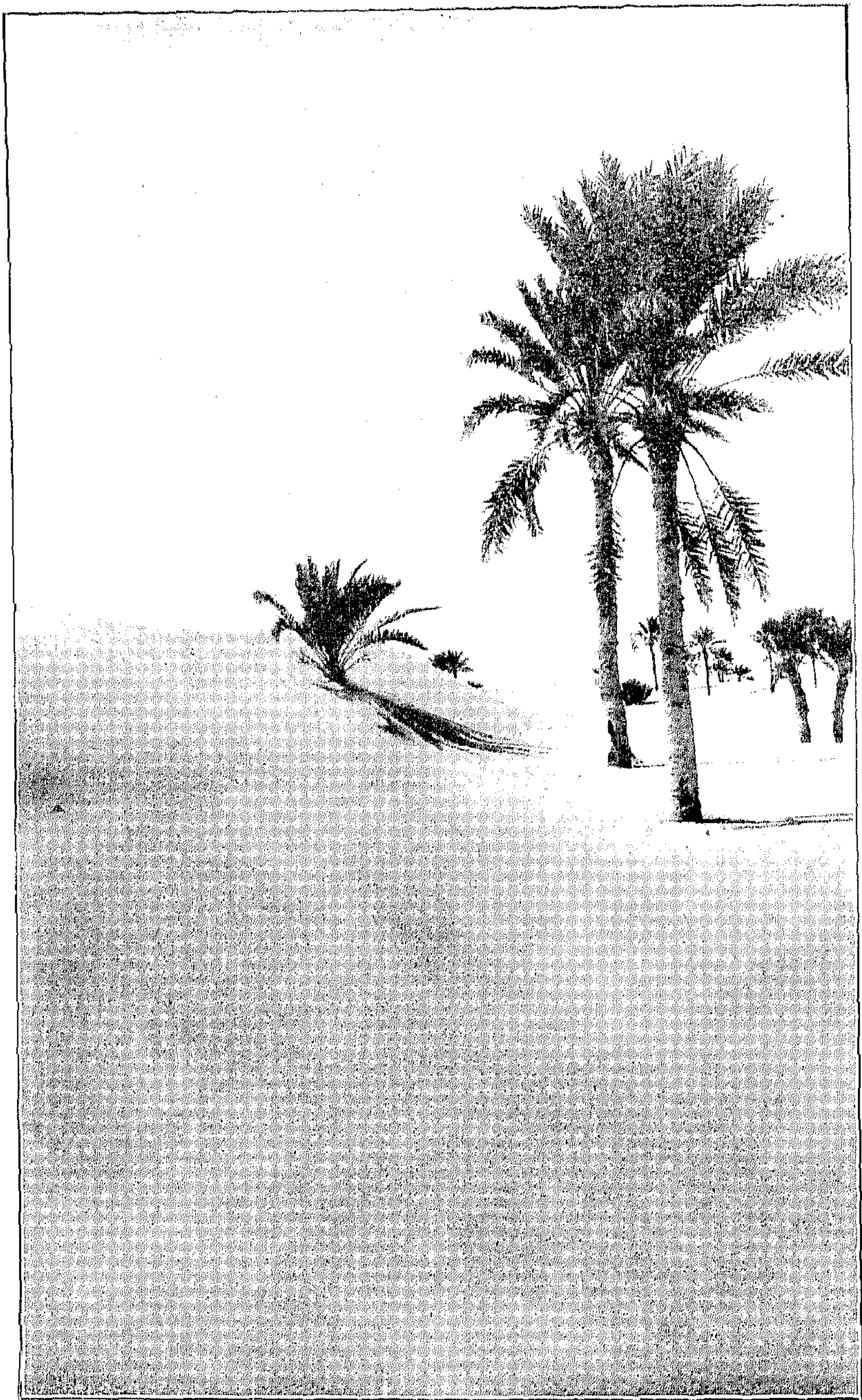
وشبان البدو وعذاراهم مطلقون في الاختلاط بعضهم ببعض
ولا تحجب المرأة إلا في الأسر الكبيرة . ويعرف الشاب موضع
أمله في الزواج فيقصد خيامها ويغنيها من شعره فان مالت نفسها
اليه خرجت وساجلته الغناء من مقولها أو من منقولها . ويقصد
الشاب أهلها بعد ذلك ويدفع المهر ان تم الاتفاق . ثم يعود اليها
في حفل من أصحابه ويأخذها الى داره تحف بهما الفرسان
المتخطرة وتدوى فوق رؤوسهما طلقات البنادق

وقد يفر الحبيب بحبيته فينتهى الأمر بين قبيلتيهما بسفك
الدماء لأن البدو يعدون الفار بحبيته سارقا لها . وعقود الزواج
يجريها الاخواني ويتم العقد وفقا للشرع الاسلامى الشريف
والزواج عند العرب في سن مبكرة تتوقف على نمو البنت

والغالب أن تزوج البنت في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ويتزوج الشاب بين السابعة عشرة والعشرين والقادر من البدو يتزوج اثنتين أو أكثر ولكن الأولى في هذه الحال تبقى سيدة الدار بيدها أمر تديرها وتفضل على ضراتها بما فيهن أقربهن وأجلهن إلى بعلمها في كل ما يتعلق بالشؤون المنزلية

وقد سمعت بشبان كثيرين تدهلوا في حب من لم تصل إليها أيديهم . ورأيت بعيني ضحية من ضحايا الحب . جاءني شاب بدوى يسألني دواء وكان نحىلا منسرح القامة متناسق الأعضاء فتقدم إلى وقال أريد دواء يهينى الصحة . فسألته ماذا يشكو . فبرز رأسه وقال « الله اعلم » وكان في هيئته غرابة حيرتني ولكنى خرجت من هذا باعطائه بعض اقراص مركزة من اللبن وأمرته أن يتناول منها ثلاثة كل يوم

وما كاد الشاب يمضى حتى دخل رجل مسنّ وجلس القرفصاء ثم قال « وهبك الله الصحة وجعل الشفاء على يديك لقد قصدك ابني مستشفيا واعطيته الدواء فهل تدري ما علته . لقد جئتكم أشكو عنه بعض ما يحس . إنه يشكو ضعفا وصداعا قاسيا وإذا جن الليل هجر الناس والتمس الوحدة وقد يقضى طول ليله خاليا بالصحراء . فقلت للشيخ « لقد اعطيت ابنك ما آمل أن



الرمال تغطي النخيل في جالو

يخفف عنه بعض آلامه » فأجاب وفي صوته رنة حزن « الشفاء من عند الله غير انى أعلم الطريق الى شفائه ولكن الأقدار كتبت عليه أن لا يبرأ الدهر من دائه فهو يحب عادة رفض أبواها ان يزوجاها منه » فقلت له ولم لا تسعى فى سبيل التوفيق بينهما وقد عرفت مبعث داء ابنك . فاجابنى الشيخ « لقد فات الوقت فان الفتاة أصبحت زوجا وعلم الله أنها تشكو داء ابنى على بعد المزار وتثنى الدار » ثم قام وترك خيمتى ينطق الحزن فى عينيه ويبين الاستسلام فى مشيته .

ومن ظريف ما رواه لى أحد الأخوان أنه جاءه فتى وذكر له انه تدله بحب غانية كما تدلته بحبه ولكن اهلها أبوها عليه وذكر انه سيعمد واياها الى الفرار وهذا يفتح باب الشار بين اسرتيهما فأطرق الاخوان قليلا وأشار عليه بأن يوعز لحبيبتة بالتظاهر بالصراع كل مساء عند غروب الشمس وكان بما أشار به

وكان هذا الاخوان مشهورا بين القوم بالدراية فى مداواة العلل والأمراض فجاء أهل الفتاة اليه يطلبون عونهم وطبه فمكف يصف لها الوصفات المختلفة دون أن تبرأ من الصرع بطبيعة الحال حتى اذا عيل صبرهم قال لهم لقد ضاقت حيلة الطب بها ولم يبق الا

أن استمد من حول الله وقوته ما يكون فيه الشفاء . فاعطوني بعض ملابسها أقرأ عليه آيات وأدعية ثم اتوسدها في رقادي الليلة وفي الصباح أخبركم بما توصى به الرؤيا . فجاءوه « بعصبتها » . وفي اليوم التالي قال لهم لقد رأيت حلما والله أعلم بما فيه الخير . لقد كلفت من الرؤيا أن أطلب منكم أن تعقدوا عقدها على « فلان » وفي اليوم نفسه سأ كتب حجابا الهمت صيفته فاذا انقضى أسبوع دون أن يصيبها الصرع زوجها منه والا فاحملوه على طلاقها وهذا سبيل شفاها الوحيد وإلا بقيت طول عمرها يصيبها الصرع . فأطاع أهلها ما أمرهم به الاخوان وتزوجا

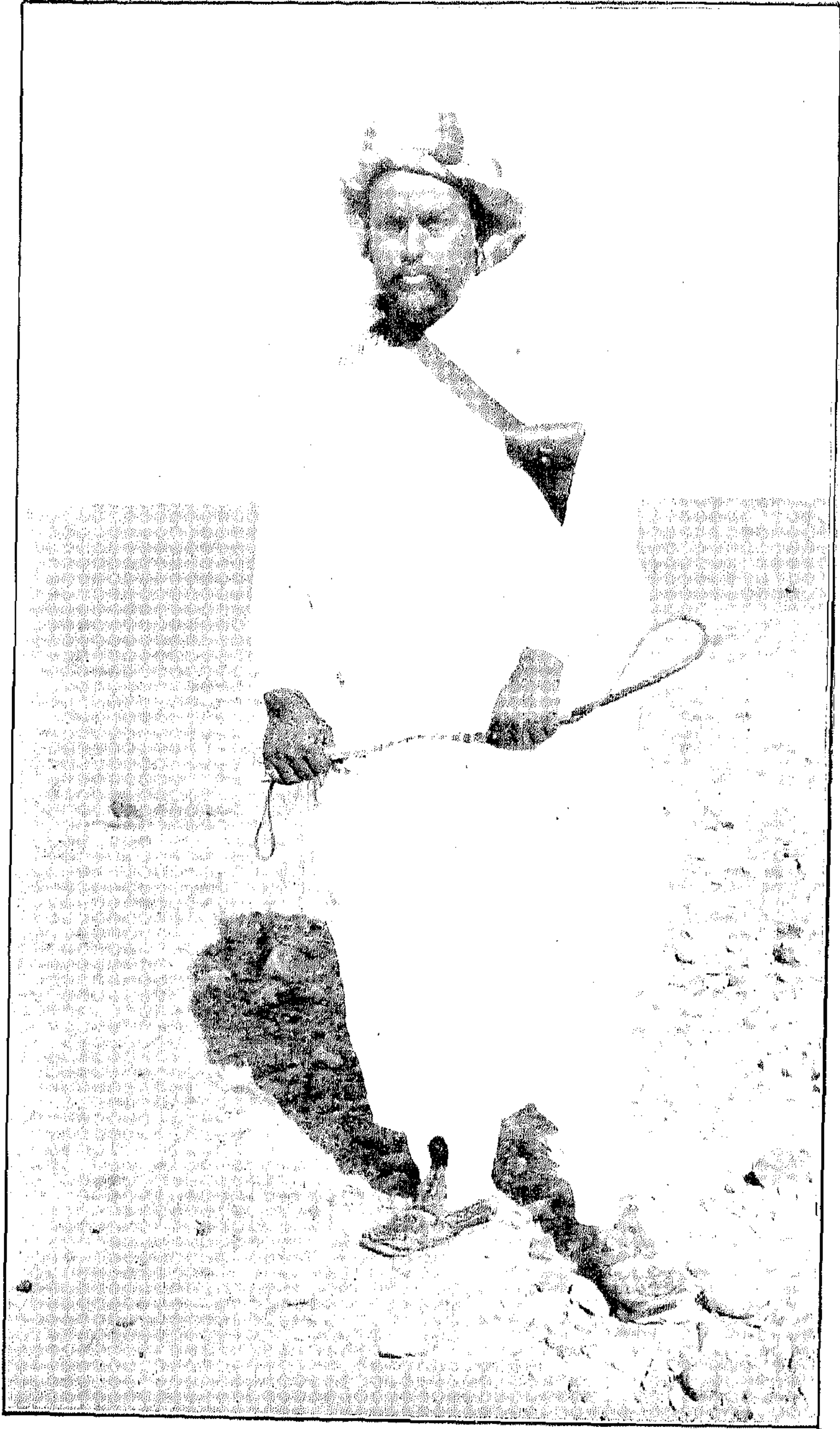
ولم أستطع في جالو كما عز على من قبل في الجفوب أن أجد جمالا في انتظاري ولكن السبب في الحالين لم يكن واحدا . ولم تكن حيرتي هذه المرة بحيث ضايقتني كالمرّة السالفة . فقد كنت اتفقت على أجر الجمال وكانت صاحبها عمر ابو حليقة على قدم الاستعداد للمسير عند عودة إبله من مراعيها فان البدوى العاقل لا يدع جماله تقطع مرحلة بعيدة من غير أن يشبعها علفا ناضرا قبل رحيلها . والمرحلة الى الكفرة طويلة وخالية من كل مرعى . وتضطر الجمال في قطعها الى الاكتفاء بالبلح الجاف والجمال يعد .

البلح الجاف مؤذيا لكبد جماله فيدعها تأخذ كفايتها من الأعشاب
قبل السير

وكان أبو حليقة قد أرسل لبله الى مرعى قريب وأمر رعاتها
أن يحضروها في اليوم المحدد ولكن الإبل لم تظهر في الموعد
المضروب . وعجبت لذلك في اليوم الأول ثم انشغل بالى في اليوم
الثانى وتملكتنى الحيرة في اليوم الثالث خيفة أن تكون الجمال قد
أبقت من رعاتها . على أن شيئا من ذلك لم يكن فقد ظهرت في
اليوم الرابع اكمل ما تكون تأهبا للسير . وكريت خمسة وثلاثين
جملا بأجر باهظ مع أنه كان في مقدورى أن أشتري الجمل منها
بشمن يتراوح بين اثنى عشر وثمانية عشر جنيها بينما طلب أبو حليقة
في الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيها ونصف جنيها أجزا عن الشهرين.
أوالثلاثة أشهر التى يستغرقها السفر الى (بشة) فى وادى . وكان
تأجير الجمال أوفق لى لان امتلاكى الإبل يقع على مسؤولية
سلامتها طول الطريق ويضطر رجالى الى الانقطاع لتعهدها
مدفوعين بالأمانة والرغبة فى نجاح الرحلة . ولكن مرافقة أبى
حليقة ورجاله لجماله مهدت سبيل العناية بها والسهر عليها طول
الطريق فان أبا حليقة لم يغفل لحظة عن تعهد جماله فكان يخفف.

أحمال الضعيف منها أو المريض . وظل مشغولاً بها إلى آخر الرحلة
فلم آبه كثيراً بما بذلت من مال في سبيل تحقيق رغائبي
وأعوزتني الرجال كذلك على وجود أولئك الأربعة الذين
انقطعوا لخدمتي ورافقوني من القاهرة والسلوم وسيوه وهم عبد
الله واحمد وحمد واسماعيل فضمت اليهم خمسة آخرين وهم الدليل
السنوسى أبو حسن وسعد الأوجلى وحمد وفرج العبد والسيد
محمد الزروالى الذى تفضل السيد إدريس فأمره بمرافقتي إلى الكفرة
وكان مع أبى حليقة ولده وجمالان . وزاد على جميع هؤلاء خمسة
من قبيلة التبو وهم من العبيد الرحالة « فى تيبستى » الواقعة فى
الشمال الغربى من وادى . وكان عبد الله والسيد الزروالى رئيسى
القافلة فكان أولهما منوطاً بحراسة الخوائج والمؤن وثانيهما قائماً
بتعهد الرجال والجمال : والحق أقول إن هذين الرجلين كانا أصلح
رفيقين يصحبهما الإنسان فى رحلة صحراوية

وكنّا فى حاجة إلى ملابس وبعض أنواع من الأطعمة وفى
عوز شديد إلى أحذية فإن الحذاء البدوى الخالى من الكعب -
وهو أصلح الأحذية للسير على الرمال - هو كل ما تصل إليه يد
السائح فى الصحراء ولكنه يلبى بسرعة ويضطر صاحبه إلى رتقه



السيد محمد الزروالى الذى رافق الرحالة من جالو

فى الطريق فكان على كل منا أن يجهز الجلود اللازمة لرتق حذائه
حتى يصل الكفرة

ووجدت فى جالو صانع أحذية شهير وهو حميده الذى
كنت لقيته منذ سنتين فى الكفرة فاستدعيتہ وأعطيته الأحذية
التي صنعها لى اذ ذاك وهى فى حاجة ماسة الى الترقيع فقرح كثيرا
حين طلبت منه إصلاحها . وكان حميده رجلا مهيب الطلعة يصح
أن يحسبه رائيه قاضيا أو عضو مجلس على الأقل . وقد اختلف
الى دارى يعمل فى رتق أحذيتى الخمس وصنع أحذية أخرى لرجالى
وإصلاح سروجنا وغيرها من الحوائج الجلدية . وكان يسره كثيرا
أن أدعوه للغداء ثم أقدم له بعد ذلك كوبا من الشاى وحدث
ذات يوم أن أخذه السعال عند تقديم الشاى اليه فأظهرت اشفاقى
عليه من دائه فنظر الى من وراء كوب الشاى وقال بصوته الخافت
« ان الشاى الذى تقدمه لى يشفينى من السعال يا سيدى البك
ولا أجد الشفاء فى غيره » ولم تخف عنى هذه الاشارة اللطيفة
فأتحفته بقليل منه قبل تركى جالو

واشتريت ملابس لرجالى وسمنا وزيتا وشعيرا ووقودا وثمانى
قرب . وأخبرنى على كاجا وهو عبد السيد إدريس الصفى ووكيله
الأمين فى جالو أن سيده أمر بوضع مخازنه تحت تصرفى فشكرته

ولم أمدد يدي الى شيء فقد تركت مصر مزودا بكل ما احتاج اليه وأنا أعرف فوق هذا أن ما لديهم يحتاجون اليه أشد احتياج لتعذر الحصول عليها في الصحراء

وقضيت في جالو عشرة أيام في إعداد العدة لرحيلي وفي قبول دعوات مشايخ العرب وردت هذه الدعوات والانقطاع الى أشغالي العلمية

وكانت المآدب التي أقيمت لي غاية في إظهار كرم البدو فتناولت عشاء أول يوم في دار السنوسي « قدر بوه » حاكم جالو وتغديت في اليوم التالي عند البشاري اكبر تجار المجابرة وأشهرهم ووقف في خدمتنا مع أبنائه أثناء تناول الطعام كما هي عادة البدو وتلقيت الغداء في اليوم الثالث من أعضاء المجلس وشاركني فيه الزروالي وعلى كاجا ومغيب . وجرى لي بعد الغداء حديث مع القاضي عن تاريخ السنوسيين فاراني خطابات من السنوسي الكبير وابنه المهدي وجاء العشاء في هذا اليوم من عند الحاج فرحات وهو من كبار تجار المجابرة أيضا . وشاركني فيه الحاكم والزروالي وعلى كاجا ومغيب وعبد الله

وفي اليوم الرابع تناولت عند الحاج علي بلال المجبري غداء . تقول عنه مفكرتي انه كان جيدا جدا « وانه حضره الجمع المعتاد ».

وجاءني العشاء من عند الحاج سعيد وهو من تجار المجاورة أيضا
وفي اليوم التالي تغديت بدار الحاج غريل وفي المساء وقع
لي أهم حادث من حوادث الضيافة التي لقيتها ووضح لي كرم البدو
باجلي مظاهره حين دعاني فضليات نساء الأسرة السنوسية الى
تناول العشاء

كان يقيم بجالو نساء كثيرات من الأسرة السنوسية. بينهن
زوج السيد إدريس وأخته . وقد أرسل الى أولئك السيدات
الكريمات بعد وصولي جالو بقليل يدعيني للعشاء . وهذا حادث
غير عادي لأن نبيلات الصحراء لا يؤمنن الولائم للرجال كما
تفعل نساء الغرب وأدركت بطبيعة الحال اني غير مدعو لتناول
العشاء مع داعياتي ولكني قدرت هذا العطف من ناحيتهن فقبلت
دعوتهن راضيا شاكرا . وجاءني السيد الزروالي والحاكم في الوقت
المحدد لمرافقتي الى دار الضيافة وكانت دار الحكومة في عهد الأتراك
فأدخلنا الى غرفة فسيحة ينبعث في جوها بخور زكي الرائحة وينتشر
فيها نور ضعيف من سراج نحاسي فاخر وشموع كثيرة ويلقي أشعته
الندية على ما في الغرفة من سجاجيد ثمينة وطنافس حريرية فيرسل
عليها أضواء بهيجة

وكان القائم باكرامنا سيدي صالح وهو بعلم سيدة من

سيدات الأسرة السنوسية فاشرف على نفر من العبيد قدموا إلينا
 ما لذ وطاب من طعام وشراب . وبعد أن نلنا من كل ما قدم إلينا
 جريا على عادة البدو جاءنا العبيد بطسوت من النحاس فغسلنا
 أيدينا ثم تناولنا ثلاثة اكواب الشاي المعتادة وثرث علينا قطرات
 الورد وأطلق زكى البخور . وبعد ذلك تقدم الى رئيس العبيد
 باحتشام وهمس في أذنى سائلا ان كنت أحب أن أسمع شيئا من
 الأغاني فيدير لى حاكيا (فونوغراف) ويسمعى بعض
 اسطوانات لمشاهير مطربي مصر . فأيت شاكرا على تلفظه
 وربما كنت فى ذلك مغضبا رفقاى . وانما دفعنى الى الالباء رغبتى
 فى الاستمتاع بوجودى فى تلك الغرفة ذات الأثاث الفاخر
 والجو المعطر وإطلاق العنان لخيالى بعيدا عن صخب المدن وجلبتها
 فى مناحى الصحراء ومجالى حياتها البدوية والإيناس الى روحها
 التى تشيع فى نفسى الخالية المنفردة

وانطبعت ذكرى هذه الليلة الفريدة فى خاطرى لما رأيت
 من جمال المكان وأحسست من بعد عن العالم وما شعرت به من
 لذة الاستمتاع بضيافة شريفات البدو اللاتى اختفين عن عيني وكن
 ماثلات فيما أظهرن نحوى من دلائل الكرم والرعاية وحملت
 رئيس العبيد أجل تحياتى الى السيدات وسألته أن يلبقهن تقديرى

لهذا العطف الشديد ثم خرجت الى الصحراء فى تلك الليلة البديعة
تلاعب كف النسيم بثنايا « جردى » فتثير فى الجو ماعلق به من
نشر البخور وتهيج فى خاطرى ذكرى تلك الغرفة السحرية التى
نعمت فيها بذلك المجلس الشهى

وأصبح الصباح فأعددت وليمة أردبها ضيافة من اكرموني
أثناء الأيام الماضية ولكن غرقى الحقيبة التى تتناثر فيها أمتعة
سفرى لم تكن من كمال الاستعداد بحيث تقارن بتلك الدار الجميلة
التي تناولت فيها عشاء الأمس . غير أن على كاجا أخذ على نفسه
أن يجعل هذه الغرفة صالحة للوليمة بقدر ما تسمح به الظروف
فاستعار من بيت السيد إدريس سراجين بديعين من النحاس
وبعض أبسطة فاخرة وأضاف الى ذلك بعض الرياش الأخرى
وخلق من الغرفة بهوا يليق بإقامة مأدبة وكان بين ضيوفى حاكم
المدينة واعضاء مجلسها واخوان سنوسيان والقاضى وعلى كاجا
وموسى ضابط المدفعية السنوسية والسيد الزروالى ولبست أنخر
ثيابى البدوية ثم وقفت فى خدمتهم كما يقف رب الدار البدوى
وقد سألتى بعضهم ممن زار المدن أن اجلس معهم وأشاركم
الطعام ولكنى أبيت واعدة أن أفعل ذلك اذا شرفونى بالزيارة
فى القاهرة . وقد أظهر طاهى احمد حذا شديدا فى تنويع ألوان

الطعام فقدم شيئاً من الصحف الأوربية لم يسع ضيوفى معها
السكوت عن مدحها والثناء على طاهيها . وكانت ولغيتى هذه آخر
الولائم فتركت بعدها أتناول طعامي خالياً هادئاً وقد أراحنى ذلك
كثيراً وان شكرت لضائقى ما أظهروا نحوى من دلائل الكرم
وقد اهتممت أثناء إقامتى فى جالو بعمل بعض الملاحظات العلمية
فرصدت الشمس والنجوم لمعرفة خطوط الطول والعرض
وواصلت ملاحظة البارومتر والترمومتر لمعرفة ارتفاع المكان ولما
دوَّجت ملاحظاتى فى هذا الشأن على الملاحظات البارومترية
التي أخذت فى سيوة فى اليوم نفسه ظهر لى أمر هام وهو أن
سطح جالو فى هذه الأيام أعلى منه بمقدار ٦٠ متراً أيام زارها
(رولفس) سنة ١٨٧٩ فقد قرر هذا الرحالة أن جالو تكاد تكون
موازية لسطح البحر ووجدتها أعلى منه بستين متراً . وكان تغير
وجود هذا الفرق واضحاً أمام عيني فقد رأيت الرمال المترامية
تكدس حول جذوع النخيل وعلى جدران المنازل تكاد تغطيها
جميعاً . وكانت نتيجة ذلك أن انتقل بعض سكان المدينة من
مساكنهم القديمة وبنوا ديارهم فى جهات أكثر ارتفاعاً . وما زاد
ارتفاع جالو عن سطح البحر زهاء مائتى قدم فى بحر أربع
وأربعين سنة إلا تلك الرمال المضطربة التراكم التى تسفيها

العواصف فتعترضها الأشجار والمنازل . وتجعلها ركاما . وكانت
الدار التي أقمت فيها وقيدت بها ملاحظاتي أعلى من بقية دور جالو
بزهاء العشرين مترا . وكنت شديد الحرص في أخذ هذه
الملاحظات لان البدو يسيئون الظن بكل جهاز علمي فما بالك بآلة
(التiodوليت) التي ربما ظنوا اني باستعمالها ارسم خريطة لتلك
الأصقاع بقصد العودة لغزوها . ولم يفتني وقد رآني شيخ من
شيوخ البدو وأنا اشتغل بالتiodوليت ان افسر له بسرعة واهتمام
اني اعمل في إعداد إمساكية لشهر رمضان . وكان عبد الله وليس
بالبدوي الساذج يعينني كثيرا في سبيل تمهيد ملاحظاتي العلمية
وكان اختصاصيا في الاحتيال على تفادي العقبات التي تعترض سبيل
أعمالي مظهرافي ذلك حذقا شديدا في منع سوء التفاهم

كنت ذات يوم أعمل على مسافة من جالو بعض الملاحظات
بواسطة جهازى فمر بنا أحد سكان المدينة وسأل عبد الله ماذا تعمل
فقال له «إننا نأخذ صورة لجالو فقال البدوى «أتأخذون صورتها
على هذا البعد» فأجابه عبد الله على الفور «ان هذه الآلة تجتذب
الصورة فتطير اليها وتنطبع فيها» فقال البدوى المرتاب «وكيف
يجتذب الصندوق صورة» فبرز عبد الله كتفيه وقال «سل المغناطيس
كيف يجذب الحديد» وهكذا انتهت هذه المناقشة التي أظهر فيها
عبد الله حذقا ولباقة

الفصل العشرون

في الطريق

تأهبت للسير يوم الخميس ١٥ مارس فصحوت في الساعة السادسة أهياً حوائجى وقضينا في إعداد كل شيء ثلاث ساعات كما هي العادة في أول يوم من أيام السفر نظرا لعدم تعود القافلة على ما يستلزمه السفر من ربط وحل وكان علينا أن نسير على عادة البدو من (التجهيز) وهو الاصطلاح الذى يطلق على الذهاب الى بئر قريبة قبل البدء في سير طويل والاستعداد في بحر بضعة أيام لعمل الترتيبات الأخيرة بعيدا عن مشاغل حياة المدن وكانت بئر بو الطفل وهي على بعد ثلاثين كيلومترا تقريبا من جالو — البقعة التي أردنا أن نجرى عندها « التجهيز »

وبعد أن تم حزم كل شيء جاءنا حاكم المدينة وأشرافها وأخوانها ليقوموا بتوديعنا بجلوسنا جميعا القرفصاء نتشاور في أمر الرحلة . وكنت قد سافرت الى الكفرة قبل هذا بسنتين في ظروف أكثر موافقة وأسعد حظا ومع ذلك فقد ضللت الطريق

قبل الوصول الى الكفرة وكان الجو في رحلتنا السالفة
أشد ملاءمة والريح والعواصف أضعف هياجا والقافلة أقل عددا
ولم تشغلني في رحلتى الأولى مسألة إعداد الجمال وعلفها وتهيئة
الرجال وطعامهم وأدواتهم لأن السيد إدريس تفضل فقام عنى بتعهد
القافلة ولوازمها وكانت هذه الرعاية من جانبه باعثا قويا على تهديته
خواطر البدو وازالة رييهم ومحو نزعة الكراهية فيهم للأجانب
ولكنى وجدتني هذه المرة مضطرا لترتيب كل شئ بنفسى مع ما
يبعث فى نفوس العرب من الدهشة أمثال هذه القافلة الكبيرة
التي تحمل كمية وافرة من الحوائج التي تستلزمها رحلة طويلة

والطبيعة قاسية فى قطع المسافات الطويلة الخالية من الماء
وهى فيها عدو الانسان الوحيد وفى مقدورها أن تكون عدوا
لدودا اذا شاءت ولكن تضامن الرجال وغيرتهم على العمل مما
يجعل القافلة تهزأ بالحوادث وتمضى فى سيرها آمنة مطمئنة . وكان
رجالى الأربعة الذين استحضرتهم من القاهرة والسلوم وسيوة
على أحسن ما يكون من لطف المعاملة مع كل من لاقينا . وكان
الزروالى وهو الاخوانى الذى انتدبه السيد إدريس لمرافقتنا مثال
اللطف والاخلاص وقد أفرغ كل جهده فى توفير أسباب الراحة

أثناء الرحلة . والحق أقول انى لم أكن أحمل هما للطوارىء مهما
قست علينا الطبيعة

وبعد أن حملنا الجمال بدأت حفلة «الموادعة» التى اعتادها العرب
فوقفت مع رجالى على شكل نصف دائرة وواجهنا شيوخ جالو
واخوانها وقد وقفوا على شكل نصف دائرة اخرى . ورفعنا
الاكف خاشعين مبتهلين أن يبارك الله رحلتنا وان يسدد خطانا
ويرجعنا سالمين الى الاوطان وقرأنا الفاتحة وامن عليها اكبر
الاخوان سنا ثم تبادلنا الشد على الايدى وبدأنا السير بين صراخ
الرجال تبستحت الجمال وزغرودة النساء تدوى فى الفضاء

وزاد اقبالنا على السفر ما حدث لنا عند اختراقنا اللبة وهى
ثانية القريتين اللتين تكوّنان مدينة جالو فقد لاح لنا على جانب
الطريق بدوية رشيقة القوام قد انفردت وهى مسدلة نقابها على
وجهها فلما مررنا بها ادار رجالى الابصار الى الغانية وصرخوا
يصوت واحد « وجهك وجهك » فعطفت البدوية وازاحت
نقابها وهى خفزة فكشفت عن وجه بديع القسمات صافى الاديم
يتم عما عرف فى غواني البدو من حياء وجلال . وبهر جمالها رجالى
يوملك ادبها نفوسهم فارسوا عبارات الاعجاب والسرور ولم يسعنى
امام ذلك الا أن أسير على عوائد البدو فى مثل هذه الظروف

فامرت رجالى ان يفرغوا البارود عند قدميها . فتقدم حامد ورقص امامها رقصارشيقا كأنما يقع له الطبل ايقاعا منتظما وهو ممسك بندقيته فوق رأسه بـسكتا يديه جاعلا فوهتها الى الامام ثم اقترب منها وهو يغنى أنشودة بدوية من أناشيد الغرام حتى اذا صار قبالتها هوى على ركة واحدة وصوب بندقيته الى موطن قدميها ثم اطلق النار على قيد شعرة منهما . وكان هدفه من القرب والدقة بحيث أصاب لهب البارود حذاء الصبية فشاطت جوانبه . ولم تجفل عند اطلاق النار بل ظلت منتصبة القائمة نفورة بالشرف العظيم الذى نالته لان الحذاء الشائط فى ارجل الغادة البدوية دليل نخار تسمو اليه فتيات الصحراء

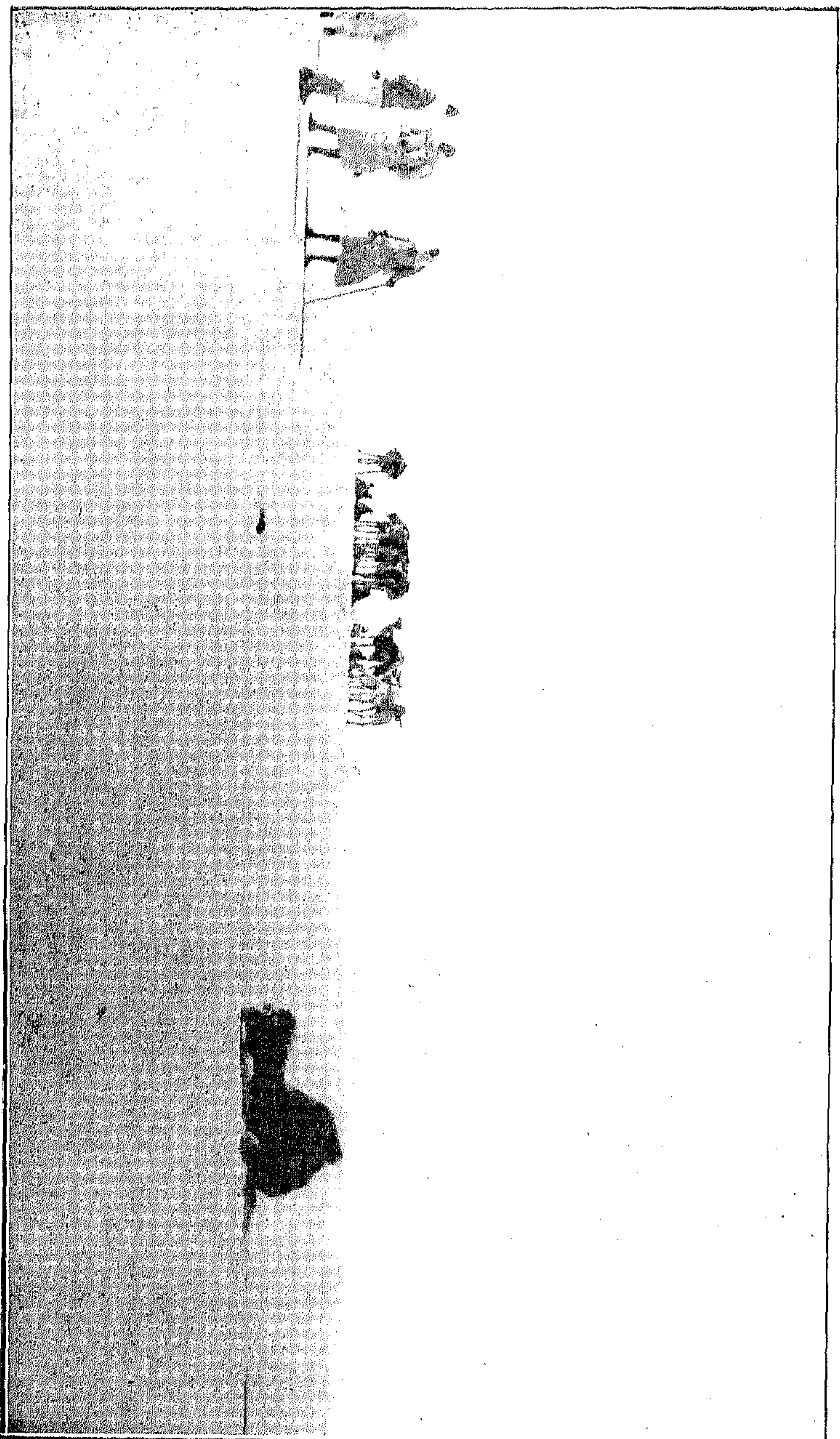
وحاكى سعد اخاه حامدا حتى اذا انتهى من اطلاق النار صرخ رجال القافلة مهللين مستبشرين وبدأنا المسير وبسمت الصبية فى اثرنا كأنما سرها ما لقيته من اكرامنا لها تفاؤلا بالوجه الصبيح تشرق علينا طلعتة فى اول ساعة من ساعات السفر واحتوانا فضاء الصحراء فوصلنا بعد سير ثمانى ساعات الى بئر ابى الطفل حيث نويـنا الإقامة يوما وقضينا ليلتنا اطرب ما تكون وسمرنا حتى منتصف الليل فى حديث وغناء حتى اذا تهيأ رجالى للنوم اخذت « غليونى » وانطلقت اخلو بنفسى ولم يكن احب الى فى الصحراء من تلك الرياضة

الانفرادية التي ادخن فيها «غليونى» الاخير قبل الاقدام على السفر
الطويل وانا هادىء البال وادعه

وكنت راضيا عن كل شيء . يسرنى التوفيق فى اليوم السعيد
ويملأنى الامل فى الغد اذا أخطأنى الحظ فى يومى الحاضر . ولا
اكون مبالغا ان قلت انى لم ادخل فراشى ليلة من ليالى السفر وانا
احمل فى نفسى هما من المموم مهما ضايقتنى الظروف أو آذنتى
الأحوال

وقضينا اليوم التالى فى التمهيدات الاخيرة للسفر ولحقنا ابو
حليقة صاحب الجمال فى قافلة صغيرة مكونة من ثلاثة جمال وتبعه
فى نفس اليوم رجل من جالو

وكنّا فى حاجة الى حبال ومشد ولكن بائعيها بالغوا فى طلب
التمن واصطال عبد الله معهم الفصال وترك البت فى امر الشراء حتى
آخر لحظة واتفق مع رجل منهم اسمه السنوسى ابو جابر على ان
يتبعنا بالجمال الى ابى الطفل . وحضر الرجل فجاء الى خيمتى
واخبرنى ان له اخا فى وادى وطلب منى ان آخذه معنا على شريطة
ان يخدمنا طول الطريق قياما منه بنفقات الرحلة فتوسمت الرجل
وعرفت انه جدير بمرافقتنا وساقنى منه على الخصوص ظرف
وفكاهة نحن احوج مانكون اليهما فى قطع الصحراء فقد تخون



جبل ينفق في الطريق

الانسان قواه فيستعين على تحمل التعب باشغال باله بسماع الملح
المستطرفة وكنت اود ان يرافقنا ولكن ذلك لم يكن بالامر الهين
كما يدل ذلك الحديث الذي جرى بيني وبينه

قلت انا مسافرون في التو وليس لديك من الوقت ما يمكنك
من السفر الى جالو والعودة بامتعتك
فقال « ان لدى كل ما احتاجه »

فسألته وأنا أدور بعيني مندهشا : « واين حوائجك؟ »

فاشار الى قميصه وعصاه وقال : « هات كل ما يلزمي »

فضحكت من اعماق قلبي حيث رأيت أن هذين الشيئين هما
كل ما يحتاجه الرجل في رحلة صحراوية متعبة وشاركني في ضحكي
طروبا . ورضيت بمرافقته لنا ولم اندم على ذلك فيما بعد فقد خبرته
اثناء السفر فكان من أحسن رجالى

وسقينا الجمال في اليوم التالى ولم نكن في ذلك بالمتعجلين لان
حال الجمال أهم شيء في قطع الصحراء ولا يكتفى باشباعها وتسمينها
قبل الرحيل بل يجب تركها تشرب جهدها من الماء وفق رغباتها
والسماح لها بعد ذلك بالراحة . واستعدت الجمال فحملناها بعناية
شديدة لان وضع الاحمال بدقة على ظهور الإبل في مبدأ الرحلة
يوفر وقتا طويلا وعناء شديدا أثناء السير فقد يوفر المسافر يوما

أو يومين من الوقت المحدد للرحلة اذا لم يُضع وقتا طويلا في وضع
الاحمال ورفعها يوما بعد يوم

وتأهبنا للسير في منتصف الساعة الثالثة وما كادت الإبل
تتحرك حتى دوى صوت ابى حليقة بالاذان جريا على عادة البدو
عند البدء بالسير . فان التقاليد البدوية تزعم أن القافلة التي تستهل
سيرها بالاذان تختمه بالاذان كذلك غير ملاقية في الطريق اذى أو
مصبية . وقد زاد عدد القافلة بالتدرج حتى أصبحت تضم تسعا
وثلاثين جملا وواحدا وعشرين رجلا وجوادا وكلبا . فكان رجال
القافلة أنا ورجالي الاربعة عبد الله وحمدا واحمد واسماعيل والسيد
الزروالى واباحليقة صاحب الجمال وابنه وابن اخيه وعبيده وداود عم
الزروالى وكان مزما السفر على جملة الوحيد الى واحة تيزربو لا حضار
زوجه وابنته . ودليلنا أبو حسن والسنوسى بو جابر صاحب
القميص والعصا وحمد الزوى مغنينا المطرب وسعد الاوجلى وفرج
العبد وعبدان من قبيلة التبو وبرفقتهم ثلاثة جمال وثلاثة عبيد
آخريين من نفس القبيلة ومعهم ثلاثة جمال محملة بضائع بقصد تسليمها
الى بعض تجار الكفرة

واتجهنا جنوبا قاصدين الكفرة وكان يوم الرحيل حارا
شديد الريح ورمال الارض المنبسطة متماسكة تتناثر عليها صغار

الحصى . وكان مقصدنا الاول بئر الظيغن التي قدرنا الوصول اليها في تسعة ايام . وكانت العادة قبل عهد السنوسيين ان تقطع هذه المرحلة في بحر أربعة ايام من غير ان تقف القوافل في الطريق لتناول الطعام او طلب الراحة ولكن السنوسيين أبطلوا هذا وادخلوا عادة حمل الزاد والماء الكافين للقيام بهذه المرحلة في ضعف الوقت السابق وتمكين الرجال والجمال من الراحة كل يوم

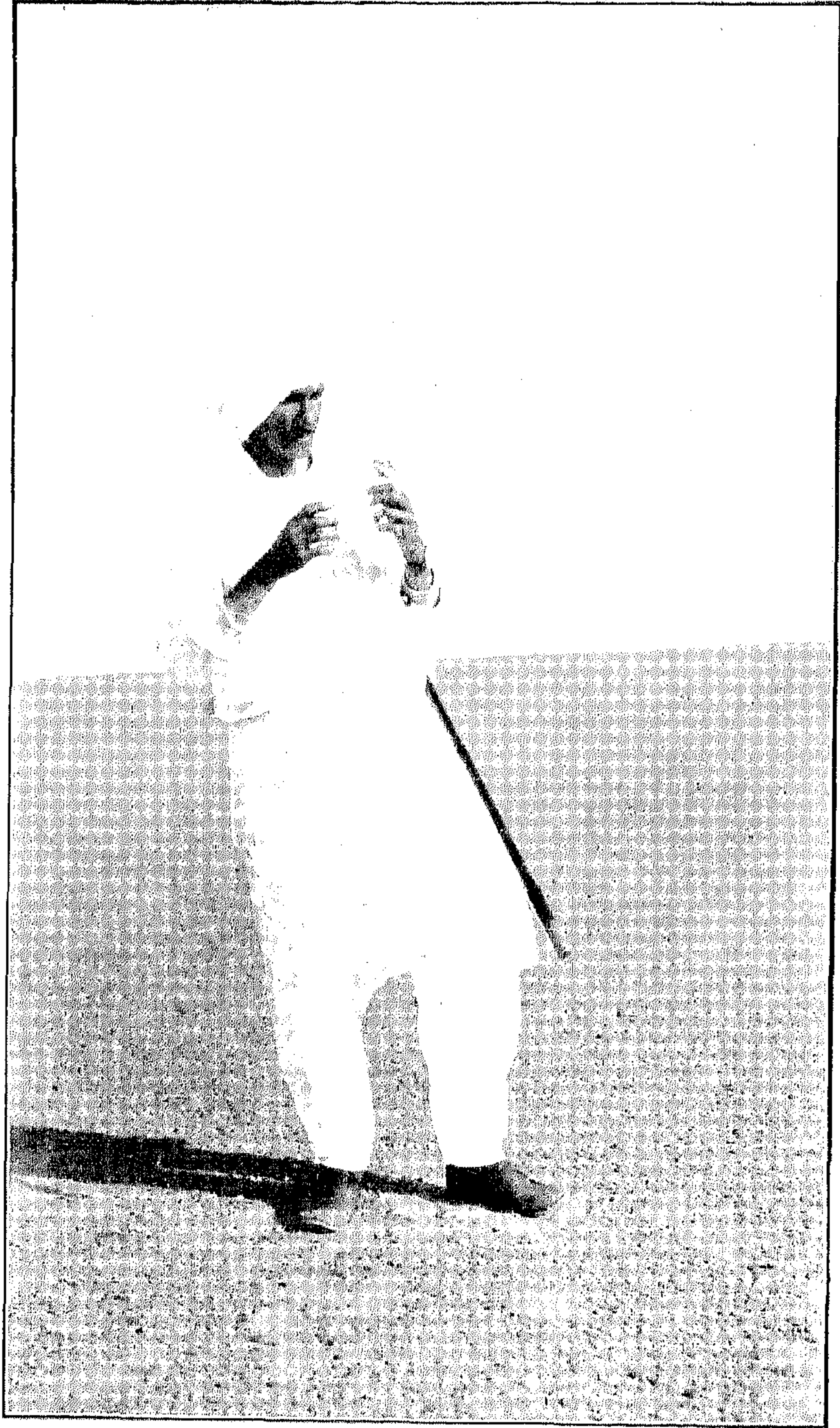
ولم تقبل الجمال على السير بادية بدء لانهم لم تكدر ترك مراعيها التي تؤثر العودة اليها عن السير في الصحراء فحاول أبو حليقة ان يجعل تجار التبو يتقدمون القافلة بجمالهم ولكنهم رفضوا ذلك بلياقة لان السير في المقدمة شاق على الجمال اذ يفضل الجمال ان يلحق سابقه عن ان يسير في الطليعة غير تابع ولذلك يضطر الجمال المتقدم في بعض الاحيان الى الاستمرار في السير بالكز والضرب بالعصا . وهذا هو السبب الذي دعا العبيد الى تفضيل السير في مؤخرة القافلة حتى لا يضطرون الى استحثاث لابلهم . ولم يأب أبو حليقة ان ينزل لهم عن هذا ولكنه استفاد من خدماتهم اثناء السير

واستمر اشتداد الحر وهبوب الريح حتى عصر ذلك اليوم ثم حل المساء فقرت الريح واستحالت نسima ليلا وبدأت الصحراء تأخذ رونقها الساحر . واني لا أجد في يومياتي التي كنت أكتبها

أثناء الطريق بضع فقرات دونتها وصفا لاحتاسى عند عودتى الى هذه الصحراء التى طرقها من قبل وشعورى بالاقتراب من الجهة التى ضللت فيها الطريق منذ سنتين والى القارىء بعض ما كتبت « هذه عين الصحراء المنبسطة التى تهيج فى خاطرى ذكريات قديمة ما اكثرت الانسان غفرا لشمس الصحراء المحرقة ورياحها العاتية اذا هدا المساء وغربت الشمس وطلع القمر وهب النسيم وانيا بليلا وما أسرع ما ينسى اخطارها فى الاستمتاع بملذاتها التى تحببها اليه رغم قساوتها وجفافها

انى لا أنسى آلامى فى كوب من الشاي وفى «غليون» أدخنه ورجال القافلة نيام وتحمل أذيال النسيم عبقه الفياح . وأجد لذة فى رؤية انعكاس ألبنة اللهب على وجوه رفقاءى بين شيخ مغضن الجبين وشاب ناعم الاديم . وتطربنى ملاحظة الرجال يعملون فئهم الموفقون ومنهم الخائبون ويملاً نفسى فوق كل هذا احتاسى بالقرب من الله جل وعلا والشعور بحضرتة »

صحونا فى اليوم الثامن عشر فى الساعة السادسة فحملنا جمالنا فى ٣٥ دقيقة ولم نستطع تحميلها بهذه السرعة لولا عنايتنا بتحميلها أول الامر فى جالو وبئر بو الطفل . على اننا لم نبدأ السير الا فى الساعة التاسعة لان الاسراع فى إعداد العدة للرحيل شىء يضايق



الرحالة مع عصفور وقع من شدة العطش في وسط الصحراء
بين بئر بو الطفل والظيغن

البدوى الذى يكره أن يضطر الى الاسراع فى تناول طعامه وأن يحرم من دقائق الفراغ اللازمة لتنظيم حركة الهضم وخلق الرضا فى نفسه والعاقل بين رؤساء القوافل من يلاحظ كل هذا قبل إصدار أمره بالرحيل . وإني لأرى الفرصة هنا مناسبة لاعطاء القارىء صورة ليوم من أيام السفر يكون مثالا لجميع الايام التى قضيناها فى السفر الى ان وصلنا لواحة اركنو

كانت رحلتنا هذه فى شهر مارس ومع هذا فقد كان البرد شديدا يضطرنى الى الاستيقاظ بعد الفجر بقليل لان البقاء فى الفراش يعرضني لفتك البرد القارس رغم ما أشعر به من الدفء فى اكياس النوم وتحت ملاءة البدو الصوفية وأنظر من ثنایا الخيام فأرى نجوم الصباح تغيب وهى حيرى كسالى . أصبحو فأجد أحد رجالى قد أوقد النار وأشعر بدافع الى الاسراع فى طلب الدفء فالتحف بجردى وألف كوفيتى حول أذنى ثم أندفع الى النار مقررورا فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . أقف الى جانب النار ثم أدور بعينى فأرى الرجال منكشين من فعل الصقيع وان صحوا من نومهم جميعا . وألحظهم وقد أنسوا الى الدفء فى ألقاف جرودهم وكل ما وصلت اليه أيديهم من الثياب واعتدنا متى كان الماء وفيرا أن تُدار اكواب الشاى فيشربوها ثم تسرى فيهم روح العمل

فينطلق كل الى عمله ويقوم الجمال بعلف ابله بلحا (جافا) تلتهمه بما فيه من حصى و تراب وتأخذ في مضغه ثم يتعهد الجمال فيخفف عبء ما شكا منها بالأمس ثقل أحماله . ويحسن وضعها على ظهر ما آذاه سوء ترتيبها من قبل . ويقوم رجال آخرون فيحلون خيامنا الثلاث المنصوبة على شكل مثلث تضم أضلاعه ابل القافلة . ويفرزون ويعدون للتحميل حوائجنا التي كدسناها وأقمناها لوقايتنا من الريح الباردة

وفي هذا الاثناء اكون مشغلا بملاحظة البارومتر والترمومتر وتدوين ما قيده من الملاحظات في يوميتي العامية ثم اتحقق من وجود شريط للتصوير (فلم) جديد في آلات التصوير . أفعل هذا وأنا أسمع أصوات الرجال تشيع بين الخيام خافتة النبرات تحت ما تلم به الرجال من الكوفيات وغيرها من الملابس . ويعد طعام الفطور وقد يكون عصيدة أو أرزا وهما طعامان بسيطان ولكن الايدي تهوى عليهما في كلتا الحالين بهيئة شديدة لان الانسان لا يشعر في الصحراء بما يشعر به ساكن المدن من عدم الميل الى الفطور . ويعقب الفطور ثلاث اكواب من الشاي يحتسيها الرجال في ببطء وهوادة لان انزال البدوى على الاسراع في تناولها يضايقه ويفقده الميل الى العمل ويجعله يتباطأ في إنجازهِ ويشعر رجال القافلة بعد الفطور بالدفع والرضا والاستعداد

للعمل فيسرعون في تحميل الجمال رغم عناد صغارها التي لا تخلو قافلة منها والتي تمرق من تحت أحمالها وترمي بها الى الأرض بعد وضع كل شيء على ظهورها . وكان السيد الزروالى وعبدالله يشرفان على دقة التحميل والعناية به لان إضافة نصف ساعة الى الوقت المقدر لهذا توفر علينا تأخير ساعات في الطريق اذا زلت الأثقال أو آذى الدواب سوء توزيعها على ظهورها

وتستعد القافلة للسير فأعرف الدليل اتجاه سير اليوم ويرسم خط السير في الرمل فأحقق ذلك على إبرة البوصلة وهو يلحظني غير راض منى بعدم الثقة فيما يقول ولكنى أرى نفسى بذلك لاني أضمن بملاحظة البوصلة من وقت لا آخر صحة اتجاه سير القافلة سبحانه اليوم ولست أنكر أن ذلك الاحتراس الشديد كان ضربا من الوسواس فى نفسى لان السنوسى أبا حسن كان لا يخطئ غرضه كأنه خمامة تقصد وكرها وان كان يصيبه وسط النهار بعض الحيد عن جادة السبيل لانه يعتمد على ظله فى السير فيخونه فى الظهيرة اذا ختنى تحت قدميه . ويحار الدليل فى ساعة الغسق وهى وقت انتشار الشفق بين غروب الشمس وطلوع النجوم لان الجهات الاصلية تلبس عليه اذ ذاك فى منبسط الصحراء ولذلك كانت البوصلة نافعة فى بعض الاحايين كما حدث يوما فى إحدى رحلاتى عند الغسق إذ

رأيت بفضلها الدليل وقد حاد ما يقرب من التسعين درجة عن
سواء السبيل . ومع هذا فدقة الدليل الماهر في ملاحظة الاتجاه
الصحيح حذق خارق للطبيعة

تفرغ من مشاورة بعضنا البعض في أمر الطريق الذي
منسلكه في يومنا وننتهي من تحميل آخر جبل من جمال القافلة
فيتقدم الدليل وتتبعه الجمال واحدا بعد الآخر ويدفي الرجال أيديهم
وأرجلهم آخر مرة على صهيد النار الخالية ثم يلبسون أحذيتهم
البندوية ويسرعون الى اللحاق بابلهم وهم يغنون جذلين ينعش
نفوسهم نسيم الصباح ويبعث فيهم النشاط والهمة

وتشتد حرارة الشمس بعد ذلك فاذا لم تكن هنالك ريح
تكسر من شدة حرارتها نزع الانسان ما التحف به من الغطاء
حول أذنيه وعنقه وانتهى به الامر الى خلع جردته ووضع مانضا من
التياب على ظهور الجمال . ثم أخذ الجميع يتبادلون الثكبت
ويتسابقون في العدو وهم فرحون ناشطون ثم يلتئمون بعد ذلك
جماعات على طول القافلة ويتساجلون الحديث في مختلف الشؤون
وكثيرا ما كنت أتقدم القافلة أو أتعقبها على مسافة كي ألاحظ دقة
اتجاه المسير بالوحدة وأشعر بالوحدة وأنعم بجمال الصحراء

وينتصف النهار فتخامرني بعض الاحيان ذكريات بعيدة

تقطع على خط التفكير في جمال الطبيعة فيتمثل لي غشيانى المطاعم
 المألوفة في المدن البعيدة واستمتاعى بمختلف ألوان الاطعمة التي
 أتشهاها في تلك الساعة من النهار فيبغتنى احمد أو عبد الله في هذه
 الآونة فيضع في يدي كيسا من البلح يمحو هذه الاحلام وان
 كنت ألتهم ما فيه بشبهة لا أقبل بمثلها على طعام في بلاد الحضارة
 والمدنية والرفاهية

ولا تقف السير لتناول الغذاء لان الجمال تأكل مرتين
 في النهار .

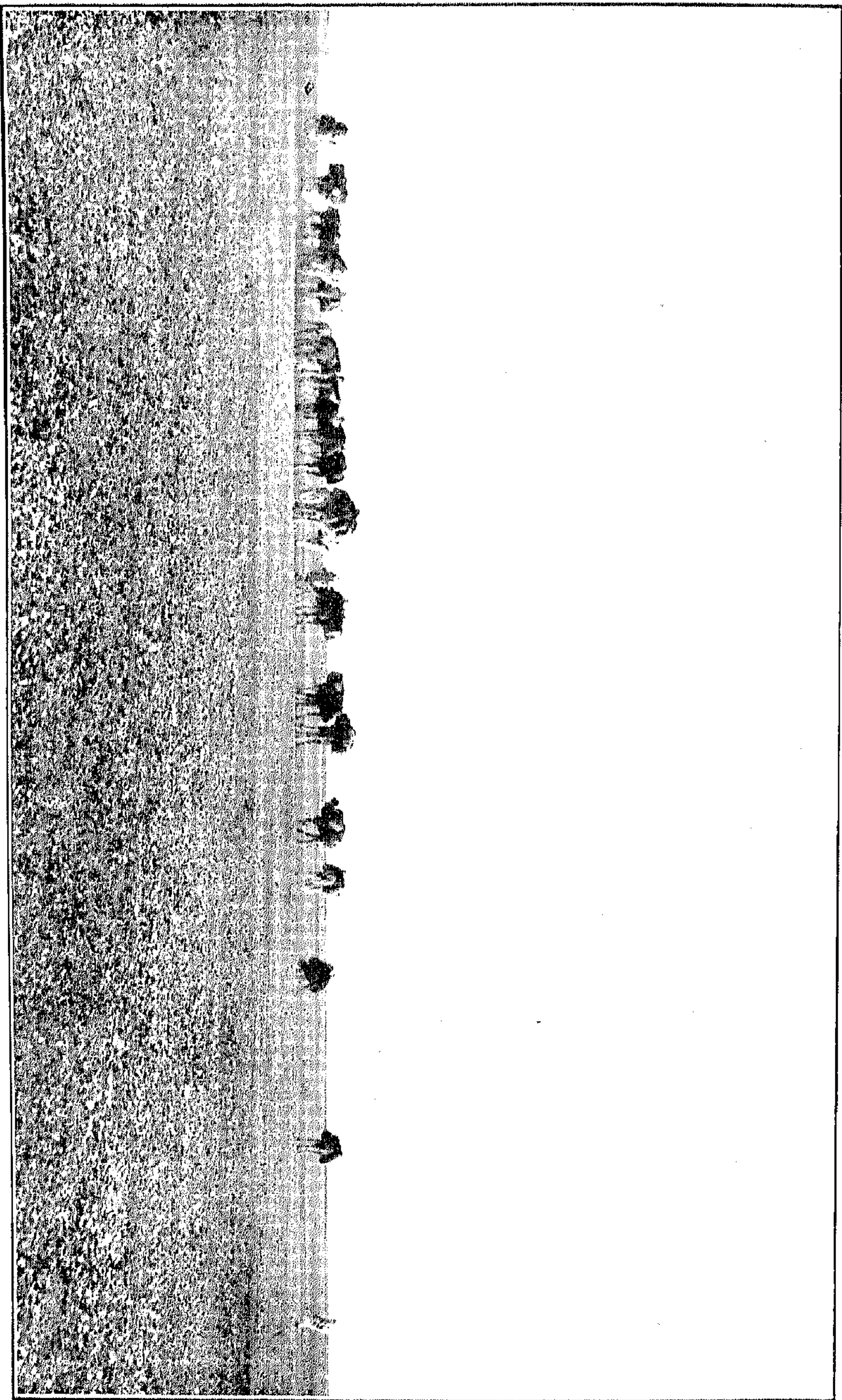
ومتى حللنا بواحة عمدنا الى أخذ حاجتنا من الخبز ولذا فانه
 يكون طريقا عادة عند خروجنا من الواحات ويصيب كل منا رغيفا
 أو نصف رغيف . حتى اذا طال بنا السير بين واحة وأخرى جف
 الخبز أو نفذ فقنعنا بالبلح الذي لا ينقطع عنا مورده

وكان من عادتي أن أضع خيمة مطوية على ظهر جمل من جمال
 القافلة حتى يرقد عليها كل متعب من السير فيستريح وكان يسميها احمد
 «الكلوب» واني لا أذكر أن عبد الله التمسني ذات يوم ليعطيني نصيبي
 من الخبز والبلح فسأل احمد « أين البليك ؟ » فقال له احمد وهو يفخر
 بعينه « ان البليك يتناول غذاء اليوم في الكلوب » وقد يمتطي الانسان
 بعيره فيغفو قليلا على ظهره ولكنه يفضل المشي لان سير الجمل بطيء

يمكن صاحبه من ملازمة القافلة وكثيرا ما يكون السير على الاقدام
أقل إنهاكاً للقوي من الزكوب

وقد يلوح طول اليوم مجرى من الماء يبرق أمام القافلة عند
الافق ولكن هذا المجرى الموهوم لا يقرب من رائيهِ ويظل يغريهِ
ببرودة مائه وغذويته حتى اذا جنحت الشمس للغروب انمحي
السراب الذي خدع الابصار طويلا . ويلوح نوع آخر من السراب
في بكرة النهار فتراعى البلاد النائية معكوسة في السماء على مقربة
من خط الافق . وليس هذا النوع من السراب خداعا للبصر
كسابقه ولكنه صورة منعكسة للبلاد الواقعة على مسافة عشرات
الأميال قدام رائي السراب وتمحي هذه الصورة بغتة اذا توسطت
الشمس كبد السماء .

ويؤثر انعكاس الاضواء تأثيرا عجيبا في نواحي الصحراء فيبدو
الحجر الصغير على بعد ميل صخرة كبيرة قائمة كأنها علم من
أعلام الطريق . ويتشكل هيكل الجمل أو الانسان أو جزء من ذلك
الهيكل بأشكال غريبة ولا تخدع البدوى هذه المظاهر لانه خبرها
طويلا . أما القول بأن السراب يغري البدوى ويضله طريقة ويورده
بموارد الهلاك فقول مبالغ فيه لان المتعود قطع الصحراء يميز السراب



الغافاة في عرض الصحراء بين برنو الطفل ومنطقة الظيغ

الحقيقى وقد يتبين البلاد من رؤية صورها المنعكسة فى صفحة
السماء فيساعده هذا على السير

وتشتد الحرارة بعد الظهر فيبطؤ سير الإبل ويغشى القافلة
هدوء وفتور فاذا قرب المساء وبرد الجو جدت الإبل فى السير واندفعت
قبل أن تحين ساعة ضرب الخيام وحذاها الرجال بالغناء يستحثونها
للمسير فأسرعت هاشة لهذا التشجيع

وأغانى البدو بسيطة شعرية تم عن حياة الصحراء . فتمثل
إحداها بدويا ينتظر القافلة المنشودة فى إحدى الواحات ويعنى إبلها
المقبلة بما يأتى

الليل هود والمرام (١) تاقث وأنت لفيتى (٢) والخواطر راقث

ثم يعنى بجماله فيقول

كم منهل فى ذرا غرد (٣) عاميه سفو التراب

جثنيه بالجوز والفرد يا شاهره كل غابى

ويخاطب جماله فينشد

كم منهل بين جارات (٤) عافيه (٥) ميه ما لها تهييه (٦)

تجيه حنى كيف السوارات إلى تدق فى الخارجيه (٧)

(١) ثلاثة نجوم (٢) وصلت (٣) تل من الرمل (٤) تلال حجرية صغيرة
(٥) به (٦) حد (٧) أى مثل الأسورة المصوفة فى الخارج

ويحدث آخر جماله فيقول

كم علو قابلها وفيه مواير^(١)

جاءتك كما فَرَّق الحمام الطائر

أما الأغنية التي أنقلها فيما يلي فتمثل مكان الجمل من نفس البدوى فهو أعز ما يملك وأضن ما يجود به وهو لا ينزل عنه حتى يموت في سبيل المحافظة عليه . وقد يتحين البدوى الفرص للثأر من قاتل أخيه أو ابنه ولكنه إذا ضاع جملة هام على وجهه فلا يقر له قرار حتى يسترجعه ولو سفك في سبيل ذلك دمه والمثل البدوى يقول « اللى ما يصونها ما هى له » وهذا ما يحدو به البدوى تنويرها بجملة: وافتخارا به .

في شأنك صننا^(٢) الاجواد يا حنَّانه

باتو مرامى ما هووا جبَّانه^(٣)

والبدوى ينشد من الاغانى ما يوافق الظروف التي يتغنى فيها . فينشد الأغنية الأولى إذا طالت عليه الشقة الى الواحة التي ينشدها ويعنى الثانية إذا قرب من الأصقاع التي تتناثر فيها تلال الرمل وينشد الثالثة والرابعة إذا أشرف على بئر ويتغنى بالاخيرة إذا دخل أرضا يسكنها أعداؤه

(١) أمارات (٢) أولاد (٣) أى قتلوا في سبيل الدفاع عنها ولم يدفنوا

وكان من دأبي إذا حل وقت الغروب أن أسير على مقربة من الدليل حتى أعينه على السير في الطريق السوي بواسطة إبرة البوصلة لانه قد يخطئه قبل أن تطلع النجوم فيهدى بها — ثم ينتشر الظلام فيعطى الدليل سراجا يسير على نوره الضئيل في تلك الحلقة الشاملة وكان كلما ابتعد عنا نوره وراغ منا كلما ازددنا اسراعاً في محاولة اللحاق به . وتحب الجمال خاصة أن ترى السراج ينير في أبصارها وتندفع الى الامام في أثره .

وهكذا تمضى بنا اثنتا عشرة ساعة أو ثلاث عشرة ساعة ونحن سائرون وقد تعاكسنا المقادير فلا يسير هذا الزمن الطويل ثم تنتهى مرحلة اليوم وتحين ساعة حط الرحال فينادى الدليل « الدار يا عيان » ويكرر هذا النداء بعده جميع رجال القافلة ثم يضمون جماهم ويقسمونها جماعات بين حاملات الماء وناقلات الخيام وحاملات الحوائج المعدة لعمل المتاريس . وتبرك الجمال راضية عن دنو الساعة التي ترتفع فيها الاثقال عن ظهورها . وتأخذ الرجال في رفع أحمالها فأشرف على ذلك بنفسى خوف الاهیال فقد تنهاون الرجال بعد جهد السير في إنزال الصناديق التي تحوى أجهزة العلمیة وآلات التصوير . فيحطمون ما فيها . وتُصَف الحوائج على شكل

سدّ يدفع الريح ان كانت شديدة الهبوب وتنصب الخيام على شكل مثلث إلا اذا كان الجو صحوا والريح رخاء ولست أدري أى الوقتين أحب الى نفسى وأمتعها . أهو وقت ضرب الخيام بعد سفر يوم طويل أم وقت فكّها فى الصباح استعدادا للمسير .

ثم توقد النار وتتصاعد ألسنة الوقود فتلقى ضوء لهبها على الرمال وتضطرم فيكون أول همتا الشاى الذى أقدر فائدته وأذوق لذته رغم اسوداد لونه ومرارة طعمه فان البدوى يأخذ «حفنة» من أوراق الشاى وأخرى من السكر ويلقى بهما فى وعاء الماء حتى اذا غلى ما فيه رفعه عن النار ووزع اكوابه على إخوانه فجدد نشاطهم وأنعش نفوسهم وقواهم

ويشرب الرجال الشاى ثم يعدون العشاء ويتناولونه ويعلفون إبلهم ويستعدون للنوم أما أنا فأكون فى ذلك الوقت منهمكا فى مقارنة الساعات الست التى أحملها وتقييد الصور التى أخذتها مسجوبة اليوم وتغيير «أفلام» السينما فى الظلام ووضع أسماء العينات الجيولوجية التى جمعتها وترتيب مواضعها وكتابة يومياتى وملاحظاتى العلمية وغيرها . ولم اكن لأقوى على القيام بعمل كل هذا لولا ما دبّ فى أوصالى من تأثير الشاى . وربما نشطتنى اكوابه فأحسست ميلا الى التجول فى الصحراء فاذا لم تكن الريح باردة سرت نصف ميل وأنا

أدير البصر من وقت لآخر فأرى أشباح الرجال فوق أديم السماء
 عند الأفق ويبدو لعيني فيملك لبي منظر الخيام المتقاربة والحوائح
 المكسدة والجمال الباركة ينعكس على كل ذلك بصيص النور المنبعث
 من النار الخامدة في وسط ذلك المنبسط المنتدح من الرمال ، ويعمرني
 السكون من جميع نواحي " فلا أسمع همس النسيم بين الأغصان
 ولا خرير الماء في الغدران كما يسمعها المنفرد في الأحراج الملتفة
 الأشجار ولا يقع في أذني صوت الأمواج وهي تتكسر على جوانب
 السفينة كما يصفي إليها راكب البحر

غمرتني سكون الكون حتى

كدت أصفي إلى حديث السكون

الفصل الحادى عشر

الطريق الى بحر الظيق

سأقيد من الآن فصاعدا ما كتبتة فى يومياتى يوما بعد يوم

الاحد ١٨ مارس :

قنا الساعة التاسعة صباحا ووقفنا الثامنة والنصف مساء .

قطعنا ٤٦ كيلومترا . كانت أعلى درجة للحرارة ٢١ واسفلها ٣

كان اليوم غائما والمساء صحوا . أمطرتنا السماء رذاذا بعد الظهر

وثار ريح حاصفة من الشمال الشرقى تحولت الى زوبعة رمال فى

منتصف الساعة الثالثة وسكنت الريح عند الغروب ثم ثارت ثانية

فى الثامنة مساء . الشمس غائبة والدليل حائر بعض الحيرة فى تحديد

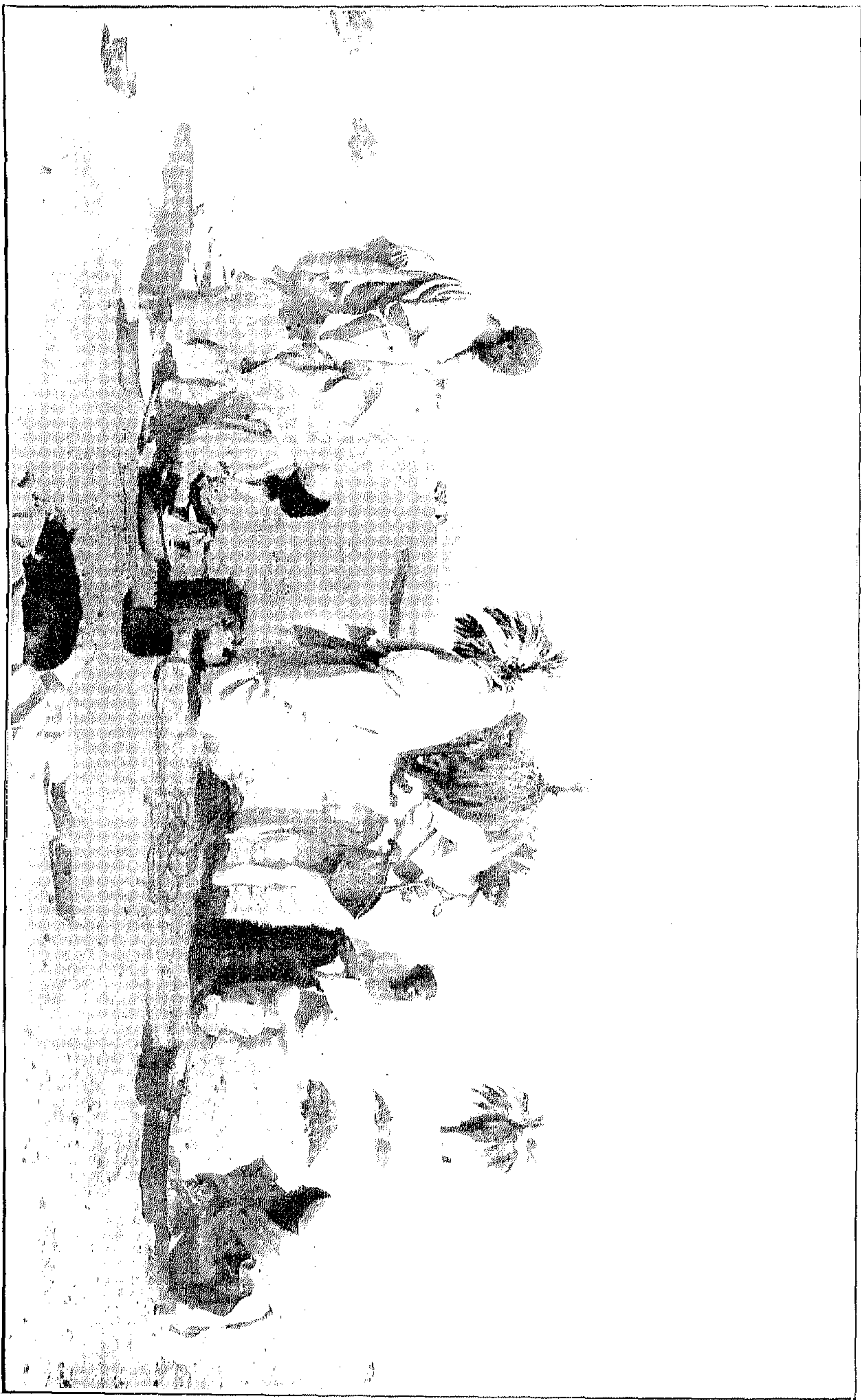
الجهات كما أتبين ذلك من ملاحظة البوصلة . ظهرت الشمس فى

منتصف الساعة السادسة فأقام الدليل معوج سيره . ظهرت نجمة

القطب فى السابعة والنصف فاهتدى بها . ويسمى العرب هذا

النجم (الجدى) . الارض منبسطة كعهدنا بها أمس ولكنها متموجة

الأديم قليلا يتناثر عليها أكوام الصوان الكبير القاتم اللون



بئر الحرش في الكنفرة منطقة الظيغن

وأصبح الصباح فطرب رجال القافلة حين رأوا عند الافق
 عقدا من الاشباح ينبىء باقتراب طليعة قافلة . وتحققت القافلة
 بمنظاري وأدركته على الرجال فتزعنا البنادق من اماكنها على ظهور
 الجمال وأسرع رجال (التبو) الى رماحهم واصطف الجميع على ناحية
 القافلة القريبة من القادمين وصوبوا الابصار يقظين حتى يتأكدوا
 من سلام القادم أو عدائه

ولم يمض بنا القليل حتى تيقنا صداقة القادمين فتلاقى رجال
 القافلتين وجلسوا القرفصاء يتبادلون الاخبار تاركين جماهم تسير
 يطيئة الخطو وكان الحديث دائرا عمن تزوج او مات او أثرى متناولا
 ما نشأ من طلب ثأر جديد وما قر من عداة قديم ثم قام الرجال
 مودعين داعين بالتوفيق ولحق كل فريق بقافلته . ولعمري ان هذه
 المقابلة الهفافة في صميم الصحراء هي عند العرب بمثابة البرقيات
 اللاسلكية

الاثنين ١٩ مارس :

قنا الساعة الثامنة والربع صباحا ووقفنا في الثامنة والنصف
 مساء وقطعنا ٤٩ كيلو مترا وكان اعلى درجة للحرارة ٢٢ وأقلها
 ٥ . وكان الجو صحوا جميلا وقامت ريح قوية من الشمال الشرقي وقرت
 عند الظهر وانتشر في العصر سحب صير وكانت الشمس شديدة
 الحرارة تعوقنا عن الاسراع في السير حتى اذا حل المساء رطب الجو

فجددنا في السير . وكانت الارض منبسطة صلبة يكسوها بساط من
الحصى الرقيق وفي السادسة مساء قطعنا منخفضا من الارض قد
قامت على جانبه الايمن صخرة رمادية اللون وقامت على بعد كيلومتر
منها الى اليسار صخرة بيضاء

كنا في هذه المرحلة نَحْبُ في السير وكان البدو والعبيد
يتسابقون ويقفزون . وعبيد التبو سذج على الفطرة سليمو النية
فقراء حريصون على ما يملكون فيلبسون قميصا من القطن وسروالا
يحافظون عليهما كل المحافظة ويتمنون لو ظلا على اجسادهم أبد
الدهر . فاذا امتطى أحدهم جملا خلع سراويله خشية أن تبلى أو
تقطع ثم علقها على ظهر الجمل فاذا أراد النوم خلع ملابسه خيفة أن
تحتك بالرمال فتبلى ويكتفى بالالتحاف بمعطفه الفرو . وحدث أن
البدو أخذوا سراويل أحد العبيد وهو على ظهر جملة ثم أخفوها فلما
ترجل والتمسها فلم يجدها خاف أن تكون قد زالت عن الجمل
وسقطت على الارض في بعض نواحي الطريق فاسرع بالعودة
جاريا ملء ساقيه يبحث عن صنائنه وأوغل في الصحراء حتى لم يبق
منه الا شبح ضئيل في ذلك المنبسط الممتد من الرمال . فاشفقنا
عليه واطلقنا النار ندعوه فعاد بعد تردد وانضم الى القافلة كاسف
الهال غير أن طرب المازحين به كشف له عن سر الامر فردت

اليه سراويله وكان سروره باسترجاعها شديدا فلم تغظه تلك المداعبة
الثقيلة

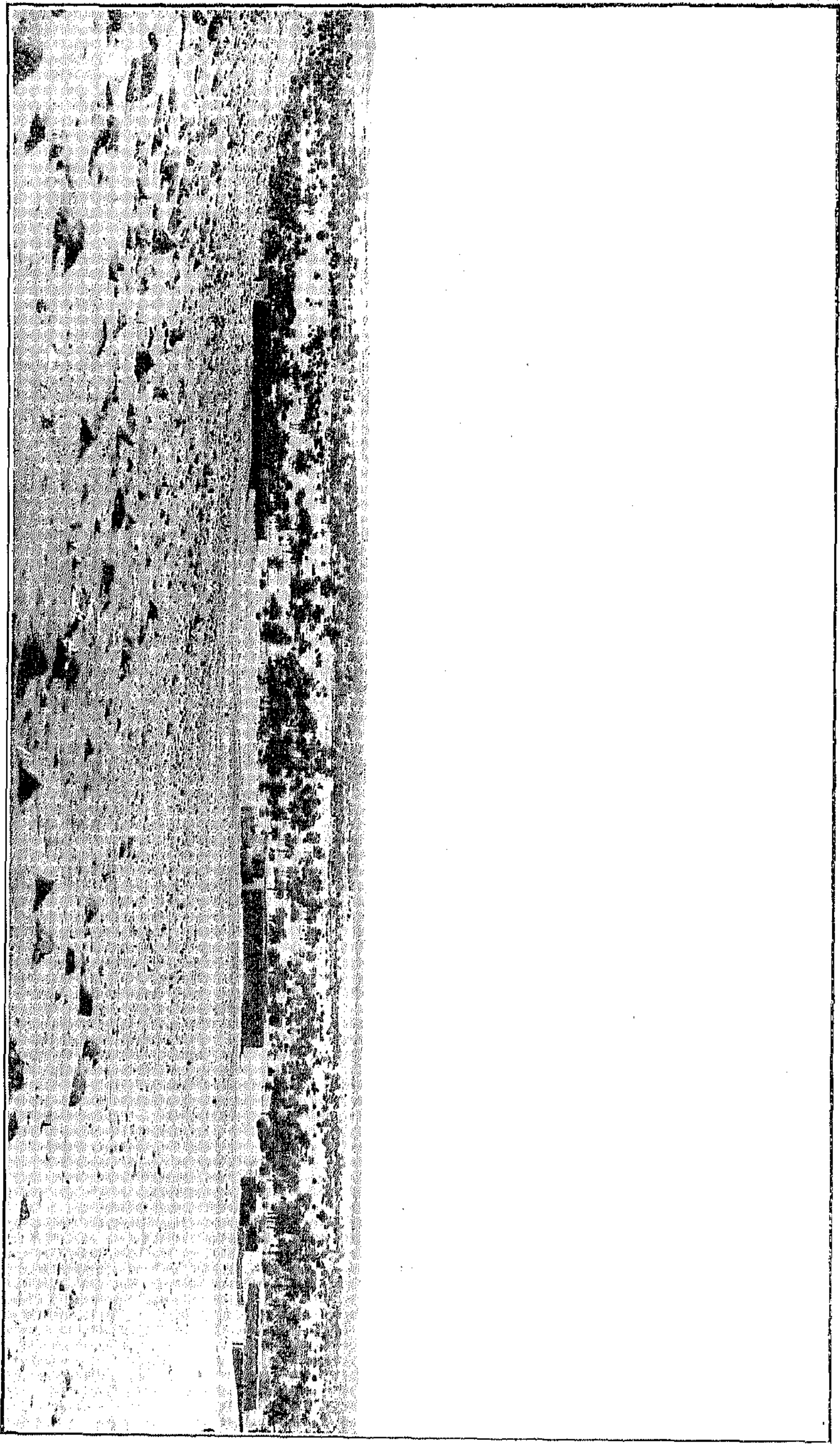
وحدث في الليلة الماضية ان افار الجمال على خيمتي وهددني
بهدمها على . والابل دواب شديدة الذكاء تحب ان تحك رقابها على
حبال الخيام فاذا نام رجال القافلة جاست خلال الخيام تطلب ذلك
فيدخل أحدها رأسه من ثنايا الخيمة حتى يتحقق نومي فاذا لم يسمعني
أنهره علم أني غارق في سبات عميق فاخرج رأسه ثم بدأ في حك
رقبته على الحبال وبعد قليل ينضم اليه الكثير من إخوانه ثم يأخذ
الجميع في هذا العمل حتى أفزع من نومي ظنا مني أن العواصف
الشديدة تزعزع أركان خيمتي

ومرت بنا الايام فما ازددت الا وثوقا بأبي حليقة وتقديرا له
فقد كان رجلا قليل الكلام ذا قلب كبير ونفس خيره . وكان موضع
احترامنا جميعا لكبر سنه وشيبه لان رجال الصحراء يجلون رجل
التجارب الذي لقنته السنون دروس الحكمة ولذلك كنت انا والسيد
الزروالي نستضيء برأى أبي حليقة من وقت لآخر وكان حاذقا في
عرض آرائه على . وكانت من العقل بحيث أقدرها حق التقدير .
وكان دائم العناية بجماله لا يني سحابة يومه عن إرسال صوته الرنان.

في الغينة بعد الغينة يخاطب رجاله أو جماله . فيقول لعبداه ابراهيم
« إن الجمل الأبيض تعب فلتخفف بعض اثقاله في الغد وتضعها على
ظهر الجمل الاسمر » ثم يلتفت الى بقية الرجال فيقول « ناجوا الجمال
ايها الرجال وغنّوا صوتاً يا ابراهيم » وما أصدر ابراهيم حليقة هذه الاوامر
الا لعامة أن التشجيع يدفع الإبل الى الإيجاف في السير ثم ينادى
جماله فيقول « اتبعني الدليل أيتها الإبل العزيزة » وينظر الى حمد
فيقول « ناشدتك الله يا حمد الا عدلت سرج هذا الجمل فانه يؤذيه »
ويظل على هذه الحال من الإشراف على القافلة حتى اذا انتشر
الشفق قال أوقدوا السراج فان الجمال تحب النور

وانما تظهر قيمة الجمل بعد اختبار طويل فهو ذكي كالجواد لان
لم يكن اذكي منه وهو اطيب منه نفسا في بعض الاحايين فان
العرب تقول بحق « هذا الرجل صبور كالجمل » وإن آذى رجل
جملا حمل الأذى في نفسه ولم ينتقم على الاثر ويصبر له حتى يتكرر
الأذى منه فيفكر في الانتقام ولا يوقعه به والقوم حوله بل ينتهز
فرصة انفراده به ليجزيه الجزاء الحق فيغير عليه ويلقيه على الثرى
أو يرفسه ثم يطأه بخفيته

وقد حدث أن جملا داس أحد الرجال ثم برك عليه وأبى أن



وادی الکفرۃ

يتحرك عنه رغم ما لاقى من ضرب رفقاء ذلك التعس الذين جروا
لا تقاذه . وظل الجمل باركا فوقه حتى مات

وقد يظن البعض أن جمال القافلة يُربط بعضها الى بعض
ويقودها الدليل ولكن الواقع أن الجمل يصعب إبعاده عن بقية
القافلة لأنه يعرف بغريزته أن تركه وحيدا يجلب عليه الموت ولذلك
يظل ملتصقا بالقافلة جهد الطاقة وان لم يربط الى سائر اخوانه

ومن ألم المناظر رؤية جمل جهد في الطريق وهو يحاول اللحاق
بالقافلة فانه يحكى اذ ذاك الجندي المحارب أثناء التقهقر يعتريه الجهد
والاعياء فلا يستطيع مسaire اخوانه الجنود وهو في الوقت نفسه
يعرف أنه ليس في ميسور أحدهم أن يحمله ويسير به كما يعرف أن
في التخلف عنهم موته المحقق ويظهر الجمل ذكاء شديدا بعد إخراج
من الواحة والقذف به في الصحراء فانه يحاول في المساء أن يتسرب
فيعود الى الواحة وان مر على تركها ثلاثة أيام أو أربعة . وقد وقعت
غير مأساة للقوافل التي تركها جماها ليلا ضاربة في أحشاء الصحراء
أو قافلة الى معاطنها والرجال على بعد أيام من البلد الذي يقصدونه .
وربما حدث حادث للقافلة يمنع زجائها من اتمام رحلتهم فتتمها الابل
التي طرقت تلك السبيل سنين عديدة وخبرت دروبها

وقد حدث ينما كنا تقترب من جالو بعد تركنا خيام البدو
الذين استكرينا ثلاثة من جماهم أن جلافتك به الداء وانقطع أملنا منه

فقسم أصحابه حمله على الجملين الآخرين وترك في الصحراء رغم
الحاحي عليهم بقتله ليرحموه من آلام الموت البطيء . وقد عرضت
عليهم ثمن الجمل إن سمحوا لي أن أقضى عليه ولكنهم رفضوا قائلين .
أن هذا الجمل كريم الاصل وهو منهوك القوى لا يلبث أن يعود الى
خيامه بعد أن يستريح » وقد علمت بعد ذلك أن الجمل عاد فعلا الى
معطنه وأنه أجود صمة

ويحس الجمل أن له دليلا فاذا وقفنا في وسط الصحراء
نتناقش في أمر السبيل التي نسلکها اجتمعت الجمال حول الدليل
حتى يسير فتتبعه غير حافلة بسائر رجال القافلة

ولا يتقدم الجمل الدليل في العادة فاذا سار قدامه غير حافل به
فاعلم ان الصلاح في اتباع ذلك الجمل اذ من المحقق انه يعرف المكان
الذي تريده القافلة

ويقول البدو ان الجمل الذي رعى مرة في واحة لا يخطيء
السبيل اليها وان فصلتهما الايام الطوال . وللبدو قصة منافسة
مشهورة يزعمون انها وقعت بين قطاة الصحراء والجمل . تقول القطاة .
« انى لأضع ييضى في الصحراء وأطير أياما ثم أعود لفقسه »
ويجيب الجمل « ان أمى اذا شربت من بئر ولم أزل في بطنها سافرت .
أياماً ثم عدت فشربت من نفس البئر »

وقد رأيت بعيني جملا تقدم القافلة ونحن على مسيرة أربعة أيام من بئر ذاق ماءها قبل ذلك بربع سنوات . ويعرف الناس قصة عن جمل أتقد قافلة في سفرها من الواحات الداخلة الى واحة العوينات . كان دليل تلك القافلة موغلا في الصحراء متبعا في سيره وصف أحد أصدقائه فأخطأ السبيل لانه لم يطررها من قبل وهامت القافلة على وجهها اثني عشر يوما . ونفد الماء وفقدوا الرجاء فاندفع الجمل بغتة وتقدم القافلة فسارت في أثره ونجت لان ذلك الجمل سافر الى العوينات قبل ذلك بوضع سنين فنشق الماء كما يقول البدو على مسيرة يومين وأوصل القافلة الى إحدى الآبار

ويستطيع الجمل المتدرب أن يسافر أسبوعين في الشتاء من غير أن يذوق الماء وقد يصبر عنه في الصيف اثني عشر يوما . ويعلف البدو جمالهم حشيشا اذا امكنتهم الفرص حتى اذا رموا بها في الصحراء أطعموها بلحا جافا أو شعيرا . وأغلب جمال برقة إبل «حملة» وأسرع الإبل عدوا جمال قبيلتي (التبو) و(الطوارق) التي تمتاز ببياضها ونحافة أوصالها ورشاقتها . ويقطع جمل الحملة ٢٥ ميلا في اليوم ويسير الهجين الطوارق أربعين ميلا وربما قطع ستين دفعة واحدة

وقد يكون الجمل مخلصا لصاحبه محبا له فان الناقة الكريهة

لا ترضى ممتطيا لها غير صاحبها . والعادة ان يحمل الماء على ظهور
الجمال المسنة الرزينة التي لا يخشى من تزاقتها على ما تحمل من
القرب . وهي تعلم انها تحمل أعز حوائج القافلة . فاذا انتهى سير
اليوم وحانت ساعة رفع الأحمال انتحت ناحية بعيدة عن بقية الجمال
خوفا على القرب التي تحملها من الاصطدام وانبعاس ما تحمله من
الماء . وقد رأيت جمالا تحوم حول الخيام ثم تقترب من قرب الماء
الملقاة على الارض بعضها الى بعض وهي مغطاة بحیطة وتحفظ حتى
لا تطأها باقدامها كأنها تشعر بقيمة تلك القرب وأهمية ما تحويه
من المياه فتدور حولها . وقد اخترت جملا فاخذته مدة طويلة يحمل
خيمتي وكتبي وأجهزتي العلية وإنما وقع اختياري عليه لقوته وكبر
سنه . وكان من عادته اذا أصبح الصباح وبدأت عملية التحميل ان
يقصد خيمتي من تلقاء نفسه ثم يبرك بالقرب منها انتظارا لوضع
الاحمال فوق ظهره

والجمال يعل غيور والناقة زوج مخلصه . والناقة لا تترك سيدها
ووليها من الجمال فتتبعه أينما ذهب والويل للجمال الذي تحدثه نفسه
بالاعتداء على ناقة جمل آخر

وقد اعتدت كل صباح ومساء أن أساير ابا حليقه وأحادثه
عن الجمال والصحراء وتاريخ البدو فكنت لا أجبهه بالامثلة تفاديا
من اساءته الظن بي لان البدو سريعو الريبة يشكون في الدافع الى

سؤالهم . وكنت رغم حبي للعرب وبلادهم أجد نفسى مضطرا الى تجنب ما يشير الشكوك والتحايل فى الحديث على فهم الكثير من الآراء والمعلومات

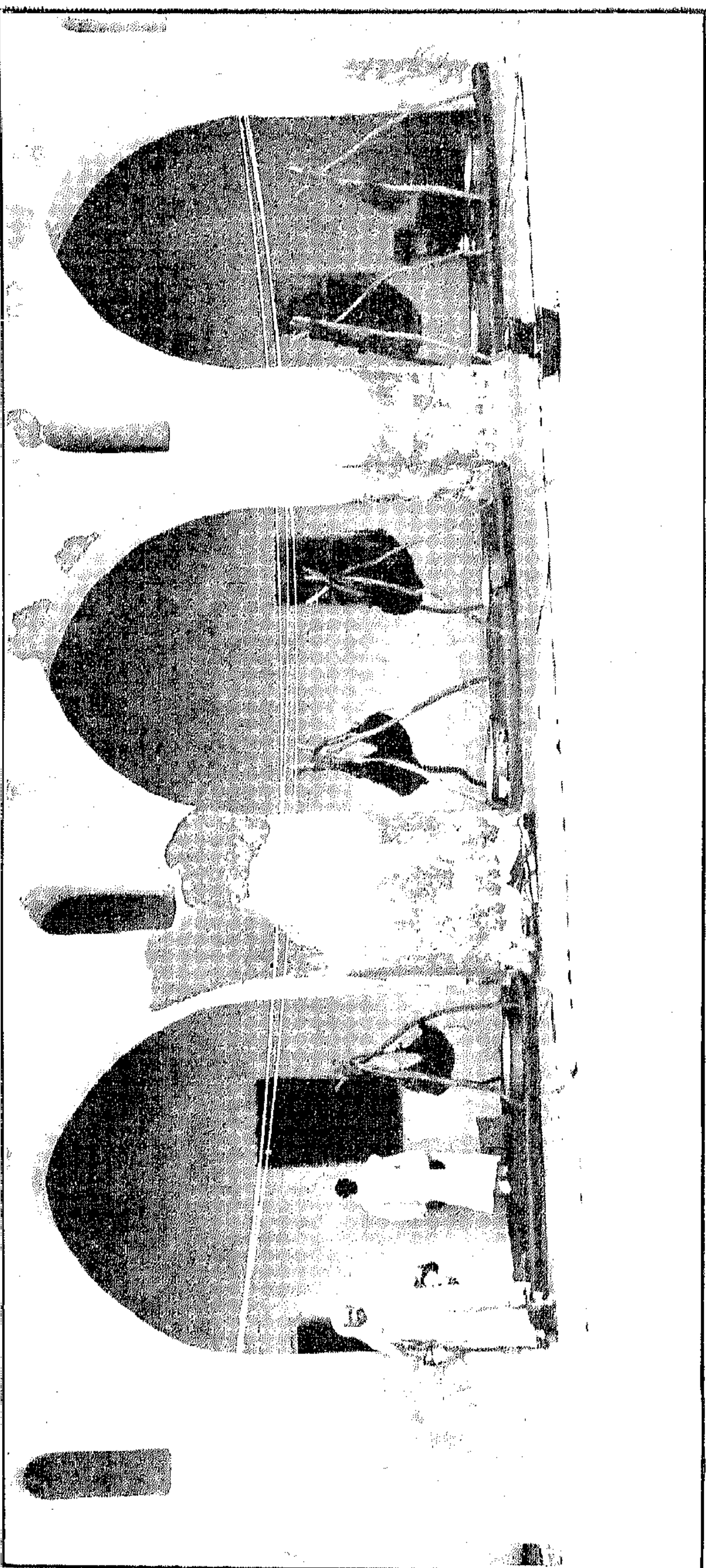
وقد قال لى ذلك الشيخ الوقور « أتى على قومنا حين من الدهر كانوا يجهلون فيه الكفرة . ولا حظ بدوى من قبيلة الغوازى فى الأيَّض — وهى واحة صغيرة قريبة من بئر أبى الطفل — ان غرابا دأب على الطير صوب الجنوب كلما أشرقت الشمس والعودة ثانية بعد ذلك فراقبه البدوى زمنا طويلا ثم قام يتبعه فى مطارده الى الجنوب وأوغل فى الصحراء حتى وصل واحة « تيزربو » فقضى يوما فى ظاهر الواحة ولقى الماء الذى يرجعه الى وطنه فرجع وأخبر اخوانه بوجود نخيل وماء فى صميم الصحراء . فاجتمعوا وأغاروا على « تيزربو » وافتتحوها . ثم تقدموا الى « بوزيمه » و « ريبانه » و « الكفرة » وهذه هى الطريقة التى وصل بها البدو الى الكفرة » وراقنى جواد أبى حليقة منذ رأيتة أول مرة فى جالوفتات نفسى اليه وسأل عبد الله ان كان فى الامكان شراؤه فطلب فيه صاحبه ثمنا باهظا ولذلك أظهرت عدم الاهتمام وتركت الامر للظروف . وكان أبو حليقة لا يسمح لأحد من أفراد أسرته بركوب هذا الجواد لأن كرامته لا ترضى ذلك ولكنه تفضل فسمح لى أن أمتطيه كلما

أردت الركوب فأكثرت من ركوبه حتى خيل أنى صاحبه دون
أبى حليقة

وتعب ثلاثة من الجمال فبركوا من غير أن يأذن لهم أحد وليس
من عادة الجمال أن تفعل هذا ما لم يكن هناك سبب قوى فرفعنا
أثقالهم طلبا لإ راحتهم وأضعنا بعض الوقت فى ذلك ولكننا استعصنا
مافقدناه فى نسيم المساء

وقد وضعت نصب عيني أن أحادث يوميا كل رجل من رجال
القافلة فسهل ذلك مجرى الأمور ومكنتى من استقاء بعض المعلومات
من وقت لآخر. فعلمت أن البدوى يميز أثر جماله ويمكنه أن يتبين
ان كانت الجمال التى سبقته فى الطريق ملكا لرجال قبيلة مجاورة
له أم لا. ويعرف أيضا جمال التبو من شكل اخفافها واقتفاء خطواتها.
وجمال التبو أصبر جمال البدو على السير ويمكن استخدامها فى
الشمال بصحراء برقة وفى الجنوب باراضى السودان. والكفرة محطة
لاستبدال جمال القوافل التى تسير شمالا وتنحدر جنوبا

وقد أخبرنى الدليل أبو حسن بحيلة يعملها البدو حين يطلقون
جمالهم أو ماشيتهم ترعى فانهم يحلبون الإبل والماعز فى الصباح
ويدفنون قرب اللبن حتى يظل رطبا ولكن لصوص الصحراء من
المهارة بحيث يعرفون مخايب هذه القرب ولذلك يدفن العربى الماكر



منزل السيد العابد السنوسي بالكفرة

قربتين احدهما تحت الأخرى ويملاً السفلى منهما لبناعذبا والعليا
 لبنا حامضا . ويقع اللص على القرية العليا فلا يبحث عن غيرها .
 وهكذا يجد صاحب القرب لبنة العذب سالما عند عودته مساء
 ورأينا اسرابا من صغار الطير تخف الى الشمال وكان بعضها
 من التعب بحيث أقبل على ما قدمنا له من الماء وقد جثم أحدها على
 يدي ليشرّب . ويرى الانسان على مقربة من الآبار التزرة الماء
 تتارا من الأجنحة والريش والعظام يفصح عما حدث لأصحابها من
 مأساة . فقد تكون هذه البقايا أثارا لبعض الطيور الرحالة التي وقعت
 على البئر وقضت أياما على حافتها تسترد قواها لاستئناف المطار
 وتعيش على الماء الذي لم تجد صعوبة في الوصول اليه نظرا لان
 بعض القوافل حفرت تلك البئر حديثا . وتأنس الطيور الى تلك
 البئر ثم تنهال الرمال عليها شيئا فشيئا حتى تملأها فيجف الماء ولا
 يبقى من البئر إلا أثرى من الرمل ندى فتموت الطيور عطشا . وربما
 وصلت الطيور الى تلك البئر الجافة وقد أنهكها التعب فمجزت عن
 الطيران مائة ميل أو مائتين للبحث عن الماء فظلت مكانها حتى
 تموت عطشا

ومررنا في الساعة العاشرة والنصف صباحا بتلال من الرمل
 تسمى « الخويمات » على بعد ثمانية أو عشرة كيلومترات من يسارنا

وكانت هذه التلال كاسمها تحكى خياما صغيرة بيضاء قد نصبت على رمال الصحراء وفي منتصف الساعة الخامسة مساء رأينا عن يسارنا على بعد ثلاثين كيلومترا علما يسمى « الفريق » أى فريق صغير من التلال المتجاورة وهو عبارة عن أربعة تلال رملية على صف واحد . وفي الساعة السادسة وربع لحظنا قمة علم آخر في الجهة الجنوبية الشرقية يسمى (المعزول) وقد سمى كذلك لأنه بمعزل عن بقية التلال . وكان هذا العلم غير واضح لبعد المسافة

وقد أُنْعَشَ نفوسنا رؤية هذه الأعلام واستدللنا منها على تقدُّمنا في السير وزاد فينا اليقين ان دليلنا رجل قادر بالرغم من أن البدو يقولون في أمثالهم « لا يعرف الدليل الماهر الا بعد الوصول الى البئر » . ولهم الحق في ذلك لانهم في الطرق الخالية من الأعلام لا يتحققون صدق الطريق الا في نهاية المرحلة .

وأظهر السنوسى أبو حسن حدة بصره العجيبة حين أخبرنا في بكرة الصباح قبل حل خيامنا أنه رأى علم (الخويمات) رغم ضباب الصباح ولم يتمكن رجال القافلة من تحقيق هذا الخبر حتى رأوا العلم بأعينهم بعد ذلك بضع ساعات . ومررنا في طريقنا في العصر بهياكل بيضاء لبعض الجمال فكانت لذلك في نفوسنا فرح شديد . ولا عجب في ذلك فالبدو يحب رؤية عظام الجمال

لسبيين أولهما أن أى شارة تدل على مرور أحد قبله تشجعه على السير
 فى تلك المفاوز المتشابهة . وثانيهما أن عظام الجمال أكثر ما تكون
 على مقربة من الآبار لأن الجمال أكثر ما تكون تعرضا للموت
 فى نهاية الرحلة حين يرهقها أصحابها وقد عجز الماء . ولا يحب البدو أن
 يستعملوا كلمة هيكل للدلالة على بقايا تذكروهم بالموت فيطلقون
 عليها كلمة غزال

الخميس ٢٢ مارس :

صحت فى منتصف الساعة السادسة صباحا فشاهدت شروق
 الشمس عند الساعة السادسة و٢٧ دقيقة وقيدت ذلك . وبدأنا السير
 فى الساعة الثامنة فقطعنا ٤٨ كيلومترا فى أراضى منبسطة من الرمل
 التماسك والحصى . وقد ظلت تلال (المعزول) طول الصباح عن
 يسارنا على بعد ٢٥ كيلومترا ولكننا تجاوزناها بعد الظهر
 وقد سمعت فى الصباح مناقشة بين الزروالى وعبد الله فى أمر
 تلك الأصقاع الممتدة التى كنا تقطعها

قال الزروالى « إن أرضنا مقدسة »

فرد عليه رجل مصر ساخرا قائلا « نعم إن لها مستقبلا عجيبا
 وانى لا أعتقد أن سيكون فيها موقف الحشر لأنها المنطقة الوحيدة
 التى أوجدها الله سبحانه وتعالى حفراء قفراء واسعة بحيث تسع
 العالمين »

وكان عبيد التبويجرون يميناً ويساراً ويتقدمون القافلة للبحث عن روث الجمال ليتخذوا منه وقوداً فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزل عن بقية أفراد القافلة ومالت نفوسهم إلى الاستئثار بنار خاصة يوقدون لها ليلاً على مسافة قصيرة من مضرب الخيام . وكان روث الجمال كل ما تصل إليه أيديهم من الوقود فكانوا يستفيدون من سرعة عدوهم ويحيدون عن طريق القافلة مسافات بلغت أربعة أميال في بعض الأحيان للبحث عن هذه المادة الثمينة !

وكان البدو لا يرضيهم عادة هؤلاء العبيد من سبق القافلة وجمع الروث . ولكن العبيد لم يخرجوا في ذلك عن قوانين الصحراء التي تقول « إن أول من يضع يده على شيء في الطريق ماله له بدون منازع » . ولكن البدو كانت لهم حجة يدفعون بها هذا الحق فكانوا يقولون للعبيد : « ليس لكم دليل يتقدمكم ولا أنتم راضون أن تتقدموا القافلة خوفاً من حمل جمالكم على السير بضرب العصي وتتهزون الفرصة فتتركونها لأنها تتبع جمالنا وتجرون لجمع الروث ؟ » . ويقول العبيد « تريدون أن تقود جمالكم فتسبقونا إلى جمع الروث الذي هو ملك لنا لانا أول من يعثر به وأنتم سائرون إلى جنب إبلكم » . واشتد النزاع بينهم فسألوني حكماً فقضيت أن الحق في جانب البدو وأن ليس للعبيد حق في الاستئثار بالروث ولكني

مع هذا كنت لا أمانع إعطاء العبيد طعاما ساخنا من المؤن العامة كل مساء لفقرهم المدقع ولقلة مالههم من المؤن التي جاءوا بها لا أنفسهم ويختلف عبيد التبوع عن البدو في كثير من الخصال والعوائد . فالعبيد كلما يستعملون النار في تحضير طعامهم وإن أنسو إليها وفرحوا بها وهم يحففون لحاء النخلة عند قمتها ويطحنونه ويصنعون من ذلك مسحوقا يضيفون إليه بلحا وجرادا مسحوقين . وهم لا يدعون أحدا الى اقتسام طعامهم كما يفعل البدو ولا يتأخرون عن تلبية الداعي الى طعامه . والبدو يأخذون عليهم هذه النقيصة

وعبيد التبو يعتمدون ان لا يتركوا في طريقهم شيئا من أشياءهم لانهم يخافون خرافة مؤداها : أن من يلتقط شيئا سقط منهم لا بد أن يستولى عليهم يوما من الايام

وهم قوم ذوو أجسام متينة البناء وأهل جد وعمل ولكنهم شديدو السذاجة في نظام معيشتهم وتفكيرهم . على انهم الآن آخذون في الاختلاط بالبدو ومحاكومتهم في كثير من طبائهم ومرض أحد الجمال في ذلك اليوم فلازمه أبو حليقة ثم حجه عند ذيله ورجونا أن يكون أتم صحة بعد راحة الليل

وكان معنا المقدار الكافي من الماء فاتفقنا أن نتناول كوبا من الشاي فتقدمت القافلة مع أبي حليقة والزر والى وعبد الله وأخذنا

الدليل حتى يحدد لنا الطريق السوى حتى اذا صرنا على مسافة كافية أسرعنا في ايقاد النار وغلينا الشاي ولحقت بنا القافلة فناولنا كل رجل يمر بنا كوبا من الشاي . ولم تقف القافلة عن السير أثناء ذلك حتى إذا مر بنا آخر الجمال جمعنا حوائجنا ولحقنا بالقافلة وهي تسير سيرا بطيئا وكان أبو حليقة يمتطي جملة والزروالى وعبد الله يركبان جملا واحدا وكنت معتليا ظهر الجواد

ولا يسعني هنا الا الإقرار أن الجواد «بركة» كان شديد النفع لى فى كثير من المواقف فكنت أجمع به الابل من مراعيها التى لا تتركها الا بعد تردد وامتناع شديدين . وكنت اركبه لزيارة الاماكن الشيقة اذا وقفنا فى واحة من الواحات تاركا الابل تستريح أو ترعى . وكنت أتقدم به القافلة وأتخلف عنها لعمل بعض الملاحظات أو الحصول على بعض العينات الجيولوجية وكنت أظهر فوق متنه بمظهر لاثق بشيخ فى طليعة قافلته حين تدخل واحة أو تتركها

الجمعة ٢٣ مارس :

قطعنا ٣٦ كيلو مترا وهبت فى ليلة الامس ريح قوية من الشمال الشرقى ، بدأت فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وظلت الريح تهب طول النهار واشتدت بين الساعة الواحدة والثالثة ولم تقرا الا عند المساء . وكان الجو معتدلا صحوا قرب المساء



السيد العابد السنوسي وكيل السيد إدريس وابن عمه بالكفرة

ورأينا في الساعة الخامسة مساء تلال الرمل المسماة « المعازيل » على مسافة ٢٥ كيلو مترا في الجهة الجنوبية الشرقية

وراق الرجال أن يسيروا عامة اليوم فأبدوا مجهودا كبيرا للبدء بالسير في الساعة الثامنة قاصدين أن يمشوا ١٢ ساعة ولكن الجمل المريض عاقنا عن تحقيق هذه الفكرة فقد ضعف حتى اضطررناه الى النهوض حين حان وقت الرحيل . وهز أبو حليقة رأسه ثم قال : « سيكون لحم هذا الجمل طعاما لنا قبل انتهاء اليوم » وبعد ذلك بساعتين برك الجمل وأبى أن يقوم فذبحه رجال أبو حليقة بعد ذلك بقليل وتركنا ثلاثة رجال وجملين لحمل لحمه واللاحق بنا ولم نكد نسير قليلا حتى جاءني أبو حليقة يتنظر على ظهر جملة ثم قال « إنه جمل سمين فلتقف قليلا »

ووقفت القافلة لعامى بميل البدو الى أكل اللحوم وأوقدت النار وأدير قطع الشواء على الرجال فأكلوا إلا أنا وخادماى المصريين . وسألنى أبو حليقة عن امتناعى فأخبرته أنى لا أميل كثيرا لأكل لحم جمل مريض . فقال « إنه خير من السمك الصغير » (يريد علب السردين التى كانت معنا) فقد رأينا الجمل يذبح ولكن من يدري ماذا أصاب هذا السمك الصغير بعد اخراجه من البحر » وجفف البدو مابقى من لحم الجمل ثم نسلوه خيوطا دقيقة

يضعونها في أرزهم وعصيدهم بعد ذلك . وعند استئنافنا السفر بعد الظهر قال لي أبو حسن « سنسير حتى يغيب الهلال فتمكن بذلك من تناول غذاء باكر عند البئر » ولكن (الجدى) حجبه السحب قبل أن يغرب القمر فاضطررنا الى الوقوف وضرب الخيام عند الساعة العاشرة والنصف مساء خيفة أن نضل الطريق »

ولم يكن في هذا الجزء من الصحراء شيء يستكشفه الانسان فيما يرى حوله ولكنه يسمع في ذلك السكون نجوى نفسه فتستجيش عواطفه . ويزيد هذا الشعور فيه أن نسي المدن والتفكير في العودة اليها وعاش للساعة التي هو فيها فاستمد منها كل سرور وطرب

ورأيت السيد الزروالى عند الغروب يخط في الرمل لمعرفة البخت كما يقول البدو . وكان يرفع عينيه من وقت لا آخر فيتركهما تهيجان بين ثنايا ألوان الغروب الزاهية لأن البدوى لا يتمالك نفسه من أن يحب الطبيعة ويقدر جمالها

وتعاقبت الأيام متشابهات وكانت الصحراء خالية من الأعلام ليس فيها الا بعض هياكل الجمال أو الحصى الصغير حتى إنه ليخيل لرائى الصور التي أخذتها في تلك الجهات في بحر سبعة أيام أنها تمثل مضرب خيام واحد صور من جهات مختلفة . وهكذا لم يكن

هناك شيء يشغل العقل أو يقطع خيط التفكير
يا لها من صحراء خلابة ساحرة تستهوى العقول بما فيها من
وحشة وعزلة . ففي تلك الفيافي المترامية وفي ذلك القفر الموحش يتجرد
العقل والجسم من أدران الحياة . وفي ذلك الفضاء الشاسع تقضى
اليوم بعد اليوم وتقطع الليلة بعد الليلة . . . ويخيل لك أنك
ستستنفد سنوات حياتك السنة بعد السنة والعقد بعد العقد دون
أن تجد منه مخرجا أو له آخرا . وفي تلك اللانهاية ترى نفسك
وقاقلتك ذرة من ذرات الرمال التي تطوها قدماك وتتجلى لك عظمة
الله وقدرته وتتضاءل نفسك في عينيك وتشعر بأن وسائلك في
المدن لا تغنى فتىلا في الصحراء وتحس أنك ضعيف الحول قليل
الحيلة لا سبيل لك الا أن تهديك يد القدر

السبت ٢٤ مارس :

صحونا متعبين في الخامسة والنصف صباحا لأننا لم نلم ليلة
أمس الا الساعة الثانية صباحا . وكان اليوم صحوا . وهب نسيم من
الشمال الشرقي في الصباح وقرع عند الظهر فزاد في دفء الجو . وقامت
رياح شديدة من الشمال الشرقي في العاشرة مساء
وأخذت نواحي الصحراء تتغير قليلا منذ التاسعة والنصف .

صباحا فزادت نعومة الرمل وتجدد أديم الصحراء قليلا ومررنا في الساعة العاشرة بأكوام من الحجارة السوداء في تلك الهشمة التي ظللنا نراها سحابة اليوم. ورأينا عند الظهر عن يميننا أول أكداس الحطب في وادي الظيغن وحططنا الرحال في الساعة الثانية الا ربعا لتناول طعام ساخن وكان ذلك على مقربة من الحطب الذي لقيناه في تلك الساعة لان وقودنا كان قد نفذ في اليوم السابق فلم نتناول شيئا ساخنا منذ صباحه . وشاهدنا في الساعة الخامسة والربع تلالا من الرمل على بعد ٤٠ كيلو مترا في الجهة الجنوبية الشرقية وكانت هذه التلال على هيئة خط منحدر الى الجنوب صوب وادي « الظيغن » وفي منتصف الساعة التاسعة لاحظنا ازدياد أكداس الحطب في تلك المنطقة وقد رجونا عند بدءنا السير في الصباح أن نصل « الظيغن » ذلك اليوم ولكن رجاءنا خاب واختلفت الآراء في معرفة السبب الذي دعا الى ذلك التأخير فقال أبو حليقة « ان الدليل قد حاد غربا عن جادة السبيل والا كنا وصلنا البئر قبل هذا » . ولكن السيد الزروالى الذى اختار الدليل دافع عنه فقال « إِنَّا أَضْعَنَّا وَقْتًا فِي ذَبْحِ الْجَمَلِ وَشَيْءٍ وَأَكَلَهُ » وفسر حامد ذلك التأخير فقال . « ان الرجال لا تستحث الجمال للسير فان بعضهم يغني طويلا في الطريق ثم يصحو على مهل فيرى القافلة لم تغب بعد عن بصره » . وانما قال حامد هذا



مبان صغيرة في الكفرة يستعملها البدو لحزن غلالهم

لأن بعض البدو كان يخرج عن خط القافلة ثم يغنى نصف ساعة أو أكثر حتى إذا صحا لحق بالقافلة من غير جهد شديد نظرا لبطء السير ووجود أثر القافلة على الرمال

وقد ذكرت إذ وقفنا نوقد النار لَطهى أول طعام ساخن نتناوله بعد مرور ثلاثين ساعة، أن تلك الجهة هي التي ضللنا فيها الطريق في رحلتنا السابقة الى الكفرة سنة ١٩٢١

وبعد الفراغ من تناول الطعام تركنا داود عم الزروالى الى « تيزربو » التى تبعد عن « الظيغن » مسيرة يوم الى الغرب . وكان قصده أن يعود بزوجه وبنته الى برقة حيث يمكنه أن يجد عملاً أوفق له . وزاد أمله أن السيد الزروالى رضى أن يمد له يد المساعدة فى مركزه الجديد . ولم يكن من السهل على ذلك الرجل المسن أن يعود بامراتين فيخترق الصحراء شمالا الى برقة وليس معه الا جمل واحد . وقد سأله كيف يدبر الامر فاخبرنى أن ثلاثهم يمشون أول يوم حتى اذا خف الماء على الجمل امتطته بنته ثانى يوم ثم ركبته زوجه فى اليوم الثالث فقلت له هب ان الجمل أصابه شىء فى الطريق فقال « الحماية من الله » وأعطيته أرزا ومكرونة وشايا وسكرا فتركنا وهو سعيد بعد أن قرأ لنا الفاتحة

وتناول البدو طعاما شهيئا من الأرز ولحم الجمل وانقلبوا الى

فراشهم راضين. وكانت الليلة بديعة فتركت خيمتي وقضيت أوقات هادئة في ضوء القمر الذهبي والنجوم الباهتة في غمرة نوره الوضي. وملاّت نفسي سرورا بذلك المنظر الممتع وازددت شجاعة بنجواها الصامته فعدت الى فراشي ملاّن ثقة وأملا

الاحد ٢٥ مارس :

قنا الثامنة الاربعاء ووقفنا الثانية الاربعاء وقطعنا ٢٤ كيلومترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٤ . وهبت ريح قوية من الشمال الشرقى طول الليل فلم تسكن الا في منتصف الساعة الخامسة وكان الغيم يحجب الشمس في الصباح وأمطرتنا السماء رذاذا عند الظهر وتبددت السحب بعد الظهر وكنا نمر طول الطريق باكداس الحطب التي ازداد ارتفاعها كلما قربنا من البئر . وكان يتخلل تلال الحطب بقاع رملية تتناثر عليها قطع صغيرة من الحجر الاسود . وأخذ الرمل يزداد نعومة حتى صار نديا على عمق بضع بوصات من سطح الارض . وفي التاسعة وربع رأينا في الجنوب الغربي على بعد ٣ كيلو مترات تلال (الوشكة) وهي بئر صغيرة من مجموعة آبار « الظيغن » وفي التاسعة والنصف اجتزنا على اليسار « معطن بو حواء » وهي بئر ظيغن القديمة . ثم نصبنا الخيام على مقربة من أيك النخيل القائم على بئر الحرش وهي أعذب آبار الظيغن . وليست بئر الصحراء تلك العين الجيدة الحفر المتينة الجوانب التي ربطت اليها

دلو أو أقيمت عليها مضخة . ولكنها حفرة قد قرب الماء من سطحها فسهل الوصول اليه بعد الحفر لان القافلة اذا تركت بئرا في الصحراء تراكت الرمال عليها وسدت منفذها فيتعب القادم الجديد في تطهيرها ولم يضره ذلك لان سروره يكون شديدا بنصيبه الوافر من الماء العذب بعد أن ظل أياما لا يجد منه ما يزيد عن حاجته بعد عمل الشاى ليتمكن من الاستحمام أو الحلاقة

ولا يتخيلن القارىء أن بئر الصحراء ذات حوائط يقوم عليها علم من الاعلام فما هي في غالب الاحيان الا بقعة ندية من الرمل يحفرها البدوى فيخرج الماء منها على عمق ٣ أو ٤ أقدام

وبعد مثل هذه «المرحلة» الطويلة يكون أول هم رجال القافلة ان يسقوا الجمال ويطعموها ثم يكون أكبر همهم بعد ذلك غسل الأجسام والملابس . ويرجئون غسل الملابس اذا كان الماء قليلا حتى يصلوا بئرا ثانية . فاذا استراح الرجال ملأوا القرب وتركوها طول الليل ثم تعهدوها في الصباح لمعرفة الناضح منها وفحص العيب فيها ففصلوا رديثها عن جيدها وبدأوا بشرب ما في الاولى يقينا منهم بصلاح الباقي

وتكون أولى الليالى التى تقضيها القافلة عند بئر - مهما كان نصيب أفرادها من التعب - ليلة أنس وسرور ورقص وغناء

ويشعر الانسان قبل الوصول الى البئر انه سيقم عندها أربعة
 أيام أو خمسة ناعما بوفرة الماء بعد حرمانه منه طويلا . ولكن العجيب
 في الامر أن الانسان اذا قضى يوما فاستراح تملكته حمى القلق
 وغنى عن الراحة والنعيم بجهل الطريق وقلة ما فيها من مناعم الحياة .
 واكتفى بالبلح الجاف فأكله هنيئا لافرق في ذلك بين البئر الغزيرة
 الماء في الواحة المخصبة الملاءى بملاذ الحياة وبين العين ذات الوشل
 ولا تزيد البئر بعد حفرها في غالب الأحيان عن متر مربع في
 مساحتها ويمسك الرمل الندى حيطانها فيتركها الانسان حتى يقر
 الرمل ويصفو الماء وقلمما يصبر البدوى حتى يروقه فيشر به عكرا .
 وكما شربت من أكواب الماء العكر وكرعت منه في كوبة الزنك
 التي لا أبصر لها قرارا . ولم أستعمل الراووق (الفلتر) الذى اقترح
 على حمله بعض الأصدقاء حتى وصلت السودان فان الماء كان من
 الرداءة ووفرة القذى بمكان . وقد استعملته قليلا ثم أهملته لأنى
 وجدت بعض أجزائه مفقودا . وليست قذارة الصحراء كقذارة
 الجهات الاخرى فانها لا تؤذى الصحة لان الرمل شىء نظيف
 وثياب البدو يتخللها الهواء ، والحشرات وافرة لا يمكن الخلاص منها
 ولكن البدوى اعتادها فأصبح لا يأبه لها .

الفصل الثاني عشر

اختلاف مناظر الصحراء وأصناف الحرير

الاثنين ٢٦ مارس :

عند بئر الحرش من آبار الظيغن . أعلى درجة لحرارة ٢٧ وأقلها ٦ . جو صحو وريح شمالية شرقية انقلبت عاصفة شديدة حوالى الساعة ١١ وظلت تائرة حتى منتصف الساعة السابعة ولم تفر حتى منتصف التاسعة .

كان عزمنا أن نقيم ليلة واحدة في الظيغن ولكن العاصفة اضطرتنا الى البقاء يوما آخر والظيغن منطقة بها أربع آبار وهي : الاثنينان اللتان مررنا بهما يوم الاحد والحرش التي نزلنا عندها وأبو زريق على بعد ٢٠ كيلومترا في جهة الشرق

وقد حدث أبو حليقة أثناء النهار تابعى عبد الله في أمر محيى الى الصحراء فقال « انكم جريئون أيها المصريون فان من الجسارة أن يحضر البك مرتين الى بلادنا التي لم أر أجنبيا زارها . ولعمري لماذا يأتى الى الصحراء ويترك خيرات الله في مصر إن لم يكن له

غرض خفي في ذلك السفر وأخطاره . ولست أكتفك أني يشغلني
أمر محيئه مرتين واهتمامه بقياس هذه الجهات ورسمها »

حتى صديق أبي حليقة تصل الريبة الى نفسه مني ويخامره
الشك في أغراضه حين اخترقت بلاده . وقد وضع لي في آخر
الأمر الدافع الحقيقي الذي سبب كراهية البدو في مجيء الأعراب
الى بلادهم وليس ذلك الدافع تعصبا دينيا وانما هو غريزة المحافظة
على النفس فان الغريب اذا أوغل في الصحراء الى الكفرة وهي
مركز حياتهم المحبوب ، كان كما يقول البدو « كالجمل يدخل أنفه من
ثنايا الخيمة » . ويتبعه بعد ذلك كثيرون فتكون النتيجة تملك الأجنبي
بلادهم وضياع استقلالهم وانزاعهم على دفع الضرائب وليس لاحد
أن يلومهم على الخوف من إحدى هذه النتائج

والرأي الشائع أن الصحراء لا يتبدل فيها شيء ولكن توالي
الأيام يخلق فيها تغييرا مدهشا فان الرحالة رولف عند مروره
بالظيغ في طريقه الى الكفرة سنة ١٨٧١ ذكر وجود مساحة كبيرة
من النباتات في تلك الجهة ولكن لم أرفيها خضرة أصلا وانما وقع
نظري على أكوام من الحطب الجاف

ويؤيد قول رولف ما ذكره لي أبو حليقة من أن أباه كان
يأخذه الى الكفرة عند سفره لاستجلاب البلح لان البدو يعتقدون



السيد شمس الدين
ابن المرحوم السيد الخطابي شقيق السيد العابد

السيد شرف الدين (شروفه)
ابن السيد العابد السنوسي

أن ماء (شخيرة) وهي مركز الزوية بالقرب من جالو يضر الاطفال في الصيف . وكان أبوه يحمله فوق ظهره معظم الطريق ويقطعها في ذلك الوقت في ثلاثة أيام وخمس ليال بدون وقوف في الطريق . وإنما كانوا يقدرّون على هذا باطعام الإبل مرة واحدة بين جالو والظيغن حتى إذا وصلوا الظيغن تركوها ترعى في الارض الخضراء التي تحيط بها . وهكذا يتضح أن رولف لم يكن كاذبا في وصفه تلك الجهات بكثرة المراعى . ولكن مروره ٤ سنة غير معالم تلك الجهات وربما كان السبب في ذلك اختلاف سريان الماء في طبقات الارض واتقطاعه عن تلك الجهات اليانعة فاصبح كل ما فيها حطبا للوقود

وكانت مرحلتنا من بئر بو الطفل الى الظيغن مثالا ناطقا لمخاطر الصحراء ، فانا احتطنا في تلك السفرة جهد الطاقة ولكن وقودنا نفد ومات منا جمل وخارت قوى جملين آخرين حتى خيف عليهما . واستهلك طعام الجمال فاقتاتت بين الظيغن والكفرة باوراق النخيل التي جمعناها في الظيغن ، والسعف طعام لا يغنى الجمل من جوع ، وقد حفظت عن أحد البدو مثالا لا يخلو من لمزة تهكم وهو «صديقك كناقتك تعطيك اليوم لبنا وتخذلك في الغد»

وقد رصدت نجم القطب الشمالى بواسطة التيودوليت الليلتين اللتين قضيتهما في الظيغن ووضع لي بعد تطبيق الملاحظات وعمل

الحساب أن الظيغن واقعة على بعد ١٠٠ كيلو مترا في الجهة الشرقية الشمالية الشرقية من الموقع الذي وضعها فيه رولف . والمعلوم أنه لم يزر الظيغن ولم يرصدها واعتمد على ماقاله البـدو عنها . وقد لاحظت فوق هذا أن الظيغن تعلو ٣١٠ متر عن سطح البحر

الثلاثاء ٢٧ مارس :

قنا الساعة السادسة ورربعا صباحا ووقفنا الثامنة مساء وقطعنا ٤٧ كيلو مترا . اعلى درجة للحرارة ٢٦° وأقلها ٨° . جو صحو وريح قوية من الشمال الشرقى هبت الليل والنهار وسحاب صبير . وقد أشار الدليل بعد تركنا الحرش الى موقع الكفرة على بعد خمس درجات من الجنوب الجنوبي الشرقى . وظللنا مدة ساعتين نمر بالحطب الممتد على مسافة ١٠ كيلو مترات من شرقى البئر . ثم دخلنا جهة كثيرة الرمل الناعم القليل التموج وازداد تموج الارض حتى دخلنا اصقاع التلال الرملية قرب الغروب . وفي منتصف الساعة الثالثة رأينا جهة الشرق صفا من التلال الرملية يتخللها تلال صغيرة تسمى أجراس من الحجر الاسود . وكان امتداد هذه التلال من ٢٠ الى ٣٠ كيلو مترا وقد انحدرت على مدى ابصارنا صوب الجنوب الشرقى . ثم انتشرت تلال الرمل (ويسمونها عزر) بعد ذلك صوب الجنوب الغربى . وفي منتصف السادسة تقاربت هذه التلال واعترضت

سبيلنا فوجدنا بينها ولكنهما لم تكن من الارتفاع بحيث صعب
علينا اجتيازها

ووضح لي الفرق الشديد بين البدو والعبيد في الصبر على السير
ويقول السود أنهم لا يحبون الزوينة وإن خافوهم . وكانت جمال التبو
أكثر صيانة وانصياعا من جمال البدو وكان كل جمل منها مربوطا
الى « رسن » لقيادته ولا تسير متخبطة كجمال البدو

واجتزنا عند الظهر علم (جيل الفضيل) وهذا العلم شأنه شأن
أكثر أعلام الصحراء يحمل اسم من فقد حياته بالقرب منه تذكارا له
كان الفضيل من خير أدلاء الصحراء وكان في طريقه من جالو
الى الكفرة فغمرت قافلته عواصف رمل شديدة اهلكت جميع
أفرادها . ولم يكن هنالك شاهد على ما حدث ولكن ما وجد بعد
ذلك من أثر القافلة اظهر جلية الامر

قامت عاصفة شديدة سفت الرمال في وجه القافلة وأذت
عيني الفضيل كثيرا فعصبهما . ولم يستطع رؤية الطريق بل اعتمد
على وصف من كانوا معه للاعلام التي مروا بها . ولكنهم كانوا
قليلى الخبرة فخطأوا آبار الظيغن وحاولوا الانحدار الى الكفرة
ولكنهم ضلوا في الصحراء . وفنيت القافلة الا جملا واحدا غالباً
أن يرجع الى الكفرة تقوده غريزته التي لا تخطئ فوصلها وعرف

أهل المدينة أنه من جمال الفضيل بما على عنقه من وسم . وقامت قافلة لنجدته فتبعت أثر الجمل في الصحراء ولكن الوقت كان قد فات فانهم عثروا بجثث الرجال متصلة فوق صعيد الصحراء بالقرب من العلم الذي أطلق عليه اسم الفضيل التعس الذي وجد معصوب العينين فكشف عن سر المأساة وأظهر حقيقة الفاجعة

الاربعاء ٢٨ مارس :

كانت السحب كثيفة طول النهار يتخللها ضوء الشمس من آن لآخر ولم تنقشع كذلك في المساء . وهبت ريح باردة من الشمال الشرقي ثم انقلبت في الثامنة صباحا عاصفة دامت ثلاث ساعات ونصف ساعة واستمر هبوب الريح الباردة في المساء وسقط رذاذ في منتصف الحادية عشرة مساء

سرنا بين تلال الرمل مدة ساعتين ثم دخلنا أرضا متعرجة مغطاة بالحجارة السوداء المهشمة التي آذت الجمال كثيرا . وقضينا في تلك الحرة ساعتين ثم سرنا ثانية بين تلال الرمل ، وفي الحادية عشرة ونصف صباحا كانت سلسلة تلال « الهوايش » عن يسارنا وتلال الرمل والحجارة السوداء عن يميننا ، وفي الثانية عشرة وربع اجتزنا عن يسارنا على بعد أربعة كيلو مترات علم « جور المخزن » وهو عبارة عن تلال من الحجارة السوداء يبلغ ارتفاعها من ٥٠ الى ١٥٠ مترا ، وفي الثانية الا ربعا مررنا بعلم « الجارة وبنتها » وهو عبارة

عن تلين يختلفان حجما بحيث يتفق عليهما الاسم الذى تسميا به
وأخبرت بعض البدو كيف ضللت الطريق سنة ١٩٢١ فلم
يعجبوا لذلك لان أهل الصحراء الفوا كل يوم فقد الطريق
والإبل والماء والوقود

الخميس ٢٩ مارس :

لم اتمكن ذلك اليوم من ضبط أقل درجة للحرارة لان ترمومتر
النهاية الصغرى كسر أثناء هبوب العاصفة

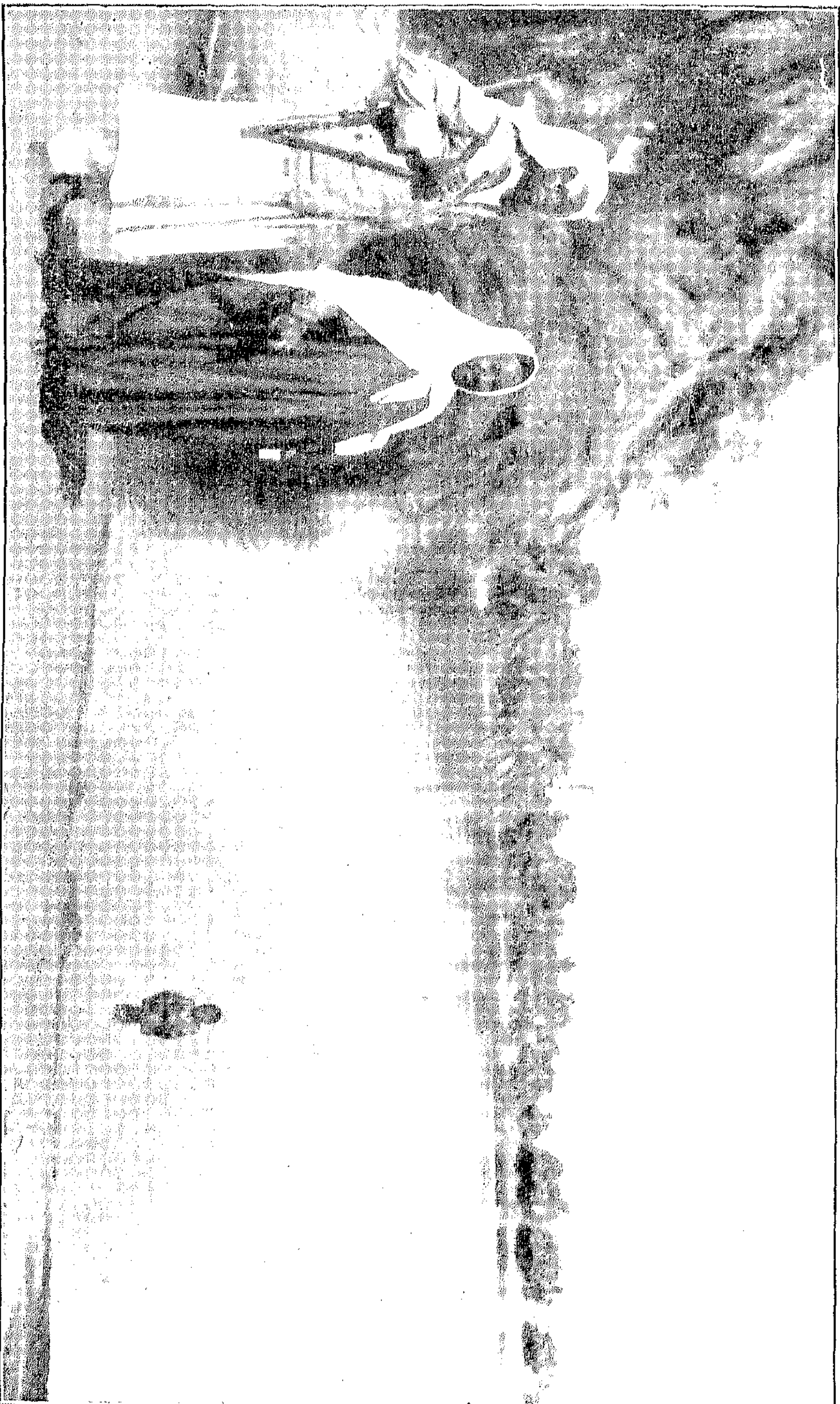
ظلت تلال «الهوايش» عن يسارنا حتى العصر، وفي الحادية
عشرة ونصف دخلنا ارضا ناعمة الاديم كثيرة التلال الرملية
المتوجة التى يصعب سير الرجال والجمال عليها . وفي منتصف
الثانية مررنا يمينا با كبر الاعلام التى اجتزناها وهو علم « جارة
الشريف » . وهذا العلم عبارة عن تل يمتد ١٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعه
١٠٠ متر ويجاوره ثلاثة تلال . اثنان منها فى الجنوب والثالث فى
الشمال

وفى الثالثة سرنا بين تلال متعددة خرجنا منها بعد ساعتين
الى ارض منبسطة صلبة الرمل كثيرة ركام الحجارة السوداء
وفى منتصف الرابعة صباحا قامت أشد عاصفة رملية ابتلينا
بها فى الطريق فاجتاحت الخيام وقوضت اركان خيمتى وهشمت
بعض أدواتى وبينها الكرو نو متر الصغير

وتهدمت الخيمة علىّ وزاد ثقلها بما انهال عليها من الرمال
التي لا ينقطع تراكمها . نغفت الاختناق تحتها ولكنى لحسن الحظ
أمسكت وتدا من أوتاد الخيمة ورفعت به قماشها عن وجهى وجرى
الرجال لمساعدتى ولكنى صرخت اليهم أن يضعوا اكياس الدقيق
وقطع الامتعة فوق خيامهم وخيمتى حتى لا تجتاحها العاصفة جميعا .
وأقمت فى ذلك المركز المتعب تحت خيمتى زهاء الساعتين . وكان
الرمل ينفذ الىّ من شق الخيمة كأنه يقذف من بندقية

وقاسى الرجال والجمال كثيرا وأوشكت العاصفة أن تفجعنى
فى الكرونومتر الكبير لان ظنبت الخيمة لو مال قدر أنملة واحدة
لهشم تلك الآلة النافعة وحرمنى جانبا كبيرا من النتائج العامية
للرحلة

والبعيدون عن الصحراء لا يعلمون من أمر الرحالة الا الخيبة
أو النجاح يفصلهما خط واضح ولكن المستكشف لا يميز هذا
الخط . فقد يكون ضاربا فى الطريق السوى جامعا كل المعلومات
التي أرادها قريبا من نهاية الرحلة ثم تخور جماله بغتة فيضطر الى
ترك أثمن حوائجه . ويفضل الماء والزاد فيستبقيان وتترك الاجهزة
الفنية والمدونات . وقد تكون مصيبتة أدهى فيضحى بكل شئ
حتى بحياته ولا يعرف الناس من أمره الا أنه خاب . وقد ينصفه



البحيرة بالكفرة

بعض النقاد فيقولون أنه خاب خيبة مشرفة . فهو على الحالين خائب . وما أقرب هذه الخيبة من النجاح . فقد يكون ذلك الخائب أكثر عملا وأشدّ تحملا لمشاق الطريق الطويل ممن أصاب النجاح في رحلته . وانما يميل الرحالة الى أخيه الذي جاهد وخاب لا الى ضريبه الموفق لعلمه أن أولهما لم ينجب الا بعد أن جاهد جهاد الابطال في سبيل الاحتفاظ بشجرة مجهوداته

والبدو يقدرّون ذلك . فقد كان في أخلاقهم نزعة أدهشتني وراعتني في بعض الاحيان ثم امكنتني فهمها أخيرا . وذلك أنهم لم يكونوا يطربون ويسرون اذا انتهت مرحلة اليوم بالنجاح المرغوب ، وكانهم يقولون لقد وفقنا اليوم ولكن ماذا عسى يكون نصيبنا في الغد ، ولذلك لم يكن من عاداتهم أن يبطروا بالنجاح لانهم لم يصلوا اليه بمهارتهم وانما ساعدتهم العناية في اصابته فقد تكون رحلة الغد أسهل من سابقتها وتكون الخيبة فيها عظيمة . وقد عثرنا بأثار قافلة منقرضة في رحلتى الاولى بصحراء ليبيا بين واحة لوزيمة - وهي من واحات الكفرة - وبين الكفرة . ورأينا يدا نافذة من بين الرمال مصفرة الجلد في لون الرق . فتقدم اليها أحد الرجال وهو خاشع فمال عليها التراب وغطاها . وانما ضل رجال تلك القافلة وماتوا عطشا وهم على مسيرة ثلاثة أيام من الواحة

وكم وجد من بقايا قافلة فنيت وهى على مرأى من البئر وكم عرف من أخبارها المروعة فلم يمنع ذلك القوافل من سلوك تلك السبيل لان البدوى يؤمن بالقدر ويعتقد أن الله قضى على أفرادها بالموت فى الطريق . وقد قال لى أحد البدو ذات مرة « حواصل الطيور ولا ظلام القبور » يعنى بذلك أنه يفضل أن تأكل جسد القشاعم .

وكان يومنا هذا متعبا لما أصابنا من اقلاق الراحة فى الليلة الماضية عند هبوب العاصفة وما أصابنا من الجهد فى السير بين التلال الرملية . ولكن الرجال كانوا طريين بالاقتراب من الكفرة وزاد سرورهم ان أبا حليقه الذى كان يقطن الهوارى وهى أول محطة فى ظاهر الكفرة عزم أن يذبح شاة ويولم ولية لافراد القافلة وكانت الإبل ضعيفة ناحلة ولكن ثلاثة منها كان وطنها الكفرة فاندفعوا فى السير اليها غير مسوقين رغم صعوبة المسير بين التلال وتبعها سائر جمال القافلة وفى الساعة الا ربعا أبصرنا « جارة الهوارية » وهو العلم العظيم الدال على الاقتراب من الكفرة .

الجمعة ٣٠ مارس :

قنا الثامنة الا ربعا صباحا ووقفنا السادسة الا ربعا وقطعنا ٣٥ كيلو مترا فوصلنا الهوارى . وسقط رذاذ من المطر فى المساء . وكانت

الارض منبسطة ناعمة الرمل قليلة التمرج تكثر فيها اكوام
الحجارة السوداء والحمراء . وفي منتصف الساعة العاشرة دخلنا
منطقة الرمل الاحمر التي تحيط بالكفرة واجتازنا في طريقنا طول
اليوم قطعا من الخشب المتحجر وفي الساعة الاولى والدقيقة ٢٥
مررنا بجارة الهوارية وفي منتصف الساعة الرابعة أبصرنا نخيل
الهوارى وبعد ذلك بساعة ونصف دخلنا الواحة وضررنا الخيام في
قرية « العوازل » وهكذا وصلنا أول مراكز الكفرة

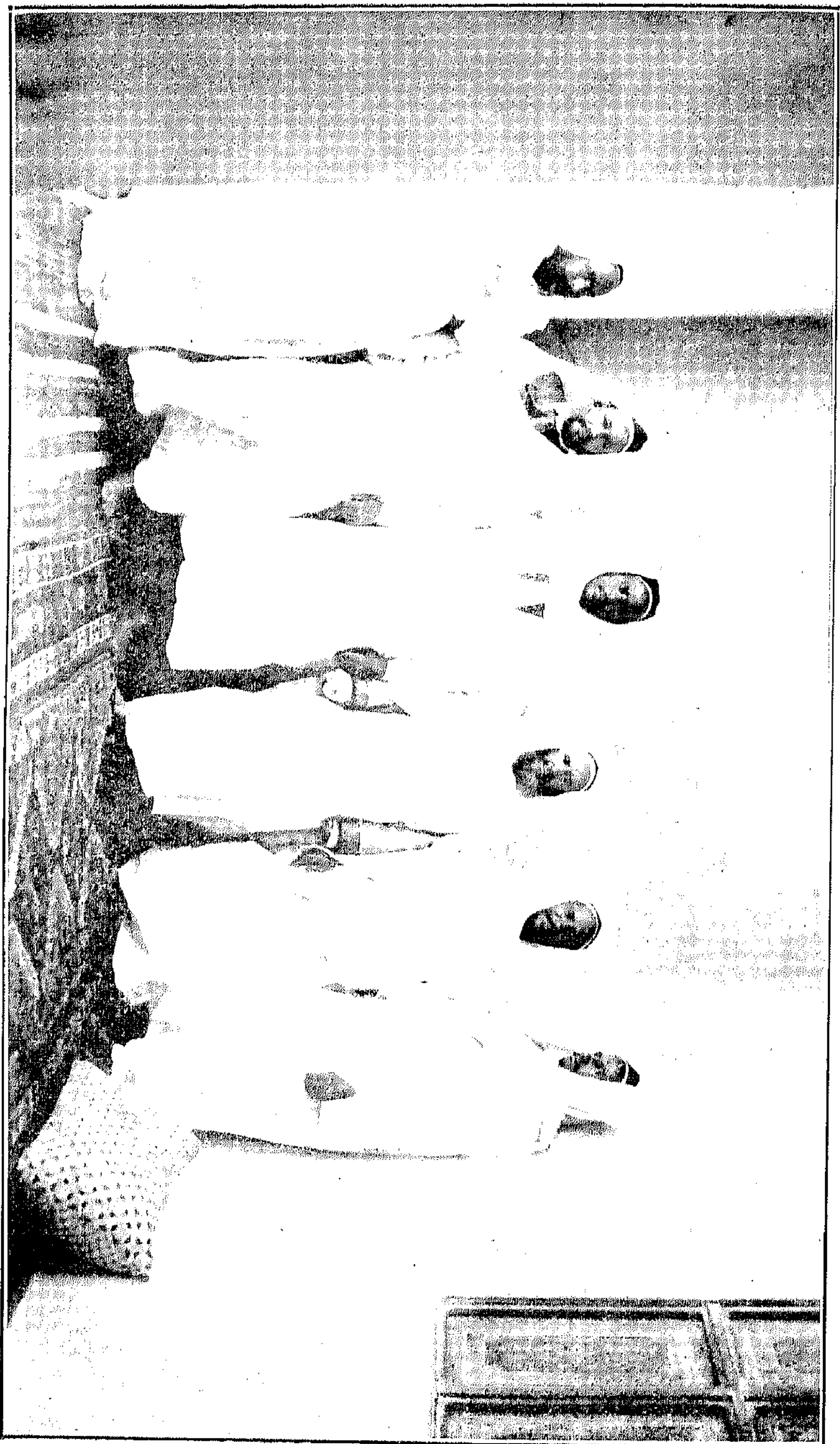
وقد أطلق اسم الكفرة في عهد المستكشف الألماني رولف
على الاربع الواحات المتفرقة المسماة تيزربو وبوزيمه ورييانه وكبابو
التي تكون الكفرة الحالية ولكن اسم الكفرة يطلق الآن على
واحة كبابو فحسب

والهوارى أبعد أقسام الكفرة ناحية الشمال وهي واحة
صغيرة مكونة من ثلاث قرى هي الهوارى والهواويرى والعوازل.
وتقع التاج على بعد ١٧ كيلو مترا من الهوارى . وهي مركز
الحكومة المحلية كما أنها أهم موقع وهي واقعة على ربوة صخرية
تطل على منخفض الواحة الاصلية التي تقع في الجنوب وتضم قرى
الجوف وبويمه وبومه والزررق والطلايب والطلاب
وكان غرضي أن أتقدم في السير الى التاج وهي أهم مدن

الكفرة في اليوم التالي ولكن أبا حليقة طالب بحقه في الضيافة وأصر على استبقائي يوما في بلده . وقضينا ليلة هادئة لا يعكر صفوها هبوب العواصف أو تهديم الخيام واستيقظت في الصباح فخلقت ذقني واستعددت لآلهم الفطور الذي تفضل بإرساله بدو قافلة وصلت حديثا من « واداي » . وفي نفس الوقت جمعت بعض معلومات قيمة جعلتني أفكر في تغيير بعض خططي

وبعثت رسولا الى التاج برسائل الى السيد العابد ابن عم السيد إدريس وشيخ السنوسيين في الكفرة وإلى السيد الجدأوى وكيل السيد إدريس الخاص

ورافقتي الزروالى بعد ظهر ذلك اليوم الى الهوآرى حيث استقبلني في زاويتها الاخوان وأشراف المدينة . وبعد أن تبادلنا عبارات الترحيب والتحية تناولت العشاء في منزل عم السيد الزروالى . واحتج على شيخ البدو لاني فاجأتهم بزيارتي ولم أضرب، خيامي خارج المدينة وأخبرهم بحضورى حتى يتهيأوا للقاءى كما يجب ويحتمل أنهم سمعوا بالاكرام الذى لقيته في جالو فعز عليهم أن لا يقوموا نحوى بمثله وزيادة ، وسمعت اشاعات عن دسائس بين بعض شيوخ الزوى الذين ارتابوا في غرضى من المجيء مرة ثانية الى الكفرة واحتجوا على هذا المجيء بتخلفهم عن مشاركتى في



مجلس كبار رجال السنوسية بالكوفة

العشاء الذى هُيَّء لى . وكان هؤلاء الشيوخ ذوى نفوذ شديد
فصمت بعد سماع هذه الاشاعات على الاسراع بالسفر الى التاج
خيفة أن يرسلوا اليها ما يشوش الافكار قبل وصولى
وبعد تناول العشاء عدت الى خيامى فى ليلة مقمرة فوجدت
أمراها ما فى انتظارى فان « عقيلة » اكبر أبناء أبى حليقة لدغته
عقرب وسألنى أبوه أن أشفيه ثقة منه فيما حملت من الادوية فأخذت
المصل المضاد للدغ العقرب وقصدت داره فرأيت ابنه فى أشد
حالات المرض محترقا من فتك الحمى . وكنت قد فكرت فى أخذ
هذا المصل فى آخر لحظة قبل قيامى من القاهرة . وكان بين
مودعى طيب من أصحابى فأرشدنى وهوىشد على يدى الى طريقة
استعماله بينما كنت أتبادل كلمات الوداع مع من كان حولى من
الأهل والأصحاب . وكانت هذه أول مرة حاولت فيها أن أقوم
بإعطاء هذه الحقنة فأجهدت فكرى فى جمع الارشادات التى
أعطانيها صديق الطيب فى موقف التوديع . ولكنى لم أبصر فى
صفحة خيالى الا الفرق الشديد بين غرفة المريض المظلمة ملائى
بأهله واخوانه يتعقبون جميع حركاتى وبين موقف التوديع الحار
ساعة أضفت أنايب المصل الى حوائجى . ومع هذا وبالرغم من
شكى فيما اذا كان الاسعاف قد فات وقته فقد أعطيت الشاب تلك

الحقنة وعدت أدراجي الى خيمتي مشغول الخاطر بما عسى أن تكون النتيجة . ولم يمض وقت طويل حتى سمعت جلبة جمهور يتقدم الى خيمتي وهو يرسل في الفضاء صراخا عاليا وقع من أذني موقع العداء فظننت ان الصبي قد قضى وأن تبعة موته ستقع على عاتقي بدل أن ينسب الى لدغ العقرب ففكرت في جمع رجالى للدفاع عن صندوق الآلات الذي حسبت أن سيكون هو أول ضحية لسوط غضبهم . واستعددت للدفاع عن نفسي وكانت ساعة عصبية لم تدم طويلا فقد هدأت بعدها لاني ميزت في صراخ القادمين رنة سرور . ولم تمض دقائق حتى دخل على أبو حليقة وشكرني من أعماق قلبه لاني شفيت ابنه من دائه العضال قائلا بحرارة وحماس « الله اكبر لقد كان سحرا ما فعلت ، ان شفاء ابني كان في الدواء الذي أعطيته له » . وكانت حمى الصبي قد هبطت . وتولد الأمل في شفائه فشكرت الله في نفسي على التوفيق الذي أصابه عملي لان موت الطفل كان يخرج مركزي ويضعني في أخطر المواقف

وتركني زواري نخرجت في ضوء القمر أستريض بين أجمات.

النخيل .

الفصل الثالث عشر

الكفرة - الأصداء القدياء - تغير فطة الرحلة

الأحد أول ابريل:

قنا العاشرة الا ربعا صباحا ووقفنا الثانية بعد الظهر وقطعنا
 ١٧ كيلو مترا ووصلنا التاج وفي الساعة الحادية عشرة وربع دخلنا
 أرضا مهشمة الصخور كثيرة التعاريج تغطيها اكوام من الخراسان
 الاسود والاحمر على طول الطريق الى التاج
 وجاء « عقيلة » يساعدنا في تحميل الجمال . وكان قد أبلّ من
 مرضه وعزم على السفر معنا الى التاج . وأرسل ابو حليقة الفطور الى
 والى رجالى وأخذت عليه شدة اهتمامه بي فأجاب على هذا بأنى
 حرمة حق ضيافته لنا مدة الثلاثة الايام المألوفة . وبعد قليل جاءت
 جارية من بيته تحمل صحيفة كبيرة من الارزودجاجة ويضا وقد
 ظهر لى أن سيدها ألبسها لباسا خاصا لهذه المناسبة فقد راقنى ثوبها
 الرشيق ذو القماش الازرق والنطاق الاحمر الملتف حول خصرها
 النحيل

وأخبرتها أنا مسافرون في التو وأنا لسنا في حاجة الى الطعام
فقلت في خفي « ربما مست الحاجة اليه في الطريق » لقد طهيته
بنفسي فقلت لها « اذا كان الأمر كذلك فأنا أتقبله بكل سرور »
فبان عليها الفرح ورجعت فأتتنا بصحفة أخرى لا تقل عن تلك
حجبا ولا تحريكا للشبهة وشكرت لها لطفها وزودتها بشكري
لسيدها الكريم

وودعنا أهل « العوازل » توديعا حارا ، وتقدمت القافلة على
جواد أبي حليقة ولم نكن في حاجة الى دليل لمعرفة الطريق ،
ولم تفت السنوسي أبا حسن ملاحظة ذلك فقال « ان البك يعرف
الطريق حق المعرفة ولا أحسبه الا صائرا دليلا قادرا في بلادنا »
والطريق الى الكفرة من جهة الشمال فيه شيء من المفاجأة
تجعله ممتعا ، فقد سرنا في أرض قليلة التعرج يكتنفها مرتفع من
الأرض قليل العلو كان لنا بمثابة الأفق ثم انقلب ذلك التل فجأة
فأصبح طائفة من الأبنية لا تكاد العين تميز عن بعد فرقا بين
جدرانها وبين الصخور والرمال التي تماثلها تلك الأبنية لونا وشكلا
وكانت هذه المحلة مدينة « التاج » مركز الأُسرة السنوسية

في الكفرة

ودخلنا المدينة فرأينا الأرض التي خلفنا قد هبطت فجأة في

وادي الكفرة وهو واد بعيد الغور يكاد يكون يضاوى الشكل
يبلغ أقصى قطريه ٤٠ كيلو مترا وأدناها ٢٠ كيلو مترا . ويتناثر
فيه النخيل وتمتد فيه على شكل خط متعرج من الشمال الشرقى الى
الجنوب الغربى، القرى الست المعروفة بأسماء بويمه وبومه والجوف
والزرق والطلايب والطلاب

وتقع بالقرب من الجوف بحيرة متوسطة الحجم زرقاء اللون
متألقة الماء هى فى وسط تلك الرمال الموحشة عطية من عطايا الله
فان مياهها المنبسطة تبعث السرور الى العين المتعبة من رؤية الرمل
الدائم . ولكن مياه هذه البحيرة الملحة أشد غصّة فى حلق الظمآن
من قذى السراب فى عينه

وقابلنى عند دخول مدينة « التاج » أصحابى القدماء . وكان
السيد العابد ابن عم السيد ادريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة
مريضا بالروماتزم فتفضل بإرسال تحياته الى مع سيدى صالح
البسكرى القائمقام والسيد محمود الجداوى وكيل السيد ادريس
وجمع من الإخوان

وصحبني هؤلاء الى منزل السيد ادريس الذى أعدّ لاقامتي،
وكانت اقامتي فى رحلتى الاولى الى الكفرة منذ سنتين فى نفس هذه
الدار فأحسست كأنى فى دارى. وأراد السيد البسكرى أن يمازحنى

فقال « علم يا بك رجالك دروب الكفرة فاني لأحسبك أخبر
 بها منهم جميعا بما فيهم السيد الزروالى الذى لم يطأها منذ ١٣ سنة »
 وبدأت دلائل الضيافة فى الحال فقدم لنا الشاى قائد الجند .
 ولم اكـد أستريح قليلا حتى جاءنى أحد العبيد يدعونى الى تناول
 الغداء فى دار السيد العابد . وكان نفس الرسول الذى قادنى منذ
 سنتين وسرت معه فى نفس الدروب ودخلت نفس الدار العجيبة
 التى يقيم فيها قائد السنوسيين . وأنا أشعر كأنى أعيش فى عهدى
 الماضى أو كأن العمر لم يتخط بى السنين

ودار السيد العابد ذات طرقات متعددة متوشحة ملائى
 بأبواب الغرف التى يقيم فيها أفراد أسرته وحشمه . ودخلنا الغرفة
 المعهودة التى زاد زينتها عن قبل ما أضيف اليها من السجاجيد
 الثمينة والوسادات ذات الالوان المزركشة . وقد علق على جدرانها
 تلك المجموعة من الساعات والبارومترات والترمومترات التى يحب
 جمعها صاحب الدار . وكانت الساعات سائرة بدقة وهى لا تقل
 عن اثنتى عشرة ساعة مختلفة الشكل والحجم

وجاء السيد صالح يسامرنى ويعتذر عن غياب السيد العابد
 القهرى . ووضعت أمامى مائدة تصلح للملوك وتهيج شهية من
 قضى الايام الطوال فى الصحراء . وتنوعت فيها ألوان الطعام



بدوي مع جاريته

والحلوى وختمت بثلاثة اكواب من الشاي معطرة بالعنبر وماء
الورد والنعناع

وعدت الى دارى بعد انتهاء الوليمة فلم اكـد أتعهد حوائجى
وأتمحدث فى أمر الجمال اللازمة للرحلة الثانية حتى جاءنى عبد
يصحبنى ثانية الى منزل سيدى العابد لتناول العشاء . فاستقبلنى
السيد البسكرى ذلك الشيخ الوقور الرضى فى جبة ذهبية اللون
وكان قد خلع عن رأسه طربوش البدو الطرى ولبس كوفية بيضاء
من الحرير وعقالا اختلطت فيه الخضرة بلون ذهبى . وبعد أن
فرغنا من تناول الطعام أديرت اكواب الشاي المعطر وأحرق
البخور وهنا بدأت ساعات الغرفة تدق أنغاما مختلفة مؤذنة بحلول
الساعة الثالثة من الزمن العربى فأغمضت عيني لحظة وأحسست
كأنى فى اكسفورد أسمع الدقات المتنوعة تنبعث من ساعات أبراج
الكليات والكنائس .

وخرجت فى ضوء القمر يغشائى عبق ماء الورد ويحيط بى
نشر البخور فعلوت التل المشرف على مياه البحيرة وذكـرت
زيارتى الاولى أيام كانت الكفرة غاية رحلتى السالفة وفكرت فى
شأنها اليوم وهى مبدأ القسم الشيق من رحلتى الثانية

ووقفت أسمع أصوات الاخوان والطلبة ترتل الحزب في
سكون الليل فطفر عبد الله من بين الظلال ووقف الى جانبي ثم
قال بصوت خافت عميق « هذه ليلة النصف من شعبان يحقق الله
فيها أمل من يدعو » : ثم سكنت وظللنا وقوفا صامتين بضع دقائق
وكان وجهي صوب الجنوب الشرقي حيث تقع سبل غير مطروقة
وواحات مجهولة . ودار عبد الله بوجهه صوب الشمال الشرقي حيث
توجد مصر وفيها أسرته وأولاده . ثم تتم دعاء خافتا ولم تكن ثمة
حاجة لان أسأله لم الدعاء
الاثنين ٢ ابريل :

أخبرني أثناء إقامتي بالهوارى بدو القافلة المسافرة من
واداني أن فرقة فرنسية سارت شمالا حتى وصلت بئر ستاره
متبعة في سيرها الطريق التجارية الاصلية من واداي الى
الكفرة : وكانت هذه الطريق هي التي صمت على أخذها بادىء
بدء ولكنه وضع لي أن الذي لم يستكشف منها بعد هو الجزء
البصغير الواقع بين ساره والكفرة . وكنت قد سمعت قبل ذلك
بعض حكايات غامضة عن واجات مجهولة في الطريق الجنوبي الذي
دار بخلدى أن استكشفه يوما من الايام رغم علمي أن الطريق
المستقيم الى دارفور لم تطأه قدم يدوى أو سودانى لما توهم الناس
فيه من الصعاب والمخاطر . وغيرت قصة الفرقة الفرنسية وجهة

تفكيرى صوب هذه الواحات وفضلت أن أسمى لاكتشافها عن
أن أتبع خطى الاصلية

وكان عزمى من البداية أن أفرغ قصارى جهدى فى استكشاف
الواحات المجهولة حتى اذا خبت فى هذا قطعت صحراء ليبيا سائرا
فى الطريق المعروفة فاخترقت واجنجا ووادى ثم انحدرت جنوبا
الى دارفور . وجاءنى السيد الزروالى وسليمان أبو مطارى يناقشانى
فى أمر السفر الى الجنوب فكانت نصائح أبى مطارى مشبطة لهما
اذ قال : « إن آخر قافلة طرقت هذا السبيل منذ ثمان سنين وكان
قائدها أخى محمود ذبح أفرادها وقطعوا اربا على حدود دارفور. على
أنهم لم يسيروا فى الطريق التى تريد اتخاذها أنت الآن وانما أخذوا
الطريق الاسهل من العوينات الى واحة « مرجه » (وهى واحة
صغيرة على بعد ٢٩٠ كيلو مترا من الجنوب الشرقى للعوينات) أما
الرحلة التى تزمع القيام بها فترمى بك فى أصقاع لم تطأها قدم بدوى
من قبل. والمرحلة بين العوينات وأردى بعيدة الشقة كثيرة المخاطر
والله يلفظ بالقافلة التى تقاسى حرها الشديد . واكبر ظنى ان جمالك
تسقط كالطيور فى الطريق أمام ريح السموم الجنوبية . ولو فرضنا
أنك اجتزت تلك النواحي سالما فمن يدري كيف يعاملك سكان
تلاها الموحشة . ونصيحتي لك أن لا تدع شوقك الى السفر السريع

يتغلب على حكمتك فيمنعك اختيار الطريق الآمنة التي يأخذها
التجار الى واجنجا « وابشه » . وكان بهذا يخلص الى النصيح رغبة
منه في عدم تعريض حياتي للخطر فشكرته على نصائحه ولصكني
كنت موطد العزم على تنفيذ خطتي

وبعد تناول الغداء الفاخر الذي قدمه لنا السيد العابد ذهبت
لزيرة ابنه السيد شروفه . وهو شاب يتوقد ذكاء وتشوقا لتحصيل
العلوم . وقد سافر الى بنغازي فكان رأيها أنها خير مدن العالم على
ما بها من صغر الحجم وقلة انتشار المدنية . واعتذرت لي عن مرض
أبيه فعرضت أن أرسل اليه بعض الدواء الذي أتمنى فيه الشفاء له .
الثلاثاء ٣ ابريل :

كانت حرارة الجو شديدة والسماء ملبدة بالغيوم والرياح
تهب بقوة من الجنوب الغربي : وذهبت بعد تناول الغداء
كالعادة لزيرة السيد شمس الدين ابن عم السيد شروفه وزيرة
أخيه الأصغر وكان أكبر هذين ذكيا ذا عينين براقين تمان عن
حب الاستطلاع كما تبدو على أخيه الأصغر علامات النجاسة
والذكاء وقدم لي ثلاثة اكواب من اللبن ولوزا مقشورا ومرقي
فأشبع نفسي اكراما لخاطر ضائقي وبخرجت ممتلئا . ولم يمنعني
ذلك من تناول العشاء في منزل السيد العابد

. وثناقشنا مرة أخرى في خطة السفر بطريق اركنو
والعوينات فرأيتني أثبت ما اكون على رأيي وانتظرت أن آخذ
رأى أبي حليقة بعد عودته من الهواري

الاربعاء ٤ ابريل :

أيقظني السيد الجداوى في الصباح وأحضر لي إبريقا من
الشاي المعطر وأحضر لي أحمد أدوات الحلاقة فشعرت بشيء من
عيشة المدن بعد حياة الصحراء . ولست اكنتم القاريء أن هناك
لحظات يشعر فيها الانسان بهشاشة الى ملاذ المدن وأسباب راحتها
ولكن نفسه تطيب بالسفر الطويل في الصحراء أثناء السير أكثر
مما تطيب زمن الإقامة في واحة من الواحات

ومضى القسم الأول من النهار في تصغير أكثر الصناديق
الخشبية وفي ترتيب الحوائج من جديد تحضيرا للمرحلة الطويلة
الى الجنوب وكانت العناية الشديدة لازمة في تحضير كل شيء لانه
لم يكن هناك أى فرصة لاستبدال الجمال حتى نصل الفاشر وهى
على بعد ١٥٠٠ كيلو مترا تقريبا

واهتممت باستحضار « اخفاف » جديدة لرجال القافلة لان
الاخفاف التى شريتها لهم فى جالو قد بليت

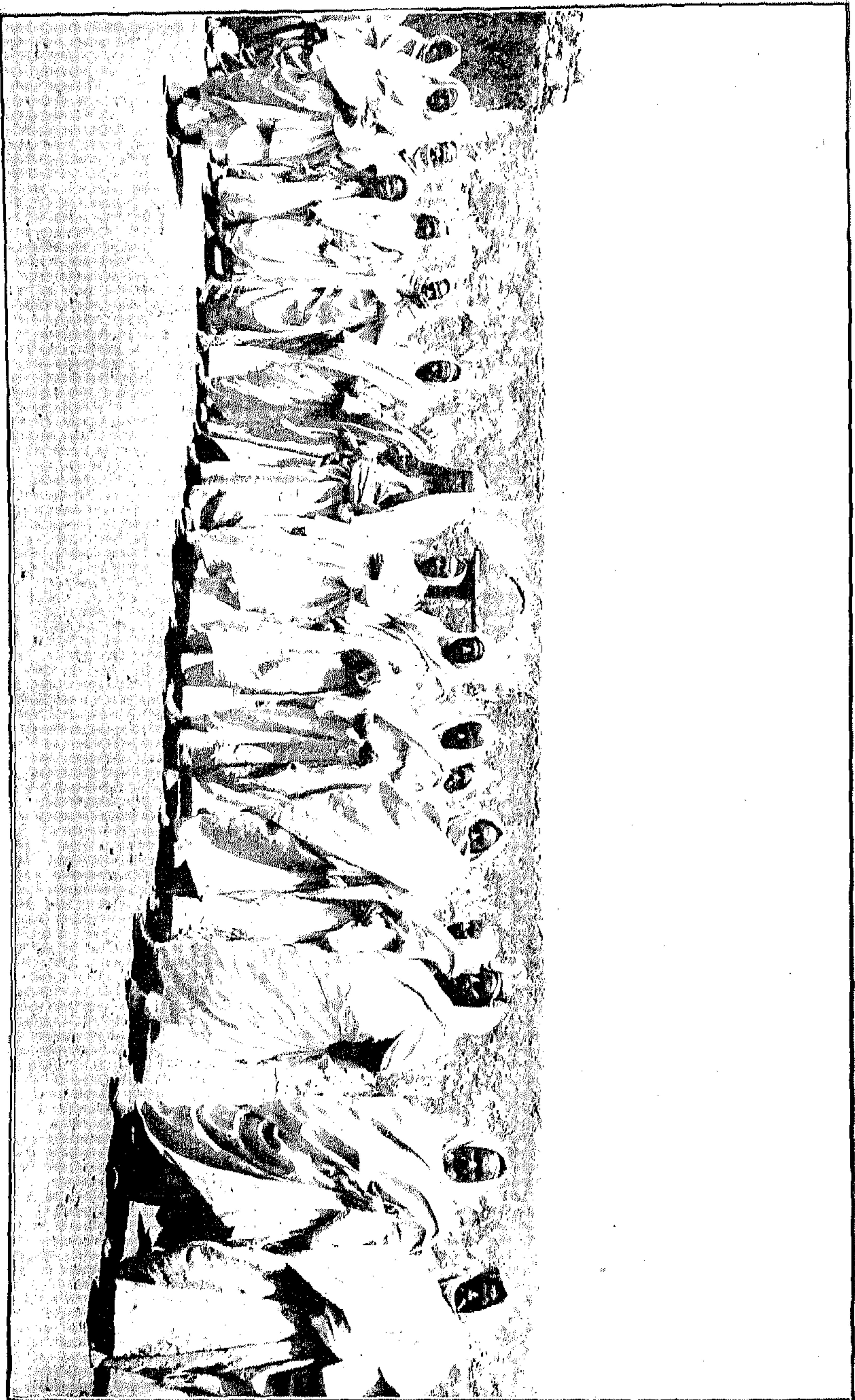
. وزارني قبل الغداء بعض شيوخ زوى يقدمون لى واجب
الترحيب وهم مدفوعون فى الحقيقة بدافع الارتياح والتشوف الى

معرفة عدد القافلة وخواتمها والاهتمام بقدر الطاقة باستكشاف
الخطط التي دبّرتها للسفر الى السودان

وتغديت عند السيد العابد كالمادة وسرني على ان الدواء
الذي قدمته له نجح فيه . وقضيت بعد ظهر اليوم في تهيئة الاسلحة
والذخيرة وخرجت أترىض في المساء لعمل بعض الملاحظات
بواسطة بوصلي عن النواحي المجاورة لبلدة « التاج »
الخميس ٥ ابريل :

كان الزروالى قد أطل في محادثة أبي خليفة الذي وصل أثناء
الليل من الهواري وكان رأى الأخير الرفض الصريح في تنفيذ
فكرة السفر الى الفاشر بطريق العوينات وجاء لزيارتي وحاول أن
يحملني على السفر بطريق واداي ولكني لم أكن لنصائحه فداخله
اليأس لاني صرحت له أن لا شيء يززعني عن تنفيذ رغبتى في
السفر الى الفاشر بطريق العوينات

ودار بيننا الحديث الآتي . قال أبو خليفة : « والله انها لطريق
مخوفة وكم من قافلة اكلها سكان التلال الواقعة في تلك الطريق .
انهم قوم لا يخشون الله ولا يخضعون لسلطة انسان . وهم كالطيور
يعيشون على قمم الجبال ولا يحصى لك عن الوقوع في مناوشات
مهمهم » . فأجبتة : « أنا رجال مؤمنون نوقن أن مضيرنا في يد الله
جل وعلا فان قدر علينا الموت دهمنا في طريقنا الى أقرب بئر »



مشايخ قبيله زوى بالکفره

فقال أبو حليقة: « كم من شيخ زوى وازاه التراب في تلك
الاصقاع المجهولة . ان سكانها خائثون لا يخافون الله ولا يخشون
الناس »

فأجبتة: « رحم الله من قضى في تلك البلاد من شيوخ الزوى
ان حياتنا ليست أعز وأغلى من حياتهم ولا يليق بنا ان نكون
أقل منهم إقداما »

فقال : « ان الماء في تلك الطريق نادر وردىء » وقد قال الله
تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »
فأجبتة : « ان الله يطفىء ظلمة المسلمين المؤمنين ويلاحظ بعنايته
الصادقين من عباده »

وشعر أبو حليقة أنى سأحجه في المناقشة فغير مجرى الحديث
وقال: « ليس بين رجالى من يرضى مرافقتك في تلك الطريق وليس
في مقدورى أن أرمى بجمالى في تلك المفاوز التى يدهمها فيها الموت
المحتوم فان وجدت من يكرى لك جماله فانى مستعد لدفع الأجرة
المطلوبة ولكن رجالى وأنا لا نرضى بمرافقتك في تلك الطريق »
فأجبتة وأنا ملآن حمية : « افعل ما بدالك انى سائر الى الفاشر
من تلك الطريق وسيكون الأمر بينك وبين السيد إدريس حين
يعلم ان أبا حليقة لم يحافظ على كلمته »

وانتهت بيننا المناقشة عند هذا وعلمت أن أبا حليقة دفع أصحاب الجمال في الكفرة الى عدم الرضا بمساعدتي في تنفيذ خطتي. آملا بذلك أن يضطرنني الى قبول السفر الى واداي بالطريق المأمونة. وانتهت أيام الضيافة الثلاثة في دار السيد العابد فأرسل لي الغداء من دار السيد الجداوى وكيل السيد إدريس في الكفرة. وكان أبو حليقة على وشك الرحيل ولكنى دعوته الى مشاركتنا في تناول الغداء فرضى آملا أن يحملنى على تغيير خطتى وكنت آملا من الناحية الأخرى أن أقنعه أن تلك الطريق لم تكن من الخطر بحيث تصور

وفرغنا من تناول اكواب الشاي وافترقنا وليس منا منتصر على أخيه ولكنى شعرت ان كلماتى الأخيرة كان لها تأثير شديد فى نفسه.

وجاءنى بعد الظهر عبد السيد العابد يحمل الى رغبة سيده فى رؤيتى ولم اكن أحدث نفسى بإسراعه فى مقابلتى لانى علمت أنه يشكو نقرسا قاسيا وان من الصعب عليه أن ينزل لمقابلتى فى غرفة الزائرين ولكنه لم يرد أن يداخلى الظن فى عدم اتباعه قواعد الضيافة بتأخير مقابلتى فسمح لى أن أراه بالرغم من تألمه. وكانت هذه أول مرة رأيت فيها السيد العابد فى هذه السفرة فشعرت

حين دخلت عليه انى أرى صورة حية لرسم فاخر من رسوم ألف ليلة وليلة . وكان يلبس قفطانا من الحرير الاصفر مطرزا بمجداثل حمراء وبرنسا من الحرير الابيض ملقى على منكبيه . وكان على رأسه عمامة بيضاء يتهدل على جوانبها غلالة ناصعة البياض هى شارة شيوخ الاسرة السنوسية . وأمسك فى يده عصا غليظة من الابنوس ذات قبضة من الفضة . وكان فى هيئته وقار البساطة واللف لا يشمر من رآه أنه ذلك الفارس الباسل الذى تعرفه المواقع .

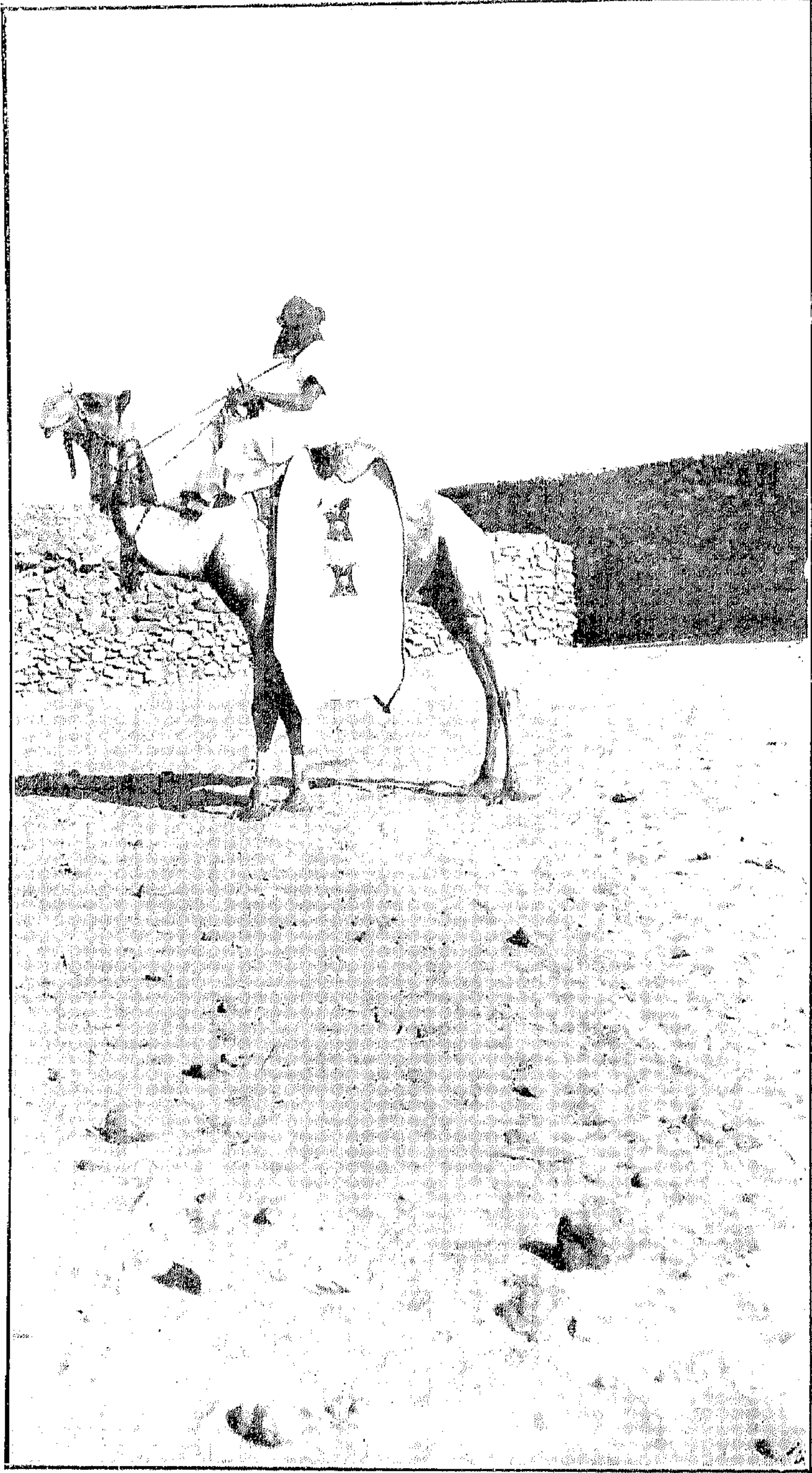
وكان يجلس حين قدمت عليه على كرسى كبير حسن التنجيد فحاول أن يقف ولكنى أسرعته اليه وأمسكت يده ورجوته أن لا يكلف نفسه مؤونة القيام لى . وكان يشكو مر الشكوى من داء النقرس فبدأنا الحديث فى أمر مرضه الذى لزمه السنين الطوال فقال: « انى لأضرع الى الله اذا اشتدت على وطأة المرض فى بعض الليالى أن يقصر أيامى فى هذه الدنيا لا تئى لا أطيق أن أقوم بالصلاة كما يجب على » . ثم تناولنا أمر رحلتى الى السودان فرأيت من حديثه أنه يفضل لى أخذ الطريق المأمونة التى تمر بوادى . فقلت له : « ان السيد ادريس فى مصر الآن وأود أن أسرع بالانتهاء من

رحلتي والعودة الى وطني حتى ارد له بعض جميله فيما لقيت من
كرم الاسرة السنوسية ولا يبلغني هذه الأمنية الا السفر الى
السودان بطريق العوينات لانها الطريق الاقصر » فقال « انك
صديق حميم لنا وأظن أن السيد إدريس يفضل لك أن تصل سالما
الى مصر وان تأخرت عودتك عن أن يسمع باى أذى نالك »
فاجبته قائلا : « ان مصيرنا في يد الله وقد قدر علينا مساعينا
وانى لأحمل معى مباركة شيوخ السنوسيين »

وكان فى كلامى لهجة القطع فى الأمر ففكر قليلا ثم رفع
رأسه ببطء وبسط كفيه الى السماء ثم قال : « نبح الله مسعاك وأرجعك
سالما الى أهلك . لقد زرت قبر جدنا فى جغبوب ودخلت قبة سيدى
المهدى فى الكفرة فنلت بركتها والله فى عون من سمى وآمن »
ثم قرأ الفاتحة وباركنى وتضرع الى الله أن يسدد خطاى وأن يهينى
ورجالى القوة والثبات

وتركته وسرت فى منعطفات الدار وأنا أحس فى نفسى سعادة
عظيمة . وأراح بالى ان لى عضدا من السيد العابد وانه لا يكون
عقبة فى سبيل تنفيذ خطتى الجديدة فى السفر الى السودان بطريق
العوينات .

ودخلت دارى فلقيت جميع رجال قافلتى ورأيت فى وجوههم



طارقي بمعداته الحربية في الكفرة

من أول نظرة شوقهم الشديد الى معرفة ما قر عليه رأى السيد
العابد فى أمر السفر . ودافقت الى غرفتى ثم ناديتهم لا سكن
خاطرى أنا الآخر وأقر شوقى الى النجاح الذى أنتظره
ومرت بى برهة طويلة لزممت فيها السكوت قبل أن أتمكن
من ضبط لهجتى وأظهر عدم الاهتمام بهذه المسألة الكبيرة ثم
فاجأتهم بقولى « لقد بارك السيد العابد رحلتنا الى العوينات وقرأ
الفاتحة ابتهالاً الى الله بتوفيقنا » واشتت بوجهى عنهم غير مجترىء
على توسم وجوههم وأردفت قائلاً « ولقد حلت علينا بركة
السوسيين وزادها السيد العابد توثيقاً والله يرزقنا الثبات والنجاح
ويهدينا سواء السبيل »

الفصل الرابع عشر

الكثرة وموقعها على الخريطة

الجمعة ٦ ابريل :

أصبح الصباح فنحنى أريج باقة من الورد تفضل باهدائها
السيد العابد فعلت عند انتشاقها كيف تكذب الصحراء اسمها أحيانا
وكيف ترى أزهارها بما ينبع في الرياض النضرة من مورق
الانصان .

وكان يوم جمعة فصليناها في المسجد وكان حضور أمراء
السنوسيين متوقعا . ودخل بعض البدو في أبهى ثيابهم وغص
المسجد بالمصلين الذين امتزجت في صفوفهم قفاطين الحرير
بمهللات الجرود . ووقفت اتفرس الداخلين الى المسجد فرأيت
كبار تجار الزوى والمجاورة وقد لبسوا الثياب الفاخرة التي لم
تنبسط بعد غضونها من طول البقاء في الصناديق ولحت أعينهم
المكحولة وشممت عرف الداخلين يعبق منهم ماء الورد المقطر

في الكفرة أو المسك ومبائر الروائح العطرية المستجلبة من
السودان

وكان يأخذني منظر الغنى الجليل اذا دخل فأخذ مكانه بين
المصلين وتبعه اعرابي مهلهل الجرد أسمر الوجه مفضنه ولكنه
لا يقل عن سابقه جلالا . ان الملابس لا تميز الرجال في تلك المحافل
فان قدر الرجل في شرف النفس وكبر القلب . وهذه الصفات تنطق
في الجرود البالية بلسان أفصح عما تنطق به في ثياب الخز وتفحات
الطيب التي قد تضيع شيئا من شخصية أصحابها .

ويدخل أحد العبيد وقد يكون صفيّ أحد السنوسيين وموضع
ثقلته وتكون ثيابه الحريرية من بهاء اللون وجمال النسج بحيث
تخفي مكانه من دائرة الرق ويشعر بقوة مركزه فيخترق صفوف
المصلين تياها نخورا ويأخذ مكانه الى جانب أحد الوجهاء أو أحد
الشعاذين

والغنى والفقير سواسية في المسجد وربما ثار الفقراء لا أنفسهم
من الأغنياء في بيت الله الذي لا يهيم فيه غيره وشعروا بما يشعر
به الأغنياء من العظمة أو فاقوهم في هذا الشعور علما منهم بأنهم
لا ينعمسون في ترف الحياة ونعيمها فيلهم زخرفها عن الله تعالى .

وان البدوى ليدخل المسجد في جرده المهلهل لاداء الصلاة كما يدخل
الغنى في ابيهى ثيابه على شيوخ السنوسيين

ويستعد المصلون بعد فراغ المؤذن فيغشاهم السكوت ويدخل
أمرء السنوسيين فيأخذون أماكنهم الخاصة وتلتفت اليهم الانظار
فيظهر عليهم حياء الشباب ولا يقوم لهم أحد في المسجد اذ لا مولى
في بيت الله الا الله وحده لا شريك له . ثم يصعد الامام المنبر ويلقى
الخطبة التى تتفق في مغزاها مع سائر الخطب التى سمعتها قبل ذلك
في صلاة الجمعة في مساجد الواحات التى وقع لى أن دخلتها . ولا
تخرج الخطبة عن النصيح بترك حياة الغرور والترف والتهيو لأداء
العمل الصالح للحياة السعيدة فى الآخرة فيقول الخطيب « اتركوا
زينة الحياة الدنيا ومتاعها الغرور فأنهما سبيل الى الغواية وهما إن
تملكا نفوسكم ضللتكم سواء السبيل وحدثم عن سبيل الله . تقربوا
الى الله بالعمل الصالح وأطيعوا أوامره . ان الحياة الدنيا فانية
والآخرة خير وأبقى فاعملوا لا خرتكم تسعدوا فى دار الخلود »

والمسجد من الداخل جميل البناء رائع وان كان بسيطا فى
بنائه . نظيف الجدران البيضاء العارية . مفروش بالسجاد الجيد والحصر
الرقيقة ويجلس المصلون بخشوع مولين الوجوه شطر الكعبة فى
صفوف لا يقل عدد أفرادها عن مائتى مصل . يسبح بعضهم

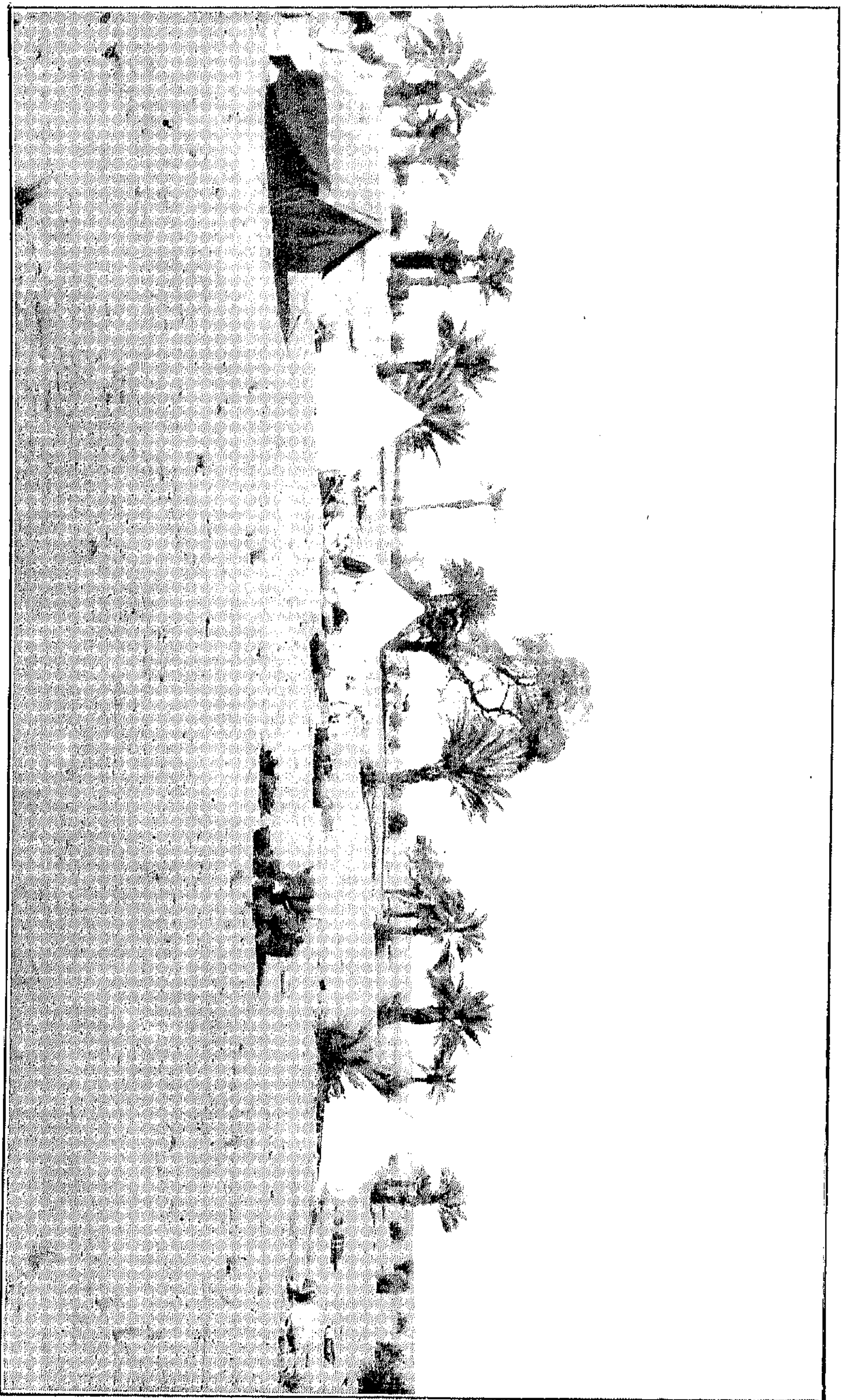
بمساجح من حبات الكهرمان ويسبح الفقراء الذين لا يملكون
 مساجح بواسطة قبض الاصابع وبسطها . ومنهم من يظهر الغنى والثراء
 في جميع حركاته . ومنهم بدو الصحراء الضاربون بنظرات بعيدة
 يلوح فيها الهدوء والقناعة . ومنهم من تقلص وجهه وشحب لونه
 وفي هيئته السكينة والرضا بحكم الاقدار . يتوسم الناظر وجهه
 فيراه قاب قوسين من الموت جوعا . وهو لا يتردد على القضاء
 ولا يتضجر من صروفه .

وجاءني سليمان ابو مطاري بعد فراغى من الغداء في منزل
 السيد العابد فتحدث ممي في أمر الرحلة . واخبرني أن أبا حليقة
 ومحمدا الذي اخترناه دليلا قد تقابلا وأعادا الحديث في الأمر ولم
 يزل أبو حليقة غير راض بالرحيل . وقضى عبد الله ذلك اليوم في
 الجوف يجمع ما يمكنه جمعه من المعلومات عن طريق العوينات
 ويجتهد في البحث عن يرضى بتأجير جماله لنا من قبيلة التبو للسفر
 الى تلك الاصقاع المخوفة

وتعشيت في منزل السيد العابد ثم قضيت زحاحا من الزمن
 في مكتبة السيد إدريس الذي أمر السيد الجداوى بفتح أبوابها الى
 المكتبة غرفة متوسطة الحجم ملأى بالصناديق التي تحوى
 الكتب المختلفة وسقفها مزين بالالوان الزاهية التي خطتها يد صانع

محب للسنوسيين جاء من تونس يؤدي خدمة كما كان يقف
المصورون والنحاتون حياتهم في القرون الوسطى على تزيين
الكنائس . وكان كل ما في الغرفة من الاخشاب مستجلبا من مصر
أو بنغازي . وكان في الغرفة نافذة مفتوحة ليس فيها الا مصراعان من
الخشب يدفعان عنها حرارة الشمس . والتنقل في هذه الغرفة غير
سهل لما صُف على جدرانها وفي وسطها من الكتب والصناديق .
وكان في الغرفة صناديق قديمة يتخذ منها خزائن ويسهل حملها على
ظهور الجمال عند الحاجة لما وضع في جوانبها من مقابض وحلقات
والمكتبة قليلة النظام كدست فيها الكتب بغير عناية لان السيد
إدريس هجرها طويلا . وفيها عدد عظيم من المخطوطات المحفوظة
في أغلفة من الجلد جميلة الصنع وعدد عظيم من الكتب الحديثة
المطبوعة في مصر والهند واكثر مخطوطات المكتبة مستجلبه من
مراكش والجزائر وتونس وكل ما فيها مكتوب باللغة العربية الا
القليل المكتوب بالفارسية . ومن بين المخطوطات بعض نسخ
القرآن الكريم المزين بالذهب

وكانت لي ميزة عظيمة على سائر الناس في زيارتي لهذه
المكتبة لان الدخول اليها غير مباح . ووجدت فيها مخطوطات
كثيرة كتبت على الرق وتناولت علوم الفلسفة واللغة العربية



مسكو الرحالة في العريانة بالكثيرة قبل السفر الى الواحات المجمولة

والفقه والتصوف والشعر وعلم النجوم والكواكب . وقضيت ساعات طويلة أمتع نفسي بتصفح هذه المجموعة القيمة وأنعم بذلك الجو الهادئ البعيد عن العالم وأشعر كافي أتشبع بروح الافكار الشائعة في هذه المخطوطات والتقرب من الله عز وجل لما يحيط بي من السكينة والالتقاط عن جلبة المدن التي يكفي من مظاهرها دقة تليفون تسمعه وأنت تقرأ هذه الكتب لتشعرك بقدم عهدا وعدم تمشيها مع الحاضر

السبت ٧ ابريل :

جاءني حذاء بديع هدية من السيد شروفة . وزارني بعض شيوخ الزوى فتحدثنا عند شرب الشاي في تاريخ قبيلتهم وعرفت من الحديث أنهم لم يكونوا أول الفاتحين للكفرة وانما سبقهم الى أخذها من قبائل التبو قبائل الجوازي والجهمة . وما اسما « الطلاب » و « الزرق » وهما قرستان من قرى الكفرة الا اسما لبعض اسر قبيلة الجهمه . وأعطيت كلا منهم صورة للجماعة الذين صورتهم قبل ذلك بأيام ففرحوا بها كثيرا

وتحقت في ذلك اليوم اخطار الكفرة فقد أضاع رولف حياته فيها بفتك المهاجرين وكدت أضيع حياتي أنا الآخر ضحية

الضيافة باللطف واللين فقد تغديت كعادتي عند السيد العابد ذلك اليوم وأتبعته الغداء بالشاي المعطر واللبن المخلوط باللوز . وخرجت فأصر السيد شروفه على زيارتي له في داره وقدم لي ثلاثة أكواب من الشاي المعطر وأردفها بمثلها من اللبن المخلوط باللوز ولم أتمكن من الرفض لان في ذلك اهانة لرب الدار فابتلعت ما في هذه الاكواب رغم ما كنت أحسّ به من تقزز عند شربها

ولم ينته الامر عند هذا فقد دفعني السيد شمس الدين الى داره ووضع أمامي شيئا كثيرا من البسكويت والبندق وكموبا كبيرة من الشراب الحلو ودعاني للأكل وليس لبشر أن يحتمل كل هذا ولكن الرفض اساءة لرب الدار فملت منها وشربت ثلاثة فناجين من الشاي ثم قمت أترنح في مشيتي بعد ذلك كما يتقدم الشهيد الى المشنقة نفورا وأتلوى من ألم التخمة كما يتلوى الشاب الاسبرطي من قرص الثعلب في أحشائه

وانقلبت الى غرفتي أستريح واستعرض ما مر بي وفكرت في أمر ذلك البدوي الذي انتخب رقم ثلاثة الغريب لاطهار الكرم البدوي ووددت لو انه مات قبل أن يتدع هذه السنة ثم رجعت فحمدت الله لانه لم يقع اختياره على الرقم سبعة

وقد أقبلت على الصحراء معرضا نفسي لفتاك الطبيعة أو

البدو من بنى الانسان ولم يخطر ببال لحظة فكرة الموت الذى ينشأ عن سوء الهضم وتكليف المعدة فوق طاقتها . ومع كل هذا فقد ذهبت فى الموعد المحدد الى دار السيد العابد لتناول العشاء كالعادة وكان بين المدعوين بعض شيوخ البدو فتناقشنا مرة أخرى فى أمر الرحلة الى الجنوب وكان أبو حليقة مصرا على رفضه الذهاب بطريق العوينات وقد قال « ان الشروط التى وضعها السيد إدريس تتناول رحلة الى وادى لالى دارفور » ولذلك أبى أن يرمى برجاله وجماله فى تلك الطريق غير الآمنة

وأدليت بحجتي كما يناقش المحامى فقلت له « أما وقد اتفقت معى على قطع ٣٥ مرحلة من الكفرة الى الجنوب فما الذى يضيرك اذا كنت أنزلك على السير الى وادى أو الفاشر أو أطلب اليك العودة الى مصر

ولم تقنعه حججى ولكنه رأى اصرارى وعدم معارضة السيد العابد لخطى وعرف رغبتى فى انقاص عدد الجبال المتفق عليها فرضى غير قاطع فى رضاه ولكنه أبى أن يرافقنى بنفسه أو يرسل معى أحد رجاله

الاحد ٨ ابريل :

حدثت أبا حليقة فى أمر جواده واشتريته بمبلغ ٣٣ جنيها

ذهبا وكان الجواد قويا صبوراً على السفر يكفيه الشرب مرة كل يومين .

وبعد تناول الغداء صورت السيد العابد وحادثته طويلاً في أمر مرضه الذي يتحمله بصبر البدو وجلدهم وتكلمنا في شؤون برقة ومصر وتناولنا ذكر رحلتى الى السودان ولم اكن موفقاً في أعمالى الفنية بالكفرة فانى وجدت صعوبة شديدة فى عدم التعرض للانظار والانتقال وحيدا فى نواحي الوادى لاستعمال أجهزتى بدون إثارة الظنون . وكان من سوء حظى أن السماء ظلت كثيرة الغيوم أيام إقامتى فلم اتمكن من رصد الشمس والنجوم بواسطة التيودوليت وشعرت بتعب شديد بعد العشاء وكنت قد استنفدت الاقراص التى جئت بها لمكافحة سوء الهضم وانتظرت بفارغ الصبر خروجى الى الصحراء وتمتعى ببساطة العيش .

الاثنين ٩ ابريل :

كان يوما كثير الغيوم ولكن نسima بليلا كان يهب طول النهار فقضيت يوما هادئا أقرأ فى مكتبة السيد إدريس واحمض «أفلاما» جديدة واشترى قربا وشعيرا لأجل الرحلة . واهدانى السيد العابد نسخا بخط يده لبعض رسائل السيد المهدي الى كثير من

الاخوان وأهداني سكيناً مغربية في قراب من الفضة وبندقية
بديعة التطعيم

الثلاثاء ١٠ ابريل :

انقشعت السحب بعد الظهر فأخذت صورة الوادي واتفقت
مع صانع الأحذية على صنع أحذية لى ولرجالى وعمل مناطق من
الجلد لوضع الرصاص لان الرجال أصروا على حملها لما سمعوا من
الاشاعات المخيفة . وقابلت محمد سكر الذى اخترته ليكون دليلنا
في طريق العوينات لأول مرة ومالت اليه نفسى

الاربعاء ١١ ابريل :

سمع السيد العابد بشرائى الجواد فاهدانى سيفاً طارقياً وبندقية
ايطالية . وأمكننى أخيراً أن أقوم بعمل بعض أرصاد وابحاث
بواسطة التيودوليت وكنت في شوق شديد الى مقارنة نتائج بحثى
بنتائج رولف الرحالة الألمان الذى زار الكفرة منذ ٤٥ سنة

الخميس ١٢ ابريل :

أرسلت الى دار السيد العابد بندقيتى هدية وركبت مع السيد
محمد أبى ثمانية والسيد الزروالى الى الجوف فقابلنا وجهاء المدينة
وزرت السوق وكان يوم انعقاده كل أسبوع . وزرت الجامع
والزاوية وهى أقدم مدارس السنوسيين فى الكفرة . والجوف

مركز تجارة الكفرة وقد شاقني في السوق رؤية ما اختط فيها من البضائع من (خراطيش) تدل علامتها على صنعها منذ ٣٠ سنة وعلب تحوى توابل ايطالية مستجلبة من بنغازى وأقمشة منسوجة في منشستر وواردة من مصر وجلودا وعاجا وريش نعام من واداي ودارفور . وحاصلات الجنوب قليلة في الكفرة الآن الا اذا حضرها أحد التجار من واداي ومنعه سبب من السفر بها الى الشمال لبيعها في برقة أو مصر

ولم تكن الكفرة ذات تجارة عظيمة الا قبل فتح السودان فان سبيلها في تلك الايام كانت أسهل لحمل محصولات واداي ودارفور من السبيل التي تقضى الى الشرق . ولا يزال يمر بطريق التهريب الى اليوم عاج إناث القيلة والعاج الذي يقل وزنه عن ١٤ رطلا وهما شيثان منعت حكومة السودان تصديرهما

وليست الكفرة طريقا للتجارة فحسب وانما يقصدها من يملك العبيد من شيوخ الزوى لفلاحة الارض فيزرعون الشعير والذرة ويزرع السنوسيون البطيخ والعنب والموز والقرع وغير ذلك من أنواع الخضر التي يسر السائح رؤيتها ويلذه طعمها بعد حياة الصحراء . ويزرعون النعناع والورد فيستخرجون منهما ماء الورد وخلاصة النعناع الضروريين في اظهار اكرم الضيافة . ويستخرج

الزيت من أشجار الزيتون بواسطة معاصر عتيقة .

وحیوانات الكفرة الجمال والخراف والحمر وقليل من الجياد .
واللحم مع هذا غالى الثمن لعدم وجود المراعى فى الوادى . وتعيش
الحيوانات على نوى البلح المطحون وهو غذاء صالح الا أن إطعامها
حشيشا أخضر واجب من وقت لآخر . ويربى السنوسيون - وهم
أكثر تقدما من جيرانهم فى كل شىء - القراخ والحمام

وسمعت فى الكفرة ان أثمان العبيد ارتفعت ارتفاعا هائلا فى
السنين الاخيرة لقلة من يرد منهم من جهات وادى نظرا لعين
السلطات الفرنسية الساهرة فى تلك الجهات . ويحتال بعض البدو
لاستجلاب العبيد فيعقدون الزواج على بنات وادى ثم يعودون
بهن الى الكفرة فيطلقونهن ويبيعونهن .

وقد عرضت على جارية أثناء سياحتى سنة ١٩١٦ بمبلغ ١٢٠٠
فرنك ولكن ثمن الجارية يتراوح الآن بين ٣٠ و ٤٠ جنيا وثمان
العبد أقل من ذلك

وقد يتزوج البدو من هذه الجوارى فاذا أنجبت احدا هن
ولدا أصبحت حرة طليقة . والبدو لا يهتمون بفوارق الالوان .
فاذا ولدت جارية لشيخ قبيلة ولده البكر فان هذا الولد يصبح بحكم
الواقع رأسا لهذه القبيلة بعد أبيه مهما كان اسود اللون

وأبناء العبيد عبيد كذلك . أما ابن الجارية من رجل حر فهو
 حر كذلك مهما كان فقيرا ولن يكون عبدا ولو تركه أبوه يتيمًا
 واقتناء العبد المخلص شيء يفعله البدوي كثيرا فان العبيد أقوي
 من الاحرار وأصون لسر سيدهم وهم يعاملون معاملة حسنة
 ويصبحون أفرادا من الاسرة بعد طول العشرة
 ويلبس العبيد ثيابا فاخرة لانهم مراة تتجلى فيها صور أسيادهم
 وليس (على كجا) عبد السيد ادريس الصفي موضع ثقته فحسب
 ولكن له فوق ذلك قوة وسيطرة لا يملكها الكثيرون من
 أحرار البدو

والعبد صادق الكلمة فاذا حمل السيد العابد رسالة الى مع
 عبده أيقنت بصدقها عالما ان واجبه يقضى عليه بتبليغ ما حمّله .
 وكذلك اذا أردت أن أبلغ مسامع السيد العابد شيئا لا أريد
 اطلاع رجل آخر عليه أفضيت به الى عبده بدون تردد موقنا ان
 الرسالة لا بد مؤادة الى سيده دون غيره

وللعبد الحق في شراء جارية وقد سألت (على كجا) ذات
 مرة عن أئمان العبيد فقال « ان أئمانهم غلبت هذه الأيام غلاء فاحشا
 فقد اشتريت جارية دفعت فيها ٥٠ جنيها ذهبيا وقد قال لي ذلك بلهجة
 لا يستشف منها انه كان عبدا في يوم من الأيام . وأرث عبيد

الواحة ثيابا هم المطلقون وهم موضع ازدراء بقية العبيد وربما شعر
العبد الطليق بالخجل لعدم وجوده في حيازة انسان
والنخيل كثير في وادي الكفرة واكثره ملك السنوسيين
والسبب في ذلك ان الزوى حين دعوا سيدي ابن علي السنوسي
الى الكفرة نزلوا للسنوسيين عن ثلث ما يمتلكون من ارض
ونخيل . ولم تبق النسبة محفوظة بين ما يملكه الزوى من النخيل
وبين ما يملكه السنوسيون فقد أسرع الأولون في زيادة نخيلهم
بما زرعوا من جديد ولا يزال يبدو لعين الراي الى هذه الايام
ذلك السور الذي يفصل اراضي السنوسيين من اراضي الزوى
ورأيت في طريق عودتنا من الجوف حفلة زفاف وكان
العريس قائد جيوش الكفرة ودعاني أبو العروس الى تفرغ
البارود تشريفا للحفلة فسرني أن أقوم بتأدية هذا الواجب للضابط
لانه صديق قديم لي . ولما أطلق رجال الحفلة النار تحية ركضت
بجوادي كما يفعل البدوي الصميم واتجهت صوب الجماعة ثم اوقفته
دفعه واحدة أمام العروس وصوبت بندقيتي الى الارض قدأما
ثم أطلقت النار . وقد أدهشني جوادي « بركة » حين سمع طلقات
بنادقهم وأسرع بالمدو ووقف بي مرة واحدة على المسافة

المقدرة من العزوس لإطلاق النار ولا بدع في ذلك فهذا شيء
تدربت عليه خيول البدو

الجمعة ١٣ ابريل :

جاءني عبد من عبيد السيد إدريس يطلب دواء لمرض لزمه
شهرين وفحصته فوجدته يشكو سوء هضم يتخلله قيء وأعطيته
بعض (الإيتير) على قطعة من السكر وأمرته ان لا يتناول الا اللبن
والارز فتحسنت حالته عن قبل

ووصل أبو حليقة من الهواري ومعه ١٧ جملا فطلبت اليه
أن يتماخما خمسا وعشرين كما اتفقنا من قبل . وزارني الضابط العريس
وصهره يشكراني على ما أدت من التحية في حفلة الزفاف
السبت ١٤ ابريل :

أحضر أبو حليقة بقية الجمال وكان حائرا في أمر ارساله رجلا
يصحبنا في الرحلة . وأبى أن يرسل ابنه أو عبده ظنا منه بانا مقبلون
على سفرة قد لا نخرج منها أحياء . وكان يتوقع من الجهة الأخرى
أن القدر قد يساعدنا وننجو من مخاوف الطريق فخيرته أن لا يمثله
أحد في تلك الاصقاع النائبة فيعود بجماله أو يشرف على بيعها كما
هي العادة بعد مثل هذا السفر الطويل ، وقضينا عصر اليوم في
التحميل ومساءه في عمل الأرصاد والمعائنات وكانت الليلة ثالثة

الليالى التى امكننى فيها أن أرى نجم القطب الشمالى منذ هبوطى الكفرة
وقد صممت أن لا أترك الكفرة قبل أن أضاعف ما أخذت من
الملاحظات المتنوعة فى الليالى المختلفة .

الاحد ١٥ ابريل :

قضينا الصباح فى تحميل الجمال وما زال أبو حليقة مرتبكا فى
أمر ارساله رجلا من رجاله ولكنى لم أهتم بأمره كثيرا بعد يقينى
من استصحاب الإبل . وقد تحسنت صحة العبد الذى تعهدته تحسنا
غريبا فجاء يشكرنى وكنت أشد الناس تعجبا مما وصلت اليه فى شأن
معالجته .

وبدأت القافلة السير فى الساعة الثانية بعد الظهر قاصدة بئر
العزيلة وهى آخر آبار وادى الكفرة فى الجغبوب حيث قررنا الإقامة
أياما لاجراء الترتيبات اللازمة لتجهيز كل شىء قبل الاقدام على تلك
الشقة الطويلة . واشترت نعجتين لنحرمهما طبقا لعادة «أبى الظفر»
لانه لم يكن بين رجال القافلة من قام بهذه الرحلة من قبل . وكان
جميع رجالى فى ثياب جديدة تبهر النظر وكانت بنادقهم التى أتقنوا
تنظيفها تلمع فوق ظهورهم وكان يبدو النشاط والقوة على العدد
الاكبر من جمالنا الجديدة .

الاثنين ١٦ ابريل :

أرسلت جوادى مع عبد الله الى الجوف لوضع « حدى » له
لانى وجدت الارض الصخرية صلبة الموطىء يخشى أن تؤذيه .
وبعث بصينية نحاسية الى القائدهدية منى بمناسبة زواجه وأرسلت
الزجاجات الثلاث الاخيرة من دواء (بوفريل) لعبد السيد ادريس
وأجلنا سفرنا لان الدليل كان مشغولا بقضية جل له

الثلاثاء ١٧ ابريل :

أفطرت فى دار سليمان بومطارى من كبار تجار زوى بالكفرة
ومشهور بالكرم وكان معنا السيد الزروالى وعبد الله والقومندان
وصالح ومحمد ابى ثمانية وقد تبادل الجلوس النكات حول العريس
الجديد لا مساكه عن الاكل من صحفة لحم مطبوخ بالبصل . وقال
أبو ثمانية وهو يغمز بعينه « انهن لا يصفحن وهن شباب » اى
أن زوجته الجديدة لا تسامحه اذا شمت فيه رائحة البصل . واشترت
هجيناً الى خاصة ودفعت فيها تسعة جنيهات وهكذا انتهى كل شىء
وأصبحنا على قدم الاستعداد للمسير

وكنتم أرجو وأنا أرصد نجم القطب للمرة الاخيرة أن أوفق
فى تعيين الموضع الحقيقى للكفرة على الخريطة وكان بى شوق شديد
الى التحقق من الموضع الذى عينه رولف لها حسب ملاحظات

رفيقه (ستيكر) في بويمه . ولم تكن التاج قد بنيت بعد في عهد رولف فوضح لي بعد أن قت بعمل ملاحظاتي الاولى فيها ان النتائج التي وصلت اليها لا تتفق مع نتائج ملاحظات (ستيكر) في بويمه الواقعة على بعد كيلومترين من التاج في اتجاه ٤٥ درجة شرق الجنوب الحقيقي . ولذلك صممت أن لا أترك الكفرة قبل أن اتمكن من عمل ملاحظات عديدة تمنعني من الوقوع في الخطأ ولذلك رصدت النجم القطبي ست مرات بواسطة التيودوليت في ظروف قرر الدكتور بول في فقرته اللمعية المرفقة بهذا الكتاب انها لا تترك مجالاً خطأ أكثر من دقيقة واحدة في خطي الطول والعرض . وكانت نتيجة هذه الابحاث عند الفراغ من فحصها بعد عودتي الى مصر ان الكفرة تبعد ٤٥ كيلومترا جهة الجنوب الجنوبي الشرقي عن الموقع الذي قرره لها رولف بعد ملاحظات (ستيكر) ووجدت ارتفاع الكفرة شديد الانطباق على ما قرره رولف وكان علو وادي بويمه ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متر عند التل المشرف على الوادي

تم المجلد الأول « في صحراء ليبيا » ويليه المجلد الثاني محتويا
على اكتشاف واحتى أركنوا والعوينات وبقى الرحلة الى دارفور
و كردفان ومزيلا بتقرير طبوغرافى عن الرحلة بقلم الدكتور بول
مدير قسم مساحة الصحراء بمصلحة المساحة المصرية وتقرير
جيولوجى بقلم الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية
والمسترمون وقصيدة لشاعر الشرق احمد شوقى بك

فهرست

مواضيع الكتاب :—
اهداء الكتاب

مقدمة الكتاب بقلم حضرة صاحب العزة احمد بك لطفى السيد
مدبر الجامعة المصرية

١	الفصل الاول - الصحراء
١٣	» الثاني - وضع خطة الرحلة
٢٢	» الثالث - الزاد والمتاع
٣٥	» الرابع - التأمر والتفائل
٤٦	» الخامس - السنوسيون
٦٢	» السادس - جنوب الهادئة
٧١	» السابع - الولايم والأدوية
٧٩	» الثامن - زوابع الرمال في طريق « جالو »
٩١	» التاسع - في واحة جالو
١١٤	» العاشر - في الطريق
١٣٤	» الحادى عشر - الطريق الى بر الظيفن
١٥٩	» الثانى عشر - اختلاف مناظر الصحراء واصلاح الخريطة
١٧٣	» الثالث عشر - الكفرة - الاصدقاء القدماء - تغيير خطة الرحلة
١٨٨	» الرابع عشر - الكفرة وموقعها على الخريطة

خطاً واصواب

صواب	خطاً	سطر	صحيفة
من	ممن	١٥	٢٦
مجتازو	مجتازوا	١	٢٧
يوسع	يوسع	١٣	٢٧
قافلته	قافلة	٩	٤٣
توفر	توافر	٦	٤٧
أنايب	أنايب	٧	٨٠
متلاحقة	متلاصقة	٣	٨١
انحدارا	اعذارا	١٢	٨٥
الاخوانى	الاخوان	١١	٩٥
مسد	مشد	١١	١١٨
شاقى	ساقى	١٧	١١٨
هاك	هات	٨	١١٩
بلباقه	بلياقة	١٠	١٢١
واحة	لواحة	٦	١٢٣
صبيد	صبيد	٧	١٢٦
يقمر	يفخر	١٦	١٢٧
القينة	الغينه	١	١٣٨
متوشجة	متوشحة	٩	١٧٦

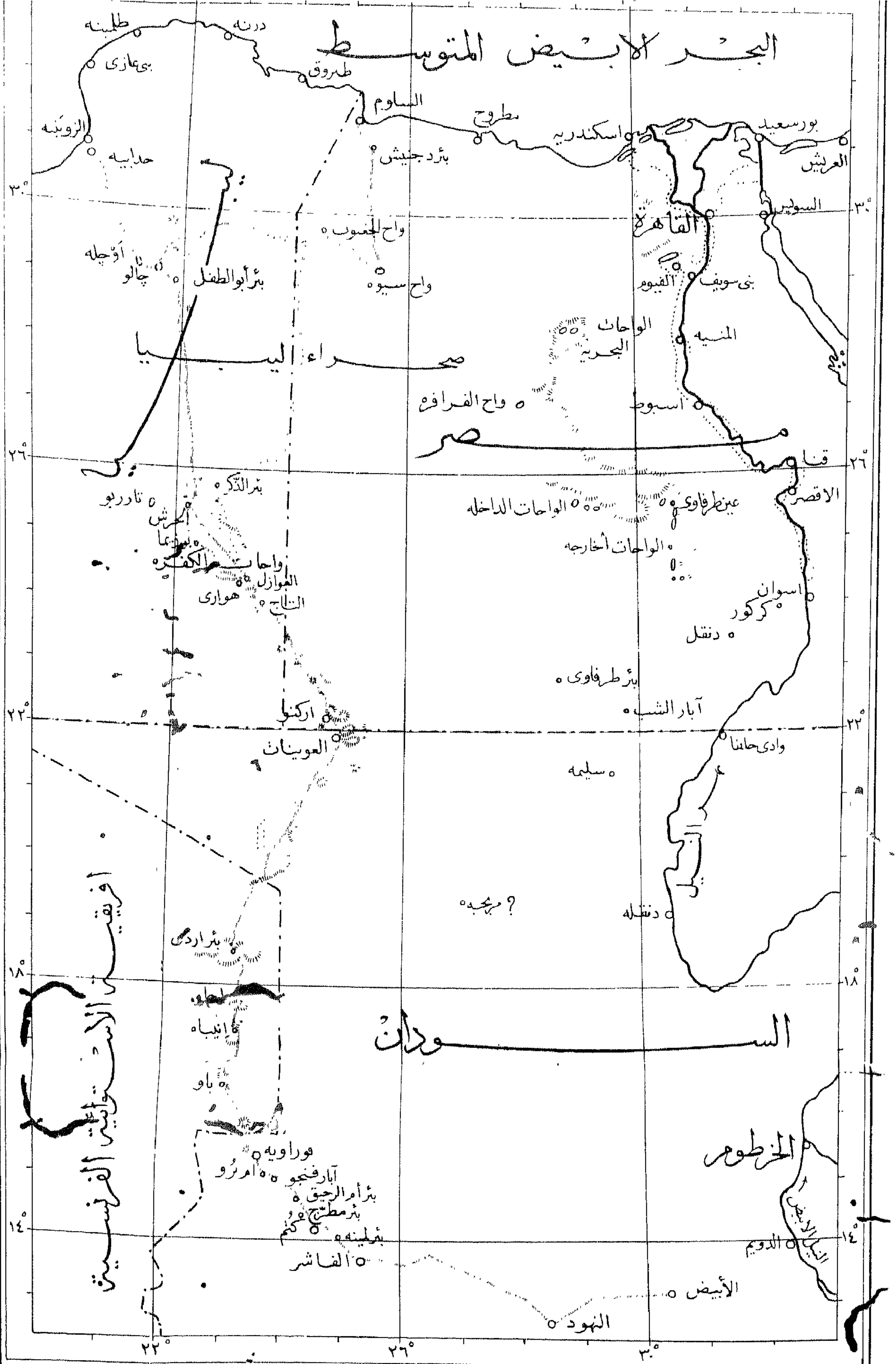
فهرست

بما اشتمل عليه الكتاب من الصور
صورة حضرة صاحب الجلالة قواد الأول ملك مصر

الأمير السيد محمد ادریس السنوسى	على يسار الصفحة رقم ٤
الرحالة بملايسه البدوية	» » » ١٢
ميناء السلوم	» » » ١٦
عبد الله الصادق والاسطى احمد	» » » ٣٢
سيوه	» » » ٣٨
عصارة زيتون بسيوه	» » » ٤٢
مسطاح البلح بسيوه	» » » ٤٨
بنت فى سيوه	» » » ٥٤
قبة الجامع بالجنبوب	» » » ٥٨
قبر السيد على السنوسى فى الجنبوب	» » » ٦٤
وكيل الامير السيد ادریس السنوسى فى الجنبوب	» » » ٦٦
داخل الجامع بالجنبوب	» » » ٧٠
صحن الجامع بالجنبوب	» » » ٧٤
القافلة فى زويمة بين الجنبوب وجالو	» » » ٧٨
قاضى جالو	» » » ٨٦
بلدة جالو	» » » ٩٠
الرمال تغطى النخيل فى جالو	» » » ١٠٢
السيد محمد الزروالى رفيق الرحالة من جالو	» » » ١٠٦
جمل ينفق فى الطريق	» » » ١١٨

تابع فهرست الصور

- » الرحالة في يده عصفور سقط من شدة العطش على يسار الصفحة رقم ١٢٢
- » القافلة بين بئر بو الطفل ومنطقة الظيغن » » » ١٢٨
- » بئر الحرش في الكفرة » » » ١٣٤
- » صورة وادي الكفرة » » » ١٣٨
- » منزل السيد العابد السنوسي بالكفرة » » » ١٤٤
- » السيد العابد السنوسي بالكفرة » » » ١٥٠
- » مخازن غلال البدو في الكفرة » » » ١٥٤
- » { السيد شرف الدين (شروفة) بن
السيد العابد السنوسي والسيد شمس
الدين بن شقيق السيد العابد } » » » ١٦٠
- » البحيرة بالكفرة » » » ١٦٦
- » مجلس كبار السنوسية بالكفرة » » » ١٧٠
- » بدوى مع جاريته » » » ١٧٦
- » مشايخ قبيلة زوى بالكفرة » » » ١٨٢
- » طارق بمعداته الحربية في الكفر » » » ١٨٦
- » معسكر الرحالة في العزيلة بالكفرة » » » ١٩٢
- » خريطة صحراء ليبيا مبين عليها الطرق التي سلكها المؤلف في رحلاته



فی صحرائیسیا

محمد محمد حسنین

المجلد الثانی

نقد الکتاب رداً عن ردة
مما رأی فی طول الطول وعرفها
فی التیاد عن نزلة فی الغابة
نظری و تشریف فی صوب کتاب

سوقی

الفصل الخامس عشر

الواعظان المجهولتان . اركنو والعوينات

الاربعاء ١٨ ابريل :

وجد أبو حليقة في آخر الامر رجلين يصحبان جماله وهما
يوكاره وحامد وكانا فقيرين أغواهما المال فأنساهاما الخطر . وأرسل
السيد العابد ثلاثة مثله في توديعنا وقد أحضروا الى خطاب توديع
منه نال من نفسى كثيرا

وجاء أبو حليقة يودّعنا كذلك وكانت عيناه نديتين وما أظن
ان ذلك كان اشفاقا منه على جماله أو رجليه فان رغم ما نجم بيننا من
خلاف في الرأي ظللنا صديقين مخلصين يجب كل منا الآخر
ويحترمه .

وجاء أصدقاء رجالى لتوديعهم فأفرطوا في ذلك حتى كأن
ذلك الموقف كان لوداع أخير . وكان ذلك التوديع أحرّ ما رأيت
في رحلتنا وأفعله في النفس وكانت كلمات الوداع الأخيرة « رافقتكم

السلامة . المقدر لا بد من وقوعه . هداكم الله سواء السبيل
ووقاكم كل مكروه »

ولم يكن ذلك التوديع مما يشعر قلوب المقيمين والظاعنين
بأمل اللقاء أو اليقين من العودة . وكان في جمل التوديع الأخيرة
المتبادلة بين الفريقين تهديج لم يخف عنى مبعثه في نفوسهم لعامى
بما حدث في الايام السابقة للسفر ويقنى من الخوف الذى تملكهم
أجمعين .

وكانت افكارى وأفكارهم في ذلك الموقف متباينة فانى كنت
أهش الى التفكير فى الواحات المجهولة والسير فى الطريق البكر
والاندفاع صوب المجهول ، أما هم فكانوا يظنون ان هذا آخر مرة
يشدون فيها على أيدي أصدقائهم وقد ارتسمت ملامح الاشفاق
على وجوه بعض من جاءوا يودعوننا كأنما كتب على وجوهنا الموت
وارتسم على جباهنا الفناء ولكنهم كأهل البادية كانوا يشعرون بان
ذلك الرحيل كان مكتوبا فى لوح القدر . وقرأنا الفاتحة ثم أردفها أحد
الرجال بالأذان .

وصحبنا المودعون حتى شفا الوادى الذى تنتهى عنده الواحة
وتتمدد الصحراء . ثم تركونا غير ناظرين فى أثرنا فأنحدرنا الى
الصحراء المنبسطة وتلفتت أعيننا الى أجمات النخيل وكانت الشمس



الرحالة يرصد الشمس بآلة التيودوليت

تجنح للغروب والفسق ينشر غلالته على الكفرة التي أخذت
تختفي شيئاً فشيئاً في ذلك النور الآخذ في الانطفاء وكأننا ننظر الى
المدينة من ثقب آلة تصوير

وكنت أتوق الى الابتعاد عن الكفرة حتى ينمحي شبحها في
أعين الرجال فينسوا وداعهم الماضي ويفكروا في المستقبل ويفرغوا
الى تأدية واجبات السفر . واختفت الكفرة فانبسط أمامي المجهول
المملوء أسراراً وسحراً يتصورهما الفكر في كل بقعة من أرض لم تطأها
قدم غريب عنها .

وكان قيامنا في منتصف الساعة الخامسة ووقفنا الساعة الثامنة
وربما وقطنا ١٥ كيلومتراً . وكان الجو صحواً جميلاً لا ريح فيه
والارض رملية صلبة قليلة التموج مغطاة بحصى دقيق
وتركنا نخيل العزيلة والكفرة فاجتزنا منطقة من الحطب
تشابه منطقة الظيغن ودخلنا السريرة الساعة السادسة الا ربعا وفي
منتصف الساعة سابعة مررنا بتلال تمتد على الجانب الجنوبي لوادي
الكفرة وفي الثامنة الا ربعا وصلنا (حطية الحويش) الكثيرة
الحطب . وخلفنا رجلين في حراسة حملين تركناهما على أن يحملهما
جمالان لمبيد التبو .

وكانت قافلتنا مؤلفة من ٢٧ جملاً و١٩ شخصاً أنا والسيد

الزروالى وعبد الله واحمد وحمد واسماعيل والسنوسى أبى حسن
والسنوسى أبى جابر وحمد الزوى وسعد الاوجلى وفرج العبد
وبوكاره وأخيه الأصغر وحامد الجمال وحسن ومحمد الدليل وثلاثة
من عبيد التبو .

الخميس ١٩ ابريل :

قنا فى الساعة الثانية الا ربعا بعد الظهر ووقفنا الساعة وربع
مساء وقطعنا ٢٤ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١١ .
الجو صحو جميل قليل السحاب والنسيم هاب من الجتوب الشرق
قاراً عند الظهيرة

ودخلنا السريرة مرة أخرى بعد اجتياز حطب الحويش
وكانت منبسطة صلبة الرمال مغطاة بحصى دقيق وكان شرق الحطية
سلسلة من التلال الرملية المغطاة بحجارة قائمة يقابلها مثلها جهة
الغرب على بعد أربعة كيلو مترات

وفى الساعة الثانية وربع وصلنا نهاية «حطية الحويش» وعرضها
كيلو متران وفى الساعة الرابعة الا ربع رأينا جارة على بعد كيلو
مترين من اليسار وفى الساعة الخامسة رأينا جارة أخرى على بعد
أربعة كيلو مترات من اليمين وفى الساعة السادسة أصبح الرمل

أكثر نعومة وعليه أكوام متناثرة من الحجارة السوداء وصفحة
 الصحراء متجمدة . وقد تأخر رحيلنا لانتظار الجميلين اللذين
 خلفناهما . فقضينا وقتا في جمع الحطب وكان الجو شديد الحر بعث
 التعب بسرعة في أوصال الجمال . وهذه الأرض مشابهة للمسافة
 الواقعة بين بو الطفل والظيغن . وقد أمكنني بفضل هجيني أن
 أتأخر عن القافلة فأقوم بعمل بعض الملاحظات دون أن أهيئ
 سوء ظن رفقاى فيما أفعل واضطررنا لحط الرحال في ساعة مبكرة
 نظرا لحال الجمال

الجمعة ٢٠ أبريل :

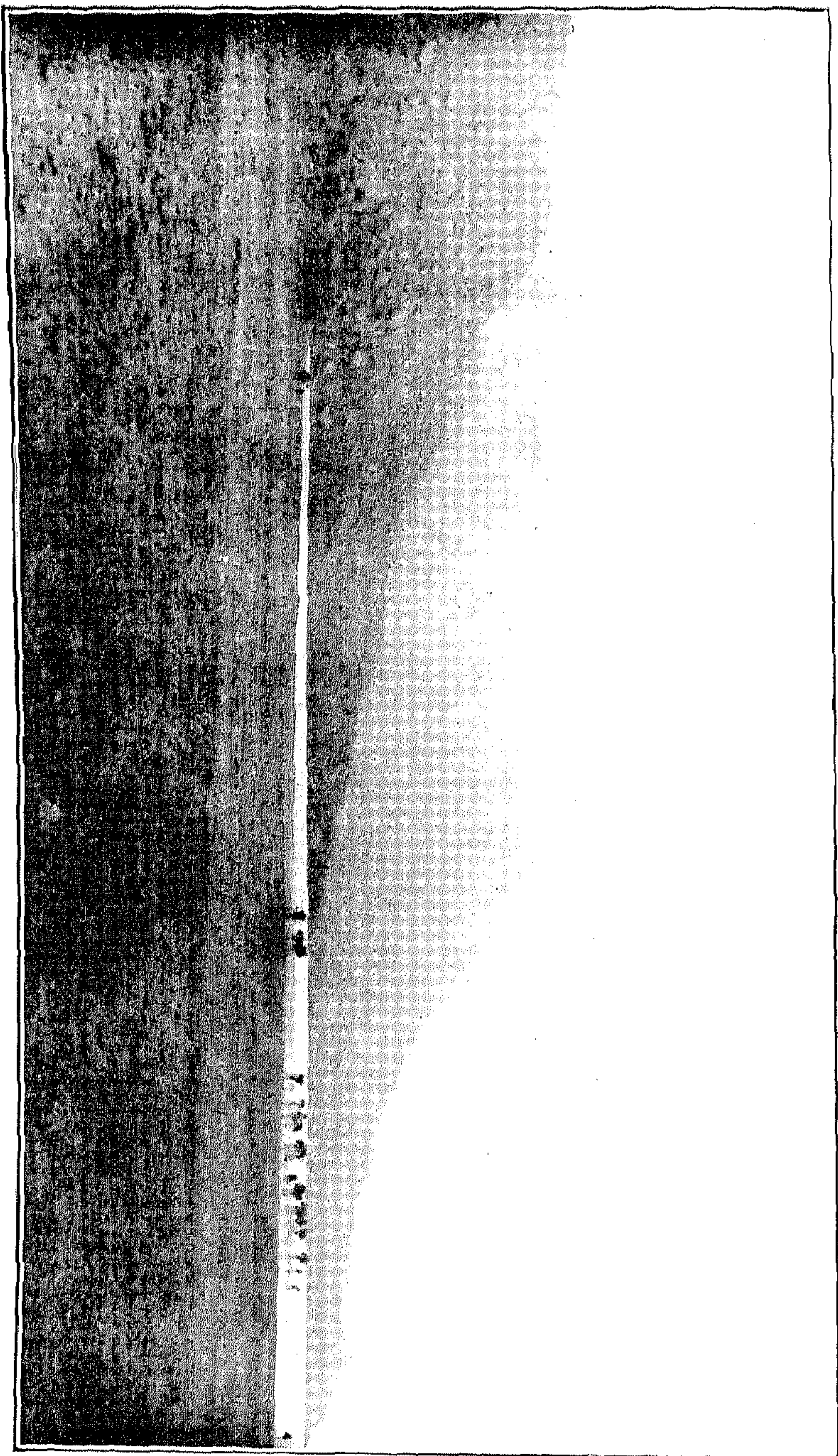
قمنا الساعة الثانية صباحا ووقفنا في منتصف الساعة العاشرة
 صباحا ثم سرنا في منتصف الرابعة وانتهينا من السير الساعة الثامنة
 فكان ما قطعناه ٤٨ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٠
 وذلك بعد منتصف الليل بنصف ساعة . وكان الجو صحوا جميلا
 وهبت رياح باردة من الجنوب الشرقى في الصباح . وسكنت عند
 الظهر وسارت في الساعة الرابعة وفي المساء تفسير اتجاهها الى
 الشمال الشرقى

وفي الساعة الرابعة اخترقنا جهة متجمدة منشورة بالحجارة
 وفي الساعة السادسة دخلنا البريرة مرة أخرى فانبسطت الأرض

وطلعت الشمس الساعة السادسة فرأينا ذات اليمين وذات اليسار
تلالا رملية تبعد عنا من ١٠ الى ١٢ كيلومتر . ورأيت خُطّافا في
الصباح وصقرا في العصر . وفي الساعة الرابعة وثلاث قطعنا اكواما
منخفضة من الرمل ورأينا جارة سوداء ممتدة قليلة الارتفاع على بعد
١٠ درجات من جنوب الجنوب الشرقي . وكانت هذه المرحلة أربداً
مرأجل السفر لاشتداد الحر والبرد فقد زاد الحر في الظهر حتى عاقنا
عن السير واشتد البرد في الليل فصعب علينا السير ولذلك قسمنا
المرحلة قسمين فكنا نبدأ السير بعد منتصف الليل ونستريح في
حمارة القيط وضايقنا ذلك لعدم تمكننا من اتقان حزم الخواثج في
الظلام . وتحسنت حال الجمال اليوم . وكان رابع أيام الشهر العربي
والبدو يقيسون الجوع على ذلك اليوم معتقدين ان جوع بقية أيام الشهر
يطابق جوعه وقد صدق هذا القياس هذه المرة .

السبت ٢١ ابريل :

قمنا في منتصف الساعة الثالثة صباحا وفي الساعة السادسة
دخلنا جهة صخرية امتدت بنا الى مسافة ١٢ كيلو مترا . واجتزنا
الى اليسار جارة (كودي) ودخلنا السريرة في الساعة التاسعة
تكتنفنا عن بعد تلال الرمل ذات اليمين وذات اليسار
ومرض أحد الجمال عقب بدئنا في السير ورفض أن يستمر



جبال ارکٹو

فى سيرة رعم رفع أثقاله وتركنا بدوين يحجانه ولكن مساعينا
فى مداواته ذهبت أدراج الرياح فاضطرونا الى ذبحه . وحظرت
على البدو أن يأكلوا لحمه ولكن اثنين من التبو انتهزوا فرصة
وقوفنا ظهرا ورفعا الاحمال عن جليهما ثم رجعا لتجفيف لحم الجمل
وتركه حتى يعودا من العوينات فكان ذبح الجمل وانتظارنا العبدن
سببا فى تأخيرنا ساعة .

ولم نيم رجالى الليلة السالفة الا قليلا وظهر عليهم التعب بعد
شروق الشمس ولكن الذى أنهك قوى الرجال والجمال لم يكن
فى الحقيقة الا اشتداد الحرارة بين الظهر والساعة الرابعة . وبدأنا
السير فى منتصف الساعة الخامسة وكل أفراد القافلة متعبون بطيشو
الخطو . ورأيت صقرين ومراقد حديثة للطير فوق الرمال .

الأحد ٢٢ ابريل :

كان سيرنا فى أرض منبسطة صلبة الرمال نعر فيها من وقت
لآخر ببعض التلال الرملية المغطاة بالصخور السوداء التى يتراوح
ارتفاعها بين ثلاثة أمتار وعشرة . وفى منتصف الساعة السادسة
رأينا سائلا من التلال على يسارنا تقطع سبيلنا فى امتدادها من
الشمال الى الجنوب الغربى وفى الساعة الثامنة دخلنا أرضا جميلة

ظللنا نسير فيها عامة اليوم وعثرنا فيها على بيض نعام مهشم واسم هذه الناحية (وادى المراحيج)

وقد اتقنا تحميل جمالنا . ذلك اليوم ولكن الرجال ما زالوا مجهودين وقد تخلف الكثيرون عن القافلة ليغنموا نصف ساعة يغفون فيها ثم يلحقون بها عند استيقاظهم . وأحضر لى بوكاره نسرين صغيرين لقطهما من عشهما فى قبة جارة فأمرته أن يرجعهما وأشرفت على ذلك بنفسى .

ومررت هجيني فاضطرتنى الى رفع حملها وسرجها طول بعد ظهر اليوم . وحططنا الرجال عند الظهر فنام رجالى ملء جفونهم وغط غطيظهم ولم يرقنى هذا النوع من السفر الممل ولكنا كنا مثابرين على كل حال .

الاثنين ٢٣ ابريل :

قنا فى منتصف الساعة الثالثة صباحا ووقفنا الساعة التاسعة وربع صباحا وقنا ثانيا الساعة الرابعة الا ربعا ووقفنا الساعة التاسعة مساء فقطعنا ٤٦ كيلو مترا . وكانت هذه المرحلة أشد المراحل انها كالقوانا فأنا لم نلم فى اليوم اكثر من أربع ساعات مدة ثمانية أيام ولم نكد نبدأ السير حتى تخلف الرجال دفعة واحدة لاغتنام نصف ساعة اغفاء تاركين جمالهم تتبع النور الضئيل الذى ينبعث من مصباح

الدليل . ولم أتمكن من الاستمتاع بهذه الغفوة خشية منى على أجهزتي أن يصيبها شيء . وكنا قد حملنا الجمال في الظلام فلم أكن واثقا من دقة التحميل وخفت أن تنحل بعض الأربطة فيتكسر من حوائجى جهاز علمى أو آلة تصوير .

وحدث فى فترات متتابة أن تقف الجمال واحدا بعد الآخر فتبرك وترفض النهوض فيأتى أحد عبيد التبو ويضغط بإبهامه على عرق خاص فى جبهة الجمل فيعيد إليه قواه ويبعثه على السير . وكنا نبجد فى قطع تلال الرمل العالية الشديدة الانحدار فرأينا أمامنا بغة جبالا قائمة كقصور القرون الوسطى وقد أحاط بها ضباب الصباح حتى كاد يخفيها عن الأبصار . وسطعت الشمس بعد قليل على هذه الجبال فصبغت لونها الرمادى بلون الورد . وتخلفت عن القافلة جلست مدة نصف ساعة على تل رملى ثم تركت عقلى وقلبى يشربان حسن هذه الجبال البديعة .

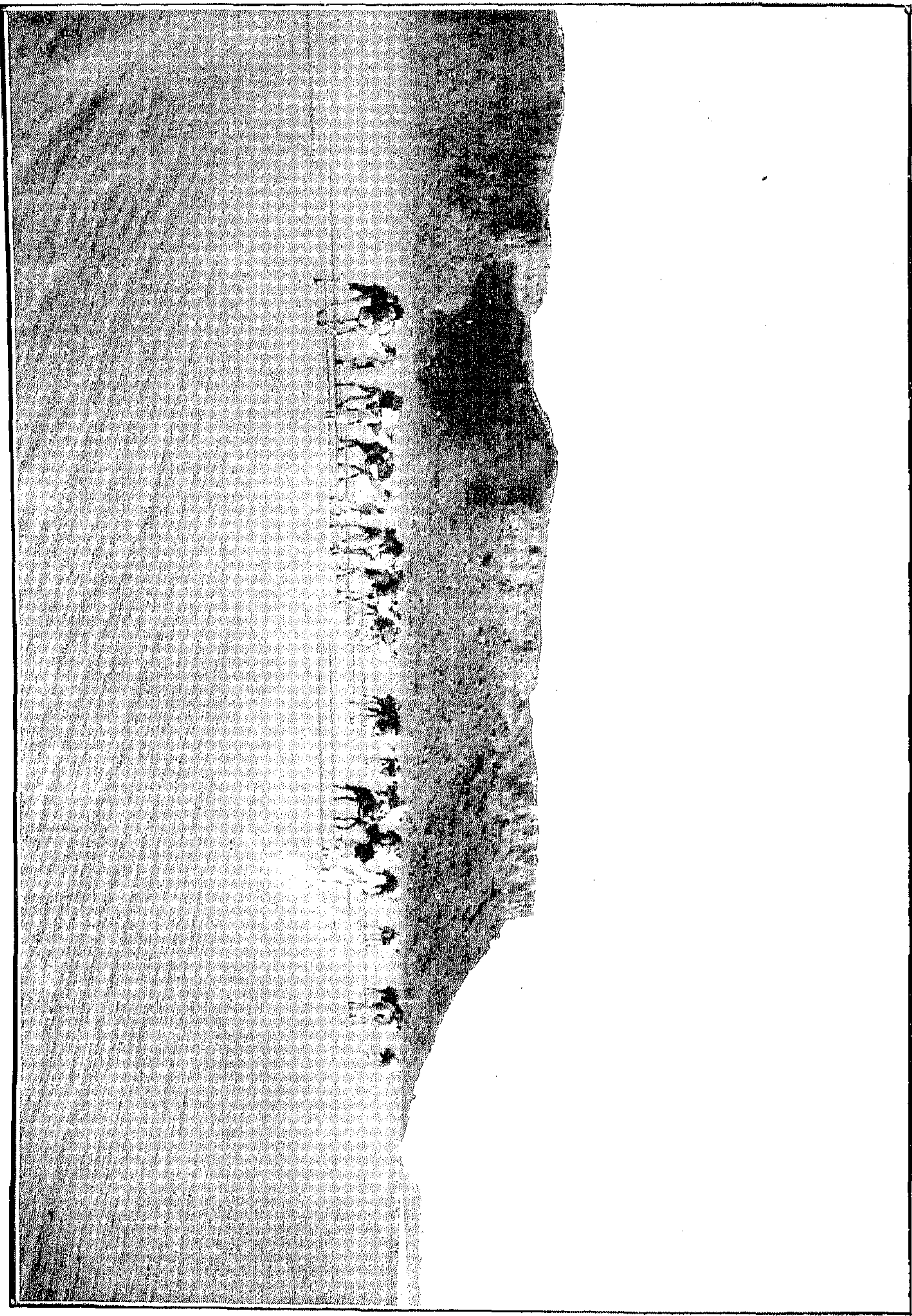
لقد وجدت ما كنت أنشده فقد كان مارأيت جبال «أركنو» وكانت تلك الساعة مشهودة فى تاريخ رحلتى . فيها نسيت ما لقيت من المصاعب وما أتوقعه من المخاطر . فى تلك الساعة بل فى تلك اللحظة نسيت ساعات طويلة من الألم بل أياما عديدة أضناني فيها الجهد والتعب . فى لحظة واحدة نسيت الأهوال التى تجشمتها والعقبات

التي ذلتها لأصل الى تلك الواحة المجهولة المفقودة . الى تلك البقعة الصغيرة المنيرة الضائعة في هذه الصحراء الفسيحة القاسية الجافة القاحلة .

رأيت جبال «اركنو» عن بعد فرأيت طلائع النجاح والتوفيق فقد كانت واحتها إحدى الغايات التي رميت الى اكتشافها وظللنا نتصعد وتتصوب بين تلال الرمل في ساعات الليل الباردة السابقة لطلوع الفجر . حتى اذا بان خيطه وأصبحنا عند آخر تل من تلال الرمل اختفت جبال اركنو بغتة كأن ستارا أسدل عليها دفعة واحدة فزال باختفائها عن عيني ذلك المنظر الرائع الذي لم تر عيني مثله في صحراء ليبيا منذ تركت السلوم . فقد كانت جبال اركنو فريدة في جمال مناظرها خلبت لبي حتى خيل لي إنني لا أسير في الصحراء .

الثلاثاء ٢٤ ابريل :

كان اليوم الحادى عشر بعد المائة من تركنا السلوم والاربعين بعد المائة من تركنا القاهرة وكان سيرنا في أرض حرّة متموجة وفي الساعة الخامسة صباحا اجتزنا تلالا رمليّة ثم سرنا في أرض حجرية صلبة مغطاة بالحصى . وكان على بعد مائة متر من شمال اركنو تل عظيم من الخراسان يبلغ طوله كيلو مترين وارتفاعه زهاء



جبال العوينات

المائة متر . وبزغت الشمس فكان شروقاً بديعاً امتزجت فيه الظلال
النهائية بقطع من السحاب رمادية اللون وهدأت ريح الصباح
الباردة فدفيء الجو .

وجبل اركنوكتل من الجرانيت خالط سطحه الرمادي
اسمرار يضرب الى الحمرة . وهذا الجبل قائم في مدى طوله على
ارتفاع واحد يبلغ ٥٠٠ متر من سطح الصحراء وهو مكون من
سلسلة كتل مخروطية الشكل متلاصقة القواعد . وقربنا منه من
أقصى جهاته الغربية . وكنا في تقدمنا اليه لا نستطيع معرفة مدى
امتداده . وكانت أبعد نقطة نراها منه في ذلك الاتجاه قنة مرتفعة
وسرنا حوله من جهة الركن الشمالى الغربى فاصبنا مدخل الوادى
الممتد الى جهة الشرق . وكان في هذه الناحية من الصحراء شجرة
منفردة من النوع الذى يسميه الجرمان « اركنو » ويسميه البدو
« صرخه » ومن هذه الشجرة اتخذت الواحة اسمها

ونصبنا خيامنا على مقربة من الشجرة ولم يكن ذلك بالموقع
الحسن نظرا لكثرة « قرد » الجمال التى تعيش فى ظل الشجرة والتى
وفدت علينا أسرابا عند اقتراب الجمال . واضطررنا الى ضرب خيامنا
على مسافة من الشجرة تفاديا من « القرد » وان آثرت البقاء فى ظل
الشجرة عن الفتك بالجمال . وقد لقطت ذات مرة قرادة من هذا

القرَد فكانت كقطعة من الخشب المتحجر وضربت بها بعصا فتكّنت
 كأنها قطعة من الحجر . أو شحت بوجهي عنها مدعيا الانشغال
 بشيء آخر فمضى عليها زهاء الأربع دقائق حتى بانّت الحياة في
 حركتها لان القرودة تعلم بغريزتها ان سلامتها في ادعائها التحجر ثم
 انتهزت فرصة غفلتي عنها ففرقت في سرعة البرق . وتغنى القرودة
 عن الجمال اذا عز الوصول اليها لانها تمتص دم الجمل حتى تنتفخ ثم
 تعيش على ذلك سنينا كما يقول البدو ولكنى لا أظن ذلك يتجاوز
 بضعة أشهر .

وماكدنا نستقر حتى أرسلت الجمال الى الوادى لتشرب
 وتحمل الينا الماء وكنا في حاجة شديدة اليه ولحقنا بعد ساعتين من
 ضرب الخيام ذانك العبدان اللذان تخلفا . وأحضرا جانبا من لحم
 الجمل المذبوح فكان منه عشاء شهى لرجال القافلة . وهبت ريح
 شديدة ساخنة استمرت طول النصف الثانى للنهار

وحدث لى انى بينما كنت أستريح فى خيمتى شعرت بفتة بشى*
 يلمس أذنى فحاولت أن أذوده دون أن أتعرفه وبعد ذلك بدقائق
 هبت عاصفة ريح من خلال جوانب الخيمة وكنت قد رفعت جانبا
 منها بقصد التهوية فأحسست شيئا يمرق محتكا بجسمى فقبضت

عليه ولكنه أفلت من يدي لحسن حظي وراحة بالي فقد كان ثعبانا طوله زهاء الأربعة أقدام . وقد أمسكه رجالي بعد ذلك وقتلوه وأقام الرجال بعد ظهر اليوم مسابقة في إصابة الاهداف بدأت تسلية وصارت كبيرة الأهمية حين وضعت رايالا مجيديا للفائز . ونال الجائزة السنوسي أبو جابر علي قصر نظره . وعبر حامد عن شعور المتسابقين حين قال عن نفسه « لقد كان للمجيدى تأثير شديد في نفسى وهاج أعصابى فلم أصب الهدف الذى لم أخطئه من قبل » . وقت بعمل بعض ابحاث وأخذت صورا فتوغرافية وداويت أسنان الدليل

وبغتنا منظر الجرعان وهم قبائل السود الذين يعيشون فى تلك النواحي فقد ظهروا فجأة من الوادى وتقدموا الينا فحزناهم للمساء ولم يكن أحد منا يحلم بوجودهم قبل أن يظهروا فان الجبل يبدو موحشا خاليا حتى لا يظن أحد أنه يحوى واديا خصبا مأهولا والحقيقة ان اركنوا لا تظل مسكونة طول السنة لأن واديهما يحوى خضرا يانعة ترعاه الابل بلا راعى . وتفسير ذلك ان البدو وعبيد التبو والجرعان يحضرون جمالهم الى ذلك الوادى فى فصل الكلا فيسدون منافذ الوادى بالصخور ويتركونها ترعى مدة ثلاثة أشهر بغير رعاة . وقد قال لى محمد الدليل « ان أصحاب الجمال اذا عادوا اليها

بعد تركها في ذلك الوادي كان شحمها في سمك قبضتي اليدين »

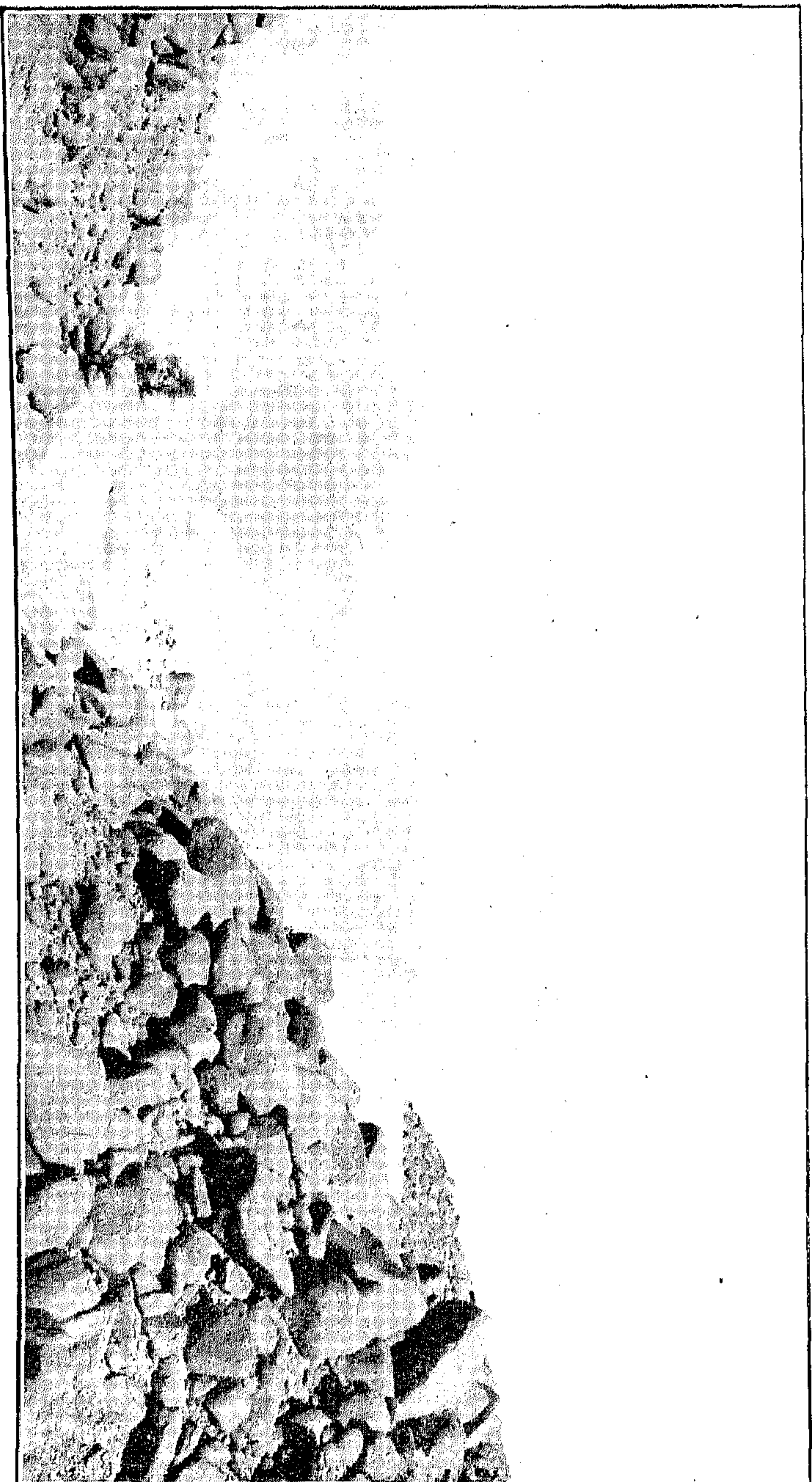
الاربعاء ٢٥ ابريل :

أحضرت لنا قبيلة الجرعان التي تعيش في الوادي نعمة ولبنا
وسمنا بمثابة ضيافة وجاءوا بقطيع أغنامهم الى مضرب خيامنا حتى
يحبها الرجال . وركبت بعد الغداء مع السيد الزروالي وبوكاره الى
وادي اركنو وهو (كركور) أعنى وادي ضيق متعرج يمتد في الجبال
مسافة ١٥ كيلومترا ويحوى الحشيش والعوسج وبعض الأشجار
وزرنا كوخ الجرعان حيث صورت بنتا وولدين من أفراد الأسرة
وكان الولدان في ثياب بيضاء وهي شارة أبناء الشيوخ . وعدت الى
خيامنا فأرسلت قماشاً ومناديل وأرزا هدية منى للأطفال الثلاثة
وعزمت على الإقامة ثلاثة أيام أخرى في اركنو لأن المرعى
كان خصيباً والجمال لم تزل متعبة من ذلك السفر الشاق الا هيجيني
فانها كانت على ما يرام .

والتقطت بعض الحجارة كميّات جيولوجيه فهجت بذلك ريبة
بعض رجال لانهم ظنوا أن هنالك ذهباً فيما التقطت من الحجارة
والا لما كلفت نفسي مشقة حملها الى وطني .

الخميس ٢٦ ابريل :

في اركنو . أعلى درجة للحرارة ٣٦ وأقلها ٩ . الجو صحو معتدل



مسكن الرحالة بالموينات

والرياح ساخنة قوية تهب من الجنوب الشرقى وقد هدمت الخيام
مرتين . وأرسلنا الجمال ترعى وتشرب وكان يوما شديداً الحر بلغت
درجته داخل الخيمة ١٠٠ درجة فهرنهايت . وكان قياسى بالابحاث
والارصاد صعبا نظرا لاشتداد الرياح . ولم أملئ الى القيام بها مستترا
خلف الخيام خوفا من اثاره الفضول والريبة وسكنت الرياح فى
المساء فاعاضتنا الطبيعة عن اليوم الحار المحرق ليلة رطبة النسيم باهرة
القمر . ورقص بوكاره وبقية الرجال وغنوا حتى منتصف الليل .

الجمعة ٢٧ ابريل :

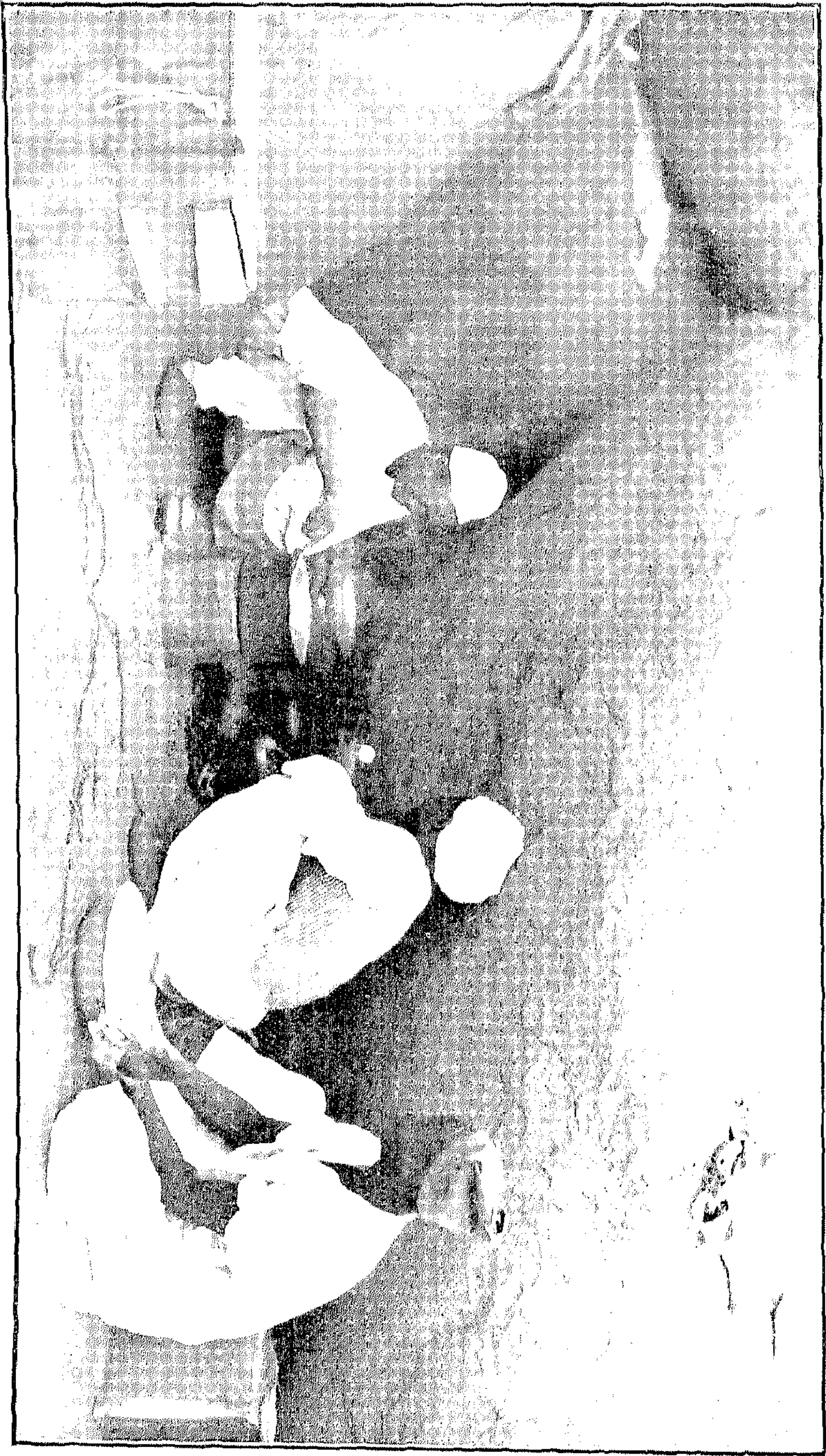
ان اركنو اولى الواحيتين المجهولتين اللتين كانت من حسن
حظى أن أحدد موقعهما على الخريطة . وكان هنالك قبل ذلك
أشاعات متواترة بوجود واحتين قريبتين من ركن مصر الجنوبي
الغربى ولكن المكان الذى وضع لهما بالحدس والتخمين كان بعيدا
عن موضعهما الحقيقى بمسافة تتراوح بين ٣٠ و ١٨٠ كيلومترا . ولم
يكن حدد موضعهما أحد بعد أن رأهما رأى العين

وقد أظهرت ملاحظاتى ان اركنو تقع على درجة 32° ثانية دقيقة درجة
من خط العرض الشمالى وعلى درجة 10° ثانية دقيقة درجة 24° من خط الطول
الشرقى . وان ارتفاعها عن سطح البحر ٥٩٨ مترا عند سفح الجبل .
فهى والحالة هذه داخلة فى الحدود المصرية والاهمية العظيمة لهذه

الواحة - ولواحة العوينات كذلك - فيما تمهده في سبيل استكشاف الركن الجنوبي الغربي لمصر الذي لم تكن وصلته بعد أية دورية حربية أو قافلة مسافرة . ولم يكن أحد يعلم بالتحقيق بوجود موارد للماء يعتمد عليها في قطع ذلك الجزء من الصحراء .

ويظهر ان مياه اركنو دائمة وصالحة للشرب وان لم تكن من الجودة بحيث يتمنى واردةها . ولا ركنو ميزة حربية يمكن الاستفادة منها في مقبل السنين نظرا لوقوعها في ملتقى خطى الحدود الغربية والجنوبية لمصر . واركنو والعوينات تختلفان عن بقية واحات الصحراء المصرية الغربية في أنهما ليستا منخفضتين في الصحراء يتسرب اليهما الماء من باطن الارض لانهما بقعتان جبليتان تجتمع مياه الأمطار في حوضيهما الصخرية

وسلسلة جبال اركنو حسب ما رأيتها تمتد ١٥ كيلو مترا من الشمال الى الجنوب و ٢٠ كيلو مترا من الشرق الى الغرب . ولكن الفرص لم تتح لي فاستكشفتها من الجهة الشرقية ولذلك لا يمكنني أن أجزم بعدم امتدادها في تلك الجهة الى أبعد مما ذكرت لاني عايتها بقدر ما وصل اليه بصرى من موقفي في الصحراء عند سفح الجبل الغربي . وربما كانت جبال اركنو من جهة الشرق مستمرة الامتداد على شكل سلسلة من التلال تبدأ بجبال العوينات عند



مصبخ القافلة في مغارة في العوينات

نهايتها من الجنوب . وقد تمكن الفرص غيرى من استكشاف
الاجزاء الشرقية لهاتين الجهتين الصخريتين اكثر مما امكنتنى
حين زرتها مزودا بما كان معى من الومبائل .
وأقرب الاصقاع المعروفة الى اركنو والعوينات من الجهة
الشرقية — أو الجهة الشمالية الشرقية على الاصح — هى الواحات
الداخلة على بعد ٥٠٠ كيلومترا أو ما يقرب من ذلك . ويزعم الناس
أنه كان هنالك طريق قديم بين مصر وتينك الواحتين ولكن
السفر من الواحات الداخلة الى اركنو والعوينات مشروع كبير
يستغرق ١٤ يوما تقريبا

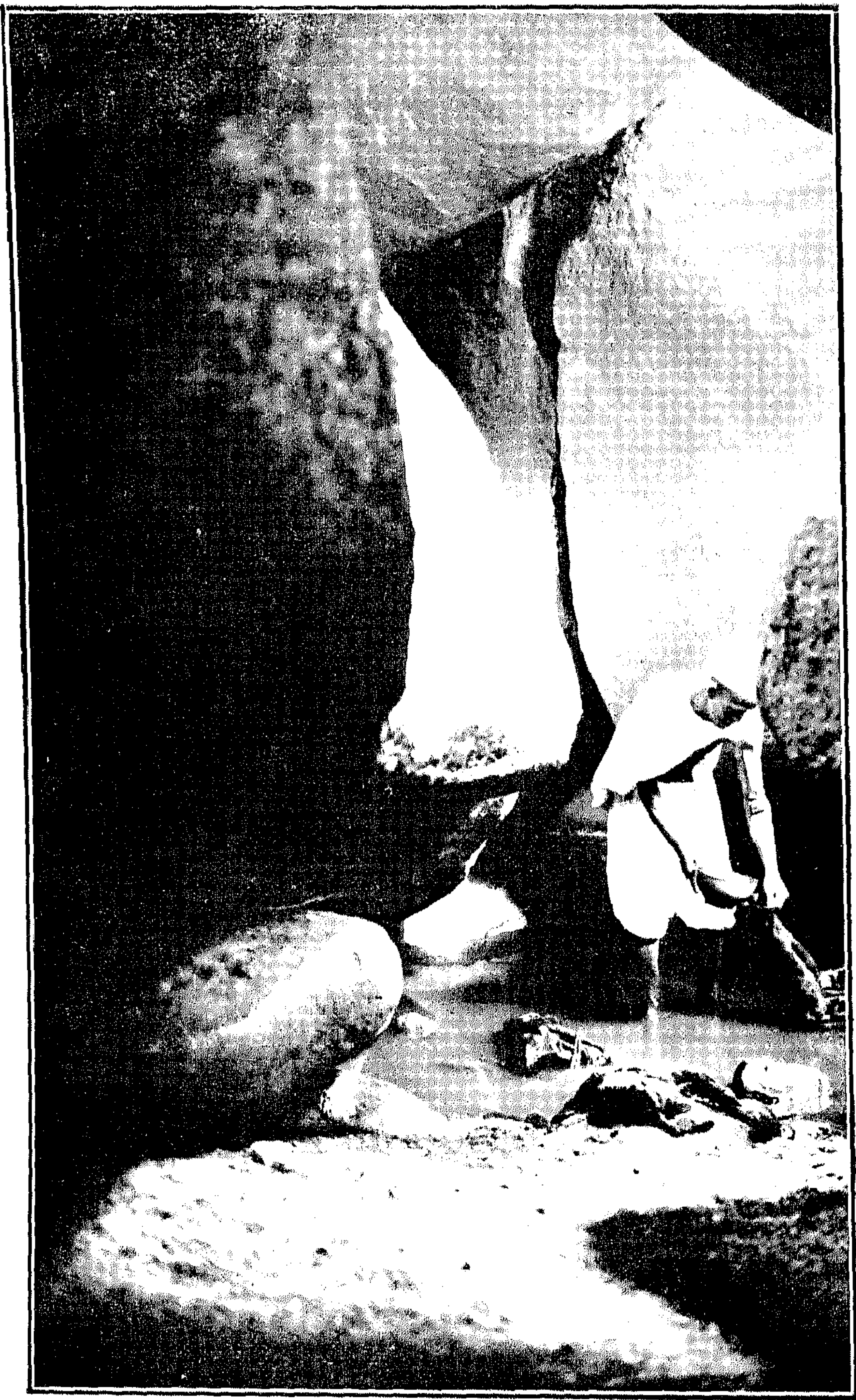
الفصل السادس عشر

الى واحة العوينات

السبت ٢٨ ابريل :

قمنا في منتصف الساعة العاشرة مساء وقضينا لأول مرة طول الليل في السير وحططنا الرحال الساعة السابعة من صباح يوم ٢٩ ابريل فقطعنا ٤٠ كيلو مترا . وكان الجو صحوا جميلا وهبت ريح ساخنة قوية طول النهار من الجنوب الشرقي واستمرت الريح تهب من هذه الناحية طول الليل . ولكنها كانت دافئة وكانت الارض سريرة كثيرة الحجارة الكبيرة فأذت الجمال في السير . وفي الساعة السادسة صباحا وصلنا الركن الغربي لجبال العوينات وحططنا الرحال بعد ساعة .

قضينا اليوم هادئين فاسترحنا استعدادا لمرحلة الليل وأرسلنا في المساء رجالا يجلبون الجمال من مراعيها . واستأجر بوكاره جملا من أحد العبيد التبو وكان قصده من ذلك أن يريح جملة الذي أراد أن يبيعه بثمان غال في نهاية الرحلة . وقد استخدمت ثلاثة من



بئر في العوينات

عبيد التبو . واستأجرت جمالهم لمرافقتنا في هذه الرحلة لاني رأيت وسائل النقل غير وافية فقد لاحظت ان حوائجنا كانت ثقيلة أنهكت قوى الإبل بعد تركنا الكفرة .

وجاءت الجمال في الساعة الثامنة مساء وبدأنا السير بعد ذلك بساعة ونصف ساعة . وكانت الاحمال خفيفة على الجمال هذه المرة لاننا لم نحمل ماء من اركنوا لانه ردىء الطعم عسر الهضم أحدث ثلاث اصابات من الدوسنتاريا بين رجال القافلة . وقد امتطى المرضى ظهور الجمال منذ بدء المرحلة وتناوب بقية الرجال الركوب أثناء الليل وبدأنا المسير أمرح ما نكون خاطرا وانبعث الغناء من نفوس طروبة فانضم الى صاحبها بعض الرجال وغنى الجميع ورقصوا وصفقوا بأيديهم متوافقين ينما كانت الإبل تجدد في المسير . وكانت الاغنية كلمات مرردة ترجع بصوت قوى النبرات تختلف أنغامه في الشطرين وهى ان كان عزيز - عليه الانظار حتى لو باعد بالدار

وظل الرجال يطيلون في ترجيع هذه الاغنية حتى انتهوا منها بصرخة فجائية . وكنت أنصت الى انشاد الرجال وأنا أوقع ضروبه بسوطى فلما فرغوا صحت على الرجال « فرغوا بارود » أى أطلقوا النار اعلنا للسروور ثم أخذنا بعد ذلك مواضعنا من القافلة وسرنا مبتهجين

وللسفر بالليل ميزات خاصة فان المسافر ان لم يكن منهوك القوى يشعر بسرعة فوات الوقت اكثر مما يشعر به أثناء النهار . والنجوم رفقاء مسلّون لمحِب الطبيعة . وبدت لنا بعد ذلك عند الافق قطع جبال العوينات القاتمة . وانه لا سهل على المسافر أن يسير الى قصده وهو مائل أمامه من أن يضرب في ذلك المنبسط من الصحراء الذي تتشابه فيه جميع الجهات ويظل فيه الافق على بعد سحيق لا يقرب مداه

وظللنا تقترب من تلك الجبال حتى بزغت الشمس فصبغت قمها وذهبت حواشيها والقت خلفها من ناحيتنا ظلا كثيفا أخذ يتقاصر ويرتد الى سفحها شيئا فشيئا بينما كنا نتقدم اليها وبعد طلوع الشمس بقليل كنا أمام الركن الشمالى الغربى لهذه الجبال وبعد ذلك بساعة حططنا الرحال فى ظل جوانبها الصخرية . وامكنا فى هذه الجهة من الجبل أن نتحقق وجود بئر فى نهاية أحد الكهوف فنصبنا الخيام فى مدخل ذلك الكهف ولم تمض منا عشر دقائق حتى كنا غارقين فى سبات عميق لأننا كنا فى حاجة شديدة الى النوم بعد سفر استغرق منا طول الليل . ومع هذا فاننا لم نل من النوم بقدر ما انتظرنا لاننا صبحونا عند الظهر نهيء

أسباب الغداء . والمثل الفرنسى « من ينام يغف عن العشاء » ينطبق فى بعض الاحوال ولكننا نحن أهل الصحراء نظن أن النوم والتغذية معا أمتع للنفس اذا نالهما الانسان فى وقت واحد . وكان لنا شغل شغى فى الاهتمام بشئ قطع من الشاة التى صافنا عليها الدليل محمد احتفالا بالوصول الى العوينات .

وقضيت اليوم فى زيارة البئر الواقعة فى الكهف الموجود على جانب الجبل وفى عمل بعض الابحاث والاستطلاعات والتفرج على الجهات المجاورة . وفى هذه الجهة يزيد ارتفاع الجبل حتى يصير صخرة قائمة قد تكدست عند قاعدتها الحجارة المتناثرة من كبيرة وصغيرة وقد توالى على هذه الحجارة لطبات الرياح ومياه الامطار فى ماضى السنين وتتابعت عليها سافيات الرمال حتى أصبحت ناعمة الملمس مستديرة الاشكال أحق بها أن تكون فى مقاليع رماة القرون الخالية يصيبون بها ضاريات الوحوش أو يتقاذفون بها فى ألعابهم الخشنة وتقع عين الماء على بعد أمتار من مضرب الخيام فى ثغرة اتخذت من الصخور العظيمة التى تحيط بها حوائط وسقفا . وهى منبع عذب الماء أبرده الظل فكان برودا زلالا

وفى الصحراء نوعان من موارد الماء . العين . وهى المنبع الفياض . والبئر وهى المكان الذى ينبجس منه الماء بعد الحفر فى

الرمل . وقد أطلق على منابع العوينات كلمة عين وإن كانت
أحواضا تجتمع فيها مياه الامطار ويقال إن بجبال العوينات سبع
عيون رأيت منها أربعا قبل استئناف السفر . وسمعت كذلك
أن بهذه الناحية بثرين ولكنى لم أرهما . وحل المساء فكانت القافلة
أنعش ما يكون وأبهج فرقص الرجال وغنوا كأن ليس أمامهم أيام
مجهدة يشقون فيها بصيد الرمل ولفح السموم .

الاثنين ٣٠ ابريل :

صحوت مبكرا وذهبت مع السيد الزروالى وعبد الله ومحمد
ملكى التبوى الى العين الكبيرة فى قمة الجبل بعد أن صعدنا ساعة
ونصف ساعة فوق أرض صخرية . والعين ثرة بالماء القراح يوشع
جوانبها قصب رقيق قطعتم منه قليلا واتخذت منه مقابض لمباسم
التبغ تحيل الدخان باردا لذيذا . وفى المساء امتطيت هجبنى وصحبى
ملكى والسنوسى أبو حسن وسعد لاستكشاف الواحة وكانت
ليلة مقمرة يهب فيها نسيم دافئ من الجنوب الشرقى . وسرنا فى
البريرة أربع ساعات ونحن ندور حول الركن الشمالى الغربى للجبل
ثم دخلنا عند منتصف الليل واديا امتدت فيه سلسلة من التلال عن
يسارنا . وقام عن يميننا ذلك الجبل ذو المناظر الغريبة بأشكال
صخوره وأوضاعها . وأرض الوادى من الرمل الناعم تتناثر فوقه



إعداد قرب وفناطيس المياه للسفر من العوينات لأردى

حجارة كبيرة كانت تعوق في بعض الاحيان سير الجمال .
ورأيت الرجال قد فترت عزائمهم فأوقفهم بضع دقائق تناولنا
فيها بعض اكواب من الشاي الذي حملته معي في زجاجة (ترموس)
ثم اندفعنا في السير وقد انتعشت قوانا وكان في سحر الليل وضوء
القمر وجمال الجبال ما هاج خيالنا وسما بأرواحنا
وفي الساعة الخامسة صباحا انبسط الوادي فصار سهلا من
الرمال المنداح قامت على جانبه الشمالي الشرقي تلال يتراوح ارتفاعها
بين ١٠ أمتار و ١٥ مترا . وملنا دفعة واحدة صوب الجنوب حول
قاعدة الجبل فطلع الفجر ووجبت صلاة الصبح فبركنا الجمال وتيمنا
ثم وقفنا فوق الرمال مولين الوجوه شطر البيت الحرام
وليست الصلاة في الصحراء اطاعة عمياء لتقاليد الدين وانما
الغريزة هي التي تدفع الانسان اليها إعرابا عما تشعر به النفس نحو
الخالق من شكر واسترحام . والصلاة في الليل تبث الهدوء والسكينة
فاذا طلع الفجر ودب الانتعاش في الاوصال ارتفعت الرؤوس الى
الخالق شكرا على ما أودع الكون من جمال واستدارا لرحمته وهدية
في اليوم الجديد ولذلك يؤدي الانسان صلاة الصبح لانه مندفع
اليها لا مسوق . وفي الساعة السابعة دخلنا واديا واسعا يمتد الى
الجنوب الشرقي وتقوم الجبال على جانبيه . وأرض هذا الوادي

منبسطة انتشرت عليها الحشائش التي ظهرت بينها أشجار (الميموزا)
 وشجيرات أخرى ينبعث منها عند سحقها رائحة زكية تشبه رائحة
 النعناع . وكانت الأرض تكتسى من وقت لآخر بساطا من
 النباتات الزاحفة ومن الحنظل وهي مساحات ممتدة من الأوراق
 الخضراء ترصعها كرات صفراء شديدة اللمعان كأنها نوع كبير من
 الليمون الحلو ومن الحنظل يصنع التبو والجرجان ما يسمونه (عبره)
 وهي أهم أنواع طعامهم الذي يعملونه بغلي حبات الحنظل حتى تضع
 مرارتها وسحقها بعد ذلك مع التمر والجرجاد في هاون من
 الخشب .

وظللنا نتقدم في الوادي مدة ثلاث ساعات ثم حططنا الرحال
 في الساعة العاشرة بمجهددين ولكن غير ساخطين فأكلنا أرزا شهيا
 وشربنا الشاي وتقيأنا ظل مرتفع من الأرض نريغ غفوة قصيرة .
 وكان نوما متقطعا لما أصابنا من لسع أسراب الذباب وانتقال ظل
 ذلك المرتفع مما اضطرنا الى تغيير مواضعنا من وقت لآخر

وفتحت عيني فأبصرت شبحا قائما بالقرب مني كأنه طيف حلم
 لذيذ . وكانت صبية فتاة من بنات الجرجان هيفاء القد بديعة
 القسما لم ينقص من رشاقة قدها ما كان عليها من ملابس بالية
 وكانت تحمل جرة لبن فقدمتها الى وجلال الحجل في نظراتها ولم

يسعنى الا أن أقبل الهدية فخرعت منها شاكرًا حتى اذا انتهيت
من شربى سألتنى دواء لأختها العافر . فأظهرت عجزى ولكنها
لم تعتقد صحة قولى ظنا منها انى أحمل فى حوائجى أنجمع الأدوية
ولما ضاقت بى الحيلة فى سبيل الخروج من هذا المأزق لم أجد
مخرجًا غير تلك الأقراص من اللبن المركز الذى يشفى من العلل
ما لا يصل اليه علمى وأعطيتها بعد ذلك مجيدًا ومنديلًا من الحرير
هدية منى اليها .

وجاءنى أحد التبو بجزور من لحم الودان وهو ضرب من
الأغنام البرية فأعطيته شيئًا من المكرونة والارز فمضى راضيا
وذهبت بعد الغذاء أشاهد بقايا تدل على اقامة الانسان فى
العصور القديمة بهذه الجهات . وكنت أثناء اقامتى فى اركنو قد
حادثت أحد الجرغان فخرجت من حديثه بمعلومات وافية عن
سكان العوينات الحاليين ثم سألته بعد ذلك ان كان يعلم شيئًا عن
سكانها الاقدمين فأجابنى إجابة أدهشتنى إذ قال : « لقد عاش
حول هذه الآبار شعوب مختلفة يرجع عهدها الى ما تسميه الذاكرة .
ولا يهولنك قولى ان الجن سكنت هذه النواحي فى قديم الزمان .
فسأله : « وكيف استدلت على إقامة الجن هناك »
فقال : « أو ما ترى آثار تصويرهم على الصخور ؟ »

فكتمت دهشتي وسألته : « وأين ذلك ؟ »

فقال : « لقد وجدت في وادي العوينات تصاوير على الصخور »
وحاولت ان أجريه الى وصف أتم من هذا : « فقال يوجد
هناك كتابات ورسوم لجميع الحيوانات الحية ولا يدرى أحد أى قلم
استعملوا لان كتابتهم في الصخور عميقة لم يقو الزمن على محو
آثارها »

وظللت أحاول كتمان تأثيري ثم سألته أن يصف لي مكان هذه
النقوش فقال : « انها في أقصى الوادي عند تعرجه في نهايته »
ووعيت ذلك وبعد أن قضيت زمنا قليلا في الحصول على
الماء وهو ألزم شيء للقافلة وبعد أن علوت قم التلال أرتاد بنظري
ما أحاط بها من الجهات رأيتني في شوق شديد الى الطواف حول
الواحة أملاً مني في العثور على تلك النقوش حتى أزيد معارفني
القليلة عن تاريخ تلك الواحة . وكنت اعلم ان العوينات كانت محط
قبائل التبو والجرعان في طريقهم شرقا الى مهاجرة الكبايش والفتك
بهم . وكان موقع اركانو والعوينات صالحا لهذا الغرض لما غزر فيها
من الماء الذي تحتاجه هذه القبائل المغيرة . وكانت هاتان الواحتان
من البعد عن الكبايش بحيث لا يجسرون على محاولة الانتقام او
استرداد ما ابتز من اشيائهم

وتملكنت رؤية تلك النقوش من نفسى فصحبت ملكنى الذى انضم الى القافلة فى اركنو وقادنى عند الغروب الى أماكن تلك النقوش وكان موقعها فى جزء الوادى الذى ينحن قليلا فى نهايته وكانت النقوش على الصخور قريبة من سطح الارض وقيل لى أنه توجد نقوش أخرى تماثلها على مسيرة نصف يوم ولكنى لم أزرها نظرا لضيق الوقت وخوفا من اثاره الشكوك . وكانت النقوش رسوما لحيوانات خالية من الكتابة وظهر لى أن رسمها كان يحاول أن يصور منظرا من المناظر ولم تكن من الدقة على شىء ولكنها تتم عن ذوق فنى فقد كان مصورها يميل الى الزخرفة لانه أظهر مهارة فى نحتها وان لم يبن فيها أثر كبير لدقة الصنع

وتناولت هذه الرسوم صور الأسود والزراف والنعام والغزلان والبقر وكانت واضحة رغم فعل السنين بها . وعمق هذه النقوش فى الصخر يتراوح بين ربع بوصة ونصف بوصة وقد قل عمقها فى نهاية بعض الخطوط حتى إنه ليسهل مرور الاصابع على قرارها وسألت عمن عساه يكون صانع هذه النقوش فكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من ملكنى ابداء اعتقاده انها من صنع الجن وسأل : «أى انسان يستطيع فى هذه الايام محاكاتها ؟»

ولم اتمكن من استقاء الأخبار عن منشأ هذه النقوش الشيقة ولم يتيسر لى العثور بما يفسر أصل وسر وجودها ولكن شيئين شغلا بالى وهما ان الزراف معدوم فى تلك الناحية فى هذه الايام كما أنها لا تعيش فى أى منطقة صحراوية كهذه . ولم أبجد صوراً للجمال فى هذه النقوش والجمال هو الدابة التى ينتقل عليها الانسان هذه الايام فى تلك الاصقاع التى تبعد الآبار فيها مسير بضعة أيام عن البعض فليت شعرى أعرف سكان هذه النواحي القدماء الزرافة دون الجمل الذى يرجع عهد دخوله أفريقيا من جهات آسيا الى حوالى ٥٠٠ سنة قبل الميلاد ؟ .

وبدأنا عودتنا الى الخيام فى منتصف الساعة السادسة فصعدنا طريقاً متعرجاً فى جبل شديد الانحدار لا تتسع دروبه فى بعض المواضع لاكثر من رجل واحد . والخطر شديد لمن يجتازها على ظهور الإبل . ووصلنا قنة هذه الطريق الجبلية ثم انحدرنا الى الصحراء المنبسطة عند سفح الجبل . وقد رأينا من القنة التى صعدنا اليها بعض قن أخرى انتشرت حولها وارتفعت عنها بقدر يتراوح بين ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر . وقد أظهرت الجمال مهارة شديدة فى الصعود الى هذه القنة والنزول عنها رغم الظلام .

ووصلنا سفح الجبل في منتصف الساعة الحادية عشرة فرأينا
 من الصلاح أن نريح الجمال وحططنا الرحال في الساعة الحادية عشرة
 فاسترحنا ساعتين وتناولنا الشاي وزارتنا أسرة من التبو كانت تعيش
 بالقرب من مناخنا . وغفونا قليلا ثم صحونا منتعشين وكان النسيم
 رطبا والسير في الصحراء المنبسطة استراحة طيبة بعد الجهد الشديد
 في تسلق تلك الصخور . ووصلنا مضرب الخيام في الساعة العاشرة
 صباحا من يوم ٢ مايو فاستقبلنا رفقاؤنا بطلقات البنادق .
 . الاربعاء ٢ مايو :

وجدنا عند وصولنا الى الخيام الشيخ هري وهو شيخ الجرغان
 الذي يطلق عليه لقب ملك العوينات وشعبها المكون من ١٥٠
 نفسا . وكان قد جاء بالامس يزورني فانتظر عودتي وكان شيخا
 لطيفا مهيب الطلعة هادئا . وأحضر لنا شاتين ولبنا و « عبرة » بصفة
 ضيافة . وكان في ذلك اليوم صائما رمضان فالححت في بقاءه لتمضية
 الليل معنا حتى أقوم بحق الضيافة نحوه أنا الآخر . وحادثته طويلا
 وكان لا يزال يحن الى وطنه في شمال واداي يتهدد عند ذكره
 في حديثنا . وهري من أسرة الرزي إحدى قبائل الجرغان
 الحاكمة في شمال واداي وقد اختار الكفرة منى له عند دخول
 الفرنسيين واداي وأقام في العوينات بعد ذلك . ووجدتني متعبا

ويحمل بي قبل أن أفرغ من وصف العوينات أن أقول شيئاً
عن بوكاره وهو من أمتع رجال القافلة صحبة وأكثرهم شاعرية
كان بوكاره طويل القامة منسرحها صلب القناة دائم المرح
والطرب مثالا للبدوى الصميم لا يسكت عن الغناء في الاوقات
المصيبة من اليوم سواء كان ذلك في بكرة الصباح بعد سير الليل
أم في آخر الليل حيث يجهد السير رجال القافلة فيكونون في حاجة
الى ما يرفه عنهم ويشجعهم على المضي . ولم أعلم انه يدخن حتى
رأيت ذات يوم ينما كنت أمتطى جوادى يجمع أعقاب السجائر
من الموضع الذى قامت فيه خيمتى . فشاطرته سجاثرى بعد ذلك
وكان يروق لى أن أراه يغنى ويرقص طرباً كلما قدمت اليه علبه من
تلك اللقائف الثمينة

وبوكاره من أكثر البدو الذين رأيتهم أسفارا فقد جاب
واداى وبركو وبرنو ودارفور وهو لم يعد الثالثة والثلاثين من عمره
وقد ساعده الحظ فى ماضيه فذاق الغنى ولكنه لا يملك اليوم الا جملاً
واحداً . وقد أراغ المكسب حين انضم الى القافلة واتفق مع أبى
حليقة على أخذ شطر من أثمان الجمال عند بيعها فى نهاية الرحلة .
وهو يجيد أكثر لهجات القبائل السود ويعرف الكثير عن هذه

القبائل . كما انه مقلد مدهش اذ كر ذات مساء يوم انه التحف
 بقطعة من القماش الاخضر الذي يُكوّن قسما من خيمتي واتخذ منها
 (برنسا) وتبعه سعد وحامد وهما يقلدان ثغاء الشاة ثم تقدم الى
 مضرب الخيام مدعيا انه شيخ بدوي قد أحضر شاتين بمثابة ضيافة
 فضحكنا ضحكا عاليا ونضا بوكاره تلك الخرقة الخضراء وانتزع
 حربة من أحد التبو ثم طفق يرقص رقصا حريا تبويا وساعده
 أحد التبو على الرقص بالايقاع على أحد الفناطيس الخالية وتبع هذا
 المنظر الغريب مجلس غناء ترددت فيه أغاني البدو الشائقة في برقة
 وفزان وطرابلس

ورأيت بوكاره ذات يوم يرفض امتطاء جملة في ساعة لم يتمالك
 فيها اخوانه أن يصبروا على السير فسأله « لماذا لا تتركب والجمال
 غير الحملة عديدة ؟ »

فأجابني وفي صوته نبرة سخرية وتعنيف : « وماذا عسى تقول
 تزوجى اذا سمعت انى ركبت بين اركنو والعوينات »
 وأخبرني انه وكل اليه ذات مرة أن يصحب خمسين جملا الى
 العوينات لترعى وكان وحيدا ونفذ منه الزاد فقضى اثني عشر يوما
 لا يذوق طعاما الا حب الحنظل الذي أضر بجهاز هضمه ثم قال :
 « ووصلت الكفرة وكان الرجال الذين أرسلوني يجهلونهم قد نسوا أن



فتاة تبوية بملايس البدو

يتركوا لى طعاما لانهم توقعوا وصولى قبل ذلك .
فسألته : « وما الذى منعك من ذبح جمل تقنات به ؟ »
فقال لى بشم : « وكيف أسمح لرجال الكفرة أن يقولوا
لأن بوكاره لم يصبر على الجوع فذبح جملا من جهالم ؟ »
وبوكاره شديد الوله بزوجه وقد قال لى عند وصولنا « انى
لأشعر الآن أنى أحسن حالا ولكنى بكيت بكاء الاطفال عند
توديعى امرأتى فى الكفرة . وهذه حالى دائما عند البدء فى أسفارى
غير انى اذا أنست الى رفقاءى وامستطيت صحبتهم سهل على ذلك
ألم الفرقه »

الفصل السابع عشر

السير إلى (اري)

الأحد ٦ مايو :

قنا في الساعة السابعة الاربعاء مساء وسرنا ١٢ ساعة قطعنا فيها ٤٥ كيلومترا وكان سفرا متعبا وكان هذا أمرا متوقعا في أول ليلة نقطعها في السير ولم يكن الرجال قد تمكنوا من النوم أثناء النهار بل كانوا أكثر اشتغالا من العادة بتجهيز أسباب الرحيل . وكان علينا بالرغم من هذا التعب أن نتعهد الأحمال ونصلح وضعها من وقت لآخر . وطلع الفجر فدب الكرى الى اجفان القوم فأغفوا قليلا وهرب منا أحد الجمال فعدا الى العوينات واضطر ملكنى أن يترك القافلة عند منتصف الليل وينطلق في أثره . وكانت ليلة مقمرة في هزيعها الاخير وهب نسيم بليل في الثالثة صباحا ورعت الجمال وهي سائرة ما نجم في تلك الجهة من الحشائش التي يسقيها الماء المنحدر من الجبال وحططنا الرحال فوجدنا قرية من أجود قربنا قد تمزقت وضاع منها نصف الماء الذي تحويه .



تباوی بمعطاف من الفرو

وكان ذلك من سوء حظنا لانه لم يكن معنا ما يفيض عن حاجتنا من الماء في قطع هذه المرحلة التي كان علينا أن نسير فيها عشرة أيام قبل أن نصل الى اول بئر في الطريق ولم يظهر ملكنى مع الجمل الهارب أثناء النهار.

الاثنين ٧ مايو :

كانت السماء ملبدة بالغيوم طول النهار وهبت ريح قوية من الشمال الشرقى وقرت عند الظهر . اعلى درجة للحرارة ٣٨ ولم اتمكن من معرفة أقل درجة نظرا لسفرنا بالليل والجو أبرد ما يكون في الساعة الثانية أو الساعة الثالثة صباحا وبدأنا السير في منتصف الساعة السابعة مساء ووقفنا قبل منتصف الليل بنصف ساعة قطعنا ٢٠ كيلو مترا . وكانت الارض ناعمة الرمل متموجة كثيرة

(السبط) الجاف الصالح لرعى الإبل

ولحقنا بعد الظهر أحد عبيد التبوع على جمل يحمل الحوائج التي كانت على ظهر الجمل الهارب واخبرنا ان جمل ملكنى رمى بحمله على الارض وجرى الى مراعى العوينات وان ملكنى جادّ في طلبه وحططنا الرجال ننظر المتخلفين في جهة ناعمة الرمل متناثرة الصخور والمراعى بالقرب من (جارة شزو) ولحق بنا ملكنى بعد وقفنا

بقليل ولكنى صممت على عدم السير تلك الليلة لانا كنا فى حاجة الى الراحة .

الثلاثاء ٨ مايو :

قنا فى الساعة الخامسة الا ربعا مساء فى جو مقبض وسحاب كثيف وأمطرت السماء قليلا بعد ذلك بساعتين فهل البدو سرورا وغنوا جمالهم لان عماد حياتهم الأمطار .

وكانت الأرض متموجة صلبة مغطاة بالحجارة والزلط الكبير واجتزنا غرودا صغيرة بعد قيامنا بقليل ثم انبسطت الارض بعد ذلك ونعم رملها وفى منتصف الساعة الرابعة صباحا دخلنا جهة تكثر فيها كثبان الرمل العالية فقطعناها فى ساعة ونصف وبعد ذلك انبسطت الصحراء ودخلنا السريرة ووجدت فى تلك الجهة قطعاً من بيض النعام .

وفى بكرة اليوم أخذ (ارامى) أخو ملكنى كيسا وذهب يلتمس الحطب واسمه ينم عن قصته لان قبائل الثبو والجرعان تطلق اسم (ارامى) على من قتل آخر . وكان قد أخبرنا أنه سيلحق بنا بعد ذلك فلم ينشغل بالنا عليه وزاد طمأً نينتنا أنه يعرف الطريق حق المعرفة .

ولكنا بعد أن سرنا ساعتين وأخذ الظلام يرخى سدوله شغلنا

أمره ووقفنا ننتظره وأطلقنا بنادقنا مرات عديدة تنبيهه الى موضعنا ونادى الرجال باسمه بصوت عال فكان كل ذلك بلا جدوى فالتفت الى ملكنى وسأله ماذا يزعم أن يعمل ؟ فقال : « ان أخى مجنون ولم يكلفه أحد بجمع الحطب وقد ترك مضرب الخيام بدون أن يتناول فطوره وربما دعاه الله الى جواره . واني اذا طلع القمر تركت احمال جملى وعدت أبحث عنه فان كان حيا جئت به وان وجدته ميتا دفنته ثم لحقت بكم »

وكان يقول ذلك بلهجة طبيعية كأنما يتكلم عن أمر عادي . ورفعنا أثقال جملة فوضعتها على ظهر جمل آخر ورجع يلتمس أخاه وكان أرامى قد تخلص من بين براثن الموت مرات عديدة فأمل الرجال أن يسلم هذه المرة كذلك ولكن محمدا كان يشك في سلامته اذ قال : « ان الله رحيم ولكنى أظن أن أرامى قد سعى الى حتفه » . وأشفت أن يكون محمد صادقا في نبوءته لان أرامى كان غريب الاطوار منذ بدء الرحلة . وسمعت ان ماءه نفذ في بعض رحلاته من اردى الى العوينات فأحس عطشا قاتلا ووصل العوينات نصف ميت . ومثل هذه الحادثة تترك أثرا في صاحبها لا ينمحي فلا يعود الى حالته الطبيعية الا بعد زمن طويل .

وكنت قد لاحظت نظرات أرامى الغريبة الحائرة فعجبت من

أمره وخفت إن لم يعد أن تكون الصحراء قد تملكها القسوة
فطالبت بحقها منه .

وقد تطيح رؤوس الرجال في السفر الطويل الخالي من الماء من
أثر الكلال والعطش والتعب والارق فيسعون الى حتفهم كما يقول
البدو . ومعنى ذلك أنه اذا غفل عنهم أصدقاؤهم ولم يسهروا على
إبقائهم منضمين الى القافلة ضربوا في أحشاء الصحراء غير آبهين حتى
بالغريزة التي تدفع الجمل الى الالتصاق ببقية جمال القافلة . فاذا عاد
الهائم بعد ذلك بغتة الى رشده جلس حيث صحا ولم يتحرك علما منه
بان أصحابه اذا التمسوه فلم يجدوه تعقبوا أثر القافلة ثم أثره وسعوا
لاقتاده . وكنت قد قابلت في الكفرة رجلا انقطع عن القافلة
وهام على وجهه مدة ١٨ ساعة ثم أنقذ غائب الرشد شديد التألم من
العطش . قال لي ذلك الرجل « ان الله كريم فاني لم أكن من القوة
الابحيث أدت صلواتي مبتهلا اليه جل وعلا قبل أن يدهمني ما توقعته
من الموت المحتوم » ثم أضاف باسم « ولكن الحياة والموت بإرادة الله »
الاربعاء ٩ مايو :

قنا الساعة الرابعة وربعمساء ووقفنا الساعة العاشرة وربعا
وقطعنا ٢٤ كيلومترا . أعلى درجة للحرارة ٣٧° . سحب صبير وريح
ساخنة قوية من الشمال الشرقي تهب طول النهار ثم تنقلب عاصفة



القافلة بجاز غرود الرمال بين العوينات و اردى

رمل شديدة في الليل . وذاذ في الساعة السابعة مساء واستمرت
العاصفة من الساعة الثامنة الى الساعة العاشرة وكانت الارض سريرة
ناعمة الرمل في بعض المواضع خالية من الاعلام والحشيش الجاف .
ورأينا في بكرة الصباح اكوام رمل بعيدة عن يميننا . مرنا ١٤
ساعة في الليلة الماضية ولكننا لم نكن شديدي التعب ثم أظفنا
وغفونا أربع ساعات فانتعشت قوانا وأراد محمد أن نسير مبكرين
نظرا لوجود (غرد) وعرف في سبيلنا لا يمكننا اجتيازه في الظلام فقمنا
الساعة الرابعة وربعا نسير في سريرة منبسطة ويهب علينا نسيم
ليل من الشمال الشرقي . وشعرت فجأة في الساعة الثامنة بريح تهب
في وجهي فذعرت لان الريح لا يتغير اتجاهها في العادة بغتة بهذه
الصفة . أضف الى ذلك أن درجة حرارة الريح لم تتغير وبالرغم من
هبوبها من الجنوب فانها لم تكن دافئة . وهكذا كان في الامر شيء
من الغرابة فرفعت بصري الى النجوم ولكن السماء كانت متلبدة
بالغيوم من جميع نواحيها فاخرجت بوصلتي وفزعت لاذ رأيت أننا
نسير صوب الشمال الشرقي بدلا من الجنوب الغربي فوضح لي أن
محمد طاحت رأسه كما يقول العرب فقادنا في الاتجاه المضاد . وكانت
ساعة عصيبة تتطلب حذقا وحسن تصرف فان من الخطر أن تهدم
الثقة في نفس الدليل . ونزلت عن جملي ثم امتطيت جوادي وعدوت

الى محمد فى طليعة القافلة وادركت فى طريقى اليه أن رجال القافلة
 وبينهم الكثيرون ممن اعتادوا المسير فى هذا النوع من الصحراء
 وألفوا هذا الضرب من الطقس كانوا يشعرون باننا أخطأنا الطريق.
 ولكن آداب الصحراء تقضى أن لا يتداخل أحد فى شأن الدليل
 بآية حالة من الحالات لأن الدليل فى الصحراء كرىبان السفينة. مطلق
 التصرف فى اختيار وجهة السير ويجب استشارته كذلك فى تعيين
 أوقات السير والوقوف .

وكنى لحسن الحظ قد سألت محمداً قبل تركنا العوينات عن
 الاتجاه الذى سنتخذه وضبطت البوصلة على ذلك . وتقدمت الى
 الدليل فوجدته مضطرباً تنقصه ابتسامته المألوفة ولا يبدو عليه ما
 اعتدنا رؤيته من مظاهر ثقته بنفسه واعتماده عليها . وأريته البوصلة
 ثم أفضيت اليه بشكى فى صحة الاتجاه فلم يجبنى وذرع السماء بعينين
 متفرستين يعرف موقع (الجدى) بلا جدوى لان السحاب كان
 يغطيه .

وفى هذه اللحظة أطفأ سراج بهبوب العاصفة الآخذة فى
 الثوران . وكانت القافلة قد لحقت بنا وعرف كل رجل فيها انا ضللنا
 الطريق . وردّ الرجال والجمال من بعضهم الى بعض والعاصفة تسفى
 الرمال فى وجوهنا .

وكانت الريح شديدة لا يكاد الانسان معها يسمع صوت نفسه .
فما بالك ببقية الأصوات . وتلاشت الثقة من نفس محمد وانعدمت .
انعداما تاما ولحظت أثر ذلك من وجوه رجال القافلة . فقد كانوا
جميعا ممن ألفوا السفر في الصحراء وعرفوا معنى فقد الطريق في
سريرة منبسطة من الصحراء خالية من الأعلام فقال الجميع بصوت
واحد: « لا بد أن نخط الرحال حتى تصفو السماء » .

ولكنى كنت أعرف خطر هذه السياسة فان الحائرين في
مثل هذه الحال يقضون الساعات يفكرون في حتفهم ويزدادون
ضعفا وياسا . وكان رأي أن لا تقف فقد كنت أثق بيوصلتى وتحققت
مرات عديدة إذ ضبطتها على الاتجاهات التى أشار اليها محمد .

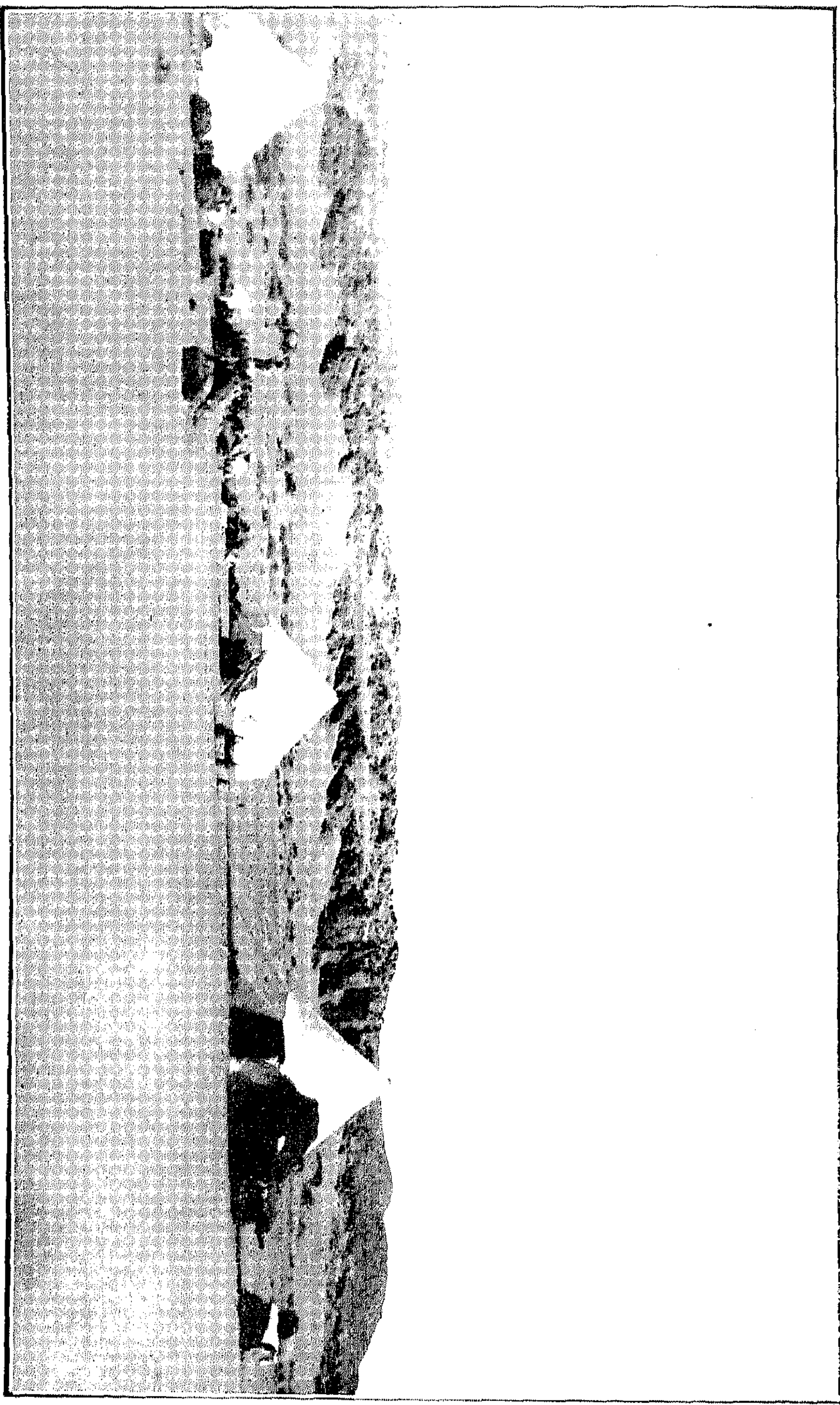
وسكنت الريح لحظة فقلت بصوت هادىء فيه نبرة اليقين
« ان هذه الريح تهب من الشمال شأنها فى الأيام الماضية لانها لو
كانت تهب من الجنوب لوجب أن تكون دافئة وهذا هو نجم
القطب وهذا طريقنا السوى » . وأشارت الى الموضع الذى يجب
أن يكون فيه الجدى ما لم تكن البوصلة غير صادقة . ثم دوت
وأشرت الى الطريق التى يجب اتباعها . فجمع محمد ما تفرق من نفسه
وقال « جزاك الله خير الجزاء ان الصدق ما تقول »

وتقدم الى السنوسى أبو حسن الذى كان دليلنا الى الكفرة

واكد ما قررته بصوت عال قائلاً « والله انك لتقول الصدق وقد
فكرت في هذا ولكنى لم أجسر على الجهر به لعدم وجود الدليل على
ذلك نظراً لاحتجاب الجدى خلف السحاب » واكتفينا بهذا
وأضأنا السراج بصعوبة شديدة وتقدمت القافلة بين محمد وأبي
حسن .

وانبعث من الظلام صوت يقول « فى أى اتجاه نسير ؟ » .
فاجابه بوكاره وهو يضحك « دع الريح تلطم قفاك الاسود فانك
لن تحيد عن الطريق سوى »

وبعد قليل من الساعات قبض محمد على يدى وصرخ فرحاً
وهو يشير الى تلال الرمل التى واجهتنا ثم قال « ها كم (الفرد)
الحمد لله ان الله رؤوف رحيم » وهكذا عاد للرجل طريقه وسروره
وقرت العاصفة بعد قليل وكنا بين تلال الرمل وصفت السماء
الى حد لم يعد يتمالك معها أشد رجال القافلة تشاؤماً أن يشغل باله
بأى خطر . ولكن ما أصابنا فى هذه العاصفة من الحيرة والخوف
أظهر لنا ما يتعرض له قاطع الصحراء من الأخطار . ولم يكن الفضل
فى نجاتنا من هذا المأزق الا للبوصلة التى كنت أحملها . ولم ير محمد
البصلاح فى قطعنا هذه التلال فى الظلام فخططنا الرحال حيث
وقف بنا المسير .



تلال صخرية في الصحراء بين العوينات وادي

الخميس ١٠ مايو :

قنا الساعة الرابعة وربعا صباحا ووقفنا الساعة التاسعة الا ربعا
ثم استأنفنا المسير في منتصف الساعة الخامسة مساء ووقفنا الساعة
السابعة من صباح ١١ مايو فقطعنا ٧٥ كيلو مترا . الجو صحو معتدل
وهبت ريح باردة قوية في بكرة الصباح ثم ضعف هبوبها بعد ذلك .
أعلى درجة للحرارة ٣٨ . الأرض ملاءى بتلال الرمل الناعم الخطرة
في بعض المواقع ويمتد مسافة كيلو مترين ثم تنبسط الصحراء وفي
منتصف الساعة السادسة مساء دخلنا منطقة تتناثر فوق أرضها
ركام الحجارة سوداء وبيضاء شأن الصحراء قبل الكفرة . وفي الساعة
الثالثة صباحا من اليوم الحادى عشر دخلنا منطقة من الحشيش الجاف
في أرض منبسطة من الرمل الناعم وفي منتصف الساعة الخامسة
صباحا اجتزنا جهة تكثر فيها تلال الرمل . وقد تحققنا حين قطعنا
(الفرد) في الصباح من الخطر الذى كنا نستهدف له لو أننا حاولنا
قطعها في الظلام فقد كانت هذه التلال شديدة الانحدار ناعمة
الرمل وكانت الجمال تنعوص الى ركبها فيضطر الرجال الى تخفيف أحمالها
ومساعدتها على النهوض . وقضينا في قطعها ثلاثة أرباع الساعة ثم وقفنا
عند الساعة التاسعة صباحا وقد فتك بنا الجوع لأننا لم نذق شيئا منذ
غداء البارحة . وكانت حاجتنا الى الطعام أشد من حاجتنا الى النوم

نظرا للراحة التي نعمنا بها بضع ساعات في الليلة الماضية .
 وكان الطقس حارا عندما بدأنا السير في منتصف الساعة
 الخامسة ولكن نسima بليلا كان يهب من الشمال الشرقى فلفظ
 من تلك الحرارة . وسألني هري أن أعطيه بضعة أمتار من القماش
 الأبيض يتخذ منها عمامة لان حرارة الشمس آذت رأسه فأعطيته
 ما أراد . ولا يلبس الثياب البيض في قبائل التبو والجرعان
 إلا شيوخها .

وشعرت تلك الليلة بالميل الى المشي فركبت جملي أقل من
 العادة . وكنت منذ تركي العوينات أمشي بين ست ساعات وسبع
 ساعات كل ليلة ولكني مشيت تسع ساعات تلك الليلة وسرنا
 سيرا حثيثا حتى الساعة الثالثة صباحا ثم شعرت بجأة بخفيف عند
 قدمي فتحسست ذلك فكان حشيشا .

وتغيرت معالم الصحراء وكانت الجمال جياعا لأننا تركنا
 العوينات ولا نحمل من علفها إلا ما يكفيها يومين آملين وجود
 المراعى في طريقنا ولذلك تركناها ترعى وهى تسير بدل أن
 نستحشها في سبيلها . وكان سير تلك الليلة متعبا للجميع فقد كنا
 مفتقرين الى النوم . وملاحظة سيرا الجمال فى أرض ذات مراعى عمل

لا يستهان به . وركب محمد وهري معظم الطريق وكان حسن يحمل
المصباح . ثم ترجل محمد قبل الفجر بقليل فخله عنه وأراحه ولم أرَ
دلائل التعب على الرجال كما رأيتها صباح اليوم عند ضمنا الجمال
لتأدية صلاة الفجر .

الجمعة ١١ مايو :

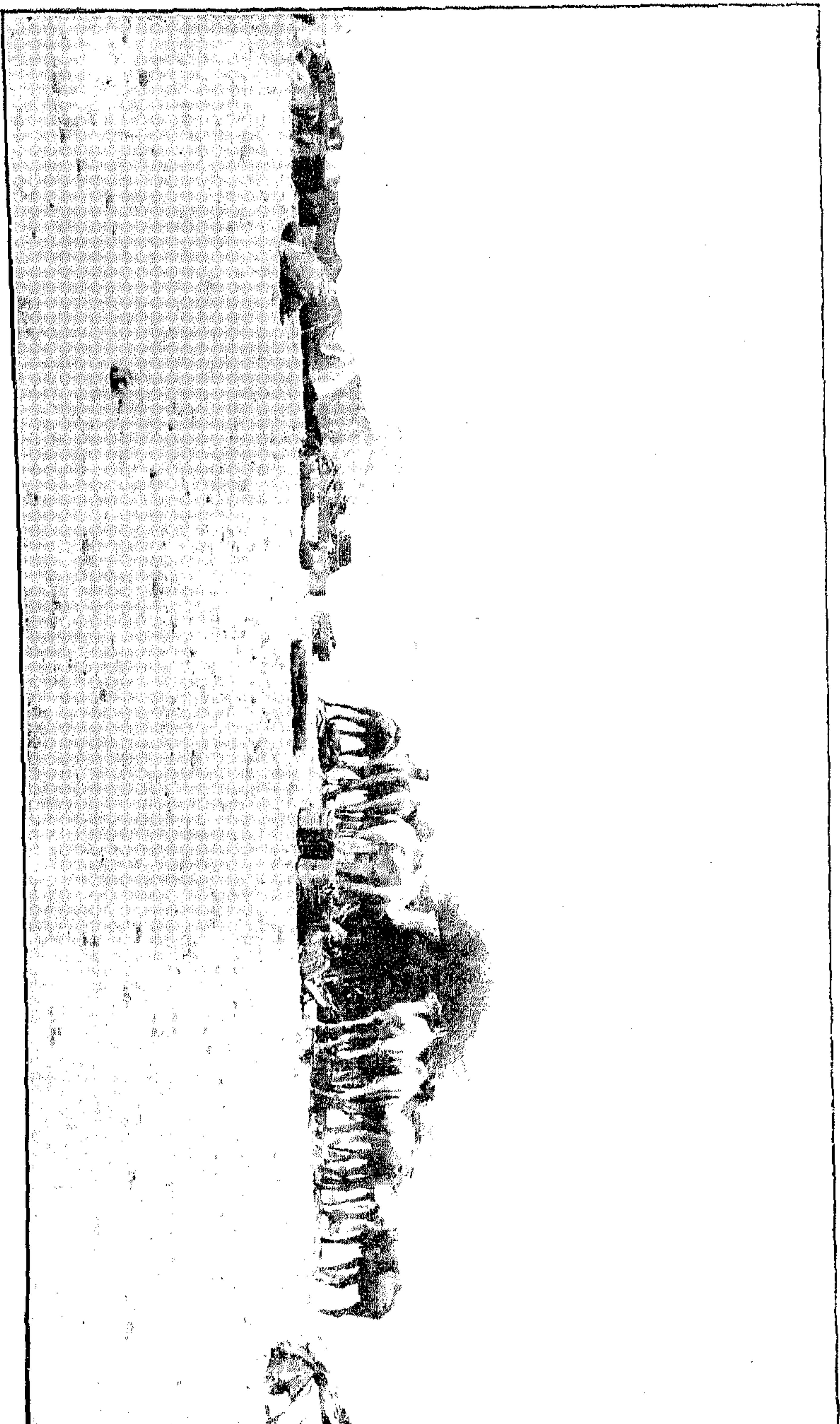
قنا عند الساعة الخامسة الا ربعا ووقفنا الساعة الثالثة وربما
صباحا من اليوم التالى وقطعنا ٤٢ كيلو مترا . الجو صحو لا ريح
فيه . حار فى النهار والليل . أعلى درجة للحرارة ٣٩ . الارض رملية
مغطاة بحشائش جافة تشبه حقلا من القمح الناضج . وفى الساعة
الواحدة الا ربعا صباحا مررنا بغرد عادى وفى الساعة الاولى دخلنا
أرضا منبسطة خالية من الحشائش وفى الساعة الثالثة وربع وقفنا
عند تلال من الخراسان

وقضينا اليوم فى النوم والاكل ثم بدأنا السير فى الساعة
الخامسة الا ربعا مساء قاصدين أن نسير طول الليل . ولم تحن
الساعة العاشرة حتى كنا جميعا متعبين ناعسين . ولم يندعنا محمد
الذى كان يمتطى جملة . وقد غلبه النعاس بعد ذلك فكان يغفى فى
فترات ونال منه التعب فكان لا يتحقق من طريقه بملاحظة نجم
القطب وهو عماد الدليل ومن الخطر أن يهمل ملاحظته . وتحققت

أنا والسنوسى أبو حسن ان محمد لم يكن سائرا بنا فى الطريق
السوى ولكننا لم نرد أن تتداخل معه فى الامر بعد تلك الليلة
السابقة . وفى الساعة الثالثة وربع صباحا وصلنا مرتفعا من التلال
فوقف محمد بغته . وكنت سائرا حينذاك فى مؤخرة القافلة أتتبع
من صحة اتجاهنا من وقت لآخر فلاحظت أنا كنا منذ الساعة
العاشرة نميل فى السير صوب الجنوب أكثر من ذى قبل . ووقفت
القافلة فتقدمت الى محمد وسألته عن سبب وقوفنا فأجاب وهو
يشير أمامى « إني لا أعرف هذه الطريق بين التلال ولا أدرى
كيف تكون الارض التى تليها »

وكان فى ذلك صريحا مقرا بخطئه . ولم أرد أن أهيج الحيرة
فى نفوس الرجال فقلت له « لنحط الرجال حتى يطلع النهار فانا
متعبون هذه الليلة » .

ولم أكد أفرغ من قولى حتى بركت الجمال ورفعت عنها
الاثقال ولم أر النوم يستولى على الرجال بالسرعة التى نالهم بها هذه
المرّة فقد التحف كل منهم بجردده واتيح الريح الباردة الهابة من
الشمال الشرقى بقطعة من حوائج السفر ثم نام . واعتلى محمد ذلك
المرتفع ليتعرف النواحي فتبعته وقلت له « أظنك كنت تبالغ
فى اتباع نجم القطب » وانما أردت بذلك أن أقول إنه بالغ فى المسير



أول شجرة قابلها القافلة في الصحراء بين العرينات وادي

صوب الجنوب ولم أشر إلى نومه فوق جملة لأنني لم أرد أن أززع اعتقاده في نفسه أو أن أخجله . فأجاب متمتما وهو يذرع الافق بتشوف « حفظك الله لا بد أن اكون قد فعلت ذلك والالما كنا وصلنا هذه الجبال في هذه الساعة المبكرة فقد قدرت أنا نصلها عند الفجر ومع هذا فعند الصباح يأتينا الفرج من عند الله » وتركته وأنا أشعر بالحيرة فقضيت بضع دقائق في أرق وأنا آمل أن لا نكون قد بعدنا كثيرا عن الطريق السوى واستولى على التعب فلم أفكر طويلا في ذلك وغشيني النعاس .

السبت ١٢ مايو :

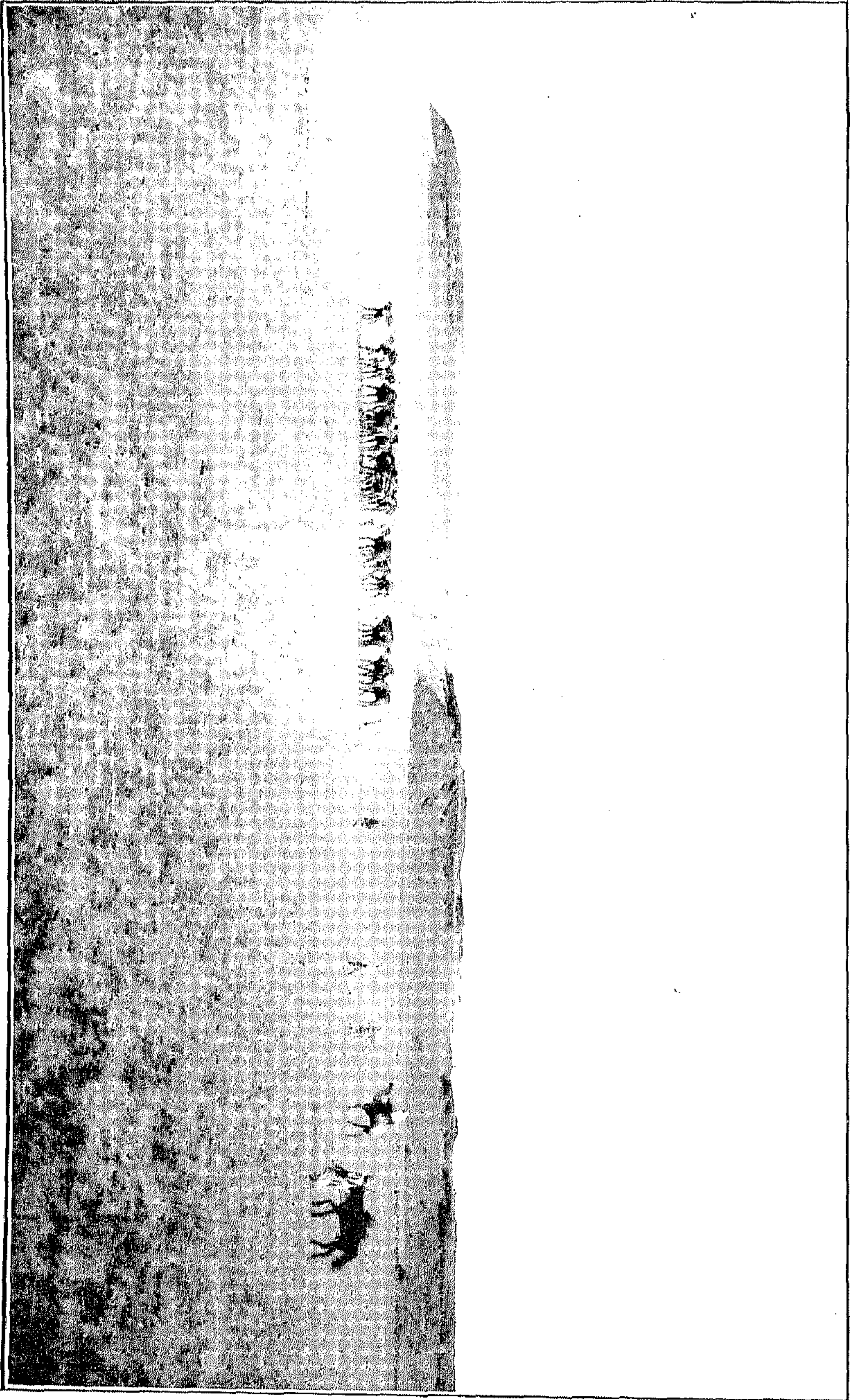
علا صوت محمد بالدعوة الى الصلاة في منتصف الساعة الخامسة فاستيقظنا جميعا ولم تمض بنا ساعة حتى كنا على قدم الاستعداد للمسير .

وتقدم محمد القافلة وصحبته وكان لا يزال مضطربا حتى إذا درنا حول التلال قال وفي لهجته رنة تشعر بالراحة « الحمد لله هذه طريقنا » . ثم أشار الى الركن الشمالى الغربى لسلسلة التلال فسرنا الى حيث أشار وفي الساعة العاشرة الا ربعا صباحا وصلنا ركن التلال وضربنا الخيام وأرسلت الجمال ترعى بين التلال على بعد كيلو متر أو كيلو مترين .

وكان الرجال والجمال في حالة سيئة وكان الماء قد نزر .
 وبعد ظهر ذلك اليوم تقدمنا محمد وهري الى الجبال يخطون
 السبيل في الرمال بطنب الخيام حتى نفتق أثرهم . وفي الساعة
 الخامسة تبعناهما بين اكوام الرمل ثم وصلنا التلال . ولم تكن
 التلال كثيرة لحسن الحظ وان كانت من شدة الانحدار بمكان . غير
 ان الارض الجبلية التي كانت تليها أنهكت قوانا فقد ظللنا نتعثر
 بين الحجارة في الظلام ولا يقينا أذى هذه الصدمات ما كان في
 أقدامنا من الاحذية البدوية . والتعثر بالأحجار مؤلم في تلك الساعة
 المبكرة من الصباح لان رجال القافلة يكونون ناعسين ويمشون
 مغضى الاعين .

وقد كنت في الليالي السالفة عمدت الى تجربة موقفة هي أن
 أطلق في الجو طلقتين أو ثلاث طلقات لأبعث النشاط في نفوس
 الرجال وكانت هذه التجربة ذات نتائج حسنة فانهم كانوا يردون
 بصرخات الفرح ويمجدون في السير . ولكن النظرية قد خابت هذه
 الليلة فقد أرسلت الطلقات العديدة في الساعة الثالثة وهي أعصب
 ساعات السفر بالليل ولم يجبنى أى صوت من رجال القافلة

وكان لي تعزية صغيرة في وسط ذلك الفضاء الساكن الباعث
 على التعب والوجوم فقد طلع الهلال في الصباح الباكر كخيطة



التأففة قرب بئر اردى وقد تبدلت الصحراء الى ارض مرعى

مقوس من الفضة وتلاً لأفوقه نجم متألّق فكان من هذين قطعة
جميلة من حلى السماء . وتركت عينيّ تنعمان بهذا المنظر فنسيت ما
كان يصيب قدمي من ألم التعثر بالاحجار .

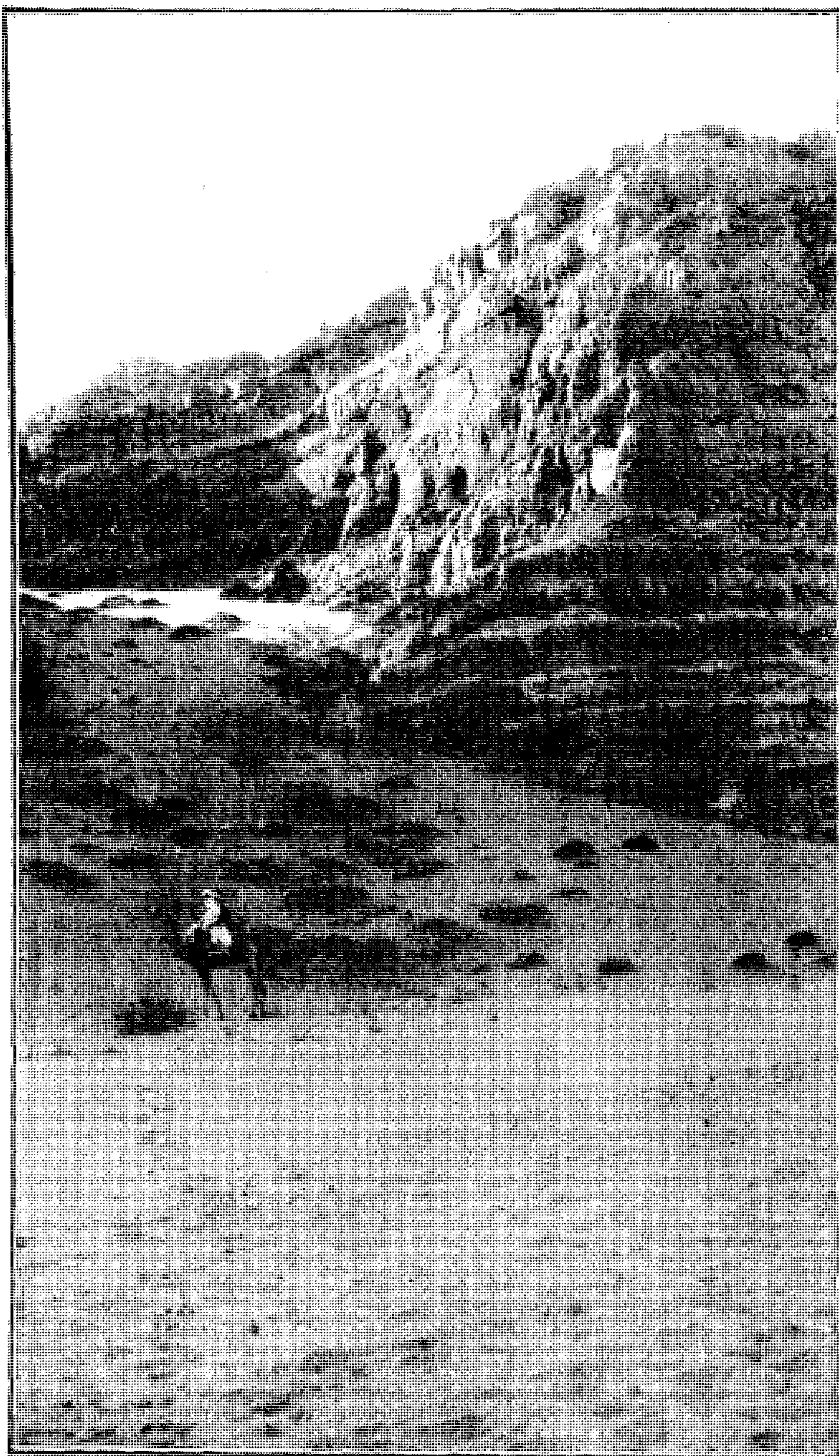
ووصلنا بعد ذلك بقليل الى جهة كثيرة الحشيش الجاف
فتركنا الجمال ترعى قليلا ووقفنا نريح أجسامنا المنهوكّة وحططنا
الرحال في الفجر لتأدية الصلاة ولم نكد نفرغ منها حتى التحف
أكثر الرجال بجرودهم وتهالكوا على ذلك الرمل الاحمر الجميل
كأنهم حجارة بيضاء .

وسارت القافلة بعد ذلك متشاقلة ثم لحق بنا الذين تخلفوا
يخلصون اغفاءة قصيرة وأرجو أن يكونوا قد انتعشوا قليلا . أما
أنا فان أعضائي آلمتني هذا الصباح ولم أتمكن من استعادة قواي
ولم أجد سبيلا للراحة على ظهر جملي رغم تجربة كل طريقة من
طرق ركوبه وسواء كنت مسرعا أم متباطئا وثقلت أجفائي .
وفي الساعة السادسة ساعدنا الحظ فوصلنا جهة كثرت فيها
الحشائش الخضراء ونصبنا الخيام بعد مسير ١٣ ساعة مجهدة .
وكانت أعيننا في حمرة الدم ودب التعب في جميع الاوصال فلم تمض
بنا نصف ساعة حتى غشى مضرب خيامنا سكون شامل .

الاحد ١٣ مايو :

صحبونا لتناول الفطور في الساعة العاشرة صباحا ثم عاد الرجال فناموا ولم يتح لي النوم . وبدأنا السير الساعة الخامسة وربما بعد الظهر وقد ساءت الاحوال هذا المساء عن ذي قبل فقد كانت الارض شديدة التموج كثيرة الحجارة وآذت الرجال والجمال كثيرا . وكانت الجمال تضل بنا في حلكة الظلام وتتخلف من وقت لآخر عند ما كنا نتعرج في سيرنا بين اكوام الرمل وتلال الصخور . ولم تعدم الإبل بعض الحشائش فكانت ترعى وكان من الصعب علينا أن نميزها في تلك الرمال الحمراء ذات الصخور القائمة المتناثرة . وسكتت أصوات الرجال عن الغناء تلك الليلة في ساعة مبكرة وفي هذا دليل واضح على تعب الرجال .

وجاءني السيد الزروالي يقول إن محمدا يفضل لنا حط الرحال مبكرين عن السير الطويل في الليل . وكان السير في الحقيقة مجهدا اضطرنا كثيرا الى تغيير اتجاهنا تفاديا من المرتفعات واكوام الصخور . وخيف علينا في هذا التغيير المستمر أن نضل الطريق . ولكن الزروالي كان يعلم تقوري من التأخر فقال للدليل اني أريد السير عامة الليل فسرنا ولكن الطريق كانت من الوعورة بحيث كنا نترك الجمال وراءنا من وقت لآخر فلم أر فائدة في استمرار السير



وادی اردی

ولم أر دليلا على تعب الرجال أنصع من أن حسنا الواجنجى وهو
من أصبر البدو على السير كان قد امتطى جملة منذ بدء المساء فلم
يتركه بعد ذلك

وضربنا الخيام فى الساعة الحادية عشرة ونصف والتحففت
بمردى وأخبرت الرجال انى لست بحاجة الى اقامة ما يدفع عنى
الريح واكبر ظنى انى لم أغير موضعى الذى أخذته عند ما رقدت
حتى الساعة الخامسة واستيقظت موجه الظهر والاقدام . وكان
نسيم الصباح وانيا منعشا وكانت رؤيتى الرجال مهتمين متشوفين
للسفر سببا فى نسيانى آلامى الجسمانية ورغما من روح الانشراح
التي سببها طلوع الصباح فان الامور لم تكن مشجعة فقد كانت
الارض وعرة المسالك وظهر على الرجال ترعزع ثقتهم بمحمد وهري
وكانت حال الجمال سيئة وكان الماء آخذا فى النقصان بدرجة عظيمة.
الاثنين ١٤ مايو :

قنا الساعة السادسة صباحا ووقفنا الساعة التاسعة
واستأنفنا السير فى منتصف الساعة السادسة مساء ووقفنا الساعة
العاشرة فقطعنا ٣٠ كيلو متر وكان الجو معتدلا صحوا وهب نسيم
بليل من الشمال الشرقى فى الساعة السابعة صباحا وقر عند الظهر
وكان المساء والليل هادئين . أعلى درجة للحرارة ٣٢ . وكانت

الارض ناعمة الرمل مغطاة بالحشائش بين ناضر وجاف . وتغيرت معالم الارض بعد استئنافنا المسير بعد الظهر فأصبحت كثيرة التموج متعددة الأودية ذات المراعى « والنشا » الجاف . وكان ذلك دليلا على اقترابنا من اردى .

وفي منتصف الساعة التاسعة صارت الارض كثيرة التلال على امتداد أربعة كيلو مترات . ثم قطعنا بعد ذلك واديا كبيرا تكثر فيه المزاعى والاشجار . وكان فى عزمى عند البدء فى الرحيل أن نسير أربع ساعات أو خمساً . ولكن الحراش قد بسرعة فخططنا الرحال فى الساعة التاسعة واسترحنا أربع ساعات فكان لذلك تأثير حسن اذ ظلمنا يقظين حتى تناولنا فطور الصباح .

وتقدمنا محمد وهري بعد الظهر لاستكشاف الطريق السوى لأن السبيل كانت وعرة المسالك وسارت القافلة فى منتصف الساعة السادسة وقل الماء وبدأ يأسنا وظهر على الجمال الضعف والكلال . وكنا فى شوق شديد الى الوصول الى وادى اردى بأسرع ما يمكن ولم نكد نبدأ المسير حتى وجد بوكاره وأرامى (وهو غير ذلك الذى هام فى الصحراء واختفى ولكنه مثله قتل رجلا آخر) أثر ورن (برص) كبير فتبعناه الى جحره واشتغلنا بالبحث عنه

فكان في ذلك تسلية لنا ولكنا وجدنا الجحر خاليا من ساكنه
فتبعنا أثره الى كوم من الصخور وظللنا نبش الارض عنه عشرين
دقيقة حتى أمسكناه .

وتتخذ البدو والعبيد من دهن الورن دواء للروماتزم ويزعمون
أن من يحمل رأس هذه الزاحفة يأمن شر السحر وان جلدھا اذا
علق في بيت لم تدخله الثعابين . والورن لا يعض ولا يلدغ ولكن
ذيله الذي يشبه السوط يؤذى كثيرا . وقد سلخ أرامى ذلك
الورن وأعطاني جلده .

وتبعنا الاثر الذي تركه دليلنا ولكننا فقدناه مرات عديدة
في الظلام وأضعضنا وقتا في ايجاده .

ورأيت أخيرا ان خط ذلك الاثر لم يكن مستقيما فاستدلت
من ذلك على ان محمدا لم يكن واثقا من صحة الاتجاه الذي اتخذه
فأمرت الرجال أن تحط الرحال وتطلق النار في الفضاء . وبعد
ذلك بقليل انضم الينا محمد وهري وكانا فرحين بتقريرى الوقوف
وأخبرنى الدليل انه لم يكن في مقدوره تعرف الطريق في
الظلام وإنا بالرغم من هذا لم نكن بعيدين عن البئر .

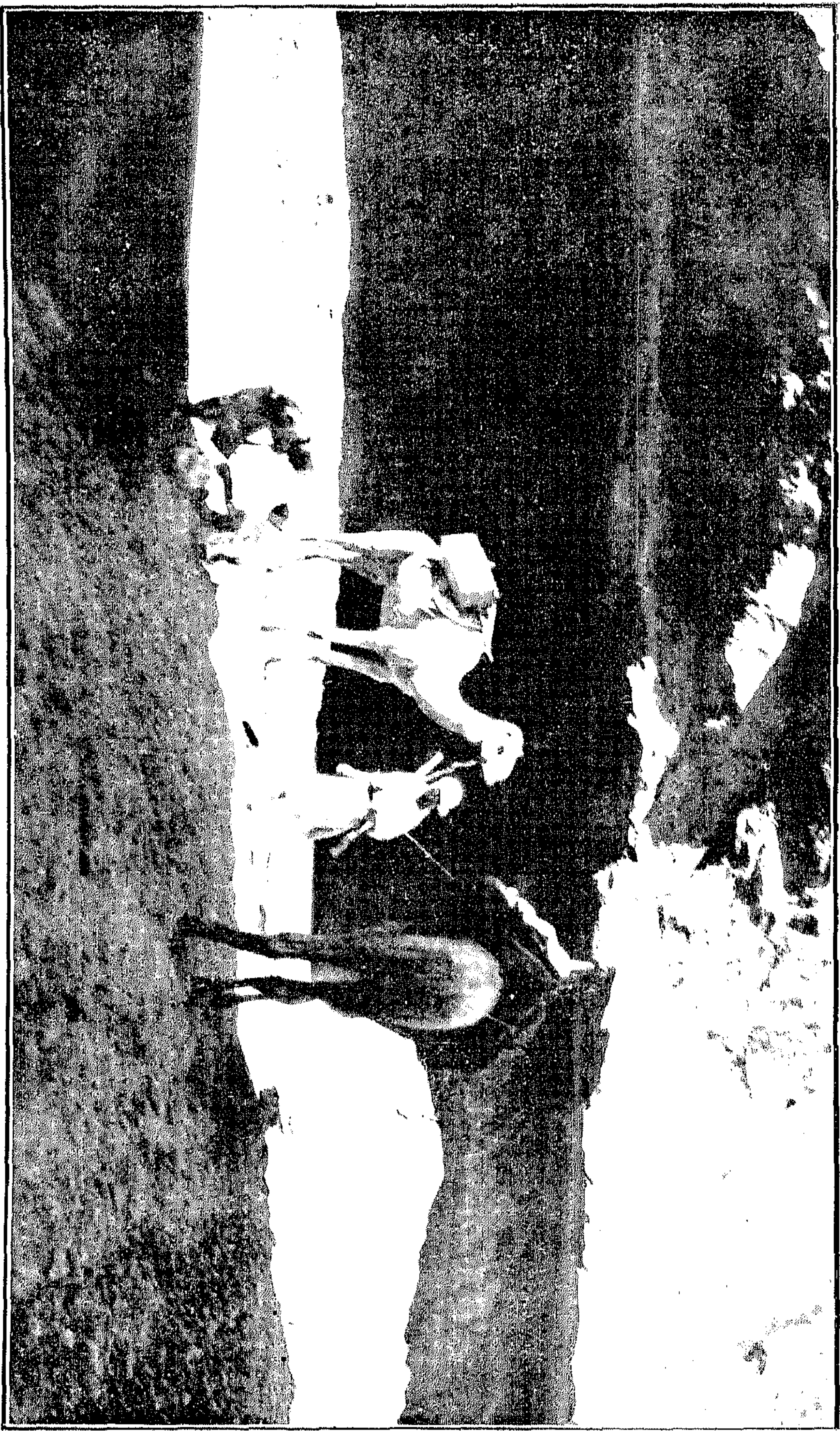
وكانت هذه أول مرة منذ تركنا العوينات نمنا فيها نوما
عميقا متواصلا مدة خمس ساعات .

وقد حادث أرامى قبل أن أنام عن اردى وآبارها فقال « ان

محمد دليل ماهر في النهار ولكنه مسنّ لا يرى جيذا في الليل زد
على ذلك أنه لم يطأ هذه البلاد منذ سنين وكان يجب أن نصل البئر
الأولى هذا المساء ولكننا أخطأنا موقعها والله أعلم »

فطلبت منه أن لا يخبر الرجال شيئا من هذا حتى لا يفزعوا
ويلوموا محمدا .

وجهزت كيس النوم وجلست أفكر فقد كانت هذه اللحظة
أكثر لحظات الرحلة بعثا على اليأس فقد أضاع الرجال الثقة وقاسوا
كثيرا من اشتداد الحر . وكانت الجمال منهوكة القوى لهذا السبب
كذلك ولم يكن الدليل واثقا من طريقه . وكان الماء نورا آسنا .
وأى ظرف من هذه الظروف كاف وحده لانشغال البال ولكن
مجموعها يهد الأعصاب ويفتك بالعزيمة والثبات والجلد أشد فتك
وينا أستعرض هذه المصاعب والمخاطر خطر بفكرى أن
أرامى المجنون وأخاه ملكنى الذى ذهب يلتسمه لم يظهر بعد .
فوجدتني في حيرة وعجب وخشيت أن تكون الأقدار قد ازمنت
أن تحرمنى ما كنت قادرا على عمله . وكانت هذه خير فرصة مناسبة
للاقدار تفتك بى ان كانت من القسوة بحيث تريد هلاكى . فانى
لو كنت أخطأت موقعى اركنو والعوينات لما كان فقدى لها بهذه
الشدة على . أما وقد قطعت أكبر شق من رحلتى ووصلت الى غاية



بئر اودی

أبحاثي وحصلت على جل النتائج التي أردتها منها فقد دب في نفسي الحنين الى وطني وتعلقت باهداب الحياة خشية على تلك النتائج أن تقبر معي ورغبة في العودة بها الى بلادي وفكرت طويلاً ثم قلت لنفسي الله أعلم وعجبت كيف يغشاني النوم تلك الليلة ولكن سحر الصحراء بدأ يفعل في نفسي فثقلت أجفاني وحلاني النوم .

الثلاثاء ١٥ مايو :

صحبونا الساعة الرابعة فصحبت محمدا وهري وانطلقنا نتعرف الطريق على قلة تحققنا السبيل فأخذ أبصارنا بغتة منظر تلال اردى الحمراء وتأكدت ذلك بواسطة منظاري ولم تمض بنا ساعة حتى سرنا صوبها : وتناقشنا قبل البدء في السير فيما اذا كان الأوفق لنا أن نضرب الخيام فوق التلال المشرفة على الوادي الذي توجد فيه البئر أو ننحدر الى ذلك الوادي فنقيم فيه . وكان الانحدار الى الوادي متعبا للجمال ومع ذلك فقد قررنا أن نمط الرحال فوق أرضه . فان ذلك على الأقل يقينا من موارد الماء اذا هاجمنا قطاع الطريق .

وأخذنا تتسلق دروبا وعرة بين الصخور الحمراء حتى وصلنا قنة صخرة عالية فبدأ لعيوننا وادي اردى البديع ممتدا تحت أقدامنا

وهو واد ضيق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات وعرضه مائة متر .
وتكتفه صخور من الحجر الاحمر . وكان ذلك الوادى مثلاً طيباً
للراحة الواقعة فى الصحراء فان أشجاره وحشائشه الخضراء تبعث
السرور والطمانينة بعد قطع تلك الصحراء العارية ذات الصخور
الوعرة التى قاسينا فيها الاهوال منذ تركنا العوينات

ويننا كنا نتقدم الى البئر سبقنا محمد وهري لتعرف الارض
والعبيد شديداً واحتراس اذا وصلوا بئراً فانهم لا يهرعون اليها
دفعه واحده بل يرسلون رجلاً أو رجلين للتحقق من وجود أحد
بالقرب منها والتأكد مما اذا كان صديقاً أو عدواً ولذلك لم يكن
تقدم الدليلين لتعيين الطريق التى يجب اتباعها فحسب ولكنه فوق
ذلك للتحقق مما اذا كنا فى حاجة الى التأهب للدفاع عن أنفسنا
عند اقترابنا من البئر .

وانحدرنا بعد جهد شديد فى الطرق الوعرة الى الوادى ثم
ضربنا الخيام فى طرفه الشمالى .

وتقع البئر فى أقصى الجنوب ولا طريق سهلة اليها من رؤوس
التلال الا التى أخذناها . وتناولنا طعاماً شهياً من الارز والخبز
الطازج فأضاف ذلك الى بهجة الجهات المجاورة وشعرنا بطرب
شديد كأننا فى حفلة زفاف .

وبانت لى الافكار السوداء التى تملكتنى الليلة الفائتة كأنها
كابوس شديد وان لم تخل من حقائق كثيرة . فان الحد الفاصل
فى الصحراء بين النجاة والهلاك كثيرا ما يكون دقيقا جدا .

وبعد أن احتسينا ثلاثة اكواب من الشاى فى بطاء واستمتع،
ذهب الرجال بالإبل الى البئر يسقونها ويستجلبون الماء للقافلة .
وعادوا بالماء فخلقت ذقنى واستحسنت وغيرت ملابسى فاطمان
بالى وهذا خاطرى وبسم لى وجه الحياة مرة أخرى .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر تسلفت حائط الوادى مصطحبا
التبودوليت وقتت بعمل بعض الملاحظات . وذهب السيد الزروالى
مع السنوسى أبى حسن وأرامى لاصطياد الودّان وهو غنم الجبال
ولكنهم عادوا غير موفقين فى صيدهم . وقد سألت أرامى عما اذا
كانت خيبتهم فى عدم احسان الرماية فأجابنى « أبدا والله لقد
أحكمتنا الرماية ولكن الله رأف بالودّان »

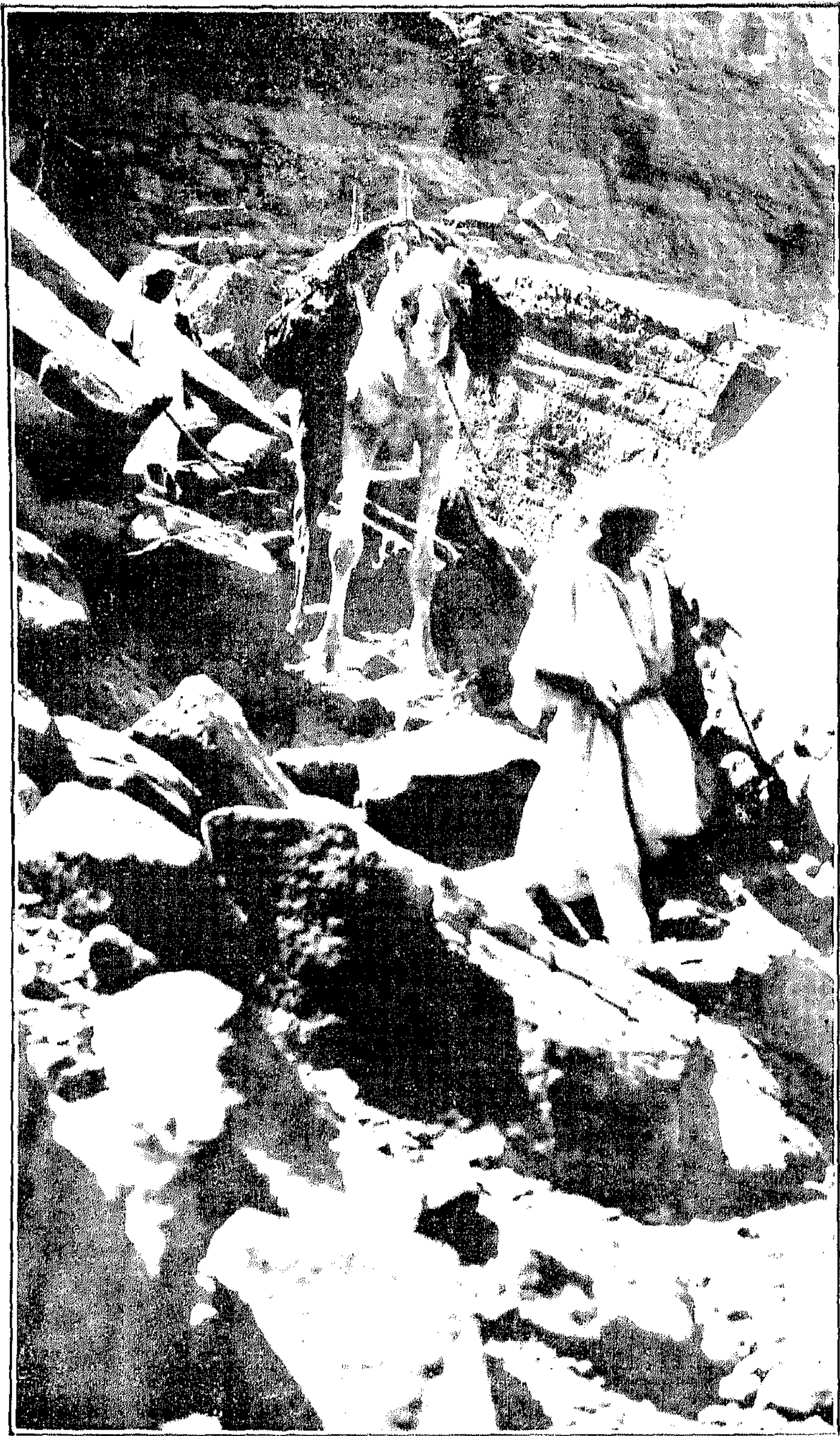
وأرخصى الليل سدوله على قافلة تضم جمالا مستريحة ورجالا
طريين مردّدى الغناء فشعرت انى لا بد حالم تلك الليلة أحلاما
لذيذة .

الفصل الثامن عشر

رفولنا السوران

صحت مبكرا لفتح صندوق الافلام (الشرايط) ووضع
أفلام جديدة في آلات التصوير والجو ما زال باردا وفي الساعة
السابعة قصدت زيارة البئر مع محمد وحمد . ووادي اردي من النوع
الذي يسمونه « كركور » وهو منخفض طويل ضيق بين التلال
متعرج كالشعبان . ويمتد صوب الجنوب على مدى سبعة أو ثمانية
كيلو مترات وينتهي بعطفة مسدودة توجد فيها البئر في شق
بمظلل تحت الصخور . والعين على شكل نصف دائرة يبلغ طولها
١٢ مترا وعرضها ٦ أمتار . وهي كعيون العوينات على اني أظن
أنها فوق ما تتلقاه من مياه الأمطار يدها نبع خفي . والطريق
إليها صخرية لا تخلو من الخطر فقد عثر فيها أحد الجمال التي
أرسلناها في الليلة السالفة فثالة ضرر لا يستهان به .

وتسلقنا الصخور الى العين فاسترحنا وشربنا الشاي وعدنا
تحت شمس محرقة : والوادي بديع بجدرانها القائمة من الحجر



الطريق الصخری الوعر بعد بئر اردی

الاحمر والحشائش الخضراء والأشجار المنتشرة في سفحه .
وقال لى محمد أنه أوعر أودية هذه الجهات فدخله شاق
ولذلك كان الدفاع عنه سهلاً هيناً . وعند العصر تسلمت حائط
الوادي لأرقب الغروب الجميل وأرى لعب الأضواء على الرمل
الأحمر والصخور الوردية اللون .

وقص الرجال شعورهم وأصلحوا لحاسم واغتسلوا ورتقوا
ثيابهم التي كادت تبلى . وكانت المراعى كافية لجمالنا فرأينا من
الحكمة أن نستريح ذلك اليوم ونستعد للرحيل . وأخبرنى محمد
وهرى ان السفر بعد ذلك لا يحسن فى الليل لان اجتياز التلال
فى الظلام غير مأمون . وأثنى البدو على محمد لما رأوا أمس من
قيادته الجمال من قنة الصخور العالية الى الوادى .

واكثر الكلب من النباح فى المساء فظننا قرب أحد منا
وأطفأنا النار بعتة وجمعنا الجمال وأعددنا البنادق ونصبنا العسس
حول الخيام ولكن انذار الكلب كان كذبا . وقد تبدو هذه
الاستعدادات — التي يتخذ مثلها عند الاقتراب من بئر — سخيفة
بعد زوال الخطر ولكن القافلة التي لا تتخذ هذه التدابير فى أرض
مجهولة تكون قافلة خطلة الرأى فان مهاجمة البدو المعادين أو
اللصوص أمر فى حكم المحتمل .

الخميس ١٧ مايو :

صحونا الساعة الرابعة وسرنا في منتصف الساعة السادسة وكان خروجنا من الوادى أمر لا يقل صعوبة عن نزولنا اليه فقد سقط أحد الجمال ولم يصبه ضرر كبير لحسن الحظ . وقد أدت بصرى الى الوادى عند وصولنا الى نهايته فتحققت الفرق بين أودية هذه الجبال وأودية اركنو والعوينات فان أرض تلك الأودية على مستوى السهل الخارجى ويسهل على المسافر أن يدخل الوادى من مضيق يشبه ممرا ولكن أودية هذه الجهات منخفضة عن المستوى العام للأرض ولا ينزلها المسافر الا بالهبوط المتعرج فى طرق صخرية .

وقضينا ساعة فى الخروج من الوادى ثم سرنا صوب الجنوب الشرقى وكنا فى جهة جبلية تكثر فيها الصخور السوداء والحمراء فوضح لنا استحالة السير فى هذه الأرض فى الظلام .

وفى منتصف الساعة العاشرة نزلنا واديا ضيقا مخترقين طريقا سحيقا فوق جملان ورميا باحمالهما الى الأرض وكان أحدهما يحمل الماء فكفانا عبد الله انبثاق القرب بحضور ذهنه لانه أخرج سكينه بسرعة وقطع حزام قتب الجمل . وسقطت سداة أحد الفناطيس قسال من مائه مقدار ثلاثة الارباع ولكن البئر التالية كانت لحسن

الحظ على مسير ثلاثة أيام وكان معنا من الماء ما يكفيننا لأطول من ذلك شقة . وربما كانت هذه الحادثة كارثة عظيمة لنا اذا كنا في مرحلة طويلة المسافات بين الآبار .

وحدث لنا هذا الصباح حادث فجائي كاد يجرنا الى نتائج وخيمة لولا أمران ساعدنا فيهما الحظ فقد كان أحمد وهو ذلك الطاهي الذي جاء معي من مصر راكبا جملا بلا رسن وقد سأل حامدا جمال أبو حليقة أن يحضر له رسنا فأبطأ هذا اعتمادا منه على معرفته بالجمال واعتقادا بان الجمال كانت منهوكة القوى وانها كانت في حاجة شديدة الى الرعى وهي سائرة فرأى جمل أحمد بعض الحشائش وأسرع اليها ومرفى طريقه تحت شجرة تكثر فيها الاشواك . ولم يسمع أحمد أن يتفادى هذه الاشواك الحادة فخدش وجهه خدوشا كثيرة وآلمه الوخز فصب لعنته على الجمل وصاحب الجمال . فأجابه حامد في الحال بالمثل وطلب منه أن لا يعود الى لعن صاحب الجمال الشريف . وكنت قريبا منهما فلم يسعني الا الأعجاب بالجمال لوفائه لسيده أبو حليقة .

ونزل أحمد بسرعة البرق عن جملة ثم تقدم متهيجا الى حامد والدم يسيل من وجهه . واندفع السنوسى أبو حسن وحامد الآخر

وسعد الاوجلى فانضموا الى جانب أخيه البدوى ووقف عبد الله الى جانب احمد يعاضده .

ولم تكن هذه أولى المشاجرات التى رأيتها بين رجال الصحراء فدفعتنى خبرتى الى أن أتبين قبل كل شىء موضع البنادق لاطمئن من وجودها بعيدة عن ايدى الرجال وقد أراح بالى انى رأيتها مربوطة فى مواضعها الى ظهور الجمال . ولم يكن فى ايدى الرجال الا العصى يتضاربون بها . ومع ذلك فقد كانت الحاجة ماسة الى التداخل السريع قبل أن يتفاقم الخطب . فحثت جوادى بين الرجال ووقفت بين عصبتى المتخاصمين وأمرت عبد الله واحمد أن يرجعا القهقرى . وكانت ساعة عصيبة أحسست خطرها وأنا أقف بين رجالى ورجال القافلة .

والتفت الى السنوسى أبى حسن وحامد فلاحظت أنهما يصوبان نظراتهما الى موضع البنادق .

وكانت تكفى كلمة تشجيع واحدة منى لرجلى فيهلكا لأن البدو كانوا أكثر عددا ولكن الوقت لم يكن مناسباً من الوجهة الأخرى لأذلال رجلى امام البدو وان كانا مخطئين فالتفت الى الفريقين وقلت غير متحيز الى جانب : « ماذا تعنون بهذه الافعال الصبائية . ألا تنجلون من هذا العمل وأتم رجال »

فبدأ حامد الكلام وقال « انه أهاننى » . وقاطعه احمد فقال



امرأتان من قبيلة البديات

« انه البادىء بالتحدثى » . فاجبتهما بحدة « لا يعنينى من القاذف ومن المهين فأنتم جميعا رجالى ومن العار أن تتخلقوا باخلاق الاطفال » . وهنا تقدم السيد الزروالى فالتفت الى عبد الله ثم الى السنوسى . أبى حسن وقلت بشدة « وأنتما أيها الشيخان العاقلان تنضمان الى هذه المشاجرة المزرية بدل أن تسعيا في التوفيق بين المتخاصمين . وبعد فقد يكون الذنب ذنبى لاني اخترت لقافلتى أطفالا بدلا من الرجال .

وكانت ثورة الفريقين قد أخذت في الهدوء وضعفت تلك النظرات الحادة التي كانت تشعر بالتحفز للوثوب . ورأى الزروالى عدم تحيزى لرجلى وأحسبه كان يتوقع عكس ذلك فلم يجد ما يأخذه على وفعل ما لم اكن أنتظره منه فانه أمر فرجا العبد ان ألق حامدا أرضا حتى أضربه بسوطى فلم تمض غمضة عين حتى ألقى فرج حامدا على الأرض وركز عليه بزكبته . فصب السيد الزروالى سوظين على حامد قبل أن أتدخل في الأمر ولكنى ترجلت بسرعة وأمسكت مساعد الزروالى وقلت له « ان الأمر لا يحتاج الى انزال عقابك فانا لا ندرى من المعلوم وسأفحص الأمر وأعاقب بنفسى . من تظهر إدانته . . ثم التفت الى الرجال وأمرتهم أن يتبعوا الجمال .

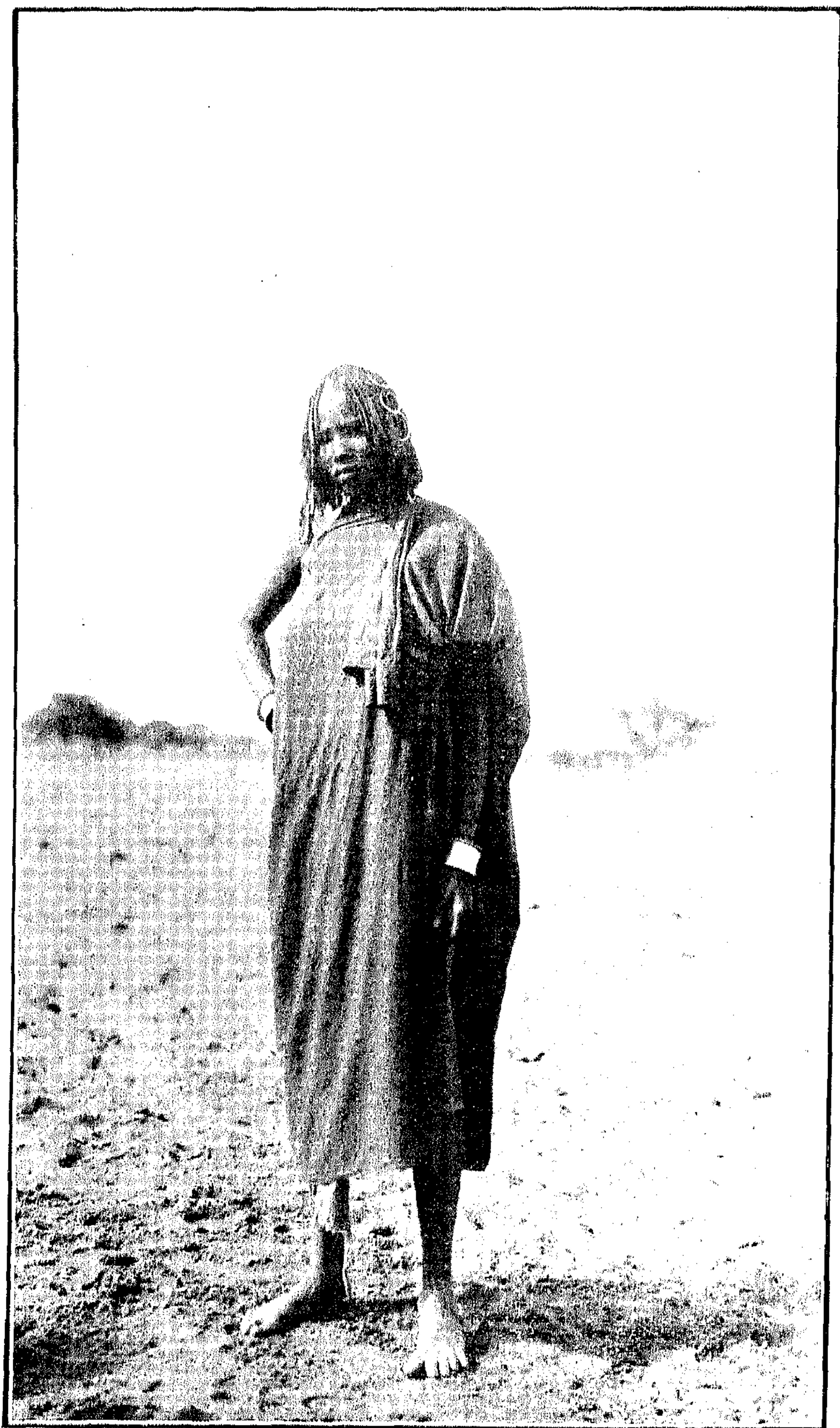
وأشرت بعصاي الى محمد وهري وكانا بمنجاة من التداخل في هذه
المشاحنة وأمرتهما أن يهديانا السبيل .

وانتهى كل شيء وسرت وحيدا محاولا أن استبقى لمصلحة
الجميع إعرابي عن عدم الرضا بما حدث .

واقترب مني السيد الزروالي ثم سألني وفي صوته رنة أسف
« أظن ان غضب البك مما حدث قد انصرف ويعلم الله اني منذ
استيقظت هذا الصباح وأنا أحس شيئا يضايق أنفاسي فتوقعت
حدوث أمر كرهه وقد رأيت ذلك الاحساس في نفسك عند ما رددت
على تحية الصباح »

وذكرت أنا الآخر اني كنت أشعر باحساس غريب لا باعث
له لان كل شيء كان على ما يرام .

ولم يمض زمن طويل حتى شعر الفريقان بما يشعر به الاطفال
الاشقياء بعد لوم لأنهم . ولاحظت أن الرجال تخلص النظرات الى ليروا
ان كانت ثائرة غضبي قد قررت ولكنني ظلمت عابسا حتى ساعة الغداء . ولا
يخفى على من اجتاز الصحراء تلك النتيجة السيئة التي تسببها مثل هذه
الحوادث فان لفظا قاسيا يشتم منه رائحة الأهانة يكفي لتبادل الطلقات
ان كانت البنادق في متناول الايدي واكبر ظني أنها لو كانت في أيدي
الرجال وكنت على بعد قليل منهم كما هي الحال في أغلب الاحيان لسالت



حسنة من قبيلة زغاوة

الدماء وخرج الامر من يدي وقضى البدو على احمد وعبد الله وفي هذه الحال أسائل نفسي ماذا عسى يكون تصرفي وأنا المصري الا أن أثار لنفسي من قاتلي مواطني مهما كلفني ذلك من النتائج الخطرة. ولكنني حمدت الله على ان البنادق كانت مربوطة الى ظهور الإبل واني كنت على مقربة من المتشاحنين .

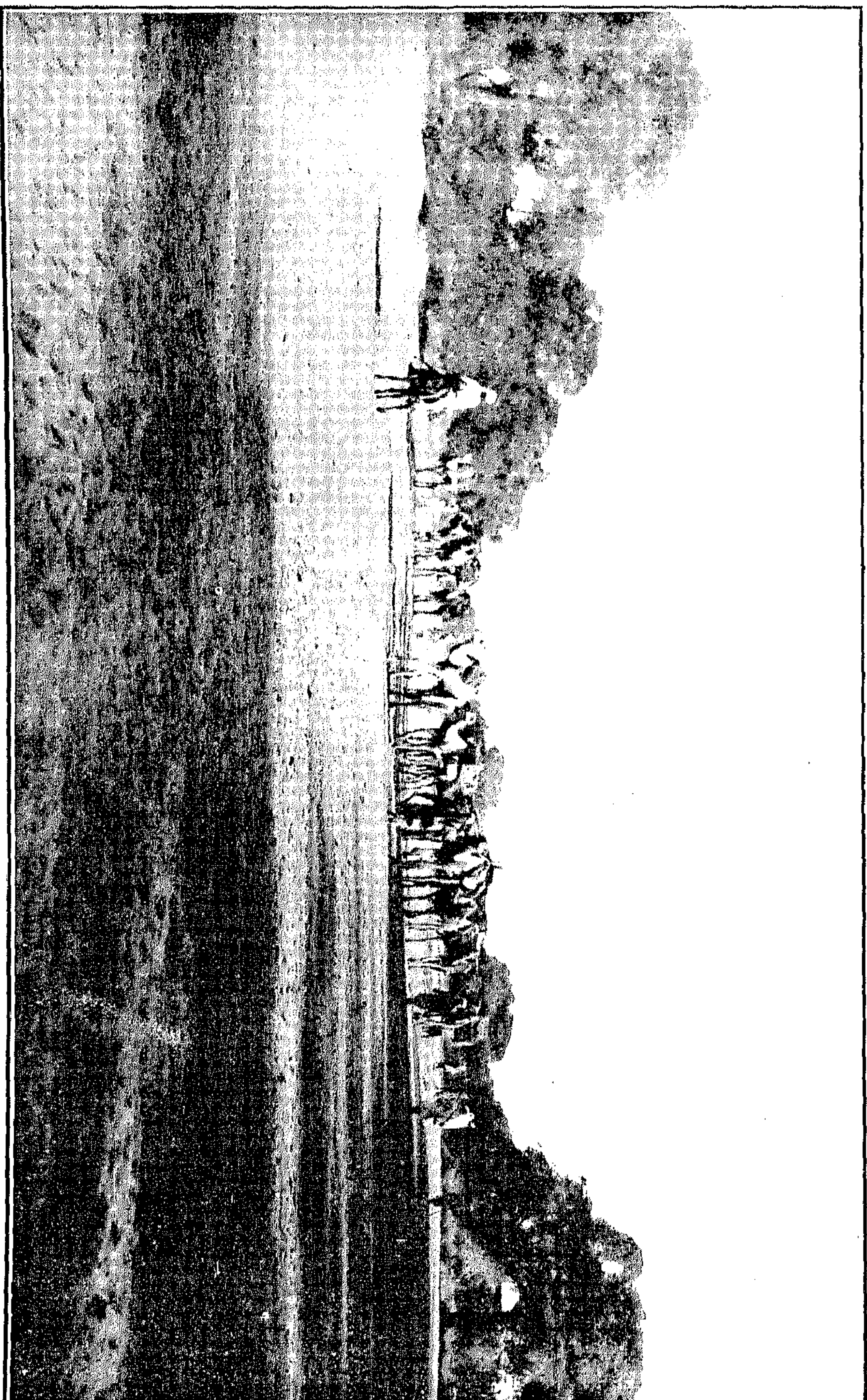
ولم يفت السيد الزروالى أن يهون الأمر على فقال « انا تقرب من نهاية الرحلة والرجال عادة في هذا الموقف ميالون الى الشجار » ولم تكذ تنهى هذه الحادثة الخطرة حتى اشتدت حرارة الشمس فخططنا الرحال في الوادي في ظل بعض الاشجار اليازمة . ورعت الجمال بينما كنا نأكل ونستريح . وجاءني بعد الظهر قبل البدء في السير محمد والسنومي أبو حسن وبوكاره وحامد الجمال يسألونني أن أسامح حامدا على مهاجمته احمد مدفوعا بغضبه . وسامحت حامدا على الفور فتقدم الى احمد وقبل رأسه وجاوبه احمد بالمثل فانهت تلك المشاجرة كما تنهى مشاجرات البدو على أصفى ما يكون .

وانحدرنا الى الوادي الكبير في ثلاث ساعات ثم ضربنا الخيام عند مدخله في الساعة السابعة وربع ورأينا قدامنا قبل حط الرحال جبال « اجاه » البعيدة حيث توجد البئر التالية . وكانت الارض أمامنا منبسطة فبعثت الراحة في نفوسنا فقد خيل لنا في

الصباح عند انحدارنا الى الوادى ان حوائجنا لا بد محطمة اذا كثرت.
تلك المنحدرات السحيقة . وكانت المنحدرات فى بعض الاماكن
من الوعورة بحيث اضطررنا الى رفع الاثقال عن ظهور الابل خوفا
عليها من التحطيم . وكان على الرجال أن ينزلوا بالحوائج فوق الصخور
المنحدرة التى يرتفع بعضها عن بعض فى كثير من المواضع نحو
ثلاثة أقدام .

وطلع الهلال ونحن نصب الخيام وكان عيد الفطر فى الغد .
وجاءنى السيد الزروالى يبلغنى رغبة الرجال فى الاحتفال بالعيد جريا
على العوائد الاسلامية فرضيت كل الرضا لان جبال «أجاء» كانت
على مرأى منا وكان زادنا من الماء كافيا . وكانت مراعى الوادى
كثيرة الحشائش المغذية للجمال .

وصحبونا مبكرين فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة ١٨ مايو فلبسنا
الثياب النظيفة احتفالا بالعيد وتبادلنا التهاني ثم أدينا صلاة العيد.
وكان فى نظرات رجالى ما ينم عن التفكير فى الاهل والاخوان
البعيدىن فى نائى الاوطان وأخرجت قطعا من الريالات المجيدية
وأوراق مالية مصرية فوزعتها على الرجال وكانت النقود من نصيب
محمد وهري وحسن وارى لانهم كانوا سيتركونا قبل أن نصل
أرضا يتعامل فيها الناس بالاوراق المالية المصرية . وأخذ بقية الرجال



الرحالة وقافلته داخل الحدود السودانية قاصدين الفاشر

الاوراق المالية ففى استطاعتهم صرفها فى الفاشر . وأعطيت الزروالى
عشرين طلقة من طلقات المسدس وقنينة روائح عطرية ووزعت
زجاجة أخرى على الرجال . وأعطيت بوكاره غليوننا وطباقا فأظهر لى
عجزه عن ايفائى الشكر على ما تفضلت به عليه وقال « ليس لى الا
جلى والملابس التى ارتديها وقد أعطانى البك قيمة جلى طباقا »

وكانت القافلة مريحة فى الصباح وكان الرجال مسرورين من
هداياى فسرني رضاهم . وغفونا بعد الفطور ولكننا استيقظنا بسرعة
نظرا لفتك النمل الابيض بأجسامنا وبدأنا السير فى الساعة السادسة
الا ربعا وخرجنا من الوادى الى السريرة بعد ذلك بنصف ساعة .
وكان يمتد أمامنا سلسلة تلال تجرى شرقا وغربا وكان فى وسطها
جبل « اسلنجاه » وعن يمينها جبل « أجاه » الذى كنا تقصده .
وأخبرنا هرى بوجود بثر صعبة المرتقى فى جبل « اسلنجاه » . وكان
الوادى الذى نصبنا فيه الخيام مميزا بوجود اشجار على الجانب الايمن
من مدخله . وكان يوما شديدا الحرفسونا مبطينين مدة ست ساعات
ثم وصلنا منطقة من اكوام الرمل اوقفت سيرنا فى اليل .

السبت فى ١٩ مايو :

قنا الساعة الخامسة وربع صباحا وحططنا الرخال فى الساعة
الثامنة مساء وهبت من التلال المجاورة ريح ساخنة من الشمال

الشرقي قرت عند المساء . وكان سيرنا فوق أرض ناعمة الرمل كثيرة التموج مغطاة بالحشائش الجافة . وانبسّطت الأرض أكثر من ذي قبل عند اقترابنا من التلال وكثرت فيها اكدام الحجارة السوداء الصغيرة . واشتدت حرارة الشمس بسرعة في الصباح وهبت ريح ساخنة فضربنا الخيام في منتصف الساعة العاشرة في ظل شجرة (طنظم) فحمتنا فتك الهجير . وأنست أنظارنا الى عناقيد ثمرها الاحمر . وسرنا ثانية في منتصف الساعة الرابعة بالرغم من اشتداد الحر آملين أن نصل جبال « أجاه » قبل انتشار الظلام . واضطرونا الى ضرب الجمال لانزالها على الخروج من ظل الشجر والسير بها في الهجير . ولم يحن منتصف الساعة الثامنة حتى كنا عند سفح التلال والهلال يبدو حاجبه .

وأرسل محمد بغثة صوته منذرا ومحدرا لانه رأى آثارا حديثة لرجلين يسيران صوب (مردى) وكان له الحق في ذلك لان وجود غريب عن القافلة في الصحراء أمر يستلزم اليقظة حتى يتبين الأمان منه . وسرعان ما انتزعت البنادق من أماكنها ووضع الرصاص فيها . وجمع الرجال ما تفرق من الجمال التي ترعى وتقدم محمد وهري والسنوسي أبو حسن الى الوادي يتفحصون الامر . وبعد البحث الدقيق عادوا فأخبرونا أنهم لم يجدوا أثرا للداخل الى

الوادي وانما وجدوا آثارا حديثة لخارج منه فضربنا الخيام عند مدخل الوادي في نجوة من الاشجار والنباتات حتى لا تقوتنا رؤية من يقترب منا في الليل .

وتعشنا مسرعين ثم أطفأنا النار ووضعت الجمال والقرب في وسط مضرب الخيام وصفت الجوائج حوله . ووقف أربعة من حراس الليل ثم اتقلبنا الى فراشنا . وتعذر علينا النوم لشدة الحر وانشغال البال .

وصحونا مبكرين في صباح الأحد وتقدمنا الى الوادي محترسين فعثرنا بآثار حديثة لرجال وقطعان ووضع لنا نزول أحد قبلنا في الوادي . وسبقنا محمد وهري لان سكان تلك النواحي كانوا من الجزعان فقابلتهم ثم تبادلنا عبارات الأمان . وتقدم كل منا الى الآخر بعد أن القينا على الأرض ما كنا نحمله من سيوف وبنادق وخاطبتهم بهذه الجملة التي يوثق بقائلها « أقسم بالله انا مسالمون وانا لا نريد بكم ضرا وانا لا تقصد سبي نسائكم وأولادكم » وأجابني أحدهم بمثل ما قلت . ثم أخذنا في تبادل الاسئلة والاجوبة القصيرة من مثل « من أنتم » « من أين قدمتم » « أين تذهبون وأى غرض تقصدون » ثم شددنا على الأيدي وحمل كل منا سلاحه وارتد الى موضعه . وحاولنا أن نشترى منهم غنما فأبوا أن يبيعونا شيئا .

وتركونا بعد قليل ثم عادوا بثلاث نعاج وقدموها لنا بمشابة ضيافة
وامتنعوا عن قبول أثمانها فأعطيتهم « عتقية » من القماش الأزرق
ففرحوا به كثيرا .

وأرسلت الجمال لتشرب من البئر وتحمل الماء للقافلة بينما كان
الرجال يستعدون لتجهيز الوليمة العظيمة . واشتغلت بعد الظهر باخذ
بعض الصور وقت في المساء بعمل بعض الملاحظات بآلة التيودوليت .
وقد فزع أطفال الجرعان من رؤية مصباحي الكهربائي الذي
استعمله في قراءة التيودوليت ثم شاقهم بعد ذلك .

ووادى « أجاه » بديع المناظر . وهو طريق طويل ضيق بين
الصخور العالية يحوى من الاشجار والنباتات اكثر مما رأينا فيه
من بعيد وقرب منتصفه يتفرع الى طريقين يؤدي أحدهما الى البئر
والآخر الى الصحراء الممتدة

وبئر « أجاه » مشابهة لبئر اردى ولكن ماءها مضطرب من
فعل الغنم والجمال . والطيور كثيرة في هذا الوادى تذكر أغانيها
الشجية بمختلف الاصوات الجميلة التى تنبعث من أقفاص الطيور
في خدائق الحيوانات .

وصحونا والظلام شامل والنجوم ساطعة في سماء صافية وجاءنا
الجرعان يودعوننا . وأبى أرامى وحسن أن يستمرا فى السير معنا



صبيّة من قبيلة البديّات واختها

الى الجنوب أكثر من ذلك وتركنا يقصدان العوينات على جبل
ارامى وانحدرنا الى مستدق الوادى تحمينا جوانبه حرارة الشمس .
وأبصرنا ثلاثة غزلان فى طريقنا فانطلق الرجال لصيدها ولكنها
قفزت فوق التلال هاربة . وصوب حامد الزوى بندقيته الى احدها
فاخطأها وسخر منه أصحابه شامتين ولكنه أبى أن يقر بنحيته
فاقسم بعظمة قائلا « والله لقد أصبتها ورأيت الدم يسيل منها »
ولم اهتم بالأمر كثيرا لوجود فضل من اللحم الذى أهداه الينا الجرعان
واشتد الحر بعد ذلك فضايقنا وأبت الجمال أن تسير ولم يمر
على سقيها وقت طويل . فخططنا الرحال فى ظل شجرة ولم يغتنا ظلها
فأينا الأفضل أن نستظل بشقوق الصخور . وانطلقت الإبل ترى
وأخذ الرجال فى إعداد الغداء وذبحت النعاج وانتظم لحمها فى عصي
ثم أذير يبطء فوق النار كمادة البدو فى شئ اللحوم وكان طعمه لذيذا
و بينما كان الرجال يعدون الطعام جرح سعد يده ورأيت الدم
فسألت من أين أصابه ذلك فأجابنى بوكارة « من رشاش دم الغزالة التى
أصابها حامد » وضحك الرجال ملء أفواههم مرة أخرى
وملأت ساعاتى بعد الغداء واثبت ما قيد البارومتر والترمومترات
ذات الدرجة القصوى والنهاية الصغرى وكتبت يومياتى . وجاءنى
حامد الجمال يعدو ليخبرنى بوجود قطع من النعام على مقربة منا .

فقبض كل بندقيته وقام مستعدا للصيد. وبعد ذلك بقليل ظهر قطيع من النعام يبلغ الاربعين عدداً وتهيجت الرجال فلم يمالكوا الا انتظار حتى يقرب القطيع واطلقت النار على مسافة بعيدة فاندفع النعام في واد آخر وتعقبها الرجال مسرعين وأرسلت طلقات عديدة ولكن الزروالى عاد وشيكا واخبرنى ان الرجال لم تصد شيئاً .

وبعد قليل جاء حامد يحمل نعامة صغيرة وتبعه السنومى ابو حسن وادعى كل منهما انه صاد النعامة وسألتنى حكى لوجود جرحين فى جسمها يحتمل ان يكون كل منهما قاتلا . وسألت رأى من حضر الصيد من الرجال فاتفقوا جميعا ان صائد النعامة حامد فحكمت فى مصلحته .

وقام حامد الجمال بعد ذلك بعمل ظريف شديد الغرابة. وحامد هذا ضئيل الجسم حاد التقاطيع لا يخاف الحيوانات ولا يخشى الثعابين. حدث له ان عثر بنعامة فى ناحية مسدودة من الوادى فقدفها بالحجارة حتى اذا لم ينل منها شيئا هجم عليها ولف يده حول عنقها وصارعها صراع الابطال ولكنها رفته برجلها القوية رفسة شديدة فى جنبه وانطلقت تعدو . وقد رأيت هذه المجادلة بمنظارى فكنت استلقى على ظهري ضحكا . وتسلمت النعامة مرتقعا من الارض ثم أدارت بصرها بازدراء الى حامد الذى كان واقفا يلعبها وبعد ذلك أصلحت.

ريشها وانطلقت نخورة بانتصارها وهي فرحة بنجاتها تاركة حامدا ضاعطا يده على جنبه المروض .

وحاد حامد فسأله « هل آذتك النعامة » فاجابني وقد رفع يده عن جنبه بسرعة « لا » . وسأله ثانية « ولماذا لم تأت بها » . فقال معتذرا : « رأيت من واجبي أن أطلقها لأنها كانت أنثى » . وكان مما أسفت له في هذه المرحلة اني لم اتمكن من متابعة الصيد كما كنت أود فان السير ليلا بين العوينات واردى لم يبق لي في الصباح من النشاط الا بقدر ما مكنتني من تقييد ملاحظاتي العلمية وانتهاز الفرص للاغفاء ساعتين أو ثلاث قبل اشتداد الحر . وبدأ زادنا في النقصان فلم يسعني أن أقيم في « أجاه » حيث تكثر الغزلان والنعام والنعاج البرية . وزادني رغبة في الرحيل قلة الماء بعد أن رأيت كدورة ماء البثر من أثر الحيوانات ولم يكن معي الا بندقية مصرية عتيقة من طراز « مارتيني » وأخرى من بنادق الفرسان الايطالية اهديت الى الكفرة وهاتان وان كانتا صالحتين في الدفاع عن النفس الا انها كانتا قليلتي الفائدة في الصيد على الرمي البعيد ولذلك حرمت نفسي لذة الصيد .

وكان الجو شديد الحر فلم نبدأ السير الا الساعة الخامسة مساء . فسرنا في الوادي الجميل مدة ساعة ثم اخذنا نتسلق التلال حتى

إذا وصلنا قممها رأينا منظرا بديعا امتزجت فيه ظلال الاشجار
والادغال بلون الرمال الوردى وحمرة صخور التلال التي تكتنف
الوادي .

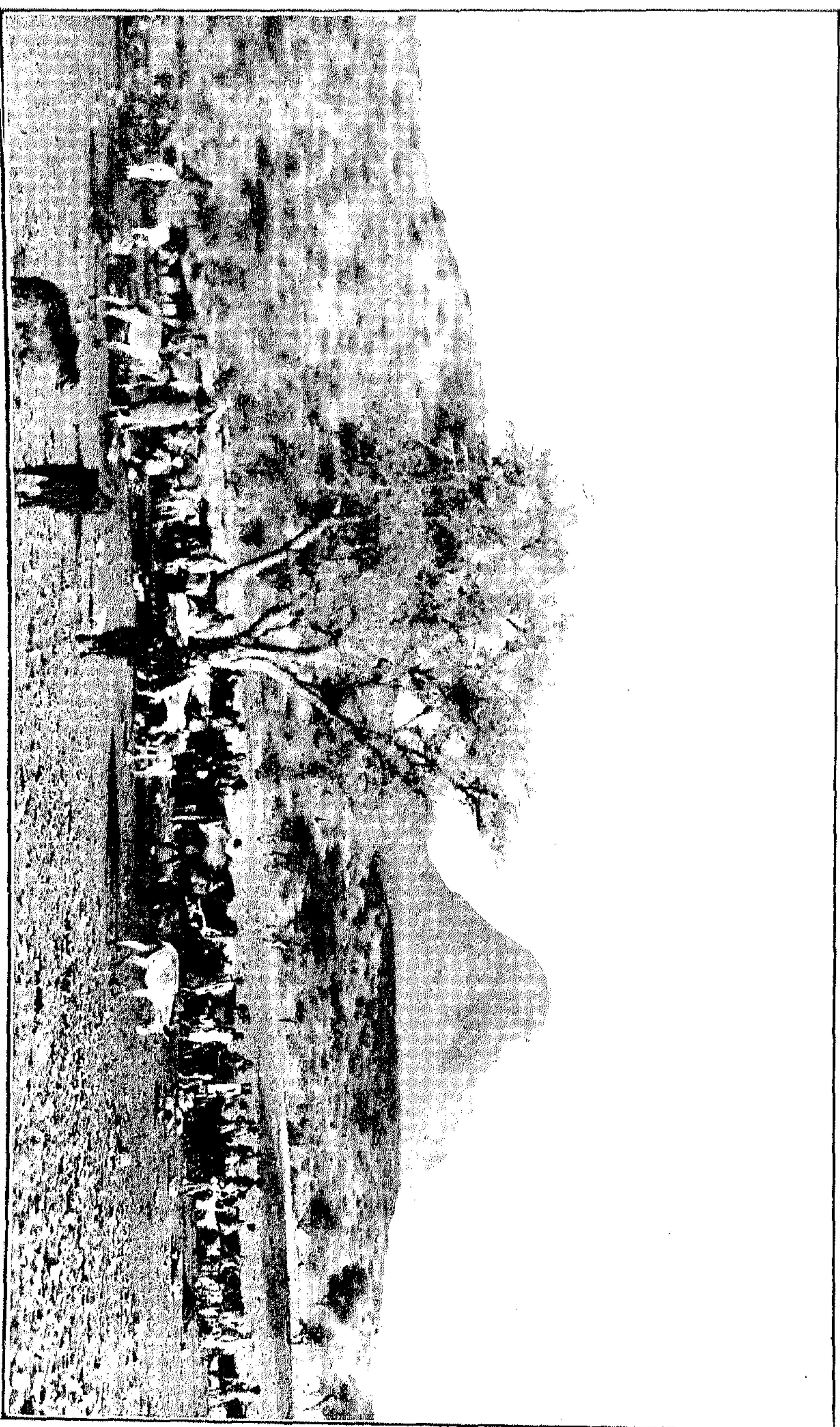
وكان نسيم المساء البليل يحمل على اجنحته انغاما عذابا تنبعث
من اسراب اليام . وزاد هذا المنظر بهاء وانطبعا في الذاكرة غروب
بديع امتزجت فيه الحمرة بلون الذهب فوقفت جوادي وترجلت ثم
انطرحت على قطعة من الرمل الناعم وقضيت نصف ساعة اشرب
جمال ذلك المنظر الفردوسي .

وشمل الكون الظلام وطلع الهلال وسمعت على البعد بدو
القافلة يتغنون فعدت الى نفسي وقت الحق بالقافلة وفي نفسي الميل
الى البقاء .

واختلفت مناظر الارض فاصبحت متموجة كثيرة الشقوق
يحيط بها جبال شعشاء بعيدة

وكانت الرجال والجمال تشكو اثر ماء « اجاه » المكدر .
وحططنا الرحال مبكرين لهذا السبب ولخطورة المسير في نور الهلال
الضئيل . وتزلنا واديا ناعم الرمل يبعد عن سبيلنا زهاء مائتي متر
وضربنا الخيام .

وصحونا ولم تزل النجوم ساطعة في السماء يوم الثلاثاء ٢٣ مايو



بئر قروب النفاشر

فبدأنا السير بينا يوشع جانب الأفق عن يسارنا شروق بهي
الالوان . وكان سيرنا بطيئا لان الارض كانت مغطاة بالعوسج ونثار
الحجارة ولأن محمدا وهريا لم يطأ هذه النواحي عشر سنين فكانا
شديدي الاحتراس في سيرهما . وبينما نسير التفت الى حامد الجمال
وأنا أمشي في مؤخرة القافلة كعادتي للتحقق من اتجاه المسير وتدوين
مذكراتي ثم سألته « أظن أن محمدا الدليل على ظهر جملة والا ما سرنا
بهذا البطء » فأجابني ذلك الذكي بسرعة قائلا « ان الشيخ سائر على
قدميه يا سيدى البك فاني أرى أثره فوق الارض »
وأدهشتني ملاحظة البدو الدقيقة وأخصهم الجمالون فان حامدا
ميز آثار أقدام رجال القافلة ولا عجب اذا تعرف مواطىء جمالها
كذلك .

وصبحونا في بكرة يوم الاربعاء وبنا شوق شديد الى وصول بئر
«عنيباه» فان ماء «أجاه» كان أردأ ماء شربناه في هذه الرحلة وقد بان
تأثيره السيء في الرجال والجمال . ولم تمض بنا ثلاث ساعات حتى
كنا على حافة الوادى التى تقع فيه البئر ونزلناه فاستدللنا على وجود
سكان فيه من آثار الناس والغنم والحمير . وتقدمنا محمد لمقابلة ساكنيه
وتبادل عبارات الأمان معهم ثم حططنا الرجال على مقربة من
البئر وكان ماؤها عذبا نعمت به الرجال والدواب وذاقوا لذة التغير .

وكان في الوادي مضرب خيام كبير لرجال « البديات » يحوى
مئات الغنم وبعض جياذ أشياخهم .

ولم يمض على إقامتنا قليل حتى جاءنا سكان الوادي يحيوننا وعلى
رأسهم الشيوخ وشدت على أيديهم جميعا ثم قطرت الروائح الزكية
في راحة كل منهم وأرسلوا إلينا بعد الظهر بعض الغنم ضيافة منهم
وعرض علينا نساؤهم وكلهن محبات للمتاجرة سمنا وجلودا نشترها
فاستبدلناهم بها تقودا من المجيدى وقاشا

وقمت بعمل بعض الملاحظات في المساء

وفزع رجال « البديات » من رؤية التيودوليت والمصباح
الكهربائي وثارت ظنونهم . ودخل أحد الاشياخ على في خيمتى
ففاجأني وأنا أفتح صندوق أجهزتي العلمية فاقفلت الصندوق مسرعا
ورأيت بعد قليل انى لم اكن مصيبا في ذلك فقد لاحظت في وجهه
المغبر الجاف وعينه المصفرتين المتقاربتين كعيني الثعلب انه اعتقد
بوجود ذهب في صندوقى .

وبينما كان يترك خيمتى أمرت السنوسى ابا حسن وحامدا
على مسمع منه ان يستعدا لحراسة الخيام وأشرت اليهما وقلت للشيخ أن

ينبه على النساء والأطفال بعدم الاقتراب من الخيام في الليل تفاديا
من أن ينكرهم الرجال فيطلقون النار عليهم . وكان على هذا إشارة
الى أنا يقظون وان لا أمل في انتهاز غفلة منا ولم تضع هذه الإشارة
عبثا .

الفصل التاسع عشر

الى فراوة على فلانة

كان وادى « عنيباه » مغطى بالرمل الناعم مرقطا بالاشجار
والعواسج بين ناضر وجاف وكنت قد نمت نوما هادئا وصحوت
على أصوات نساء « البديات » يطلبن من رجال القافلة علبا خالية
واستبدلونا بما اخذوا لبنا وشجيرات جافة يسمونها طباقا . واهديت
الينا خمس نعاج بصفة ضيافة ووزعنا بعض الهدايا . وبدأنا السير فى
الساعة الثالثة وربع فى ريح باردة تهب من الجنوب الشرقى ولكن
هذه الريح قرت واشتد الحر فبطؤ السير وكان المساء أشد برودة
فاستعضنا ما ضاع من الوقت وكان الليل قارسا . وصحونا يوم الجمعة
٢٥ مايو الساعة الرابعة وسرنا بعد ذلك بساعة وربع . وكانت الارض
كثيرة التموج والشقوق ولم يكن هرى واثقا من السبيل فسرنا فى
بطء لوعورة الطريق وحيرة الدليل فى تعرفها . وبعد الساعة التاسعة
نزلنا واديا وضربنا الخيام بعد ذلك بسرعة . وكان السنوسى أبو
حسن يمشى الى جانبى فاعرب لى عن رأيه فى الدليل الجرمانى



امراة من قبيلة فور

وبدا في كلامه زهو العرب بانفسهم فقال « ان هؤلاء الجرعات
يترنحون في سيرهم كالجمال أما البدو فيطيطون الى اغراضهم كالطيور »
وكانت الشمس شديدة الحرارة عند استئنافنا المسير بعد الظهر.
فسارت الجمال ببطء وكان غناء الرجال متقطعا واكبر ظني ان سير
القافلة كان بطيئا لان هري كان أشد حيرة عن ذي قبل. وقد تعقبنا
أثر قطع من الغنم تقدمنا الى (باو) ولكن ذلك الاثر كان ينقطع
بنا في جهات متعددة لوجود الصخور المهشمة في الطريق .

وبعد الساعة الخامسة بقليل نزلنا واديا كبيرا عرفنا بعد ذلك
ان اسمه (كوني مينا) وكان ذلك الوادي يمتد شرقا وغربا وهو ملائ
بالاشجار البديعة . وقبل أن نصل اليه بقليل قابلنا أحدا الجرعات ومعه
بعض الغنم فتقدم الى وقد التقى سيفه وحرابه على الارض وخلع نعليه
فتبادلنا الشد على الايدي والتخيات ولم تزد عن الجملتين « كيف
حالك » و « طيبين » وهما كل ما يعرفه من اللغة العربية

وحادثه بعد ذلك محمد وهري فعرفا منه أن بعض الجرعات
ضاربون الخيام في الوادي الذي أمامنا .

ولقينا في نفس الوقت تاجر غنم حضر من (فدا) بوادى
بئنه وبقره في طريقه الى الفاشر . وتركنا محمدا وهريا وتقدمنا الى

اكواخ القش التى يتكون منها مضرب خيام الجرعان . وقطعنا
الوادى ثم حططنا الرحال فى طرفه الاقصى
وجرى خلفنا أحد الجرعان ثم سألنا أن نعود الى خيامهم فنمضى
الليلة ونسير فى الغد فقد رت عاطفة كرمه ولكنى رأيت انا عاجزون
عن تعقب آثارنا القهقرى ولو لمسافة كيلومترين أو ثلاث كيلو
مترات فشكرته على دعوته وأخبرته انا متعجلون .

وحططنا الرحال فننظر رجوع الدليلين وبعد ساعة عاد محمد
يحمل أخبارا كثيرة عن (فدا) والفاشر استقاها من ذلك التاجر
وشغلنا تلك الليلة بفحص أمتعتنا واصلاح ما فسد منها وكانت
الحبال قد أخذت تبلى ورثت اكياس البدو الصوفية . وأضعنا
وقتا طويلا فى الطريق فى إعادة التحميل ونقل الحوائج من مكان
الى آخر ولكننا كنا نتعزى بأمل الوصول الى الفاشر بعد أسبوعين
ورأيت فى صباح ٢٠ مايو أبداع مشارق الشمس التى شاهدتها فى
حياتى فان انعكاس ضوء الشمس الساطع على الصخور المجاورة بين
حمراء وسوداء وعلى التلال البعيدة جعل كل شىء واضحا جليا . ثم
احمرت صبغة الشروق وتسالت أشعة الشمس النهمية بين ثنايا
السحب الرقيقة وغمرت كل شىء . وكان انعكاس الظلال المستطيلة
للصخور والعواصج المتناثرة فوق الارض يوشع صفحة الرمال

الصفراء . وكانت ظلال القافلة الوانية في سيرها ترسم على أديم الصحراء أشكالا غريبة . ولكن هذه المناظر البديعة تبعها ضحى ساكن النسيم راكده .

ولحقنا هري قبل حلول الظهر ومعه شاة مذبوحة تدلت أطرافها على جملة وكانت ضيافة الجرعان الذين مررنا بهم . وتتبعنا آثار الغنم والجمال وانحدرنا من واد الى واد ثم ضربنا الخيام في واد كبير تكثر فيه الاشجار الظليلة . وكان يحيرنا على الدوام التفضيل بين الاقامة في ظل شجرة تتعرض تحتها لفتك النمل الأبيض ومساثر الحشرات وبين ضرب الخيام تحت الشمس المحرقة ولكنى صممت أن أوتر العراء في مقبل أيامي لان الحشرات لا تبرح المقيم في ظل الاشجار حتى تفر حرارة الشمس حوالى الساعة الخامسة أو الساعة السادسة بعد الظهر . وكان الوادى الذى نزلناه يسمى وادى (كاب تركو) واستأنفنا السير فى الساعة الرابعة وكان يهب علينا نسيم بليل من الجنوب الشرقى يخفف عنا وعشاء المسير . وكان فى السماء سحب قليل يكسر من حدة حرارة الشمس فسارت الجمال سيرا حثيثا . ومررنا قبل الغروب بأسرة من الجرعان مكونة من رجل وامرأة وولد عارى الجسد . ووجدنا بعد ذلك بئرا يبلغ عمقها سبعة أمتار

وتحوى ماء سائغا وان غيرت طعمه جذور شجرة قريبة نفذت الى
قرار البئر.

وحططنا الرحال الساعة الثامنة فى أرض عراء خالية من
العواصج والحجارة . وسطا علينا فى الواحدة بعد منتصف الليل
صتبع ولولا يقظة حامد الجمال لاغتال جوادى (بركة) لانه كان
مربوطا الى وتد لا يمكنه الدفاع عن نفسه . وقد أطلق حامد النار
من بعيد على هذا الضبع فاخطأه ورأيت بمنظارى شبعا قائم اللون
يجرى بعيدا فى ضوء القمر الساطع .

الأحد ٢٧ مايو :

قنا الساعة الخامسة وربعا صباحا ووقفنا الساعة التاسعة وربعا
صباحا ثم استأنفنا السير الساعة الرابعة الا ربعا وحططنا الرحال
الساعة الثامنة الا ربعا مساء فقطعنا ٣٠ كيلومترا . أعلى درجة لحرارة
٣٨ وأقلها ٧ درجات . وكان الجو صحوا هادئا فى الصباح وثار
عند الظهر ريح ساخنة من الجنوب الشرقى وقرت بعد الظهر وكان
فى السماء سحاب صبير . وكان المساء دافئا هادئا وفى الساعة العاشرة
تراكت السحب وأمطرت السماء رذاذا ومررنا بأودية ناعمة الرمل
تكثر فيها تلال الخراسان التى يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ مترا و ٨٠
مترا وكانت الأرض الرملية كثيرة الحجارة المتناثرة من الخراسان .



سوق بقرية ام برو

ولم يكن هري الدليل عند حسن ظننا به فقد تنبأ لنا بالوصول الى (باو) في الصباح ولكن الليل أرخى سدوله ولم نكن وصلناها بعد . وكان يعرف المواضع اذا رآها ولكنه كان يخطئ في معرفة الجهات الاصلية . وتقد منا الماء الاقربة واحدة وكان مأوها ساخنا جدا . وظللنا نسير حتى الساعة الثامنة الا ربعا فهبطنا أرضا صخرية لا تسلم فيها الجمال من الخطر حتى في ضوء القمر الزاهي . ووصلنا شفا واد كبير قال هري إنه وادي (باو) ولكننا لم نصدق . وقد دلتني التجارب أن لا أفرط في البقية الباقية من الماء الذي نحمله حتى نصل الى البئر التالية وأتحقق صلاحية ماءها للشرب فأمرت بعدم مس القربة الأخيرة تلك الليلة ونمنا بغير عشاء لان الماء لازم للطهي وكانت ليلة بدیعة تعزيت فيها بملاحظة ضوء القمر يداعب قطع السحاب واندرتنا قطرات قليلة من المطر باقتراب موسم الامطار في تلك الاقاليم ..

وصحونا مبكرين لان فراغ المعدة لا يدع للنوم الطويل مبيلا وحثنا الجمال للسير بدرجة لم يسبق لنا استعمالها وما كان أشدها تعباً وأضعفها . وانما تظهر عيوب القافلة اذا كان رجالها وجمالها جياعا عطاشا .

وخفت صوت الغناء ذلك الصباح فلم يصدع شمل السكون

. الا تمتمة الرجال تستجث الجمال للسير وكان الهبوط الى الوادى
 خطرا لشدة انحداره . وقذفت ثلاثة جمال باثقالها فحملها الرجال
 الى الوادى ثم أعادوها الى أما كنها فوق ظهور الإبل
 وأخيرا رأينا كوخا أو كوخين من القش وعددا قليلا من
 الأغنام . فوقفت وسمحت للرجال أن تشرب ماء القرية الأخيرة
 التى أطالوا طلب ما فيها ذلك الصباح . وتقدم محمد وهري وقصدا
 الاكواخ وانحدرت القافلة الى الوادى قاصدة البئر . وجاء لزيارتنا
 بعد قليل بعض عبيد الجرعان والبديات فاطلقنا النار فى الهواء كأننا
 نحبيهم ونحن نريد فى الحقيقة أن نظهر لهم استعدادنا لملاقاة
 الطوارىء . ولاحظت ان اتفاقا غريبا قضى أن يكون جميع من
 زارنا من الرجال والنساء طاعنين فى السن فانه لم يكن بينهم شاب
 أو فتاة ولم أدهش كثيرا لذلك ولكنى عجبت بعد ذلك بقليل لرؤية
 جماعات من العذارى الهيف الحسان بين سمراء وسوداء نصف
 عاريات فى ثيابهن المهلهلة ممشوقات القدود . وبينما يتقدمن اليانا
 ثلاث ورباع التفت الى حامد وسألته من أين أولئك البنات فنظر
 بوكاره اليهن معجبا ثم قال « الله أكبر هذه بنات القرية لقد ظن
 القوم انا سنهب القرية ونسبى عذارها فأبعدوهن يختبئن حين

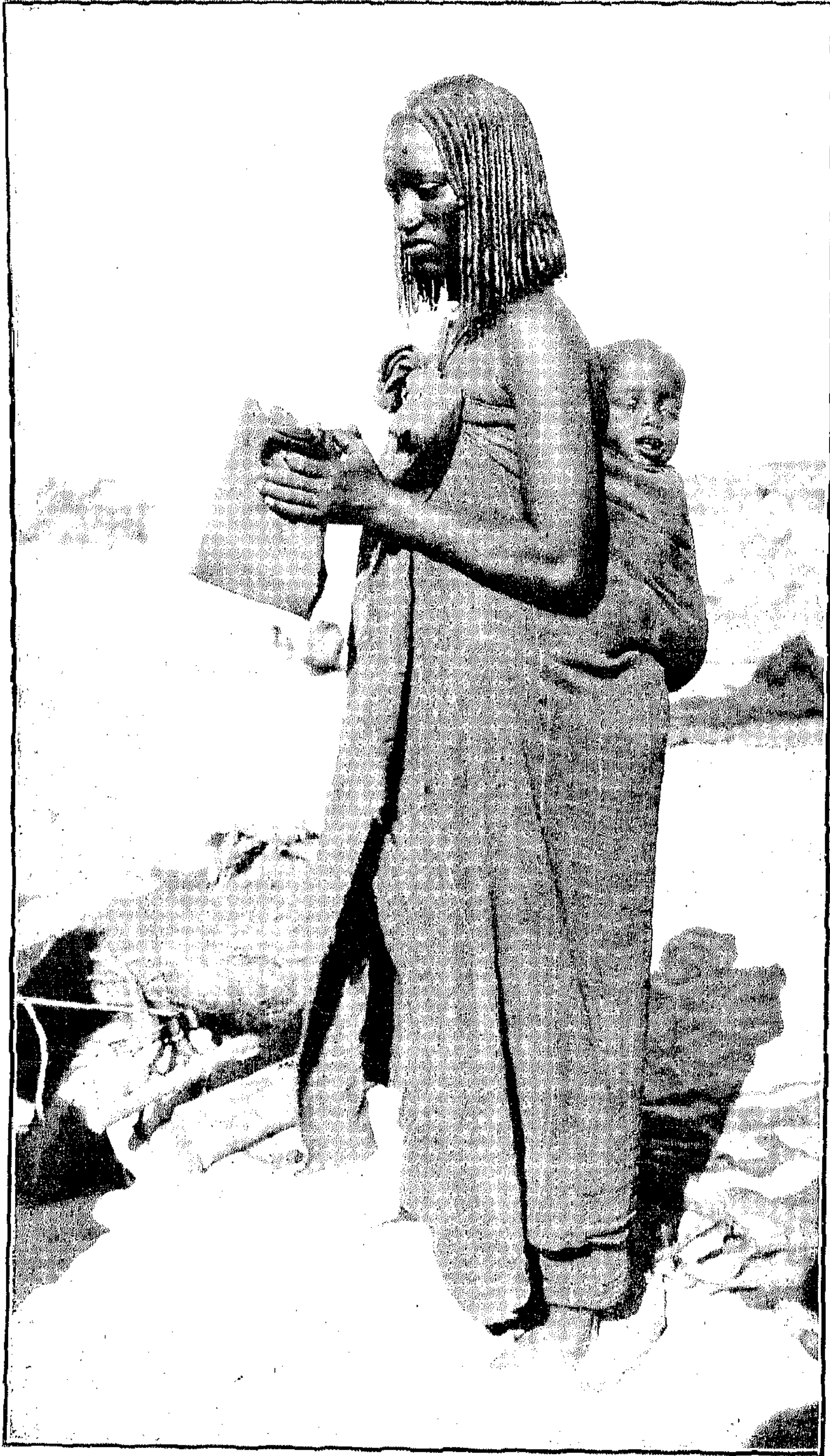
رأوا القافلة مقبلة أما الآن وقد رأوا منا السلام فقد أمروا البنات
أن يعدن »

ومرت العذارى بجوارى فكن يركمن لتحيى خفرات كما
جرت العادة عندهن فى تحية ذوى المقام الرفيع . وتقضى الآداب
فى تلك الجهات اذا خاطب أحد العظماء أحدا أن لا يظل السامع
واقفا بل يجلس على الأرض دليلا على احترام مخاطبه . وتتابع
البنات فحبت كل منهن على ركبتيها ورددت عليهن التحية بالجملة
العربية المألوفة «عليكن السلام ورحمة الله وبركاته » وكانت كل منهن
اذا قامت عن الأرض تلفتت بحياء الى من كان معى من البدو
المعجبين بهن

وضربنا الخيام فى نهاية الوادى على مقربة من البئر وجاءنا
شيخهم بعد ساعة يحيننا فتناقشنا معه فى أمر الطريق الى الفاشر
والاتجاه الذى يجب اتخاذه . وهنا غشى هرى التفكير والحزن لاقتربنا
من بلاده اذ كنا قد قطعنا حدود وادى الفرنسية . وكان هرى قد
أبى الخضوع للفرنسيين وهرب منهم تاركا أملاكه وأقاربه وانفرد
بالاقامة فى العوينات يعيش عيشة النفى المختار . وتغيرت معالم
الأرض فكثرت فيها أنواع الطيور وكان فيها الغراب والبوم والبيغاء
واليام وغير ذلك من الطيور الأخرى التى لا أعرف أسماءها . وفكت

لبؤة أثناء الليل بحمارين فقبض بعض سكان الناحية على شبل من أشبالها وسلخوه ثم أرسلوا جلده الى (فدا) يبيعونه . وفي (باو) عدد غير قليل من قبائل الجرغان والبديات . ونساء هذه القبائل هيف القدود بسيطات الملبس . ولباسهن إما شملة من القماش يلتحفن بها ويتمنطقن بشريط من القماش يحملن فيه سكيناً صغيرة وإما يتدثرن بجلد الماعز حول الجزء الاسفل من أجسامهن . وشعورهن مضفورة جدائل صغيرة ويلبسن حلماً من الفضة والعاج ويتحلين في شعورهن باطواق سمكة منها ويتخذن عقوداً من الخرز والكهرمان وصغار البنات لا يلبسن الا مئزراً من القماش أو الجلد . والرجال متينو البناء عارون الامما يستر عوراتهم . ويحمل كل منهم حربتين أو ثلاثاً وسيفاً وسكيناً . ولا يلبس العمام الكبيرة والثياب البيضاء الا أشياخهم . وأعطينا النساء والاطفال مكرونه ولكنهم أبوا أن يأكلوها ونظموا قطعها في خيوط ثم اتخذوا منها عقوداً لبسوها معجبين . ولما رأى ذلك رجال قافلتى ظهر فيهم ميل البدو الغريزي الى المتاجرة فصنعوا عقوداً عديدة من قطع المكرونة واستبدلوا بها سمناً وجلوداً .

واضطر محمد وهري ان يفارقانا في هذه الناحية لانهما لم يجسرا على التوغل جنوباً اكثر من ذلك . ولقيت صعوبة في العثور على دليل



غادة من قبيلة البديات

يقودنا الى (فوراويه) ولكنى وجدته أخيرا . وأهديت الينا شاة فتعشنا في ساعة مبكرة في يوم الثلاثاء عازمين على أن نسرع بالسير في الصباح ولم يحضر الدليل فبدأت أشعر ان البدايات يرتابون في قافلتنا . ثم حضر في الساعة الحادية عشرة مساء فاقظت الرجال عند حضوره وأمرتهم أن يحملوا الجمل قبل أن تحين له فرصة فيغير رأيه .

الاربعاء ٣٠ مايو :

قمنا الساعة الواحدة صباحا ووقفنا في منتصف الساعة التاسعة صباحا وامتأنا السير الساعة الرابعة وربعا مساء وحططنا الرجال الساعة السابعة وربعا مساء فقطعنا ٤٠ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٦ . الجو صحو جميل وهبت ريح قوية من الجنوب الشرقي وتغير مهبها بعد الظهر فصار من الشمال الشرقي . وقرت عند المساء ولم تتغير معالم الارض الا أنها كانت أكثر انبساطا ولم يكن فيها أودية كبيرة أو أشجار عظيمة . وقطعنا في الساعة الثامنة وربع صباحا واديا صغيرا يمتد شرقا وغربا وسرنا الساعة الواحدة صباحا في قر ضاح خلق من الظلام نهرا وسار معنا محمد وهري قصد أن يوهما أهل (باو) بمرافقتنا الى الفاشر وخوف ان يسطو عليهما أحد في الطريق .

وبعد ساعة خرجنا من الوادى ووقفنا نودع الدليلين اللذين
كان فى عزمهما أن يعودا الى العوينات بالاختصار على السفر ليلا
خشية العيون .

وكننت واقفا على مسافة من القافلة حين دنت ساعة التوديع
فشعرت باتصال قلوبنا بعد الذى قاسيناه معا فى الطريق وكان
محمد منسرح القامة منتصبها ذا عينين نافذتين . وكان فى هيئته ما
يدل على خصلتى الاعتماد على النفس والرضا بالاقدار وهما شيئان
يميزان سكان الصحراء

وكان هرى شيخا لطيف العشرة متواضعا ذا ابتسامة رقيقة
وشمائل غراء . وكان فى حركاته ما يدل على الوقار والجلال رغم
قدمه اليسرى الموجهة التى كان يحرها جريا اذا مشى ولا أعالى ان
قلت انه كان اميرا بفطرتة .

ولم يكن افتراقنا ذلك الفراق الذى يحدث بين رفقاء السفر
فحسب ولكنه كان يحوى معنى انتهاء الاستاذ من تدريب تلميذه
على الشئ وتركه بعد ذلك يسترشد بآرائه فى سبل الحياة فقد
نسبنا جميعا انى كننت رئيس القافلة وانهما لم يكونا الا دليلين .
والقى هرى يديه على كتفى ثم قال وفى صوته رنة تأثر شديد
« اسأل الله ان يرعاك ويهبك القوة . هاك الطريق بارك الله فيك »

ثم أشار الى منفسح بين التلال البعيدة وتمتبت بوضع كلمات بصوت
لم أستطع أن أملك فيه رنة المتأثر ثم انشيت عنه ولحقت بالقافلة .
والتفت بعد ذلك فرأيت ذينك الرجلين الجليلين اللذين يبعثان
الأسى بما قضى عليهما من النفي يذوبان في ضوء القمر .

ووقفنا عند الفجر لاداء صلاة الصبح ثم حططنا الرحال في
منتصف الساعة التاسعة وكان في تلك النواحي آثاراً سود . واستأنفنا
السير بعد الظهر بقليل ولكن الرجال كانوا متعبين لانهم لم يناموا
طويلاً في الليلة الماضية فلم نسير الا ثلاث ساعات وقد هربت
منا الشاة التي أهديت لنا فتبعها حامد وسعد في ضوء القمر وهما
يقلدان ثغاء الشاة ولكنهما لم يفلحا في استجلابها .

الخميس ٣١ مايو :

قنا الساعة الرابعة الاربعاً صباحاً ووقفنا الساعة الثامنة مساءً
فقطعنا ٣٦ كيلو متراً . أعلى درجة للاحترارة ٣٧ وأقلها ٥ درجات ؛
وكان الجو صحواً جميلاً هادئاً وهبت ريح من الجنوب الشرقي بعد
الظهر ثم غيرت اتجاهها فهبّت من الشمال الشرقي وقرت عند
المساء . وكان الليل ساكناً والبدر كاملاً والسماء تحوى صبيراً .
وحدث لنا حادث ذلك اليوم فان الدليل أغفى في الطريق وطاحت
رأسه بعد سيرنا في بكرة الجمعة أول يونيه فسار بنا جنوباً بدل أن

يسير الى الجنوب الشرقى . ولم أَدْخُلْ فى الأُمرحتى وقفنا نؤدى صلاة الصبح فى الساعة الخامسة فسألته عما اذا كان مقصده الاول أن يسير صوب الجنوب فدهش كثيرا ولكنه أقر بخطئه بصراحة ولم نكن حدنا طويلا لحسن الحظ عن الطريق السوى . وممرنا فى منتصف الساعة السابعة بتل يدعى (طميره) وكان عليه شجرة زاوية تعين الحد بين وادى والسودان .

وانحدرنا عند ملتقى الحدود الى وادى (هَوَر) وهو واد فسيح كثير الاشجار يقال انه يمتد غربا الى وادى وشرقا الى السودان واسمه فى وادى وادى (حَوْش) . وأرض الوادى شديدة الخصوبة يقصد مراعيها فى الخريف أهل وادى ودارفور .

وحططنا الرحال عند الظهر فى ذلك الوادى ووجدنا آثار زراف . واخترقنا بعد الظهر مساحة كبيرة من الحشيش الطويل الجاف فكأنا نسير فى غيط من القمح الناضج . وازداد تهلهل ثياب الرجال ودب البلى فى أحذيتهم وزاد همنا ما لقينا من (الحسكيت) وهو شوك صغير صلب أعقف ينمو فى شجيرة صغيرة ويلتصق بكل ما يمسه فيصعب استخراج منه .

وسمعت بوكاره يصف الزرافة والفيلى لحامد فقال ان للزرافة رأس الجمل وحوافر البقرة وكفل الجواد ولكنه بالغ فى وصف



شيخ قبيلة زغاوة يستقبل الرحالة في أم برو

الفيل حتى جعله أعجوبة في مخيلة رجل الشمال .
وسرنا في بكرة السبت ٢ يونيه حتى نتمكن من الوصول الى
(فوراويه) ذلك اليوم ومررنا في الساعة الخامسة صباحا بعلم «حجر
كمرارا» على بعد عشرة كيلو مترات عن يميننا . وبعد ذلك بساعة
مررنا بعلم آخر يدعى «حجر اردرو» وهو تل يبلغ ارتفاعه ٨٠ مترا
وطوله ٢٠٠ مترا . وحجر لفظ سودانى معناه تل صغير . ثم بدأنا
بعد ذلك ننحدر الى وادى (فوراويه) وكان أكبر الأودية التى
مررنا بها وأمرها بالسكان . وقطان هذا الوادى من الزغاوة
والبديات .

وحططنا الرحال فى الساعة التاسعة بالقرب من خيام بعض
أفراد البديات وسمعنا بعد قليل أخبارا غير مسارة عن استحالة
الحصول على مؤن فى فوراويه وكان ذلك عكس ما كنا ننتظره
فأسرعت فى البحث عن رسول أحمله خطابا الى حاكم دارفور فى
الفاشر أسأله فيه أن يرسل الينا أطعمة وقمasha لرجال الذين كانوا فى
ثياب مهلمة . وزارنا شيخ من شيوخ الزغاوة القاطنين بالقرب
منا . وانما رضى بالمجئء مدفوعا بحب الاستطلاع بعد تردد طويل
سببه الخوف من رجالى . وكان خاضعا للحكومة السودانية فاستفدت
من ذلك وعرضت عليه ثلاث جنيهات ان حمل خطابا منى الى

سافيل باشا حاكم دارفور.

وكان الأجر باهظا وزدت على ذلك ان هددته بشدة اذا تردد أو رفض وأمرته أن يسير في فجر اليوم التالي فتمتم بضع كلمات يشكو فيها عدم وجود دابة تحمله ثم مضى وعاد بعد قليل فاخبرني أنه سيحصل خطابي الى الفاشر وانه سيسافر على ظهر جواد.

وسرنا هذا الخبر لان السكر كان قد فرغ منا منذ ثلاثة أسابيع فاضطررنا الى تحلية الشاي على قدر الاستطاعة بالبلح المطحون .
وتقد منا الدقيق والأرز وسئمت نفوسنا ما كنا نأكله من
المكرونة القليلة المسلوقة بالماء الرديء .

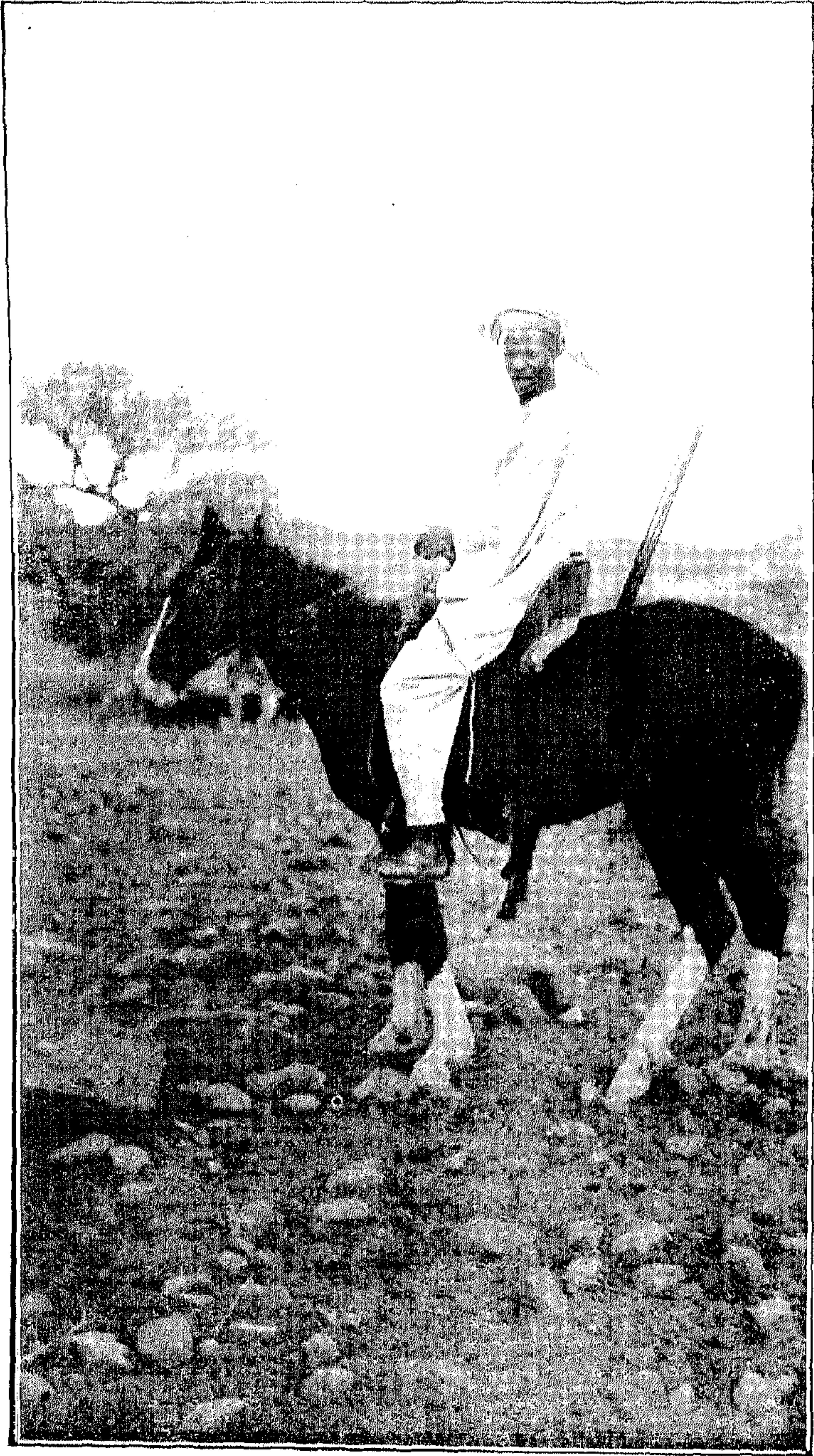
ونقلت خيامنا على مقربة من بعض آبار الوادي وحاولت أن أشتري شاة أدخل بها السرور على نفوس الرجال ولكن الظلام أخذ ينتشر فلم يقرب خيامنا أحد من سكان الوادي . وسقينا الجمال وتهيأنا لليل غير راضين كل الرضا عن الحياة . ودهشت بجأة لسماع الرجال يغنون طريقين كأنهم تناولوا طعاما شهيا . فناديت السيد الزروالي وبوكاره وسألتهما عن سبب غناء الرجال والسكر معدوم والغذاء قليل والحالة لا تبعث على الرضى فأجابني الزروالي « لقد هدأ بالنا الآن فقد دخلنا السودان وشرنا آخر الأمر بالأمان.

والطمانينة . » فسألتهم أكنتم خائفين الى هذا الحد من الرحلة التي قننا بها » فقال بوكاره « ان جميع أهلنا في الكفرة كانوا يقولون انا سائرون الى حتفنا بسلوك هذه الطريق . وكانوا يقولون لنا المقدر لا بد واقع ولكن الله يلحظكم بعين رعايته . فدخلنا الشك في السلامة وخفنا أن يكون مودعونا صادقين »

وقال الزروالى « لقد رأيت بنفسك كيف شجعتك بعض رجال الكفرة على أخذ هذه الطريق وكيف نصحتك بتركها الكثيرون واكبر ظنى أن مشجعتك أرادوا بك سوءا ورجوا أن لا يروك أبد الدهر » . وهكذا صارحنى السيد الزروالى وقد قربنا من نهاية الرحلة فاخبرنى أن بيوت (السدايدة) و(المجلولات) من قبائل الزوى فى الهوارى والكفرة كرهوا زيارتى الثانية كراهية شديدة وعقدوا اجتماعا تناولوا فيه أنجمع الوسائل للقضاء على القافلة أو منعها من العودة . وهنا وضحت لى مروءة الرجال الذين رضوا مصاحبى فى تلك الطريق المخوفة المجهولة بدون تذمر أو ممانعة فدخلنى الزهو بهم جميعا .

وأيقظنى حامد فى الساعة الثانية صباحا وكان ديدبان الليلة . ثم أخبرنى ان الرسول وصل وأنه مستعد لحمل رسالتى الى الفاشر . وكان تحت وسادتى خطابان أحدهما لسافيل باشا والآخر الى حاكم (كتم) وهى

محطة في طريق الفاشر اسأله فيه أن يتحقق من وصول خطابي الى
الحاكم في الفاشر . وسرني مجيء الرسول في هذه الساعة المبكرة.
فان سرعة وصول المؤن والملابس التي طلبتها تسر جميع رجال القافلة
ووعدت الرسول بزيادة بضعة ريات عن الأجر اذا أمكنه أن
يوصل الخطاب الى الفاشر في بحر أربعة أيام وتمنيت له السلامة ثم
وقفت أنظر اليه وهو ينطلق في ضوء القمر على جواد قوى.
العضلات وان كان بادي الهزال



الرسول الذي ارسله الرحالة من فوارديه لمدير دارفور بالفاشر لاسعاف القافلة بالزاد

الفصل العشرون

نهاية الرحلة

ودب الى جفنى النوم فى ليلتى الاولى (بفوراويه) ونالنى تأثير
لم أشعر به منذ ودعت الضابط باثر فى السلوم عند ابتداء الرحلة .
وأحسست أنى الآن على اتصال بالدنيا الخارجية وأن رحلتى
انتهت وانه لم يزل أمامى شهر أو يزيد حتى أترك قافلتى وأغير
وجهة سفرى . لقد أصبحت واحدا اركنو والعوينات معروفتين
بعد أن كان يجمل موقعهما الجميع وأصبح فى الامكان ان صحى
ملاحظاتى وكنت أملا صدقها أن ترسم خريطة دقيقة لجهات
صحراء ليبيا الواقعة بين جالو وفوراويه

وقضينا ثلاثة أيام فى (فوروايه) اعتدنا فيها جوها الرطب
الذى منينا به وحاولنا أن نضل الى ما تبلى به من الطعام . وكان
السحاب القاتم ينتشر فوق رؤوسنا والمطر يهطل كل يوم . وأكثر
رجالى من أكل الضأن ولكن عدم وجود السكر اللازم للشاى
وحرماننا من الاطعمة الاخرى نقص من استمتاعنا بذلك . النعيم

وانحدرنا الى الجنوب بعد ظهر اليوم السادس من شهر يونيه
وتصعدنا من الوادى فررنا بقطعان كثيرة من الاغنام القافلة من
مراعيها يتبعها صبيان وفتيات هيف القدود لا يلبسون الا مايستر
عورتهم من قماش وعقودا من الخرز

وكانت هذه الاصقاع مختلفة عن الصحراء التى اخترقناها
فقد كنا نسير فى سبيل مطروقة ونمر من وقت لا آخر بقرى صغيرة
من اكواخ القش ونساء يحملن الحطب ونرى غير ذلك من دلائل
الاقامة والحياة . وطلبت من رجال القافلة عند اقترابنا من احدى
هذه القرى أن يتقدمونى وأشرت لهم الى الموضع الذى تضرب
فيه الخيام وتبعهم بجوادمى وانما فعلت ذلك لان هذه الجهات
شاقتنى من الوجهة الجغرافية فاردت أن أقوم بعمل بعض الملاحظات
وسمعت عند اقترابى من الخيام أصواتا عالية وكانت خليطا من
الفناء والعويل

وكان أول ما خطر ببالى أن نزاعا قام بين رجال القافلة
وسكان القرية فحثت جوادمى أستطلع الخبر ولكنى لم اكدا قرب
الخيام حتى سمعت دوى الطبل وغناء النساء وكان وقت الغسق
فلم اتمكن من توسم وجوه الجمهور الذى كان يتقدم الى ولم يمض
زمن قليل حتى هرع الى أحد رجالى وأخبرنى انهم استقبلوا أعظم

استقبال من رجال القرية ونساءها الذين أصرّوا أن يخرجوا الى
 ظاهر القرية ليستقبلوا شيخ القافلة . ولم يكذبني الخبر حتى
 أحاط بجوادى سرب من العذارى يتغنين ويرقصن فلم يسمعه الا
 أن يجاوبهن بالطفر والقفز كما يليق بالجواد البدوى . وزغردت
 النساء فطلب منى البدوان افرغ البارود . وافسح الجمهور الطريق
 لجوادى فابتعدت به مسافة قصيرة ثم درت وانطلقت به عائداً
 فوقفته دفعة واحدة وكنت فى ذلك الوقت قد اخرجت بندقيتى
 فأطلقتها عند وقوف الجواد على الطريقة البدوية عند أقدام أول
 صف من العذارى الجميلات فأخافهن ذلك وشاقهن

وبعد ذلك أحاط ست منهن بجوادى وطفن حوله ثم أدين
 لى (الشبال) وهو أن يرسلن جدائل شعورهن ثم يلوين رؤوسهن
 بغتة تاركات خصلهن تدور أمامى . وأجبتن على هذه التحية
 فكنت أضع أصبعى على جبين كل منهن وأدير بندقيتى فى الهواء
 حول رأسها وأنا أقول « أبشر بالخير » ثم التأم جمعنا فى موكب
 حافل وتقدمنا الى مضرب الخيام . ورآنى رجال القافلة محاطا
 بالعذارى فأطلقوا النار احتفاء وتكريماً ووزعت عليهن بعد ذلك
 الروائح العطرية فانصرفن فرحات . وكانت ليلة أنس وطرب فى
 مضرب الخيام

ووصلنا (أم برو) في اليوم التالي وهي على بعد ٣٨ كيلو متر من فوراويه وحططنا الرجال بالقرب من البئر . وصحوت في الصباح التالي على أصوات الغنم والماعز القادمة للاستقاء . وبعد ذلك بساعة اقيمت سوق عامرة على مقربة من خيامنا لانا كنا نصبناها بدون ترو بالقرب من شجرة كبيرة في وسط المكان المعد لاقامة السوق ولم يشترك في هذا السوق الا النساء اللاتي جابن الزبد والجلود والحصر والشعير والقطن والملح واستبدلن بكل هذا أشياء أخرى غير مستعملات النقود في معاملتهن

تقوم النساء بهذا يننا يستريح الرجال ويظلون عاطلين من العمل

وقد دار بخلدي حين أبصرت هذه المناظر واشباهها في قرى السودان أن هذه الجوارى السود يكن أسعد حالا وهن في ربة الاسر في البيوت البدوية فانهن وهن مطلقات يقمن بتأدية كل الاعمال فيتمهذن الغنم والماعز ويشغلن بأمور المنزل ويجهزن الطعام ويصنعن المريسة وهي شراب الرجال المحبوب ويشغلن في الاسواق ويقمن بعمل كل شيء على وجه عام . أما وهن في ربة الاسر فليس عليهن الا واجبات محدودة تترك لهن من الفراغ نصيباً غير قليل

وطال بي التفكير في هذه المقارنة وأنا ألاحظهن في السوق
نخيل لي أني أسمع في حديثهن وغنائهن نبرات لم أسمع مثلها في
أصوات الاسيرات فعلمت أن الحرية قد تبعث في النفوس شعورا
خاصا ينعم به المطلقون في أشد حالات العيش نصبا

وأقنا يومين في (ام برو) وزارني عبد الرحمن جدو وكيل
محمد بن وهو رأس قبيلة الزغاوة وقدم لي غنما ودجاجا بصفة ضيافة
وقابلنا الوكيل في اليوم التالي مقابلة رسمية يحف به خدمه وحشمه
على ظهور جيادهم وهم يدقون الطبول. وأرسلت لنا أسرة محمد بن
في غياب رئيسها غداء من العصيدة والخضر والفطائر والمريسة
وكانت مرحلتنا التالية تتطلب سفر خمسة أيام الى (كُثم)
على بعد ١٢٩ كيلومتر الى الجنوب. وكان الجو جيدا رغم حرارته ونزول
بعض الامطار . وسرنا كالعادة في الصباح الباكر والعصر وكان
سبيلنا مطروقا سهلا بين الاراضي التلية المغطاة بالحشيش الجاف
والاشجار الصغيرة . وعثرنا في الطريق بقطع من الارض احترقت
حشائشها تمهيدا لزرعها بعد ذلك

ورجع رسولي الى الفاشر في صبة آخرين ولم يكن عند حسن
ظني به فقد قضى خمسة أيام بدلا من أربعة للوصول الى الفاشر
ولم يحضر مع ذلك ردا على رسالتى وقال لي إن الرد في انتظاري

مع جندي عند بئر (مطرج) على مسيرة ١٢ ساعة من محلتنا وأن ذلك الجندي يحمل زاداً لنا ولكن ذلك الزاد المنتظر كان قليل الفائدة على تلك المسافة البعيدة فقد تناولنا عشاء قليلاً عند ما حططنا الرحال تلك الليلة وبعد تناول العشاء أمرت دليلنا أن يسرع بالسفر فيسير عامة الليل ولا يقف حتى يصل (مطرج) ثم يخبر الجندي بالاسراع الينا على قدر الطاقة

وبدأنا السير قبل الساعة الرابعة من الصباح التالي ولم تمض ساعة حتى هرع الرجال يخبرونني أن جندياً يتقدم الينا على جملة وبعد ذلك بدقائق سلمني الجندي خطاباً من المستر شارل ديبوى القائم بأعمال حاكم دارفور المستقيل سافيل باشا . وقدم لنا كمية من الأرز والدقيق والشاي والسكر وسرني على الاخص أنه سلمني كمية من السجائر فاني لم أكن دخنت منذ تركنا أردى . فقد عرفت بغتة في العوينات أنه لم يبق لي الا بعض سجائر قليلة . فأخذت نفسي بتدخين سيجارة واحدة في اليوم أنعم بها بعد العشاء وكان يؤلمني الانتظار طول النهار حتى تحل الساعة التي أدخن فيها سيجارتي . ولكني كنت أسعد كثيراً بساعة التدخين فكنت اتحنى ركنا ظليلاً وأشعل سيجارتي الثمينة ثم أقيها هبات الريح حتى لا تهيج شعلتها فتنفد سريعاً . ونفدت السجائر فلم يبق لي الا

الذكريات القديمة والانتظار المقبل . وقد كوفئت على ذلك الانتظار الطويل وثارت لنفسى بالانكباب على التدخين حتى احترق حلقى وأهديت بوكاره حفنة من تلك السجائر فوضعها فوق طربوشه الأحمر ذى الزر الطويل ثم امتطى جواد الدليل وأخذ طربا . ولكن السرور لم يعم أفراد القافلة فيدفعهم الى الغناء والرقص الا حين نزلنا دار راحة الحكومة فى مطرّج فان الطرب تملك الرجال حتى وضعوا رأس السكر على الارض وأطالوا الرقص حولها حتى داخل الجندى ان بنا جميعاً مسّا من الجنون

وقد سأل بعضنا عن مبعث ذلك الطرب فأجابه عبد الله . « ان لنا شهراً لم نذق السكر فيه وانا قادرون الآن على تحلية الشاى الذى نشربه » وانما يشعر بافتقاد السكر وشدة الافتقار اليه من حرمة عهداً طويلاً . فبز رأسه الجندى مبتسماً ثم قال « يجب على أن أعود فى الحال الى كتم وأحضر لكم شيئاً من الزاد فانا لم نظن أنكم بهذه الدرجة من الافتقار الى الطعام » وتفضل علينا قبل سفره بالذهاب الى خيام قريبة واتحافنا بشاة وزبد يدفع ثمنهما معاون كتم لان البائع رفض قبول الأوراق المالية المصرية

وتركنا الجندى بعد أن زودته بخطابات منى الى المسترديوى والمعاون وهو الحاكم المنتدب فى كتم . وكفانا الزاد الذى أحضره

الجندي ولكن الخوف من حاجتنا الى الاستزادة جعلنا نقرر السفر في التو فرنا وخططنا الرحال عند الظهر في دار «استراحة» الحكومة عند بئر (المراحيج) وضر بنا خيام الليل على بعد بضعة كيلو مترات من تلك الجهة . وكانت حال الجمال من السوء بمكان عظيم فقد تفرحت ظهور بعضها وجنوبها ودميت . ورفض اثنان منها أن يسيرا حتى ترفع عنهما الاحمال . وأمطرت السماء ذلك المساء مدة ساعة ولكن ذلك لم ييل أوام نفوسنا وغنت الرجال ورقصت حول ركبة عظيمة من النار .

وقد ذكرتني رطوبة المكان ورائحة الحشيش الرطب بمطافاتي في أرياف إنجلترا . وسرنا مبكرين في الصباح التالي حتى نصل بئر مطرج عند الظهر وتناولنا الغذاء في دار «استراحة» الحكومة القريبة من البئر وزارنا شيخ مطرج وأحضر لنا دجاجا بصفة ضيافة . وأراد أن يستبقينا تلك الليلة حتى يقوم بواجب الضيافة نحونا في اليوم التالي ولكني كنت أشعر بالحاجة الى الإسراع في السفر فقد ساءت حال الجمال عن ذي قبل واضطرونا الى ترك أحدها عند شيخ القرية على أن يأخذ ربع ثمنه اذا شفى وبيع وأن يكون خاليا من المسؤولية اذا مات .

وظهر لنا جندي آخر على ظهر جواده بعد مسيرنا بساعة



صبيتان من قبيلة فور

ونصف ساعة في اليوم التالي وأحضر لي خطابا من معاون
 كتم وكمية صغيرة من الارز والسكر وشكرنا له الهدية لازادنا
 كان قد نزل وقد منا السكر اللازم لتحلية الشاي. وأعطيته خطابا
 يوصله الى كتم ثم حططنا الرحال بعد ذلك بواد صغير في (باوو)
 وأمطرت السماء عند استئنافنا السير بعد الظهر وهبت ريح
 قوية من الجنوب الشرقي ورأيت من الحكمة أن نخط الرحال حتى
 نقر العاصفة ولكني اطلت في منطاري فرأيت صف الاكواخ
 القشية التي تكون مركز الحكومة في كتم فشجعتني ذلك على
 المضي في السير فحثنا الإبل

ورأينا بعد ذلك كوكبة من الفرسان تتقدم الينا فصرخ البدو
 عند رؤيتها مبتهجين وتعرفت الملابس الرسمية للجيش السوداني
 فكان ذلك أبهج ما وقع عليه نظري منذ أسابيع طويلة . وتقدم
 الينا رياض أفندي أبو عقله ونصر الدين أفندي شداد — وهما
 معاوننا كتم — على رأس كوكبة مكونة من عشرة فرسان وفي
 صحبة القاضي ورئيس الكتبة وغيرهما من موظفي كتم ووجهائها
 وشدت على أيديهم جميعا ثم اخترقت القافلة القرية وهم يحيطون بها
 وحيانا عند اقترابنا من المركز نساء متشحات بالثياب البيضاء
 يغنين ويزغردن ويضربن الطبول . ووقفن صففا طويلا يغنين

ويرقصن فطرب لهن البدو كثيرا وسألوني ان اسمح لهم باطلاق
البارود ردا على تحياتهن . ولم يسعنى الرفض فتناوب الرجال وعلى
رأسهم بوكارهم اطلاق البارود عند أقدامهن . ولم تكن السودانيات
متعودات تلك العادة البدوية في تكريم النساء كاخواتهن البدويات
في الشمال فجفن قليلا عند اشتعال البارود على مقربة من أقدامهن
ولكنهن رضين ذلك وظلن يتمايلن ويرقصن على دق الطبول بينما
كان رجالى يطلقون البارود عند أقدامهن على التوالى . وكان لقاء
بديما بدد سرورنا به ما نالنا في السفر من نصب وكلال .

وزاد اظهار الكرم نحونا فارسل الينا المعاونون والموظفون
أربع نعاج وزبدا وخضرا وسكرا فقضينا ليلة أبهج ما تكون حالا
وكان هبوطنا كتم في ذلك الوقت فألا حسنا عند سكانها لأننا
قدمناها مع وسمى فصل الامطار . وقضينا يومين في ضيافة المعاونين
في غياب المفتش المستر أركل الذى كان في الفاشر .

وقد تفرجنا عصر يوم من أيام اقامتنا على مباراة في لعب
الكرة بين الجنود . وأبدى اللاعبون نشاطا شديدا وان لم يتقنوا
اللعب اتقانا تاما . ولم يخل اللعب من فكاهة ظريفة فان كثيرين
من اللاعبين الذين حاولوا ان يرفسوا الكرة رفسة قوية اخطأوها
وارسلوا احذيتهم السودانية تنطلق في الفضاء . وقد شائقنا كثيرا

روح التآلف التي كانت سارية بين الضباط والجنود الذين قاموا
بهذه اللعبة التي لا تخلو من بعض الخشونة

وتناولت عشاء تلك الليلة في دار رياض افندى ونصر الدين افندى
فكان أول طعام ذقته بين حيطان المنازل منذ تركت الكفرة .
وقدم لي ضائقي جرائد مصرية فكانت أول ما قرأت منها بعد
مضى ستة أشهر

وتركنا كتم في الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ يونيه
منشرحين بما لقينا من دلائل الكرم والضيافة أثناء اقامتنا ومن
مظاهر التوديع الحار عند تركنا المدينة وكانت المرحلة الباقية الى
الفاشر وهي تستغرق يومين ضربا من ضروب التريّض .

ودب في نفوسنا جميعا ديب الاهتياج والابتهاج بعودتنا
الى الاتصال بحياة الحركة ولكنى شعرت ساعة اتقلبت الى فراشى
ليلة ١٨ بوخزة حزن في قلبي لان ذلك اليوم كان آخر أيامى في
الصحراء وبدا لعينى آلامى المستقبل لا فتقادي رجالى وجمالى وحرمانى
تلك الوحشة المؤنسة والجمال والوحدة ومنتعة المرافقة التي ملكت
نفسى في الصحراء وعيشى بها وشكرت الله على هديه لى في تلك
الاصقاع الرملية الممتدة غير المطروقة . ورأيتنى اضيف الى صلوات
شكرى دعاء خالصا أسأله فيه أن يقدر لى العودة اليها يوما من
الأيام .

وكننت قد أصدرت أمرى الى رجال القافلة بالسفر المبكر فى الصباح التالى وتملكهم الشوق الى الرحيل فبالغوا فى التبكير ولم اكن أقل منهم هشاشة الى الرحيل فلم آبه بالمسير فى منتصف الساعة الثالثة صباحاً . وخططنا الرحال على مسير ثلاث ساعات من الفاشر نستعد لدخول المدينة فخلقنا ذقوننا ولبسنا أنفخ ثيابنا وكان المستر ديبوى قد أرسل الينا فى كتم كمية من القماش الابيض فأمكن رجالى أن يظهرنا فى لباس لائق . وتهافتوا جميعا على القطعة الباقية من مرآتى يتوسمون فيها وجوههم . ونظفت البنادق وأصلح من شأن حوائجنا التى أصبحت فى حال يرثى لها من البلى . وكان بودى أن أصنع شيئاً للجمال فأغير مظهر هزالها ونحفها ولم يكن سبيل ذلك الا بتفهد ظهورها المقروحة واراقتها ولم يكن عندنا من الوقت أو الظروف ما يمكننا من فعل ذلك . ومع ذلك فقد خيل لى أنها تشاطرنا الشوق الى الرحيل فجذت فى السير بخفة ونشاط .

وارتدى عبد الله والسيد الزروالى ثيابهما الحريرية وتقدمت القافلة الى المدينة فرحة مريحة . ووصلنا ظاهر الفاشر فاذا بصرخات السرور تنبعث من جميع أفراد القافلة لانهم رأوا كوكبة من الفرسان لابسى الخاكي تتقدم الينا وحثت جوادى بركة فعدا راضيا وسرته



الرحالة على جواده (بركة) ورجل قافلته الذين رافقوه في الرحلة

رؤية الجياد القادمة فنشر أذنيه وانطلق في عدوه

وتقدم المستر ديبوى على جواده يحينى فتبادلنا الشد على الايدي
وحيانا بقية الموظفين المصريين والانجليز فرددنا عليهم التحية
بأحسن منها ثم ذهبنا الى دار المستر ديبوى الذى تفضل نخصنى
ورجالى بجزء منها . وتفضل البكباشي (اوداس) فتعهد الجمال المنهوكه
فاطعمها وسباها وعالج جراحها وكانت فى حاجة ماسة الى هذا
العلاج .

وقضيت عشرة أيام فى ضيافة المستر ديبوى ولقيت شيئا كثيرا
من كرم ضباط وموظفى المدينة بين مصريين وانجليز ومن وجهائها
كذلك . والحق أقول أن دلائل الكرم غمرتني ومظاهر الرعاية
ظلتني فلم اكن فى حاجة الى شيء

وشعرت بحياة المدنية فاستمتعت بملذاتها وأخصها أكل
الخضر والفواكه وما كنت لاق هذه ملذات لولا ما ذقت فى
صميم الصحراء من طرف محدودة فى عيشتها وحل يوم توديعي
لرفقائى الذين صحبتهم فى رحلتى من الكفرة فجاءنى بوكاره وأخوه
وحامد والسنوسي أبو جابر يودعوننى فكانت ساعة مؤثرة شعرت
فيها بألم الفراق وازدحمت فيها على خاطرى خوالى الذكريات ولم
يتمالك أولئك الرجال الجليدون البكاء ولم استطع منع عيني أن

تندى بالدموع فقد صحبنا الايام معا فى حلوها ومرها وخرجنا من
عشرتنا الطويلة أصدقاء مخلصين . ولست أتمنى على الدهر امتع من
هؤلاء رفقاء لا يجتياز تلك الاصقاع الموحشة ولا أكثر منهم قدرة
ورجولة واخلاصا .

وقرأنا الفاتحة فكانت جهشات بوكاره تخالط كل وقف من
آياتها الشريفة وشددت على أيادى الرجال جميعا للمرة الأخيرة
ثم افترقنا لنتقابل كما ارجو يوما من الايام فى تلك الصحراء التى
نالت من نفسى بقدر ما نالت من نفوس ساكنيها .

ولم يبق امامي الا مرحلة واحدة الى الابيض التى تبعد ٦٠٠ كيلو
مترا الى الشرق فقطعتها وأخذت القطار الى الخرطوم ومنها الى القاهرة
فوصلتها فى أول أغسطس سنة ١٩٢٣ وكنت قد غبت عن وطنى
سبعة أشهر و٢٣ يوما وقطعت بالقافلة مسافة ٣٥٠٠ كيلو مترا فى الصحراء
وامكننى بواسطة هذه الرحلة أن أقطع فى تحديد مركز آبار
الظيغن ومكان الكفرة على خريطة أفريقيا وكان موضع الاول
قبل ذلك بعيدا عن مكانه الاصل بمقدار ١٠٠ كيلو متر والثانية
بمقدار ٤٥ كيلو متر ونلت كذلك توفيقا عظيما . فى اثبات الواحيتين
المجهولتين اركنو والعوينات على خريطة صحراء ليبيا .

مذكرة عن

نتيجة رحلتى حسنين بك فى رسم الخرائط

بقلم الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحراء

(ترجمة)

حسن بك عبادى

بمصلحة المساحة المصرية

المقدمة

تتكون البيانات الخاصة برسم الخرائط التي احضرها حسنين بك من -

١ دفاتر محتوية على ارساد فلكية بتعيين الوقت وخط العرض واختلاف البوصلة اخذت في تسعة عشر معسكراً رئيسياً ومعها الارصاد الخاصة بمقارنات الساعات

ب مذكرات يومية محتوية على بيانات مستمرة لأرساد انحرافات البوصلة والمسافات التقديرية من واحة سيوه الى آبار (لامينا) بالقرب من الفاشر وهي مسافة تقرب من ٢٤٣٠ كيلو متر وتحتوى هذه المذكرات اليومية ايضا على

(١) عدد كبير من أرساد انحرافات البوصلة لمعالم طبيعية ظاهرة على جانبي الطريق

(٢) تقديرات تقريرية على قواعد حساب المثلثات لخطوط عرض الجبال التي مر بها

(٣) عدد كبير من قراءات البارومتر المعدني المستدير (انريد) والترمومتر الذي يدار في الهواء ويستخرج منه درجة الرطوبة التي أخذت لتقدير الارتفاعات على طول الطريق

(٤) الارصاد اليومية لاقصى وادنى درجات الحرارة

(٥) ملاحظات على طبيعة البقاع التى مر فيها

(٦) مذكرات عن الاحوال الجوية

وهذه البيانات المرصودة تم تحليلها بمعرفة قسم مساحة الصحارى بالقاهرة واستخدمت فى اعداد الخريطة بمقياس $\frac{1}{2,000,000}$ المرفقة ببيان حسنين بك عن اسفاره والغرض من هذه المذكرة التى نحن بصدددها هو

أولا - اعطاؤها بيانا عن الاختبار الدقيق الذى مرت به هذه الارصاد أثناء القيام بتحليلها كي يساعد على تقدير درجة الدقة التى يمكن نسبتها للمواقع الجغرافية والارتفاعات والمعلومات الاخرى التى استعملت فى تخطيط الخريطة

ثانيا - بيان الاضافات الى المعلومات الجغرافية الحاضرة يبحثها عن اقليم غير معروف فى شمال افريقيا الشرقى وكان وليد هذه الحملة

٢ - تعيين النلكى للوقت المحلى

اخذت الارصاد بواسطة التيودوليت لارتفاعات الشمس

والنجوم في جميع المعسكرات الرئيسية لتعيين الخطأ بالنسبة للزمن المحلي الوسطى الشمسى للساعة من طراز نصف كرونومتر التي استعملت في اخذ ارساد خطوط العرض. وبلغت جملة هذه التعيينات الزمنية التامة ٣٤ أخذت في ١٧ معسكراً . واخذت الارصاد بتيودوليت ٣ بوصه من صنع (تروتون وسيمس) دائرته الرئيسية يمكن قراءتها بورنيتين للدقيقة الواحدة وكان مجهزاً بميزان حساس مركب على ذراع الميكروسكوب وكان يوضع التيودوليت دائماً في خط الزوال المغناطيسى بواسطة بوصلته الحوضية . وكان الغرض من الطريقة التي استعملت هو اخذ اوقات مرور حافة الشمس او النجم بكل من الثلاثة الاسلاك الافقية لتقسيم الاستاديا قارئة الميزان والدائرة عند كل تعيين على الوجهين الايمن والايسر . واخذ ايضا - في حالة النجوم - الانحراف المغناطيسى للنجم من الدائرة الافقية . وأخذت مذكرة بلون النجم ولمعانه لتحقيق ذاتية النجوم في هذا القلم وبذلك يتخلص الراصد من ضرورة معرفة اسماء النجوم وكان يُقرأ البارومتر والترمومتر باعتناء في كل رصد لعمل حساب الانكسار

ولم تلاق اى صعوبة في تحقيق ذاتية النجوم الا في حالة واحدة

وجد من الضروري فيها الغاء الارصاد نظرا لان الراصد رصد عرضا نجوما مختلفة عند الرصد على وجهى الآلة وقد اجريت في ايام عديدة عمليتان للرصد أو أكثر في نفس المكان ودلت مقارنات النتائج في هذه الاماكن ان الارصاد كانت بدقة فائقة بالنسبة لصفر الآلة وقد وجد مثلا في سبع حالات رصدت فيها الشمس وهى على وشك الغروب ونجم عقب الغروب مباشرة ان اقصى فرق بين نتائج عمليتى الرصد هو (٧) ثوان فقط بينما كان المتوسط يقل عن (٤) ثوان ومن الظاهر ان دقة وقت الارصاد كافية جداً للتأكد من عدم وجود خطأ محسوس في خطوط العرض ناشئ من اغلاط في الزمن المحلى المفروض

وبما ان ارصاد الوقت لم تستعمل الا في تجهيز الخريطة فيما يخص تعيين خط العرض فليس من المهم اعطاء كشف عن اغلاط الساعة غير انها ربما تهم الجغرافيين الذين يجوبون الصحارى للوقوف على بعض نتائج تجارب حسنين بك في عملية نقل الساعات وعلى المجازفة في التعويل على ثبات معدل السرعة لمدة طويلة حتى مع وجود احسن نوع من الساعات ومن الستة الساعات التى كانت معه لم تبق الا واحدة منها صالحة للاستعمال حتى نهاية السفر . ومن حسن الحظ ان هذه الساعة التى قاومت عناء سفر سبعة اشهر في

جوف الصحراء هي التي أخذَ عليها حسنين بك جميع ارصاده وكان يحملها في جيبه طول مدة السفر وهي من طراز نصف الكرو و نومنز ذى الحجم الكبير ماركة "explorens" الانجليزية الصنع ومجهزة بغطاء واق من الاتربة لجهاز ادارتها ولقد حازت هذه الساعة شهادة خاصة من معمل الطبيعيات الاهلى (National Physical Laboratory of England) بانجلترا وكانت اثنى الساعات الست التى استعملت فى هذه السياحة . وحتى هذه الساعة لم تستطع المحافظة على معدل سرعة ثابت حتى تصلح فى ايجاد خط الطول ولو انها كانت وافية بالعرض فى ايجاد خط العرض ولو انها فى حالتين لما اضطرت الحال للتعويل على ثبات معدل سيرها لمدة يوم أو يومين لرصد خط العرض فقط دون اخذ ارصاد عن الوقت المحلى فنجد مثلا فيما يلى متوسط معدل سير هذه الساعة محسوبا من واقع ارصاد الوقت المحلى فى اماكن معلوم خط طولها من قبل

معدل سير الساعة

السلوم-سيوه ٢٩ ديسمبر- ١٣ يناير ١٥ يوما فقدت ٨ و٥ ثانية
 سيوه-جغبوب ١٣ يناير- ٢٠ يناير ٧ أيام » ١ و٠ »
 جغبوب-الخوراوية ١٤ فبراير- ٥ يونيو ١١١ يوما » ٧ و٧ »
 الخوراوية- أم بورو ٥ يونيو- ٨ يونيو ٣ أيام » ٦ و٦ »
 أم بورو-الفاشر ٨ يونيو- ٦ يونيو ١٨ يوما » ٩ و٤ »
 الفاشر-الايض ٣٠ يونيو- ١٥ يولييه ١٥ » » ٩ و٤ »

غير ان هذا الجدول لم يستطع ان يعين بالضبط اختلافات
 الساعة وفي طول المدة التي بقيت فيها خمس الساعات الاخرى صالحة
 للاستعمال قام حسنين بك بعمل مقارنات متعددة بساعته الرئيسية
 وبين ٢١ مارس و٢٣ منه يوجد هناك ما يحملنا على التحقق من ان
 هذه الساعة ربحت ربعا غير عادي بلغ ٥٠ ثانية . وهناك ربع غير
 عادي مشابه لهذا لوحظ في الاربع والعشرين ساعة الواقعة بين يومى
 ٢٤ و٢٥ مارس وكلا هذين الربحين غير العاديين حدث ما بين (جالو)
 و(الحراش) في بدء السياحة بينما اظهرت باقى الساعات أنها سائرة
 بحالة حسنة . ومن المحتمل جداً أن حدثت حالات اخرى غير عادية

فما بعد ذلك حينما تعذر وجود مراقبة مرضية للمقارنات نظراً لوقوف
أو تلف بعض الساعات الاخرى أو كلها . ومن بين خمس الساعات
الاخرى كانت هناك ساعة انجليزية الصنع من طراز نصف
كرونومتر مشابهة للساعة الرئيسية ولكن بحجم صغير . وثلاث
ساعات منها كانت سويسرية الصنع من أحسن الاصناف ذات
الرافعة من طراز "Peerless" بغطاء محكم وأما الساعة الباقية فكانت
من الصنف السويسري ذي الرافعة والتي تضيء أرقامها وعقاربها
ليلاً وكانت تلبس في المعصم بسهولة معرفة مدد السير . وقد وقفت
عن العمل الساعة الصغيرة من طراز نصف كرونومتر في ٣ ابريل
بعد أن استمرت على العمل مدة أربعة أشهر ولو أنه أعيدت إدارتها
إلا ان معدل سيرها تغير كثيراً عن ذي قبل وأما ثلاث الساعات
ذات الرافعة من طراز "Peerless" فكانت لا بأس بها بالرغم من
عدم استطاعتها الاستمرار على العمل حتى نهاية السياحة . فإحداها
وجدت معطلة ومختلفة في ٦ مايو بعد أن استمرت على العمل ما
ينيف على خمسة أشهر . والاثنان الباقيتان استمرتتا على العمل أزيد
شهرًا عنها

ويستدل من المقارنات التي عملت في الطريق أن اختلافات
معدل السير كادت تكون في درجة واحدة مع الساعة طراز النصف
كرونومتر . وأما ساعة المعصم فكانت عرضة لاختلافات أكثر

في معدل سيرها نظراً للطريقة التي تحمل بها وكانت في بعض الأحيان تضبط على الساعة الرئيسية ولكنها استمرت على العمل حتى نهاية السباحة وقد وجد أن الساعات الانجليزية من طراز نصف كرونومتر لا تقل تفضيلاً عن أحسن الساعات السويسرية ذات الغطاء المحكم وذلك من وجهة مقاومة الأتربة التي هي من أهم الخاصيات التي نضعها نصب أعيننا عند اختيار الساعات اللازمة للاكتشاف في الصحارى. ومن أهم دواعي العطل في الساعات واختلاف معدل سيرها هو طريقة حملها أثناء السير فتارة تكون مع الرحالة وفي هذه الحالة تكون عرضة لصددمات عنيفة فجائية تحدث أثناء القفز من على ظهر الجبال أو محاولة الصعود عليها وتارة تكون داخل الامتعة وفي هذه الحالة تكون عرضة لمثل هذه الصدمات التي تحدث من حركات الجبال الفجائية. ويعزى الشرح المحتمل للتقديم غير العادي الذي ظهر في الساعة الرئيسية في مدد قصيرة في الحالتين السابقتين الى ارتجاج أثناء الصعود أو الهبوط يحدث منه ملامسة للفتى الزمبلك الشعري ببعضهما لمدة قصيرة مسببة قصراً في مدة تذبذب الرقاص ومما يجدر بالذكر أن الساعة التي ظلت مستمرة طول مدة السباحة كانت أكبر الساعات حجماً فكانت مقاومتها لهذه العوامل معزوة إلى درجة ما إلى قوة مقاومة أجزائها لكبر حجمها

٣- التعينات الفلكية لخطوط العرض

أخذت أرصاد ارتفاعات النجمة القطبية لتعيين خط العرض لتسعة عشر معسكراً في ٣٥ ليلة باستعمال تيودوليت بوصه ٣ الذي استعمل في أخذ أرصاد الوقت وأخذ ثلاثة قراءات للارتفاعات على كل من الوجهين باستعمال شعرات الاستاديا الثلاث على التوالي ودونت الاوقات المناظرة بواسطة ساعة نصف كرونومتر المعلوم خطؤها عن الوقت المحلي بالضبط بالأرصاد على الشمس أو نجم أخذت قبل أخذ أرصاد خط العرض . وصرفت عناية خاصة لضبط ميزان روح التسوية ودون الضغط الجوي ودرجة الحرارة في وقت أخذ الأرصاد

ويبين الجدول الآتي نتائج الارصاد

خطوط العرض الفلكية

السلوم	٤ ليالٍ	٩	٣٥	٣١°	شمالاً
سيوه	١ ليلة	٤١	١٢	٢٩°	»
جغبوب	٥ ليالٍ	٢٦	٤٤	٢٩°	»
المعسكر بقرب جالو	١ ليلة	٥٦	١١	٢٩°	»
جالو (العرج)	١ »	٣٣	٢	٢٩°	»
بوتافال) بئر أبي الطفل	١ »	٢٦	٥٤	٢٨°	»
الحراش	١ »	٢٩	٢٦	٢٥°	»
التاج	٦ ليالٍ	٤٧	١٣	٢٤°	»
اركنو	٢ ليلتان	٣٢	١٢	٢٢°	»
الموينات	١ ليلة	٢٩	٥٢	٢١°	»
اردى	١ »	٣٩	٣٥	١٨°	»
اجاه	١ »	٣٨	٥٢	١٧°	»
عنيبه (انيباه)	١ »	٢٤	٢١	١٧°	»
باو	١ »	٢٤	٢٨	١٦°	»
الفوراوية	٢ ليلتان	٥١	٢١	١٥°	»
ام بورو	٢ »	٥٧	٣	١٥°	»
القطوم (كتم)	١ ليلة	١٥	١٢	١٤°	»
الفاشر	٢ ليلتان	٣	٣٨	١٣°	»
الايض	١ ليلة	٥١	١٠	١٣°	»

ومن هذه الأماكن يوجد ستة منها معلوم خط عرضها من
المساحات الرسمية لمصر والسودان وهى - السلوم - سيوه -
جغبوب - كتم - الفائر - الابيض - وقد وجدت ان ارقام
حسنين بك مرضية ولو انه لم يتيسر عمل مقارنة دقيقة نظراً لعدم
التحقق من معرفة موقف حسنين بك بالضبط وقد ابان حسنين
بك ان نقطته التى اخذ منها الارصاد فى جغبوب تقع على بعد
٢٠٠ متر فى جغبوب الجنوب الغربى لقبة المسجد وبتطبيق الفرق
المناظر لخط العرض (ناقص ٦) ثوان على تعيينى لخط عرض القبة
فى سنة ١٩١٧ الذى كان (٤١° ٤٤' ٢٩) نحصل على (٣٥° ٤٤' ٢٥)
اي بفرق ٩ ثوان فقط من ارصاد حسنين بك فى خط العرض
وهناك اختبار آخر لدرجة دقة ارصاد خط العرض يمكن عمله
بمقارنة خطوط العرض التى وجدت لنفس المعسكر بواسطة ارصاد
اخذت فى ليلالى متعددة ونجد فيما يلى متوسط الانحراف لخط
عرض واحد مرصود عن المتوسط لجميع المعسكرات التى اخذ فيها
رصدان أو أكثر لخط العرض

السلوم	٤	ليالٍ متوسط الانحراف	٨	ثانية
جغبوب	٥	»	٤٠	»
تاج	٦	»	١٢	»
اركنو	٢ ليلتان	»	٦	»
الفوراوية	٢	»	٨	»
ام بورو	٢	»	٢٣	»
الفاشر	٢	»	٦	»

ومن ذا يظهر انه لا يَحتمل ان اول خط عرض مرصود يبلغ الخطأ فيه بمقدار ١ دقيقة وعلى ذلك اعتمدت خطوط العرض التي رصدها حسنين بك عند تجهيز الخريطة عن النقط غير الموجود فيها تعيينات سابقة مثل الحراش والتاج واركنو والعوينات وأردى وأجاه وعنيبه وباو - وقد اعتمدت في الخريطة ايضاً خطوط العرض التي رصدها حسنين بك عند جالو (العرج) وبثراي الطفل والفوراوية لان ارساد اولهما من المحتمل ان تفوق ارساد رولفس التي تكاد تتفق مع مواقعه الخريطة وارساد ثانيتهما ولو انها تختلف عن رقم رولفس (٢٢° ٣٦' ٢٨") بمقدار دقيقتين ٢ الا انها بلا شك اضبط لانها تتفق تماماً مع خط سير حسنين بك ولان ارساد ثالثها وهو موقع الفوراوية ولوانه موضح على خرائط السودان الا انه خارج عن حدود مثلثات السودان ويحتمل فيه بعض الخطأ . -

وبعد كتابة ما تقدم وصلتني معلومات من جناب مدير مساحة السودان ان جبل الفوراوية اعتبر كنقطة في شبكة المثلثات السودانية وان موقع القمة بالضبط هو خط عرض ($9^{\circ} 59' 20''$) شمالا وخط طول ($48^{\circ} 36' 23''$) شرقا وارتفاع ٩٥٤ مترا فوق سطح البحر وهذا الموقع يختلف بكيلومترين عن الخريطة المشار اليها ولكن نظراً لعدم معرفة المسافة والانحراف من معسكر حسنين بك الى التل ولو ان خط العرض الذي وجدته حسنين بك يعين مركزه بموازية كيلو متر ونصف شمال التل فلم ار ان هناك ما يدعو لعمل اي تغيير في ضبط نتائج حسنين بك وخط الطول المعتمد على المعسكر ربما يكون مختلفا اختلافا بسيطاً حتى انه لا يحتمل ان يتعدي الخطأ فيه ميلاً او اكثر ولما كان الفرق بين سطح التل ونقطة معسكر حسنين بك غير معروف بالضبط فلذا لا يوجد هناك ضابط لقراءة البارومتر عن نقطة المعسكر وبناء عليه رأيت من الحكمة ان استعمل الفاشر كالضابط الجنوبي في تصحيح تعيينات الارتفاعات

٤ — ارصاد اختلافات البوصلة

لسهولة ايجاد النجم القطبي عند ما يكون السماء غير قائم جداً أو محجوباً بالسحب احتجاباً جزئياً وللحصول أيضاً على الانحراف التقريبي لنجوم الوقت لتعريف ذاتيتها وضع التيودوليت دائماً في

خط الزوال المغناطيسى بواسطة بوصلته الحوضية وقرئ الانحراف
المغناطيسى للنجم القطبي على الدائرة الافقية بعد رصد كل خط عرض
ولوحظ الوقت وبهذه الطريقة تعين انحراف البوصلة التقريبي لكل
معسكر وكانت النتيجة كالآتي : —

انحراف البوصلة

السلوم	ديسمبر سنة ١٩٢٢	٣	ارصاد	٣٤	٢°	غربا
سيوه	يناير	»	١	١٩٢٣	٤٢	»
جغبوب	فبراير	»	٥	١٩٢٣	٢٥	»
بالقرب من جالو	مارس	»	١	١٩٢٣	١٢	»
جالو (العرج)	»	»	١	»	٥	»
بوتافال بترابى الطفل	»	»	١	»	—	»
الحراش	»	»	١	»	٤٨	»
تاج	ابريل	»	٦	»	٣٢	»
اركنو	»	»	٢	»	٢٥	»
العوينات	»	»	١	»	٣٢	»
اردى	مايو	»	١	»	٥٧	»
اجاه	»	»	١	»	٠٠	»
عنيبه (انيباه)	»	»	١	»	٢١	»
باو	»	»	١	»	٥٩	»
الفوراوية	يونيه	»	٢	»	٣٢	»
ام بورو	»	»	٢	»	٢٥	»
الكتم	»	»	١	»	٢٦	»
الفاشر	»	»	٢	»	٥١	»

وبالطبع فإن طريقة تقدير انحراف البوصلة بواسطة التيودوليت هي تقريبية فقط ولكن المقادير التي وجدت محتملة الصحة في أغلب الأماكن بفرق قدره نصف درجة وهي تبين أن ليس هناك أى احتمال لخطأ فاحش في المقاس المباشر نظراً للشذوذ الحلي لانحراف البوصلة وعلى ذلك فقد استعملت في تحويل انحرافات الترافرس للبوصلة الى الانحرافات الحقيقية للجزء الأكبر من الطريق الذى لم يسبق وجود تعيينات له والذى بناء على ذلك لم يعرف بأى درجة من الدقة توزيع الخطوط المتساوية في الاختلاف المغناطيسى

هـ — خطوط الطول

ان احتمال تلف بعض الساعات في سفر سبعة أشهر قد أمكن التنبؤ به وظهر من أول الأمر عدم الاحتمال بأن هناك أية فائدة يمكن الحصول عليها من الساعات في تعيين خطوط الطول في سفر طويل شاق كهذا وعليه فقد رأينا التعويل كلياً على المقاس المباشر لخطوط الطول باذلين كل الجهد للحصول على سلسلة كاملة من انحرافات البوصلة والمسافات المقدرة بين جغوب وبعض الأماكن المعروفة في السودان ويجب أخذ الانحرافات ببوصلة جيدة بكل دقة ممكنة وعلى مسافات متعددة . وتقدير المسافة بحسب يومياً من مدة سير جمال المهمات باعتبار معدل ٤ كيلو متر

فى الساعة على طريق الصحراء مع اعتبار اختلافات السرعة على
أراض مختلفة الطبيعة . وابتدأت السباحة من الشمال الى الجنوب
فلذلك كان من الواجب ضبط المسافات بواسطة خطوط العرض
ينما لم تتراكم أغلاط الانحراف وعند ما كانت قابلة للتسوية من
تلقاء نفسها على أى طول كبير من الطريق . وكان السبب الأول
فى أخذ ست ساعات لم يكن لإيجاد خط الطول التى بها لم يستطع
أكثر من اعطاء بعض مقادير قابلة للشك وانما للتأكد من وجود
ساعة واحدة على الأقل تستمر على العمل طول مدة السباحة لرصد
خطوط العرض إذ بدونها لا يمكن إيجاد ضابط تام لمعرفة جميع
المسافات الرئيسية

ولقد برهن احتمال حصول التلف للساعات على صحة التنبؤ به
إذ تلفت جميع الساعات ماعدا واحدة غير أنه لحسن الحظ ظلت
هذه الساعة الواحدة مستمرة حتى نهاية السباحة وأمكن بواسطتها
تعيين خطوط العرض (ولو أن معدل سيرها لم يكن ثابتا على
الكفاية لأن يستعمل بدون ضابط فى إيجاد خطوط الطول) ومن
الجهة الأخرى اتبع بدقة البرنامج الخاص برصد سلسلة متواصلة من
الانحرافات (زوايا الطريق) الدقيقة وبتقدير أطوال الطريق بين
هذه الانحرافات من بدء القيام من جغبوب (آخر نقطة معروفة
فى مصر) حتى الفوراوية (أول نقطة معروفة فى السودان) وهى

مسافة ٢٤٣٠ كيلو متر ومن هذه السلسلة المتواصلة للانحرافات وتقدير الاطوال متحدة مع خطوط العرض المرصودة أمكن تقدير خطوط الطول لجميع المواقع على طول الطريق بدرجة عالية نوعا من احتمال الدقة

ولتقدير خطوط طول جالو (العرج) اتبعت طريقة مخالفة قليلا عن تلك التي اتبعت في مختلف المعسكرات الرئيسية على طول الطريق ويرى الناظر الى الخريطة أن اتجاه السير من جغبوب الى جالو كان من الشرق الى الغرب بدلا من الشمال الى الجنوب كباقي اتجاهات سير السياحة وعليه لم تستطع خطوط العرض المرصودة أن تكون وسيلة صالحة لتصحيح المسافات المقدرة في هذا الجزء من الطريق بخلاف الاجزاء الاخرى. ولكن لحسن الحظ ساعدنا خط العرض المرصود عند جالو على تصحيح التقدير السابق الذي أوجده حسنين بك في سنة ١٩٢٠ عن بعد هذا المكان من الجيداييه وهذا مضافا اليه الانحرافات المرصودة وقتئذ ينتج منهما قيمة واحدة لخط العرض عند جالو . على أننا إذا فرضنا صحة تقدير البعد بين جغبوب وجالو أمكننا استعمال خط العرض المرصود عند جالو لتصحيح الانحرافات وبذلك نحصل على مقدار آخر لخط الطول . ومن امعان النظر في جميع المعلومات الموجودة نجد أن الطريقتين متساويتان في درجة الدقة . وتحديد موقع الجيداية باعتبار خط عرض

(١٠° ٤٨' ٣٠" شمالاً) وباعتبار خط طول ٣٠° ١٣' ٢٠" شرقاً
معرض لبعض الشك

لم يعلم أن هناك ارساداً أخذت بدقة عن الجيдаية والموقع
الذى بين هو نفس الموقع الذى اعتمدته فى تحضير خريطة سابقة
عام ١٩٢١ وحصل عليه بتقدير ترافرس عمل من مسافات وانحرافات
عينت بواسطة استعمال الأوتوموبيل والبوصلة بمعرفة الكابتن
وليمز من (زويتينه) فى سنة ١٩١٨ والانحرافات التى رصدت بمعرفة
حسنين بك فى رحلته السابقة ربما كانت أقل دقة من رحلته
الحاضرة . ومن جهة أخرى فان تقدير المسافات من جغبوب الى
جالو كما استخرجت بواسطة الضبط بخطوط العرض عن الاجزاء
الآخرى من الطريق تقرب جداً من الحقيقة . بينما يُحرَكُ التصحيح
المتساوى بمقدار نصف درجة فى زوايا الطريق المباشر بالضبط
لموقع جالو حتى يقع على موازاة لخط العرض المرصود ولقد اعتبرت
خط طول جالو على الخريطة متوسط خطى الطول الذى وجد أولاً
باعتبار ان .

أولاً — انحرافات حسنين بك مضبوطة من الجيдаية مع
تصحيح مسافته بواسطة خطوط العرض

ثانياً — مسافته من جغبوب مضبوطة وباستعمال خطوط
العرض المرصودة لضبط زواياه

النتيجة

للحالة الاولى

من الجيدائية خط الطول عن جالو (العرج) ($٤٨^\circ ٢٩' ٢١''$)
للحالة الثانية

من جغبوب خط الطول عن جالو (العرج) ($١٩^\circ ٢٦' ٢١''$)
المتوسط المعتمد = ($٣^\circ ٢٨' ٢١''$)

و مما يجدر بالذكر بهذه المناسبة أن النتيجة تُظهر جالو في موقعها بالضبط المبين بخريطة رولفس سنة ١٨٨٠ والطريقة التي اتبعت بخطوط الطول المعتمدة للمسكرات الأخرى على طول الطريق كالآتي :-

قسم الطريق الى تسعة أجزاء بين المسكرات المهمة الآتي بيانها التي رصد فيها خط العرض وهي جالو - الحراش - تاج - اركنو - العوينات - اردى - اجاه - انبياه - باو - الفوراوية . ورسم ترافرس البوصلة عن كل قسم بمقياس $\frac{1}{\text{نصف مليون}}$ من واقع الانحرافات المرصودة والاطوال المقدرة ورسم خط الزوال عن كل قسم من متوسط قراءات انحرافات البوصلة على طرفي الخط وقيس مقدار الفرق الكلى عن خط العرض عن كل قسم وقورن بالفرق الناتج من خط العرض من واقع الارصاد وهذه المقارنة أعطت بالطبع متوسط الخطأ في تقدير المسافة على طول كل قسم باعتبار أن الانحرافات مضبوطة . ونتيجة المقارنة عن الاجزاء المختلفة هي كما هو مبين بالجدول الآتي -

تصحیحات عن المسافات المقدرة

المسافات	تصحیح المقدرة في المائة	بين الرصد والرسم	الفرق الحقيقي لخط العرض الارصاد	من واقع الرسم	فرق خط العرض	جزء الترافرس
٦و٤	٢٤و٠	٣٩٩	٣٧٥	٣٧٥	٣٧٥	جالو - الحراش
٢و١	٢و٧	١٣٤و٢	١٣١و٥	١٣١و٥	١٣١و٥	الحراش - تاج
٢و٨	٦و٠	٢٢٣و٧	٢١٧و٧	٢١٧و٧	٢١٧و٧	التاج - اركنو
٢و٨	١و٠	٣٧	٣٦	٣٦	٣٦	اركنو - العوينات
١و٦	٥و٨	٣٦٣و٢	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	العوينات - اردي
٤و٨	٣و٦	٧٩و٢	٧٥و٦	٧٥و٦	٧٥و٦	اردي - اجاه
٠و٩	٠و٥	٥٧و٥	٥٧	٥٧	٥٧	اجاه - انبيه
١و٣	١و٣	٩٧و٧	٩٩	٩٩	٩٩	انبيه - باو
١و٢	١و٥	١٢٢و٧	١٢٤و٢	١٢٤و٢	١٢٤و٢	باو - الفوراوية

متوسط الخطأ للمسافات المقدرة = ٢ر٦ ٪ في المائة

وكانت أول خطوة بعد إيجاد متوسط الخطأ للمسافات المقدرة لكل جزء من الطريق هي قياس فروقات احداثيات خطوط الطول من الترافرس المرسوم مع تصحيح الخطأ في المسافات المقدرة وتحويل فروقات احداثيات خطوط الطول الى فروقات ولما تم ذلك كانت نتيجة الفرق في خط الطول بين جالو والفوراوية هي (٥٥ ٢٥ ٢°) وباعتبار أن خط الطول الحقيقي عن جالو هو كالوضح أعلاه وخط الطول الحقيقي عن الفوراوية هو كالمبين بخريطة بمقياس ربع مليون من خرائط مساحة السودان سنة ١٩٢١ (انظر الملحوظة بهامش صفحة ٥) ينتج .

خط طول جالو ٣ ٢٨ ٢١°

» » الفوراوية ١٠ ٣٨ ٢٣°

الفرق = ٧ ١٠ ٢°

وعلى ذلك يحتاج فرق خط الطول الذي وجد بالمقاس المباشر الى التصحيح بمقدار (٤٨ ١٥) وهذا التصحيح يتضمن فرقاً في الزوايا يقل مقدار متوسط الخطأ فيه عن درجة في انحرافات البوصلة ويتضمن أيضاً مقداراً في المسافات المعدلة يمكن التجاوز عنها . وقد وزع على جميع الترافرس بالنسبة لفروقات خط العرض بين المعسكرات الرئيسية . وعليه نجد فيما يلي مقادير خطوط الطول المعتمدة

خطوط الطول المستنتجة

خطوط الطول المستنتجة	التصحيح الآخر	المقاس المباشر مصححاً بخط العرض
جـالو	- - - - -	٢١° ٢٨' ٣" شرقاً
الحراش	٥° ١٥' ٢٢° شرقاً ٤° ١٠'	٥٥° ١٠' ٢٢° »
التاج	٥° ٢٩' ٢٣° » ٥° ٣٤'	٤١° ٢٣' ٢٣° »
اركنو	١٠° ٥٢' ٢٤° » ٥° ٥٥'	١٥° ٤٤' ٢٤° »
العوينات	٣٤° ٢' ٢٥° » ٨° ١٨'	١٦° ٥٤' ٢٤° »
اردى	٣٤° ٢٢' ٢٣° » ٥° ١٢'	٢٩° ١٠' ٢٣° »
اجاه	٤٩° ٢٨' ٢٣° » ٥° ١٢'	٥٥° ١٥' ٢٣° »
عنيبه (انبيه)	٥٨° ٢٧' ٢٣° » ٣٠° ١٣'	٢٨° ١٤' ٢٣° »
باو	١٨° ١٦' ٢٣° » ٣١° ١٤'	٤٧° ١' ٢٣° »
الفوراوية	٥٨° ٥٣' ٢٣° » ٤٨° ١٥'	١٠° ٢٨' ٢٣° »

وعند محاولة تقدير الدرجة المحتملة للدقة عن خطوط الطول المستنتجة وجدت صعوبة إذ ينما تتحقق من أن متوسط الخطأ في انحرافات البوصلة كان أقل من درجة وهذا الخطأ تصحيح في التعديل نجد أن ليس لدينا ما يثبت أن الخطأ في الاجزاء المستقلة لم يتجاوز ذلك كثيراً ولكن نظراً للعدد الكبير من ارساد انحرافات البوصلة البالغ قدره ٣٣٩ الذى يُكوّنُ بيانات الاتجاهات عن

١٧٥٤ كيلومترا من الترافرس من جالو إلى الفوراوية (أى متوسط
 ٣٨ انحرافاً مرصوداً عن كل قسم من التسعة الأقسام) ومع ملاحظة
 الدقة المتناهية في تقدير المسافات كما تعينت من ارصاد خط العرض
 يظهر أن أى خط من خطوط الطول المبينة بعاليه لا يحتمل خطؤه
 في التقدير عن ثلاثة أو أربعة أميال وهذا يتضمن درجة من الدقة
 كان من الصعب تحقيقها بنقل عدد كبير من الكرونومترات في
 سياحة داخلية استغرقت أكثر من ثلاثة شهور . وأرى أنه يمكن
 الاجمال حينئذ بأنه لا يمكن الحصول على نتائج لخطوط الطول أحسن
 من هذه بدون مساعدة إشارات الوقت اللاسلكية

٦ — الارتفاعات فوق سطح البحر

استعمل للتقدير البارومتري للارتفاعات فوق سطح البحر
 (انريد) بوصة ٢ صناعة (استيورت) وكانت هذه الآلة
 احدى الاثنتين اللتين صنعتا خصيصاً لهذه الحملة لكي لا يتأثرا من
 تقلبات الحرارة وجهاز بمقياس ضغط مفتوح يمثل المليمتر على مقياسه
 الحقيقي مليمتر من الضغط تقريباً حتى أن التقديرات في الضغط
 الى نصف مليمتر كان في الامكان تقديرها . وقرىء البارومتر في
 الصباح والمساء في كل من المعسكرات وفي نقط أخرى متعددة
 في الطريق ودونت في الوقت ذاته قراءات درجة حرارة الهواء

بواسطة الترمومتر الذى يبين درجة الرطوبة وقد أظهر البارومتر
رضاء تاماً فى جميع أدوار الحملة . ولكن لسوء الحظ لم تسنح هناك
فرصة لاختبار الآلة قبل قيام حسنين بك ولكنه كان بحالة جيدة
عند نهاية الحملة وقد اختبر بعد ذلك فى معمل مصلحة الطبيعيات
فى مصر ووجد أنه يحتاج الى التصليحات الآتية فى درجة ٢٥
سنتيجراد

الضغط بالمليمتر	٧٦٠	٧٥٠	٧٤٠	٧٣٠	٧٢٠	٧١٠	٧٠٠	٦٩٠
	٦٨٠	٦٧٠	٦٦٠	٦٥٠				

التصحيح بالمليمتر — ٣و٢ — ٢و٣ — ٢و٣ — ٢و١ — ١و٤

— ١و١ — ٠و١ + ١و٧ + ٠و٢ + ٢و٨ + ٢و٩

وبقاء هذه التصحيحات ثابتة فى جميع أدوار السياحة محتمل
جداً بالاتفاق التام المبين بصفحة (١٣) بين المنسوب الذى وجد
عن جالو بقراءات البارومتر مباشرة (مصححاً بالطبع باعتبار ثبات
الجدول الموضح أعلاه) وبين قيمة المنسوب كما تعينت من قراءات
البارومتر الزئبقى فى محطة الارصاد الجوية فى سيوه

وكانت أول خطوة فى حساب منسوب البارومتر هى جمع
قراءات البارومتر والترمومتر فى كل من المعسكرات التسعة التى
صرفت فيها عدة أيام وأخذت فيها عدة قراءات واستخرج
متوسط جميع الضغط المدون ودرجات الحرارة عن كل من

المعسكرات الرئيسية وصحح الضغط عن الخطأ الآلى من
الجدول المين أعلاه ونظراً لأخذ الأرصاد فى أوقات مختلفة من
النهار فالاختلاف اليومى عن الضغط يمكن اهماله حيث إنه يتلاشى
عند أخذ متوسط القراءات. ولعمل حساب الاختلاف السنوى يحول
متوسط الضغط الى متوسط ضغط السنة باستعمال تصحيح مبنى على
الاختلاف السنوى العادى فى سيوه والابيض كما هو مدون بكتاب
(عاديّات الطقس) الذى وضعته مصلحة الطبيعيات المصرية
وموضح بالجدول الآتى

جدول تصحيحات لتحويل متوسط الضغط الشهرى الى
متوسط الضغط السنوى بالمليمتر

يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيه	يوليه
سيوه	— ٣٥٤ —	٢٥٠ —	١٥٩ +	٥٩ +	٥٩ +	٢٥٧ + ٣٥٥
الابيض	١٥٢ ..	— ١٥٧ —	٥٣ +	١٥٢ +	١٥٠ +	٥٦ + —
المتوسط	٢٥٣ —	١٥٤ —	٥٨ +	١٥٠ +	١٥٠ +	١٥٦ + ١٥٨

وكان من المرغوب فيه عمل تصحيح آخر للتوزيع على
الأماكن ذات الضغط البارومتري المتساوى عند سطح البحر فى
المنطقة التى اخترقت ولكنه لم تتوفر البيانات لعمل هذا التقدير غير
أن هذا التوزيع يحتمل أن يكون خطياً وقد توزع بالتقريب باعتبار
منسوب سيوه السابق (— ١٧) مليمتر والفاشر (٧٩٣) مضبوطاً

وتوزيع أى باق من الفرق بواسطة تصحيح قراءات البارومتر بين هذين المحلين بالتساوى بين الأقسام المختلفة و فرق الارتفاع المقابل لكل فرق متوسط قراءات البارومتر المصححة عمل حسابه من جداول "Barometrische öhenstufen" فى كتاب "Jordan Mathematische und Geodatische Hulptafeln" عن درجة حرارة الهواء المقابلة لمتوسط قراءات الترمومتر فى نهايتى الخط .

وكانت المناسيب المعتمدة عن ١٣ معسكراً كما تعينت بالطريقة المبينة قبلاً كما هى مبينة بالجدول بعد ومما هو جدير بالملاحظة أن باقى فرق الارتفاع الذى وزع بين سيوه والفاشر والذى فرض أنه نشأ من ميل خط الضغط المتسلسل كان (٦٣) متراً وهو يعادل هبوطاً عادياً فى الضغط عند سطح الماء بين المحلين بمقدار (٥) مليمتراً من وجهة أخرى فهذا محتمل قربه من الحقيقة وان التصحيح النهائى الذى عمل فى مناسيب أى جزء رئيسى من الطريق لا يتجاوزه أمتار

الارتفاعات المستنتجة فوق سطح البحر

الارتفاع فوق سطح البحر بالتر	فرق الارتفاع مصححا بالتر	فرق الارتفاع من واقع جداول بالتر	متوسط درجة الحرارة ستيجراد	متوسط الضغط مصححا بالملليمتر	عدد الارصاد
------------------------------	--------------------------	----------------------------------	----------------------------	------------------------------	-------------

١٧	—	—	١٢	٧٦٢,٦	٤
٣٢	+	٤٩	١٥	٧٥٧,٧	٥٠
٦١	+	٢٩	١٧	٧٥٤,٧	١٨
٣١٠	+	١٤٩	٢٣	٧٣٢,٨	٦
٤٧٥	+	١٦٥	١٩	٧١٨,٥	٣١
٥٩٨	+	١٢٣	٣١	٧٠٨	١٢
٦١٦	+	١٨	٣١	٧٠٦,٣	١٤
٩٠٦	+	٢٩٠	٣١	٦٨٣,٣	٧
٧٤٤	+	١٦٢	٣٤	٦٩٥,٢	٣
٩٦٩	+	٢٢٥	٣٣	٦٧٧,٧	٥
٨٥٧	+	١١٢	٣١	٦٨٥,٨	١١
٩٣٥	+	٧٨	٣٠	٦٧٩,٥	٨
١١٨٤	+	٢٤٩	٢٤	٦٦٠,٢	٥
٧٩٣	+	٣٩١	٣١	٦٨٩,٧	٥

سيوه
جغبوب
جالو
الحراش
تاج
اركنو
الموينات
اردى
اجاه
باو
الفوراوية
ام بورو
القطوم
الفاشر

بعد تحديد مناسيب المعسكرات الرئيسية عمل حساب المعسكرات المتوسطة ومحلات أخرى بنفس الطريقة مع تصحيح كل جزء من المناسيب المعتمدة في النهايات واقصي تصحيح كان يلزم لتطبيقه على فروقات الارتفاع الذي نتج من قراءات البارومتر بين نقطتين في سفر يوم واحد بلغ خمسة أمتار والمتوسط ثلاثة أمتار واستثنى من ذلك المسافة بين جغبوب وجالو حيث لم تعتمد مناسيب في الطريق بينها لعمل الخريطة نظراً لصعوبة وعدم ثبات حالة الجو مدة السفر بين هذين المكانين وحدثت زوابع شديدة في عدة أيام من السير كان يصحبها اختلافات سريعة في الضغط الهوائى حتى انه لم يمكن بالضبط الحصول على نتائج ارتفاعات من قراءات البارومتر

وأما بخصوص درجة الاعتماد على المناسيب المستنتجة فيحوم حولها شك في المناسيب المعتمدة على النقط النهائية وهى سسيوه والفاشر بينما لم يُختبر تكافؤ الحرارة في البارومترا وربما لم يكن مضبوطا وإذا اعتبرنا كل شيء فيمكن اعتبار المنسوب عن المعسكرات الرئيسية محتمل الصحة الى ٢٠ متر بينما المنسوب عن المعسكرات الوسطى والنقط الأخرى التى أخذ فيها قراءة أو قراءتان للبارومتر ربما كان الخطأ فيه ضعف هذه الكمية

٧ — ملخص المواقع الجغرافية الرئيسية والمناسيب

خط العرض شمالاً	خط الطول شرقاً	الارتفاع عن سطح البحر بالمتر	ملاحظات
٤١° ٤٤'	١١° ٣١'	٣٢	أخذ الموقع المعين
٣٣° ٢'	١٩° ٣'	٦١	سابقاً بمعرفة الدكتور
٢٦° ٥٤'	١٥° ٢١'	٩٨	بول
٢٩° ٢٦'	٢٥° ١٠'	٣١٠	الحراش بئر زيفن
٤٧° ١٣'	٢٤° ٤١'	٤٧٥	تاج (الكفرة)
٨° ١٣'	٢٤° ٢٤'	٤٠٠	بويمة الكفرة — معسكر رولفس
٣٢° ١٢'	٢٢° ١٥'	٥٩٨	ترافرس قصير بالبوصلة منت من تاج
٢٩° ٥٢'	٢١° ١٦'	٦١٦	العوينات
٣٩° ٣٥'	١٨° ٢٩'	٩٠٦	اردى (معسكر ٨ كيلومتر شمالاً البير)
٣٨° ٥٢'	١٧° ١٥'	٧٤٤	اجاه
٢٤° ٢١'	١٧° ٢٨'	١١٠٠	(انبياه)
٢٤° ٢٨'	١٦° ٤٧'	٩٦٩	خط الطول من خرائط
٥١° ٢١'	١٥° ٣٨'	٨٥٧	السودان
			الفوراوية

٨ - تكوين خريطة الطريق بمقياس $\frac{1}{\text{مليون}}$

في عملية استعمال المقاس المباشر في تعيين خطوط الطول للمعسكرات الرئيسية رصد الطريق احتياطيا بمقياس $\frac{1}{\text{نصف مليون}}$ مباشرة في دفاتر الارصاد على سلسلة لوح يحتوى كل جزء منها على جزء من الطريق وعلى رسم هذه اللوح اضيفت المناسيب المحسوبة عن كل معسكر والمعالم الجغرافية تعينت بانحرافات فرعية على جانبي الطريق بمذكرات على طبيعة الارض والاجزاء المختلفة التي رسمت احتياطيا بمقياس $\frac{1}{\text{نصف مليون}}$ صغرت بمقياس $\frac{1}{2 \text{ مليون}}$ مع اعتبار الفروقات البسيطة في توقعات الرسم عن مقياس $\frac{1}{\text{نصف مليون}}$ كما وقع من واقع خطوط العرض المرصودة . والاجزاء المختلفة المصغرة توقعت على الخط النهائية بين المواقع المعتمدة نهائيا للمعسكرات الرئيسية

ووجد عمليا بيان الطبيعة الجغرافية الرئيسية على الخريطة النهائية ولو ان المذكرات عن طبيعة الارض اضطر الى اغفالها لعدم ازدحام الخريطة ومع ذلك فان هذه المذكرات حفظت على خرائط قطاعية أصلية بمقياس $\frac{1}{\text{نصف مليون}}$ في قلم مساحة الصحارى بمصر حتى يمكن الرجوع اليها في المستقبل بينما روحها ادجت في رواية حسنين بك عن هذه الرحلة

ورسم الجزء الرئيسى فى الطريق وهو من جغبوب الى الفوراوية من واقع مذكرات حسنين بك اليومية ودفاتره . ونقلت الاجزاء الخاصة بالطريق من السلوم الى جغبوب فى الشمال ومن الفوراوية الى الابيض فى الجنوب من واقع الخرائط الرسمية الحديثة لمساحة مصر والسودان باعتبار انها ادق من طريقة مساحة الطريق . وقد ساعد تحديد مواقع الحراش والتاج من واقع ارصاد حسنين بك على تحديد الطريق فى رحلة حسنين بك السابقة مع المسز فوربز فى سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ بطريقة أضبط عن الارصاد الاصلية لتلك الرحلة التى لم تعزز بارصاد فلكية . وقد حدد الطريق السابق من واقع تحديد المواقع الحديثة وتبين بخطوط مقطعة على الخريطة الجديدة

٩ - اضافات لمعلوماتنا الجغرافية نتيجة هذه الرحلة

جالو يتفق اول جزء قطعه حسنين بك فى طريقه من جغبوب الى جالو بالطريق الذى قطعه رولفس فى سنة ١٨٦٩ وعند (جاراماتان سيدى) فى منتصف الطريق بين جغبوب وجالو يتفرع الطريق وقد اتبع حسنين بك الفرع الشمالى من الطريق المعروف بطريق «الزاوية» والذى يمر بآبار (هزيلا) ويتصل بجالو بطريق اقرب الى الشمال من الفرع الجنوبى المعروف بطريق المجبرة الذى اتخذه رولفس . ويتفق الموقع الذى حدده حسنين بك بالموقع الذى حدده

رولفس ولكن هناك اهتماما خاصا في تعيين منسوبها بمعرفة حسنين بك بمقدار ٦١ مترا فوق سطح البحر وقد وجد رولفس عند مزارها سنة ١٨٦٩ — و ١٨٧٩ ان البارومتر يبين منسوبها اقل من سطح البحر في سنة ١٨٦٩ وفوق سطح البحر سنة ١٨٧٩ وبناء على ذلك استنتج ان كل من « هزيلا » و « جالو » تقع عند سطح البحر (انظر مذكرات رولفس عن الكفرة سنة ١٨٨١ صفحة ٢٢٦) وتعتمد تعيينات حسنين بك على ارساد البارومتر مدة عشرة ايام مع مقارنته بسيوه

ومما يستحق الذكر ان نفس المنسوب المستنتج لجالو هو ٦١ مترا سواء اعملت المقارنة بالبارومتر المعيار في محطة الارصاد الجوية في سيوه في نفس هذا الوقت ام من قراءات اخذها حسنين بك بنفس البارومتر في ٤ ايام مختلفة في سيوه قبل ذلك بشهرين (مع حال الاختلاف السنوي عن الضغط في المدة بين الوقتين) ولا شك في دقة تعيينات حسنين بك اذ لم تسمح الفرصة لقراءات رولفس ان تمتد مدة طويلة كهذه ومن المؤكد انها لم تقارن في نفس الوقت بمكان ذي منسوب معلوم . ومما يجدر ذكره ان المنسوب الذي يشير اليه حسنين بك هو عن نقطة رصد اعلى من النقطة التي اتخذها رولفس وذلك نظرا لاحتاط الرمال بالمنازل وعليه شرع سكان العرج في بناء منازلهم من جديد على ارض اعلى واخذت ارساد حسنين

بك على أحدث مسكن من هذه المساكن . وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر وهي انه ولوان تعيينات حسنين بك صار مراجعتها بالواقعة التامة بين الطريقتين المتبعتين في المقارنة المذكورة آنفاً فان اختلافات الضغط المرصودة من يوم الى يوم عند جالو تزيد كثيراً عن سيوه في نفس عشرة الأيام التي أخذت فيها الارصاد وأكبر مدى أظهره البارومتر عند جالو كان عشرة مليترات من معيار البارومتر في سيوه . والسبعة مليترات هي متوسط الضغط بين المحليين عن عشرة ايام المقارنة والتي استعملت في حساب المنسوب الجديد هي عبارة عن متوسط الفرق الذي يختلف من ١ - ١٢ مليتر في ايام مختلفة . والاختلاف الكبير للضغط الجوى عند جالو يفسر عدم اتفاق نتائج رولفس في تواريخ مختلفة اذ ربما له صلة بالزوابع الرملية التي يكثر حصولها في هذه المنطقة

بئر ابو الطفل (او باتيفال كما سماها رولفس)

هي من الاهمية بمكان لانها آخر محل في طريق القوافل التي تخترق الصحارى الوعرة بمسافة طولها ٤٠٠ كيلو متر حتى تصل الى (زغين) . وموقع بئر ابو الطفل كما عينه حسنين بك يتفق بحالة جيدة مع الارقام التي اعطاها رولفس (انظر

خط عرض شمالا خط طول شرقا ارتفاع فوق سطح البحر

ارقام حسنين بك ٢٦° ٥٤' ٢٨ ١٥° ٤٥' ٢١ ٩٨

ارقام رولفس ٢٢° ٥٦' ٢٨ ١٠° ٤٤' ٢١ ٥٨

الفرق ١٥٦ - ١٥ - ٤٠

زغين (سرهن كما سماها رولفس)

وهي اسم للمنطقة التي بها عدة آبار وليست آهلة بالسكان وأهميتها تنحصر في وقوعها في طريق القوافل من جالو الى الكفرة. والبر الرئيسي المستعمل للقوافل هو بر الحراش . ولم يزر رولفس زغين وانما سافر من جالو الى الكفرة بطريق أكثر غربا عن طريق (تيزربو) و (بوزيما) والموقع المعين لزغين على الخريطة بنى تعيينه على اقوال مرشديه وهو على بعد ١٠٠ كيلو متر شرقا من الشمال الشرقى عن موقعه وبما ان المسير لأى سائح من جالو الى الكفرة في المستقبل ينتظر تنفيذه في الشتاء في الوقت الذي فيه اهمية الوقود تلى اهمية المياه فمن المهم ان يلاحظ ان اول احطاب للوقود توجد على بعد ٣٤٢ كيلو متر بعد بير ابو الطفل وعلى بعد ٥٢ كيلو متر قبل الوصول الى بر الحراش . وفي حالة الطوارئ يمكن الحصول على المياه من (ماتان ابو حوش) وهو البر القديم بزغين الذي يبعد ١٨ كيلو مترا قبل الوصول الى الحراش ولكن الحراش

مياهها الطف وهي المركز المعتاد الذي تروده القوافل ويمكن الحصول فيه على المياه بدون حفر وعلى ذلك فالقوافل ان لم تكن في شدة الظم تفضل الذهاب الى الحراش عن الوقوف عند البئر القديم ويمكن الحصول على احسن مياه في جوار الحراش بالحفر الى عمق (٣) او (٤) اقدام وتبعد الحراش عن بوزيمة بمقدار ٤٥ كيلو متراً في اتجاه منحرف قليلاً شرقاً عن الجنوب وتبعد الحراش عن التاج وهي أهم مدينة في إقليم الكفرة بمقدار ١٨٠ كيلو متر في اتجاه جنوب شرقي

تيزربو

وهي أقصى واحة في إقليم الكفرة من الجهة الشمالية الغربية ولم يزرها كما هو معلوم احد من السواح منذ ايام رولفس وموقعها كما عينه حسنين بك يقع بين درجتي ٧٠° و ٨٠° غرب شمال الحراش على بعد بين ٦٠ و ٧٠ كيلو متر وهذا التعيين يضع تيزربو في الموقع الذي عينه رولفس . وموقع معسكر رولفس عند قصر (جيران جدي) ربما كان يقرب من الحقيقة . ولو انه محتمل كون الواحة في الحقيقة أقل حجماً عما بينها في خريطته

بوزيما

ولو ان بوزيما لم يطررها حسنين بك في هذه الدفعة الا ان

تعيينه لموقع الحراش بالاتفاق مع ترافرس البوصلة التقريبي لموقع
 بوزيما عند سياحته مع المسز فوريز سنة ١٩٢١ يسمح لتعيين موقعها
 على درجة متوسطة من التقريب . وتقديرات حسنين بك عن
 المسافات والانحرافات في سياحته السابقة صار تصحيحها بمقتضى
 خطوط العرض المرصودة عن الحراش وتاج والتي تعين موقع
 معسكره في بوزيمه على بعد ٦٠ كيلومتر من الحراش في اتجاه
 خمسة درجات شرقاً من الجنوب الحقيقي . ومن معسكره الى معسكر
 رولفس (عين النصراني) يبلغ ١٥ كيلومتر تقريباً في اتجاه غربي
 من الشمال الغربي الحقيقي وباعتبار تعيين حسنين بك الحديث لموقع
 الحراش يعين موقع معسكر رولفس على بعد ٣٠ كيلومتر عن
 موقعه في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو الجنوب حسب ماعينه رولفس
 كما يتبين من المقارنة الآتية

خط عرض شمالاً خط طول شرقاً

بوزيمه (معسكر رولفس من ارضاد اشتيكر) $22^{\circ} 15' 0''$ $114^{\circ} 25' 0''$

بوزيمه (معسكر رولفس من تقدير حسنين بك) $22^{\circ} 54' 22''$ $113^{\circ} 58' 24''$

$\frac{22^{\circ} 54' 22''}{0^{\circ} 91' 4''}$ $\frac{113^{\circ} 58' 24''}{0^{\circ} 13' 31''}$

الفرق

ويتعذر القول بإمكان خطأ حسنين بك بمقدار ٢٥ كيلومتر
 في تقديره السابق لبعد بوزيمه عن الحراش ولذا نرى حقاً اعتبار
 حصول خطأ إما في ارضاد اشتيكر او فيما هو أكثر احتمالاً في تحويله

لهذه الارصاد . وهذه النقطة سيشار اليها فيما بعد عند المناقشة على
موقع بويمه

الكفرة (كبا بو كما سماها رولفس)

اسم الكفرة الآن لا يطلق على العموم على جميع واحات
الكفرة كما فعل رولفس في سنة ١٨٧٩ ولكن بصفة خاصة يطلق
على الجزء الذى أطلق رولفس عليه اسم كبا بو ومقر الحكومة
المحلية والمستعمرة الرئيسية هي المدينة ذات الاسوار المسماة تاج
الواقعة على قمة جبل صخرى يشرف على أودية الصحراء الحقيقية
التي تقع في الجنوب وتشمل القرى جوف - بومه - بويمه - الزروق
- الطلايب - الطلاب . وقد أجرى حسنين بك خط العرض عند
تاج وتقدم بنحو (٣) كيلومتر على انحراف (١٦) درجة غربا من
الجنوب الى جوف ومن هناك أجرى تقديرات مضبوطة عن البعد
والانحراف عن باقى قرى الواحة وبها تمكن من توقيع مواقعها
النسبية على الخريطة بدقة اقرب الى الحقيقة من ذى قبل

وتعلق أهمية عظمى لموقع بومه اقصى القرى شرقا في اقليم
الكفرة لانه عسكر هناك اشتيكر ورولفس ورصدا خط الطول
والعرض سنة ١٨٧٩ وقد عين حسنين بك بويمه على بعد ٢ كيلو
متر من تاج في اتجاه شرقى من الجنوب الحقيقى . وباعتمادنا تعيينه

لموقع تاج نحصل على المواقع الآتية لبويمه عند مقارنتها
بارقام رولفس

خط عرض شمالا خط طول شرقا

بويمه كما عينها حسنين بك	٢٤° ١٣' ٨"	٢٣° ٢٤' ٤٠"
بويمه كما عينها رولفس (انظر	٢٤° ٣١' ٣٨"	٢٣° ١٢' ٤٠"

(mitt afrik Ges., Band ; 1880-1882, p. 25)

الفرق — ١٨٣.٠ — — ١٢ —

وعلى ذلك عين حسنين بك موقع بويمه بمقدار ٤٠ كيلو
متر الى جنوب الجنوب الشرقى من الموقع الذى عينه رولفس من
واقع ارساد اشتيكر واهم ما فى هذا الاختلاف الكبير انه يقع فى
خط العرض الذى رصد مباشرة بمعرفة اشتيكر عند بويمه نفسها
وبمعرفة حسنين بك فى تاج على بعد ٢ كيلومتر من بويمه . ولم
استطع شخصيا العثور على اى تفاصيل لارصاد اشتيكر اللهم الا
انها اجريت بواسطة دائرة منشورية ولكنى عرضت بيانات
حسينن بك الاصلية عن ارساده عن الوقت وخط العرض فى تاج
الى التحيص الدقيق فوجدت برهاننا قاطعا ان خط العرض الذى
عينه لا يتجاوز الخطأ فيه ١ دقيقة واحدة . وقد رصد ارتفاع النجم
القطبى عند تاج فيما لا يقل عن ٦ ليالى مختلفة بساعة خطؤها بالنسبة

للوقت المحلى كان معروفا بالضبط بارصاد على الشمس والنجم اجريت
 فى نفس هذه التواريخ . ومن الفحص العميق للارصاد لا يتجاوز
 الشك فى خطأ الساعة التى رصد بها النجم القطبى عن ٢ ثانية فى
 الوقت وهذا الخطأ بالطبع لا يؤثر فى تعيين خط العرض . ومما
 يؤكد ان النجم المرصود هو النجم القطبى هو الانحراف عن الشمال
 المغناطيسى وكذلك معدل سيره فى حركته الظاهرة . واكبر فرق
 فى خط العرض المرصود عن المتوسط فى ارصاد ست الليالى لم يتجاوز
 ١٥ ومتوسط اختلاف اى رصد فردى عن المتوسط يبلغ ١٢ وعلى
 ذلك نخط عرض تاج كما عينه حسنين بك هو (١٣٤٧ ٢٤) يمكن
 اعتباره صحيحا بفرق قدره ١ وحيث انه لا يوجد مجال فى خطأ بهذا
 القدر فى تقدير مسافة بويمه من تاج فليس هناك محل للشك بان
 خط عرض بويمه الذى عينه رولفس هو اكبر بمقدار نصف درجة
 ومن المدهش ان يلاحظ ان الاختلاف فى حاله بوزيمه الذى يبلغ
 ١٣٣٣ بين خط عرض رولفس وخط العرض المستنتج من اعمال
 حسنين بك الحديث هو من نفس الدرجة والعلامة الجبرية مثل
 الفرق الذى وجد فى بويمه . وان تصحيحا سلبيا مساويا فى القدر
 لنصف قطر الشمس يجعل فى كل حالة نتائج كلا الراصدين متفقة
 تقريبا . ويعزى تفسير ذلك الى ان اشتيكر عين خط العرض برصد
 الحافة العليا من الشمس ظهراً وفى كل رصد من ارصاد بوزيمه وبويمه

اغفل تصحيح الارتفاع المقاس عن نصف قطر الشمس وبذلك جعل
خط العرض اكبر من الحقيقة بمقدار (١٦) . وخطاً مثل هذا كما
يعلم كل سائح علمي يسهل وقوعه في ارصاء اجري تحويلها بسرعة في
الموقع وفي الوقت الذي اجري فيه اشتيكر ارصاده وعمليات حسابه
في الكفرة كان هو وقائده عرضة لاخطر المحقق من ضياع ارواحهما
بايدي البدو وتعزى مثل هذه الاسباب لدرجة كبيرة في اختلافات
خطوط الطول في كلا المحليين

وبناء على تعيينات حسنين بك يقع معسكر رولفس في بوزيمه
على خط طول اكثر شرقاً من خط الطول الحقيقي بمقدار ٩ . ويقع
معسكره في بويمه اكثر غرباً من خط الطول بمقدار ١٢ . وما علينا
الا ان نفرض ان اشتيكر رصد حافة الشمس السفلى في الصباح
في بوزيمه والحافة العليا بعد الظهر في بويمه لايجاد الوقت المحلي وفي
كلتا الحالتين اغفل تصحيح الارتفاع المرصود بمقدار نصف القطر
وبذا يمكننا ان نغل تماماً كلا الاختلافين في خط الطول

ومما يدعو الى الحيرة في تفسير الخطأ في خريطة رولفس هو
ان رولفس قطع المسافة بين بوزيمه وبويمه وقدرها بمقدار ١٢٠ كيلو

متر (انظر (Mitt. Afrik Ges Band; 1880-1881 p. 23)

بينما عين حسنين بك هذه المسافة بزيادة ٤٠ كيلو متر وبما

ان أقوال رولفس عن المسافة كتبت بعد ما تعينت المواقع فلكيا
فمن المحتمل انه حصل على البعد ١٢٠ كيلومتر بالحساب من واقع
الأرصاد الفلكية لاغيا التقدير التقريبي الذي ربما يكون قد قدره
من واقع زمن سيره . واعتبر كل من حسنين بك ومسز فوربز ان
المسافة الحقيقية كانت اكثر من ١٢٠ كيلومتر حينما قطعها في
سنة ١٩٢١ ولكن بما انهما لم يعينا المواقع بالرصد فبقى من المشكوك
فيه ما اذا كان هناك خطأ في تعيين مواقع بوزيمه وبويمه على خريطة
رولفس ولكن الان برهن عمليا ان كلا هذين الموقعين على خريطة
رولفس كانا خطأ

واما بخصوص منسوب الكفرة فمن الباعث للارتياح اتفاق
ارقام حسنين بك مع ارقام رولفس . وقد اعطت قراءات حسنين
بك للبارومتر جنوب جوف عند (عزيله) ان الارتفاع عن سطح
البحر هو ٣٨٩ متر ويقدر ان بويمه تقع اعلى من ذلك بعشرة امتار
فيكون ارتفاع بويمه نحو ٤٠٠ متر عن سطح البحر وهذا الرقم
يتفق مع رقم رولفس . وبنى التاج على قمة جبل شمال جوف منذ
ايام رولفس وعين ارتفاعها بمقدار ٤٧٥ مترا فوق سطح البحر من
سلسلة قراءات البارومتر في خلال اسبوعين اما القرى الواقعة على
حدود الكفرة في شمال تاج فهي منخفضة عن تاج نفسها غير انها

أعلى بقدر محسوس عن باقي القرى الجنوبية في إقليم الكفرة. وتعلو عوازل بمقدار ٤٣٤ متر عن سطح البحر وكذلك الهواري والهووايري يقعان في نفس المستوى . وهناك اتفاق تام لدرجة ما في تقدير اتساع الكفرة من الشمال الى الجنوب. اما خريطة رولفس فتجعل فرق خط العرض بين الهووايري والطلاب بمقدار ٣٥ كيلومتر بينما حسنين بك يعين ذلك بمقدار ٣٠ كيلومتر ولكننا عند معالجة اتساع البلدة من الشرق الى الغرب نجد فرقا فاحشا فان رولفس يقدر الاتساع من الشرق الى الغرب بين بومه والطلاب بمقدار ٤٠ كيلومتر بينما حسنين بك يقدره بمقدار ٢١ كيلومتر وبما ان رولفس يظهر انه عين مواقع كثير من القرى استنادا على اقوال العرب وليس على تقديره الشخصي الدقيق كما فعل حسنين بك فلا حاجة لنا للتردد في اعتماد المواقع النسبية التي عينها حسنين بك باعتبارها اقرب الى الصواب . ويستنتج من خريطة رولفس ان الامتداد شرقا وغربا هو ضعف الحقيقة

والخطأ في الامتداد شرقا وغربا (بقدر ما يخص تعيين مواقع القرى وليس في تقدير اتساع الزراعة) هو اكبر على الخرائط التي

عملت بمعرفتي وطبعت بمعرفة مسز فوربز سنة ١٩٢١ (انظر

Geographical Journal vol. 68 (1921) p. 248

وهذا يرجع الى ان المسافة بين جوف والطلاب بولغ في تقديرها عن الرحلة السابقة فقد اعطيت لي بمقدار ٤٢ كيلو متر بينما هي تبلغ بحسب تقدير حسنين بك الاخير ٢٠ كيلو متر . ومما يلفت النظر عند مقارنة حسنين بك الاخير عن قرية الكفرة بالخريطة التي نشرت بمعرفة مسز فوربز هو أن عزيله واقعة في الثانية جنوب جوف بينما تقع في الخريطة القديمة التي عملت من واقع بيانات حسنين بك وكروكياته في شمال الهواويرى . ويعمل ذلك الى وجود بلدين باهم عزيله وهذا الاسم يطاق محليا على اى بئر منعزل يحاط حادة ببعض النخيل ويعتبر آخر مورد مياه القوافل عند مغادرتها الواحة وعلى ذلك فالعزيلة الشمالية هي آخر بئر للسائح من الكفرة الى الشمال الشرقى نحو جفوبب والعزيلة الجنوبية هي آخر بئر في الكفرة لاي سائح متوجه نحو وادى

ومن العزيلة الجنوبية في الكفرة الى اركنو ٢٦٦ كيلومترا في اتجاه جنوب شرقى ولا توجد مياه ولا مرعى في الطريق ومن اركنو الى العوينات مسافة ٤٢ كيلو متر في اتجاه اميل بقليل الى الجنوب

واحتا اركنو والعوينات

لقد كان من اهم النتائج التي حصل عليها حسنين بك هو اثبات

حقيقة وجود واحتى اركنو والعوينات وتعيين موقعيهما وارتفاعهما بالضبط تقريبا . فلقد كان هناك رواية متداولة بانه يوجد واحتان في او بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصرى حتى ان خريطة افريقيا بمقياس $\frac{1}{٤٠٠٠٠٠٠}$ التى نشرها

(Justus Perthes) في جوتا سنة ١٨٩٢ تبين واحة صغيرة غير مسماة وبثرا في خط عرض $(٢١^{\circ} ٥١')$ وخط طول $(٢٣^{\circ} ٣')$ وواحة أخرى لا يسكنها أحد وغير مسماة على بعد ٤٨ كيلومتر الى الشرق في خط عرض $(٢١^{\circ} ٥٠')$ وخط طول $(٢٩^{\circ} ٢٣')$ وكلتا الواحتين وضعتا على الخريطة بلا شك من اقوال العرب الشائعة ويظهر انهما لم يطرقيهما أى رحالة من قبل وفي الحقيقة كان وجودهما محتمل الشك جدا حتى انهما لم يبينا على الخرائط الحربية الانجليزية او الفرنسية . وانى لم استطع العثور على بيانات نشرت عن وجود واحة اركنو ولكنى وجدت ذكر واحة العوينات في احدى الرسائل الحديثة التى كتبها هاردنج كنج والقائم مقام تلهو (Lieut. Col. Tilho) وفي رسالة هاردنج كنج سنة ١٩١٣ (في المجلة الجغرافية مجلد ٤٢ صفحة ٢٤٢) عند كلامه «على صحراء ليبيا عن لسان أهلها» يقول انه سمع عن محل يسمى عوانه او عوانات في منتصف الطريق من (مرجا) الى (الكفرة) وبها بئر ومراعى خضراء على اثر الامطار وبالخريطة التى كانت ملحقة بهذه الرسالة قدر الموقع

المحتمل لهذه الواحة على خط عرض (٣٧° ٢١) وخط طول (٤٥° ٢٤) وتختلف بمقدار ١٣٠ كيلو متر عن اقرب الواحتين كما بينت على الخريطة الالمانية المذكورة ويقول القائم مقام تلهو الذي اجري استكشاف تيبستي واردي وبركو وعنيدى فى سنة ١٩١٢ — ١٩١٧ ان منطقة العوينات التى لاتزال مجهولة تقع بالتقريب بين ٢٢ و ٢٣ من خط العرض شمالا وبين ٢٤ و ٢٥ من خط الطول شرقا وعلم ان هناك طريقا بين العوينات ومرجا (انظر مجلد ٥٦ صفحة ٩٨ سنة ١٩٢٠)

اما ارصاد حسنين بك فعينت الموقع لمعسكره وارتفاعه عن سطح البحر فى اركنو والعوينات كما يأتى

خط العرض شمالا خط الطول شرقا الارتفاع عن سطح البحر			
اركنو	٢٢° ١٢' ٣٢"	٢٤° ٤٤' ١٥"	٥٩٨
العوينات	٢١° ٥٢' ٢٩"	٢٤° ٥٤' ١٦"	٥١٦

وعلى ذلك فالعوينات تكون ٢٤ كيلو متر أبعد مما قدرها هاردنج كنج من واقع اقوال مرشده ولكنها تقع خارج الحدود الواسعة فى خط العرض التى حدها القائم مقام تلهو وتبعد بمقدار ١٥٠ كيلو متر عن الموقع الذى توقع على الخريطة الالمانية تحت اسم « الواحة التى لا يسكنها احد » بينما اركنو التى هي الواحة الصغيرة الواقعة غرب الواحة التى لا يسكنها احد قد ثبت الآن انها تبعد

بمقدار ١٨٠ كيلو متر عن الموقع الذى تعين على الخريطة الالمانية
ويلاحظ ان اركنوهى فى داخل الحدود المصرية بينما تقع
العوينات على مسافة قصيرة داخل حدود السودان الانجليزى
المصرى

واهم ما فى تلك الاماكن انها تفتح مجالا لاستكشاف الزوايا
الجنوبية الغربية للقطر المصرى التى لم تصلها لان الدوريات
العسكرية ولا أجراً المستكشفين نظرا لعدم توفر اى معلومات
أكيدة عن وجود موارد المياه المستديمة ومواقعها . والآن وقد
بينت بالضبط مواقع اركنور والعوينات وعرفت مواقع موارد
المياه الصالحة للشرب بكميات معقولة فقد اصبح من الممكن على
اى رحالة من مصر ان يصلها ويحصل على المياه اللازمة له فى عودته
ولكنى لازلت اقول ان الوصول الى اركنو والعوينات من
مصر . ليس من السهل نظرا لوجود صعوبات عظيمة ولو ان
كلا الواضعين للخريطة الالمانية والمستر هاردنج كنج علم لهم انه
يوجد طريق قديم من مصر يصل الى العوينات ومن اقوال مرشد
المستر هاردنج كنج انه يوجد طريق من الواحة الداخلة بطول ٦٠٠
كيلو متر يخترق صحراء بلاماء وعلى ذلك تكون الرحلة بين
المكانين متعذرة على الجمال حتى فى فصل الشتاء بينما صلاحية

الارض لمرور السيارات وخصوصا في المنطقة الجبلية حول الواحات
ليست معلومة للان

واهم ما يذكر عن طبيعة اقليمي اركنو والعوينات ان ارضهما
ليست منخفضات طبيعية تستمد ماءها من مياه الرشح في قاع
الارض كباقي واحات صحراء مصر الغربية ولكنها مناطق جبلية
تستمد ماءها من مياه الامطار المحلية التي تتجمع في احواض صخرية
ووادى النيل في خط العرض نفسه لا توجد فيه تقريبا اى
امطار ولكن هناك على بعد ٧٠٠ كيلو متر غربا في الصحراء تنزل
فيه امطار كافية أن تكون موردا مستمرا وان كان محدودا (وفي
العوينات فهو كاف بحاجيات مستعمرة يسكنها ١٥٠ بدوى)
وفي وقت ما من السنة تنبت الحشائش لمرعى الحيوانات في الوديان
المنخفضة . ومستوى الارض في هذه المنطقة ٦٠٠ متر فوق سطح
البحر ولكن الجبال المجاورة للواحة تعلو ١١٠٠ متر عن سطح
البحر ومن الصعب ان يكون هناك شك في العلاقة بين الامطار
وبين نظرية تاثير الجبال حيث ان الجبال تجذب السحب وتساعد
في تكوينها . وبهذه المناسبة يجدر بالذكر ان عدم وجود الزرع
في الاراضى المستوية البعيدة في الجنوب كما في الاراضى التى في
الشمال يبرهن على ان سقوط الامطار في المناطق غير الجبلية اقل منه
في المناطق الجبلية حول هذه الواحة .

ولو انه نادر في صحراء مصر الغربية الا ان هذه الاحواض الصخرية معتاد وجودها في الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الاحمر حيث تسمى (Galts) انظر كتابي عن جغرافية و جيولوجية صحراء مصر الشرقية سنة ١٩١٢ صفحة ٢٤٠ - ويكون وجودها في اردى وعينى من منطقة افريقيا الفرنسية الاستوائية كما نعلم من اكتشافات تلهو وحسين بك

وان العوينات التى فيها جبال اعلى من اركانوبها مياه احسن واغزر. واحفظ مياه طول مدة الجفاف محكوم بعضه بطبيعة الصخور التى تتكون منها الجبال والتى لا تتسرب منها المياه وبعضه بوجود البرك المستترة تحت حماية الصخور فى اوعية صخرية تقلل من التبخر

وكان امتداد جبال اركنو والعوينات لا يزال مجهولا ولكنها نحو ١٠٠٠ كيلو متر مربع . وطريق حسنين بك واقع غرب السفح الغربى لهذه الكتلة حتى أن حدودها الغربية تحققت وكذلك امتدادها الشمالى والجنوبى . ولكن حدودها الشرقية فى مصر لا تزال مجهولة . ومما فيه ريب وجود سلسلة من التلال تربط الكتلتين من الجبال ببعضها شرقا . وأجرى حسنين بك استكشافا يمتد ٤٠ كيلو متر شرق معسكره فى العوينات دون أن يصل إلى

نتيجة الكتلة الجبلية . ويمكن رؤية الجبال على مسافات بعيدة من الشمال والجنوب . وقد أمكن رؤية أركانو على بعد ٦٠ كيلو متر من الشمال والعوينات بقيت مشاهدة على الأقل على مثل هذه المسافة من الجنوب في الطريق . ويحتمل أن لا تكون هذه الجبال ظاهرة للرحالة من جهة الشرق نظراً إلى تكوينها من عدة تلال صغيرة غير متصلة ببعضها والأرض في هذا الطرف عالية وتنحدر بالتدريج نحو النيل وسبق هذا غير معلوم إلى أن يحدث اكتشاف آخر .

ومسافة السفر من العوينات إلى آبار اردى تبلغ ٤٣٠ كيلو متر في اتجاه نحو الجنوب الغربي وتقع الـ ٢٨٤ كيلو متر الأولى منها في حدود السودان المصري الانجليزي والـ ١٤٦ كيلو متر الباقية تقع في حدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية ولا يوجد على طول هذا الطريق مياه قط ولكن يجد الانسان من حين لآخر بقاعاً بها حشائش جافة وذلك في النصف الأخير من الطريق

وقبل الوصول إلى أردى بنحو ٢٥ كيلو متر كانت الاودية مكسوة بالحشائش الخضراء وعلى ذلك فالحد الشمالى لمنطقة الامطار الاستوائية هو بالتقريب خط عرض (١٨° ٥٠)

اردى

يظهر أن أردى تطلق على منطقة واسعة تمتد من خط طول ٢١° إلى خط طول ٢٤° شرقاً وترتفع تدريجياً نحو الجنوب وتنتهى بجرف متقطع شرقاً وغرباً فى خط عرض $(١٨^\circ ٣٠')$ ومنبع المياه الذى زاره حسنين بك والذى عرفه مرشده بيثر اردى يقع فى خط عرض $(١٨^\circ ٣١')$ هو وخط طول $(٢٣^\circ ١٠')$ ويعلو عن سطح البحر بمقدار ٩٥٨ متراً . وهذا ليس بيثر وانما هو بركة صخرية مشابهة لآبار اركنو والعوينات ومياهه جيدة . ويثر اردى التى زارها حسنين بك قرية من المنطقة المينة على خريطة القانمقام تلهو سنة ١٩٢٠ تحت اسم « أرديما » ويظهر أنه بنفس العين التى زارها ذلك الرحالة . ويقع بثر اردى على رأس واد صغير تنصرف مياهه نحو الشمال ويضطر الانسان الى صعود التلال الى ارتفاع ١٠٢٠ متراً فوق سطح البحر ثم يعبر سهلاً متقطعاً قبل الوصول الى مصارف المياه الجنوبية التى تنتهى بالجرف . وقد تقدم حسنين بك مخترقاً هذا السهل فى اتجاه جنوبي شرقى هابطاً من الجرف عند خط عرض $(١٨^\circ ٢٥')$ وخط طول $(٢٣^\circ ٢٠')$ ومنسوب قدم الجرف هو (٧٩٠) متراً فوق سطح البحر فيكون الجرف على ارتفاع ٢٣٠ متراً

وبعد الهبوط من جرف اردى اتبع حسنين بك طريقه نحو الجنوب الى آجا مخرقا المنخفض الرملى العظيم الذى يفصل سهول اردى عن عنيدى (على بعد ٨٨ كيلو متر من معسكره فى شمال ابار اردى) ويظهر أن هذا الطريق كان محاذيا بالتقريب للطريق الذى اتبعه القائمقام تلهو سنة ١٩١٤ وعلى بعد ٢٠ كيلو متر منه شرقا

اجاه

منبع مياه اجاه هو بركة صخرية تشبه منبع اردى ولكن المياه رديئة نظرا لتلويثها بالحيوانات وتبعد البركة ٦ كيلو متر فوق سطح واد ينتهى نحو الشمال بجرف يواجه جرف اردى . وموقع البركة فى اجاه يقع على بعد ٢٤ كيلو متر من ينابيع اجاه التى بينها القائمقام تلهو على خريطته . ومن المحتمل تعدد البرك والينابيع فى المنطقة المجاورة بين هذه التلول وكلها يطلق عليها هذا الاسم وهذا مما يفسر الفرق الظاهر . والطريق من اجاه الى انيباه يبلغ ٦٥ كيلو متر ويتبع خطا متكسرا وعلى العموم فى اتجاه جنوبى . ويصعد الطريق فى العشرة كيلو مترات الاولى الوادى وبعد ذلك يعلو بسرعة حتى يصل الى ارتفاع فوق ١٠٠٠ متر عن السهل

انيباه — (عنيباه)

هى مستعمرة صغيرة للبدو بها بئر مياهه جيدة تبعد نحو ٢٨

كيلو متر شرقاً عن ابار كيته المدينة على خريطة القاعّمقام تلهو على نفس السهل العالى . ومن انيباه الى باو مسافة ١٢٠ كيلو متر متكسر جداً فى اتجاه جنوب الجنوب الغربى على سهول تلية غير مستوية . وبلغ اعلى ارتفاع دونه حسنين بك نحو ١١٨٤ مترافوق سطح البحر وقد وصل اليه فى نقطة على الطريق تبعد ١٨ كيلو متر عن انيباه وهذا الارتفاع البالغ ٣٨٨٤ قدما هو أعلى بقليل من ٣٦٠٠ قدم التى دونها القاعّمقام تلهو كأعلى ارتفاع بلغه على نفس سهل اردبيه فى نقطة اكثر غربا ويحتمل ان هذا السهل يأخذ فى زيادة الارتفاع نحو الشرق . وقد عبر وادى (كابتاركو) على بعد ٤٧ كيلو متر بعد ذلك . ومما يجدر بالذكر ان بيانات حسنين بك عينت موقعا لهذا يقرب جدا من كابتاركو المين على خريطة القاعّمقام تلهو

باو

باو التى زارها حسنين بك هى ليست بوالتى زارها القاعّمقام تلهو والتى تقع على بعد ١٠٠ كيلو متر اكثر شمالا ولكن هى المكان المعروف باسم (اوروبو) الواقعة على خريطة تلهو و (باو) على خريطة واداي ودارفور التى ارفقت بالاتفاقية الانجليزية الفرنسية فى باريس سنة ١٩١٩ كما يتضح من المقارنة الآتية عن

المواقع المعينة بمعرفة حسنين بك والمقاسة من الخرط عن المحليين
المذكورين

خط عرض شمالا خط طول شرقا

٢٤° ٢٨' ١٦° ٤٧' ٢٣° (حسين بك)

٢٢° ٥٩' ١٦° ٣٠' ٢٢° (تل هو)

٢٣° ٤٠' ١٦° ٢٨' ٢٣° (خريطة الاتفاقية)

وتقع ابار باو عند رأس الوادى الذى يصرف مياهه شمالا
وتكثر فيه الشجيرات والاشجار وبه عدة آبار مستديمة . ولو
ان المياه تقل في فصل الجفاف ويضطر حينئذ الى تعميقها . والطريق
من باو الى الفوراوية يبلغ ١٤٥ كيلو متر في اتجاه جنوب الجنوب
الشرقى على ارض مكسوة بالحشائش والشجيرات . ومر حسنين بك
على بعد ٥٥ كيلو متر من دخول الفوراوية بالقرب من تل معروف
بالتميره عليه جزع شجرة يابسة معتبرة كعلامة حد بين الاملاك
الفرنسية وبين الاملاك الانجليزية المصرية . ولم تؤخذ ارساد فلكية
هناك ولكن نتائج حسنين بك المضبوطة بالترافرس الذى عليه
تعين الموقع التقريبي للتل في خط عرض (١٥° ٤٨') شمالا وخط
طول (٢٣° ٢٧') شرقا ووادى هور المسمى (هو) على خريطة
الاتفاقية الانجليزية الفرنسية عبر على بعد ٧ كيلو متر بعد تل التميره

الخلاصة

وبالحصول على تحليل نتائج حسنين بك الذي استغرق زمناً كبيراً من وقتي لمدة تزيد عن شهرين ربما يسمح لي أن ألاحظ بأن رحلته كما يميل لي هي فوز يكاد يكون فريداً في تاريخ الاستكشاف الجغرافي . والطريق من السلوم إلى الأبيض مسافة ٣٣٤٥ كيلومتراً أغلبه يتخلل صحراء غير مأمونة يسكنها نفر قليل من القبائل القديمة المتعصبة والتي لا يمكن لأحد أن يجتازها بدون حرس عسكري قوى ما لم يكن مسلماً وذا ارادة قوية وحكمة صادقة وثبات متين ولكن حسنين بك لم يقيم فقط بهذه الرحلة الشاقة وأتى بأوصاف هامة وصور شمسية عن البلاد التي مربها في طريقه وإنما اجهد نفسه قبل القيام من مصر بعدة أسابيع للتمرين على سهولة استعمال التيودوليت وفي الحصول على معلومات عن أحسن طرق مساحة الاستكشاف التي تستعمل في استكشاف مثل هذا الذي عزم على القيام به . وقد برهن في طول سياحته على حسن تطبيقه للمعلومات المساحية التي حصل عليها . وإن الدقة والضبط في ارضاده يشهدان بذلك عند تحليلها السابق

وأهم شيء جدير بالذكر هو قدرته على القيام بهذه الارصاد بلا مساعد واستمراره في التحفظ على الدقة والضبط في مقاساته وبياناته

لمسافة تزيد عن ٢٠٠٠ كيلو متر والتي تفصل نقطتين في طريقه معلوماتين من ذى قبل . ومما يستحق الشكر عليه ترتيب وتفصيل طبيعة ارضاده التي جعلت أمر تحليلها عملا مقبولا لا غضاضة فيه وجعلت من السهل تخطيط طريقه وتعيين المواقع المستكشفة حديثا على طول طريقه على الخريطة بدرجة عظيمة من الدقة

واهم الاضافات الى معلوماتنا عن الشمال الشرقى من افريقيا والتي كانت وليدة ابحاث حسنين بك هي ما يأتى

(١) الموقع الحقيقى لآبار الظيغن والكفرة الناشئ عن التغير نحو ١٠٠ و ٤٠ كيلومتر على التوالى من الموقع السابق بيانه على خرائط افريقيا

(٢) اكتشاف واحتى اركنو والعوينات اللتين لم تعرفا من قبل وتعيين موقعيهما وسعة مناطقيهما بالتقريب وبذا يفتح طريق جديد محتمل لرحلات جديدة فى صحراء ليبيا بمناطق لم تستكشف من قبل

(٣) اكتشاف طريق فى الجنوب الغربى من مصر يجتاز سهل اردى وانيدى فى افريقيا الاستوائية الفرنسية الى دارفور وتعيين مواقع موارد المياه الواقعة عليه

وهذا الاستكشاف له علاقة مهمة ويعتبر كتمة للاستكشافات

المجيدة الحديثة التي قام بها القائمقام تلهو في السودان الفرنسي

(٤) تعيين مناسب مضبوطة للبارومتر على طول الطريق وبذا
امكن الحصول على معلومات قيمة عن طبيعة تكوين الجبال في
منطقة واسعة لم يعرف عنها شيء من قبل وكانت هذه المعلومات
مثبتة لاستنتاج القائمقام تلهو بانه لا يحتمل ان يوجد مخرج صرف
لبحيرة تشاد في اتجاه شرق

استنتاجات من المعلومات الجيولوجية

التي جمعها احمد محمد حسنين بك أثناء رحلته من

السلوم الى الفاشر مخترقا صحراء ليبيا عن

طريق الكفرة والعوينات

بقلم الدكتور و . ف . هيوم

مدير قسم الجيولوجية المصرية

ترجمة

من صادر بك

مفتش بالقسم الجيولوجي بمصلحة المساحة

ابداً قبل بحث المسائل التي نحن بصددتها بتهنئة حسنين بك
لنجاحه في اتمام رحلة فتحت امامنا منطقة عظيمة كانت حتى الان
من مجاهل الارض . والذين مارسوا منا الاسفار بالصحارى
ولو قليلاً لا بد معجبون بمجهوده في قطع نيف وثلاثة الاف
وخمسمائة كيلو متر في صحراء قفرة مغلقة لأسباب سياسية او دينية
في وجه المستكشف الاوروبى . ولا بد ان يكون قد صادف في

رحلته من الصعاب والمشاق ما اضنى من الجسم والعقل الا انه لا شك قد عوض من ذلك بلذة الشعور بالحرية الذى يبعثه وجوده في ذلك الفضاء الذى لاحد له وترقبه الدائم لاستكشاف جديد.

وقد أظهر حسنين بك عزمًا أكيدًا على ان يعود بملاحظات صحيحة عن كل ماله أهمية علمية فحصل بذلك على مجموعة ثمينة من النماذج الجيولوجية والصور الفتوغرافية تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى المصرية خبرة عملية ان يصلوا الى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها .

وحيث كنت فائبا عن مصر عند عودة حسنين بك فقد قام المسترمون بفحص هذه النماذج والعينات وقد ارفقت مع هذه المذكرة ملاحظاته والنتائج التى وصل اليها وعند فحص النماذج والصور الفتوغرافية التى عرضها علينا حسنين بك لفتت نظرى النقط الآتية بوجه خاص : —

(١) وجدت ما بين واحتى سيوه والجغبوب قطع من الاخشاب المتحجرة جاءنا من بعضها بقطع وصور البعض الآخر . وفى هذا دليل على امتداد ما نسميه (الغابات المتحجرة) امتدادا عظيما نحو الغرب . كذلك يبعث عندنا الرغبة فى فحص المنحدر الجنوبى لهضبة برقة حتى الحدود الغربية المصرية بما فى ذلك الجزء المرقوم « لم

يستكشف « على خريطة القطر المسمى الجيولوجية مقياس
٠٠٠٠٠٠ ١/١ .

(٢) تدل نماذج المحارات أوستريا فيرليتى (*Ostrea Virleti*)
وأوستريا ديجيتالينا (*Ostrea digitalina*) وهى من الحفريات الشهيرة
التابعة للعصر الميوسينى أن واحة الجغبوب واقعة فى صخور تابعة
لنفس التكوين الجيولوجى الموجودة فيه واحة سيوة وهو تكوين
تابع للجزء المتوسط من العصر الميوسينى . كذلك تدلنا العينة رقم
٣ على امتداد هذا التكوين نفسه فى اتجاه واحة جالو .

(٣) وهناك عينات من حجر جيري صلب التقطت عند نقطة
رمز اليها بحرف (A) على الخريطة المرفقة بمذكرات المسترمون على
بعد قليل جنوبي خط العرض ٢٨٥ شمالا . ومن بينها قطعة من صخر
مكون من بقايا محارات يغلب ان تكون تابعة للعصر الميوسينى
ايضا . اما العينات الاخرى فيحتمل ان تكون من طبقات تابعة
للعصر الايوسينى او الكريتاسى اذ ان هناك طبقات تابعة لهذه
العصور وتمتد على هذا الخط شرقى الحدود المصرية على ان خلو هذه
النماذج من الحفريات يتعذر معه البت فى عمرها الجيولوجى
بطريقة اوضح

(٤) من يوم ٢٠ الى ٢٤ مارس كان حسنين بك يخرق سهلا

منبسطاً عظيماً وقد يدعونا ذلك الى التساؤل عما اذا كان هذا السهل نتيجة تأثير عوامل التفتت والتعرية على الطبقات الطينية والرملية الرخوة التي توجد عادة بين الاحجار الجيرية الكريتاسية والطبقات الصلبة من التكوين المعروف عند الجيولوجيين بالحجر الرملى النوبى .

(٥) وسواء أصبح هذا الاعتبار أم لم يصح فقد ابان لنا المستر مون ان حنين بك وصل الى اول طبقات التكوين الرملى النوبى عند نقطة تبعد قليلا الى الشمال من الحرش (الظيغن) وعينات الصخور التى التقطت من هذه النقطة جنوباً الى النقطة المرموز لها بحرف (C) على الخريطة كلها انواع مختلفة من هذا التكوين الرملى الذى يغطى مناطق هائلة فى مصر والسودان .

(٦) وهناك أهمية خاصة لاكتشاف احجار جرانيتيه فى واحات العوينات واركنو والنوع الشائع بين هذه الصخور الجرانيتية هو البجماتيت المكون من بلورات كاملة من الفلسبار والكوارتز (المرو) والهورنبلند . وقد اظهرت لنا الصور الفتوغرافية أهمية تأثير درجة الحرارة على سطوح هذه الصخور فترى سفح الجبل منشورة عليه جلاميد عظيمة من الصخر قد انفلق بعضها من جراء تغير درجة الحرارة الى قطع كبيرة لا يشك الناظر اليها فى انها كانت فيما

مضى قطعة واحدة .

اما فيما يختص بالعلاقة بين الجرانيت وطبقات الحجر الرملي النوبي فيلاحظ ان جبل الجرانيت مرتفع ارتفاعاً كبيراً عن طبقات الحجر الرملي التي تحيط به وهذا الفرق في الارتفاع يمكن تفسيره بأحد الفروض الآتية : —

(اولاً) وجود تعريب في طبقات الارض في هذه الجهة على شكل قبو يكون الجرانيت الجزء الأوسط منه .

(ثانياً) وجود انشقاق او فالق عظيم تسبب عنه ارتفاع الجرانيت وانخفاض الطبقات الرملية .

(ثالثاً) تدخل الجرانيت وهو في حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملي التي كانت تعلوه على انه بعد التحدث مع حسنين بك وفحص الصور الفتوغرافية التي لها علاقة بهذا الموضوع اجدني مضطراً للاستنتاج الآتي . —

(١) من المحتمل وجود اثناء في الطبقات على شكل قبو عظيم اذ ان طبقات الحجر الرملي ترى مائلة نحو الناظر في الصورة السينماوغرافية التي عرضها حسنين بك والتي ترى فيها حملته في طريقها بوادي العوينات

وهذه الظاهرة معروفة ايضاً في بعض النقط جنوب واحة

الخارجة حيث توجد طبقات الحجر الرملى النوبى مائلة ميلا ظاهراً عن الجرانيت واذا بحثنا الفرض الثالث فليس هناك فى اى جهة من جهات القطر المضرى ما يدل على تدخل الجرانيت فى حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملى النوبى وبالعكس ففى جميع الحالات التى تظهر فيها علاقة الجرانيت بهذه الطبقات النوبية قد قام البرهان على ان تكوين الجرانيت سابق لتكوين الطبقات الرملية وانه قد تعرض فعلاً لعوامل التعرية قبل رسوب تلك الطبقات الاخيرة على سطحه .

(٣) فى انتظار سنوح فرصة لدراسة هذه المسئلة دراسة مفصلة نحن ميالون للأخذ بالفرض الذى يعزو الفرق فى الارتفاع بين الجرانيت وطبقات الحجر الرملى النوبى الى أن الطبقات فى تلك المنطقة قد سبق اثناؤها فى شكل قبو مستطيل نواته الجرانيت تحيط به طبقات الحجر الرملى النوبى . ولو أن ذلك لا يمنع بقاء الفرض الآخر أى وجود فالق عظيم نتج منه ارتفاع الكتلة الجرانيتية الى ارتفاع يعلو سطح الطبقات الرملية التى كانت تعلوه قبل ذلك أو أن الطبقات الرملية هى التى انخفضت على الجانب الآخر من ذلك الفارق الى مستوى أوطأ من الجرانيت .

وهناك ظاهرة أخرى على جانب من الأهمية وهى وجود

رسوم متقنة الصنع على سطح جلاميد الجرانيت تمثل الزراف
والنعام . وقد أخبرنا حسنين بك أن الجمل لم يمثل بين هذه الصور
وليس بينها مع الأسف صور مفصلة للانسان . ويحتمل أن تكون
هذه الصورة من صنع الانسان في العصور القديمة في وقت كان
هذا الجزء من شمال أفريقيا يتمتع بأمطار أغزر من الوقت الحاضر
وبالاختصار فرحلة حسنين بك قد أبانت لنا امتداد طبقات
العصر الميوسينى والتكوين الرملى النوبى غرباً الى مدى أبعد من
الحدود الغربية المصرية وهى فى تلك المناطق محتفظة بنفس الخواص
التي لها بالصحارى المصرية . كذلك يفتح استكشاف واحة جديدة
فى صخور جرانيتية فى هذا الجزء من الأراضى المصرية طريقاً
أخرى بين دارفور والواحات الداخلة ويمطينا قاعدة يمكن الاعتماد
عليها للحصول على المياه لمن يريد أن يزور هذه المناطق فى المستقبل
ومن المهم جداً اجراء دراسة جيولوجية مفصلة لهذه المناطق

مذكرات جيولوجية .

عن رحلة حسنين بك

من السلوم الى دارفور سنة ١٩٢٣

بقلم المسترف . و . موه

ترجمة حسن بك صادق

طلب منى حسنين بك فى غيبة الدكتور هيوم مدير القسم الجيولوجى
بالاجازة أن أخص نماذج (عينات) الصخور والحفريات التى
جمعها أثناء رحلته الاستكشافية بالصحراء المصرية الغربية من السلوم
على شاطئ البحر الابيض المتوسط الى دارفور بالسودان . وقد
تقبلت هذه المهمة بكل سرور وأقدم هنا ملاحظات مختصرة عن
الظواهر الجيولوجية التى يمكن استخلاصها من العينات والصور
الفتوغرافية ومن أقوال حسنين بك نفسه . ولو أن النماذج والعينات
صغيرة الحجم طبعا وهى فيما يختص بالصخور النارية تظهر عليها
علامات التحلل من تأثير تعرضها للعوامل الجوية بالصحراء فى
سنين عدة فهى مع ذلك كافية لأن تستنتج منها معلومات صحيحة
عن التكاوين الجيولوجية التى مر عليها المستكشف إبان رحلته

وقد فسر لنا الرحالة كيف أن صعوبة النقل حالت دون أن
يجمع نماذج كبيرة وافية وقد أراد قدر المستطاع أن يتجنب كل
ما يبعث الشك في نفوس مرافقيه بأن لا يأتي من الاعمال ما يمكن
تأويله على غير القصد منه مثل أن يكثر من تكسير الصخور وحمل
قطع منها على غير المؤلف بينهم

يظهر من الجدول المفصلة فيه العينات الجيولوجية وأوصافها
في ذيل هذه المذكرة أن الطريق كانت في ابتدائها فوق صخور
تابعة للعصر الميوسيني تدلنا على ذلك حفريات المحارات اوستريا
ديجيتالينا (*Ostrea digitalina*) واوستريا فيرليت (*Ostrea Virleti*)
وكلاميس زيتلي (*Chlamys Zittelli*) وغيرها وقد جمعت سبع
محارات من الاولى واثنان من الثانية واثنان من الثالثة وخمس
غيرها تشبه كلاميس سبملفينا (*Chlamys submalvinae*) وهذه كلها
من الحفريات المعروفة بكثرتها في طبقات العصر الميوسيني في
الصحارى المصرية

وتمتد طبقات الميوسين الى واحات سيوة والجغبوب وچالو
ثم جنوبا الى نقطة تبعد نحو ١٠٨ كيلومتر جنوبى چالو حيث
التقطت آخر عينة من محارات العصر الميوسينى رقم ٤ (انظر
العينات رقم ١ — ٤) ومن هذه النقطة الأخيرة المرقوم لها بحرف

"A" على الخريطة المرفقة تستمر الطريق في سهل قفر منبسط ليس به من الصخور ما له أهمية جيولوجية عدا طبقة رقيقة من الرمل والحصى حديثة التكوين تغطي سطح ذلك السهل العظيم الذى يمتد نحو مائتى كيلو متر أى مسيرة أربعة أيام مملة الى الجنوب

ولما ان بلغ نقطة تبعد ٥٠ كيلومتر شمال الظيغن رأى الرحالة أن ما حوله من المناظر قد تغير تغيراً ظاهراً وتبدل لون الصخور المحيطة به من اللون الاصفر الباهت الذى لازم الصخور الجيرية الميوسينية وكذلك رمال الصحراء الى ألوان ساطعة تدلنا قطع الصخور التى التقطها منها على أنها طبقات الحجر الرملى المعروف عند الجيولوجيين بالتكوين الرملى النوبى التابع للعصر الكريتاسى وقد يوجد بين هذه الألوان أحياناً اللون الازرق والاخضر ولكن اللون الاساسى هو الاحمر بجميع أشكاله من قرنفلى وطوبى وكذلك ألوان المغرة ممزوجة ببعضها البعض . وقد توجد المغرة نفسها فى شقوق تتخلل هذه الطبقات . وفى هذا دليل على امتداد التكوين الرملى النوبى امتداداً عظيماً نحو الغرب اذ أن النقطة المرقوم لها بحرف "B" تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر الى الغرب من آخر نقطة معروفة على الحد الشمالى لطبقات هذا التكوين كما هو مبين على الخريطة مقياس ١:١٠٠٠٠٠ / ١ طبعة سنة ١٩١٠

ومما يلفت النظر عدم وجود عينات تدل دلالة قاطعة على وجود الطبقات الكريتاسية العليا . ومن المحتمل جدا وجودها مغطاة تحت الرمل والحصى الذى يغطى سطح السهل الواسع الذى سبقت الاشارة اليه بين النقطتين "A" و "B" على الخريطة وهناك مسألة اخرى بقيت غامضة من جراء وجود هذا السهل السابق الذكر وهى تقرير الحد الجنوبي للطبقات الميوسينية تقريراً دقيقاً فاذا اعتبرنا أن النقطة "A" التى التقطت عندها آخر حفرة ميوسينية هى نقطة على ذلك الخط لوجدنا أن التوزيع المقترح هنا لطبقات هذا التكوين ذو أهمية من ناحيتين .

- (١) دلالة على الامتداد غربا للبحر القديم الذى كان يغطى منطقة البحر الابيض المتوسط وما حوله فى العصر الميوسينى
- (٢) تقوية اعتقادنا فى أن الحركات الارضية التى أدت الى اثناء طبقات الارضية فى الجزء الاكبر من مصر وشبه جزيرة سيناء على شكل قبو هائل حدثت قبيل العصر الميوسينى مباشرة . وقد كان هذا القبو العامل الاكبر فى تحديد شاطئ ذلك البحر الميوسينى الذى كان على هذا الاعتبار يمتد من النقطة التى عيناها الآن بين الحرش (الظيغن) وچالو الى نقطة قريبة من واحة سيوه.

ثم يتجه الى الشمال الشرقى حتى خط عرض ٣٠° شمال ثم يتبع ذلك تقريبا حتى السويس

ويظهر أن الاراضى المصرية الواقعة بين شواطىء خليج السويس كما كانت معروفة فى العصر الميوسينى وشاطئ البحر الميوسينى بعد سيوة وللطيفن كانت أرضا يابسة فى ذلك العصر ومعرضة طبيعيا لعوامل التعرية إبان مدة جيولوجية طويلة مما أدى الى انكشاف طبقات التكوين الرملى النوبى والطبقات الكريتاسية الأخرى ثم رسوب الطبقات للميوسينية فوقها مباشرة

أما الحجر الرملى النوبى فتدلنا العينات رقم ٥ - ١٠ أنه محتفظ هنا بجميع الخواص التى له فى باقى جهات الصحارى المصرية وشبه جزيرة سيناء فهو حجر رملى مكون من حبيبات رفيعة مستديرة من الكوارتز تتخلله هنا وهناك كميات مختلفة من الحبات الكبيرة والحصى وقد تتغلب نسبة الحصى أحيانا فيصير الصخر من نوع الكونغلومرات . أما المواد الجيرية أو السيليسية أو الحديدية التى تحدث تماسك حبيبات الكوارتز فهى أيضا التى تغطى الصخر لونه الذى يختلف فى عمقه باختلاف تركيب وكمية اوكسيدات الحديد الداخلة فى هذه المواد . وهذه الاوكسيدات الحديدية من جراء تأثير العوامل الجوية وعلى الاخص الامطار تتجمع فى جيوب

أو شقوق في الصخور ويمكن اذا طحنت طحنا دقيقا أن يستعمل
في صناعة الاصباغ

وتمتد طبقات التكوين الرملى النوبى من النقطة التى انتهت
عندها الطبقات الميوسينية جنوبا الى نقطة مرقوم لها بحرف "C"
على الخريطة تبعد نحو ١٥ كيلومتر شمال جبال اركنو:

وباقترابه من هذه النقطة الاخيرة لاحظ الرحالة أن معالم الارض
بدأت تتبدل مرة اخرى فالألوان الساطعة التى لازمت الحجر الرملى
تغيرت الى ألوان قائمة تميل الى الاسمر والاسود فى جبال من الصخور
النارية يبدأ ظهورها على سطح الارض عند النقطة "C" على الخريطة
وهذا التغير فى المناظر الطبيعية الذى يصحب الانتقال من تكوين
جىولوجى لآخر يبدو بوضوح فى الصور الفوتوغرافية الجميلة
التي عرضها أمامنا حسنين بك والتي من أجلها يستحق كل
ثناء واعجاب

فمنها صور تعطى فكرة صحيحة عن المناظر الطبيعية فى
مناطق التكوين الرملى النوبى وأخرى ترينا المناظر فى مناطق
الصخور النارية

وتدلنا العينات رقم ١١ الى ٢٢ أن الصخور النارية التى منها
تتكون جبال اركنو والعوينات هى من فصيلة الجرانيت والسيانيت

ذات التبلور الظاهر تحترقها عروق وسدود من صخور نارية اخرى
دقيقة التبلور جبال اركنو مكونة في الغالب من صخور متشابهة
التركيب تمثلها العينات ١٢ و ١٤

فالعينة رقم ١٢ عبارة عن مجموعة متماسكة من البلورات التامة
التبلور من فلسبار قلوى ذى لون رمادى وربما كان من نوع
الارثوكلاز المتحول الى الكاولين . وهذا المعدن هو أهم عنصر في
تكوين تلك الصخور أما الكوارتز فغير ظاهر في العينة المذكورة
التي ثقلها النوعى نحو ٢٥ . وعدا الفلسبار فتوجد بالصخور بلورات
صغيرة جيدة التكوين خضراء قائمة اللون من الهورنبلند على أن
نسبة هذا المعدن في الصخور التي نحن بصددتها أقل منها في الصخور
المثلة بالعينات ١٢ و ٢١ من جبال العوينات التي سيأتى ذكرها بعد .
والعينة رقم ١٤ هي قطعة من صخر رمادى اللون أهم عناصره
فلسبار قلوى رمادى اللون ومعه بلورات من الهورنبلند بنسبة
تعادل الموجود منه في العينة رقم ١٢ وقد ظهر من الاختبار
الميكروسكوبى لقطاع رقيق من العينة رقم ١٤ أن هذا الصخر
الاخير يطابق تماما الوصف الذى تقدم للعينة رقم ١٢ ويزيد عليه
احتمال وجود معدن النفلين ترى في بقع ترى في القطاع وتقابلها في

العينة نفسها يقع سمراء لامة ترى بالعين المجردة . على أنه لم يتحقق وجود النفلين بوجه التأكيد

ومما تقدم يمكن اعتبار العينات ١٢ و ١٤ من الصخر المعروف بالسيانيت . وتخترق صخور السيانيت في جبال العوينات عروق مختلفة من أحجار نارية أخرى تدل عليها العينات ١١ و ١٣ و ١٥ ولا شك في وجود غيرها لم تلتقط منه عينات

فالقطة رقم ١١ تمثل عرقاً من صخر صلب دقيق التبلور أخضر اللون قائمه يظهر على سطحه اسمرار نتيجة تأثير العوامل الجوية وعليه عدد كبير من نقط سوداء لا ترى في داخل الصخر وقد ظهر من الفحص الميكروسكوبي أن لهذا الصخر أهمية خاصة فهو مكون من أرضية من البلورات الصغيرة من الفلسبار دقيقة أو ميكروسكوبية في بعض الأجزاء منتشرة فيها بلورات رفيعة من معدن أخضر يشبه الایجیرین وتوزیع هذه البلورات الأخيرة ليس توزيعاً منتظماً حيث توجد بلورات الفلسبار بشكل المعين (lozenge) نرى بلورات الایجیرین مكدسة حول حروفها . أما معدن الكوارتز فلم يلاحظ في أي جزء من القطاع الميكروسكوبي ولذلك يمكن اعتبار الصخر فلسيت الایجیرین وهو يشابه كثيراً الصخر الموصوف والمرسوم في كتاب الاستاذ هاركر Petrology

أما القطعة رقم ١٣ فهي من عرق آخر يخرق صخور جبال
أركنو ويمكن التعبير عنه بالكوارتزيت الأسمر

والقطعة رقم ١٥ من عرق آخر من ذى طبقات رقيقة لونه
رمادى قائم قد تحول سطحه من تأثير العوامل الجوية الى لون اسمر
ماثل للأحمر وهو فى تركيبه عبارة عن أرضية دقيقة الذرات جدا
مبعثر فيها بلورات صغيرة شفافة وقد أظهر القطاع الميكروسكوبى
تشابها كبيرا مع القطعة رقم ١١ السابق وصفها . على أن الفلسبار
المكون للأرضية فى هذا الصخر الأخير بلوراته دقيقة لدرجة لا
يمكن معها رؤية أشكال هذه البلورات حتى تحت الميكروسكوب
كذلك بلورات الایجیرین أصغر وأرق وليست تامة التكوين
هذا الصخر أيضا يمكن تسميته مؤقتا فلسيت الایجیرین .

أما جبال العوينات فى الغالب مكونة من صخور تمثلها القطع
رقم ١٧ الى ٢١ والى أهم عناصرها المعدنية فلسبار قلوئى رمادى
اللون وربما كان من نوع الارثوكلاز ومعه قليل من الميكروكلين
وبها معدن الكوارتز فى بلورات كاملة التكوين ولم ير معدن الميكا
بها ولكن هناك بلورات تامة التكوين من الهورنبلند الأخضر
القائم منشورة بكثرة فى جميع أجزاء الصخر

ولما كانت جميع هذه النماذج مأخوذة من سطح الصخور فقد انتابها التحلل من فعل العوامل الجوية بحيث أصبحت سريعة التهشم لدرجة لا تسمح لفعل قطاعات رقيقة للميكروسكوب على ان الصخر يمكن اعتباره نوعا كثيف التبلور من جرانيت الهورنبلند القطعة رقم ١٨ هى من نوع آخر من الصخور التى تكون الجزء الاكبر من جبال العوينات ويمكن تسميته بالجرانيت الأحمر القريب من فصيله الا بليت مع قلة نسبة الميكا الظاهرة فيه لان هذا المعدن سريع التحلل عادة فينتج منه أوكسيدات الحديد التى كانت السبب فى اكتساب الصخر لونه الأحمر الغامق أما الكوارتز والفلسبار فيكونان الجزء الأكبر من الصخر .

وفى جبال العوينات كما هو الحال فى جبال اركنو ترى الصخور الجرانيتية الأصلية تحترقها عروق من صخور نارية أخرى تمثلها النماذج رقم ١٦ و ١٩ و ٢٢ .

أما القطعة رقم ١٦ فهى من عرق الفلسيت الارجوانى مكون من أرضية فلسيتية منتشرة بها بلورات من الفلسبار محتفظة بشكلها البلورى تماما .

والقطعة رقم ١٩ من عرق من الكوارتز (المرو) ناصع البياض

موجود في كهف في أسفل جبال العوينات وربما كان هذا العرق
لسهولة تأكله السبب في تكوين ذلك الكهف

والقطعة رقم ٢٢ التي التقطت عند جارة شزو من
الكوارتزيت وربما كان هذا الصخر أيضا من العروق التي تخرق
الجرانيت في تلك الجهة . وهناك غير ذلك قطعتان التقطتا داخل
الكهف في واحة العوينات ولهما أهمية خاصة وهما المرقومتين.

برقم ٢٠ و ٢١

أما الأولى فهي من الترافرتين ذي الطبقات الرقيقة ولا شك
في أنه ناشيء من فعل المياه الجارية تدلنا على ذلك التموجات الظاهرة
على سطحه ويظهر من المذكرات التي كتبها الرحالة وقت زيارته
لذلك الكهف أن هناك كميات كبيرة من هذا الصخر مبعثرة فوق
أرضه . وقد أظهر الفحص الميكروسكوبي أن هذه التعاريج السطحية
تنطبق مع تراكيب كروية في داخل الصخر وأن في المادة الجيرية
الكلسيتية المكونة للأرضية قطع صغيرة من الكواتز والفلسبار
وهذه لا شك يرجع أصلها إلى تقفت الصخور الجرانيتية . ولم يوجد
به أثر لمواد عضوية

أما القطعة الثانية رقم ٢١ فهي من جرانيت الهورنبلند الذي
تشكون منه جبال العوينات ومنه أيضا سقف الكهف ويرى على

أحدى جوانب هذه القطعة قشرة رقيقة من اوكسيدات الحديد والمنغنيز تشبه القشرة التى تعلو سطح الصخور الجرانيتية فى شلالات أوصوان بنهر النيل

وربما كانت هذه المنطقة العظيمة من الصخور النارية التى تحتوى الجبال والواحات المكتشفة حديثا باركنو والعوينات محددة كما بينا بوجه التقريب على الخريطة المرفقة وتحيط بها طبقات التكوين الرملى النوبى كما هو الحال فى مناطق كثيرة مماثلة ومبينة على الخريطة الجيولوجية للقطر المصرى

وقد علمتنا الخبرة فى مناطق اخرى مماثلة حيث توجد الصخور النارية محاطة بالحجر الرملى النوبى أن هذه الطبقات الاخيرة قد تكونت فى أول الامر على سطوح الصخور النارية القديمة التى ارتفعت بعد ذلك من جراء الحركات الارضية الداخلية بعد انثناء الطبقات الرملية التى فوقها والمحيطة بها . على أنه فى الحالة التى نبحشها الآن يظهر أن هذا الانثناء لم يكن لدرجة كبيرة اذ أننا لانرى فى الصور الفوتوغرافية ما يدل على أن الطبقات الرملية مائلة ميلا ظاهرا .

ولما ترك الرحالة جبال العوينات واتجه جنوبا ترك وراءه الصخور النارية وقد بينا على الخريطة نقطة انتهاء تلك الصخور

وابتداء طبقة التكوين الرملى النوبى ثانيا بحرف "D" على بعد ٢٠ كيلومتر جنوب العوينات وهنا تعود المناظر الطبيعية فتتغير مرة اخرى من جبال وعرة قائمة اللون الى هضاب مستطيلة من الصخور الرملية ذات الالوان الساطعة ويبلغ ارتفاع هذه الهضبات نحو ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر بين انباه وكنم ومن ثم ينحدر متوسط منسوب سطح الارض تدريجيا حتى الفاشر حيث يبلغ ارتفاع الارض نحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ متر فوق سطح البحر

الخلاصة

مما تقدم يمكن تلخيص الظواهر الجيولوجية التى يشهدها لنا هذه الرحلة الاستكشافية فى النقاط الآتية : —

(١) تمتد طبقات العصر الميوسينى جنوبا حتى الخط ٢٧° شمال تقريبا . فتكون نتوءاً عظيماً تحيط بها صخور تابعة لعصور جيولوجية أقدم منها .

(٢) إن الطبقات الميوسينية التى تلى مباشرة طبقات التكوين الرملى النوبى تتبع هنا نفس القوانين التى قدرها الدكتور هيوم لأول مرة فيما يختص بمنطقة خليج السويس والتى بمقتضاها تتبع هذه الطبقات الميوسينية طبقات متزايدة فى القدم من الشمال الى الجنوب التى يمكن تفسيرها بأنه قبيل العصر الميوسينى تعرضت هذه المناطق

لعوامل التعرية التي كانت أشد في الجنوب من الشمال لارتفاع
الأجزاء الجنوبية من جراء حركات أرضية سابقة .

(٣) إن هناك منطقة هائلة قبلي الخط ٢٧ شمال تغطيها طبقات
من الحجر الرملى النوبى التابعة للعصر الكريتاسى .

(٤) اكتشاف جبال من صخور نارية فى اركنو والعوينات.
داخل الحدود المصرية . وهى اما من محافظة جميع نواحيها بطبقات
الحجر الرملى النوبى أو متصلة بلسان من الصخور الجرانيتية الى
سلسلة جرانيتية كبرى واقعة الى الجنوب

(٥) لم يصادف الرحالة طبقات كريتاسيه أحدث من التكوين.
الرملى النوبى مع أن هذه الطبقات معروفة فى الشمال الشرقى من
هذه المنطقة كما هو مبين على الخريطة الجيولوجية للقطر المصرى.
وربما كان سبب عدم ظهورها هنا أنها مغطاة بطبقة حديثة التكوين
من الرمل والحصى .

بيان العينات الجيولوجية

التي جمعها حسنين بك

في رحلته من السلوم الى دارفور

العينات	نمرة التاريخ الجهة حسب مسلسله سنة ٩٢٣ البطاقات المقدمة
واحة سيوه - ثلاث قطع من بلورات السليانيت ومحارة واحدة من البكتن (Pecten) ومحارتين من الاوستريا (Ostrea) وربما كانت من طبقات ميوسينية	١
محارة بكتن (Pecten) في حجر جيري مكون من بقايا المحارات ومن المحتمل أن تكون هذه أيضا من الميوسين	٢ - الجغبوب
قطعة من الخشب المتحجر وثلاث حصوات سيليسية وعقدتين حجريتين مستطيلتين (concretions) من الحجر الرملى الجيرى وألياف بلورية من الملح طولها ٥ بوصات ومقوسة	٣ - المغمور السطحية في الطريق بين الجغبوب وجالو

نمرة التاريخ الجهة حسب
سلسلة سنة ٩٢٣ البطاقات المقدمة

العينات

٤ ٢٠ مارس مبعثرة في رقع
صغيرة بالوادي حصاتين من الحجر الرملي الجيري
ومعها حبيبات من الكوارتز

٥ ٢٤ مارس قرب بئر الحرش
(الظيغن) رقع
من هذا الصخر
منتشرة قبل
الوصول الى الخطب

٦ ٢٨ مارس على مسيرة يوم
من الحرش
(الظيغن) في
طريق الكفرة خمسة قطع من الطبقات الحديدية
الصلبة في الحجر الرملي النوبي

٧ ٢٩ مارس جارة الشريف ثلاث قطع من الحجر الرملي النوبي

٨ - جبل النار
الجارات الغربية
من الهواري ثلاث قطع من طبقات حديدية
ارجوانية اللون في الحجر الرملي النوبي
وقطعة كروية سوداء تشبه القنبلة

٩ - جبال الكفرة
(التاج) ثلاث قطع من الحجر الرملي النوبي

١٠ ٢٢ ابريل بين الكفرة
والعوينات من سلسلة من
الجبال اخترفت
ذلك اليوم قطعة من الحجر الرملي النوبي
وقطعتين من طبقات حديدية في
الحجر الرملي النوبي

-
- ١١ ٢٤ ابريل جبال اركنو حجر نارى (فلسيت الایجیرین)
-
- ١٢ ٢٤ ابريل من نقطة في جبال اركنو وهناك تلال في اطراف الجبل كلها من هذا الصخر حجر نارى سيانيت متحلل من فعل العوامل الجوية
-
- ١٣ ٢٤ ابريل من رقع كبيرة شمال جبال اركنو حجر نارى (عرق من الكوارتزيت)
-
- ١٤ ٢٥ ابريل من نفس جبل حجر نارى (سيانيت رمادى)
-
- ١٥ ٢٥ ابريل جلاميد كبيرة مدفونة في وادى اركنو على حافة جبل اركنو حجر نارى (فلسيت الایجیرین)
-
- ١٦ - عينة من تكاوين ذات طبقات في وادى العوينات الكبير حجر نارى (فلسيت)
-
- ١٧ - جبال العوينات اغلبها من هذا الصخر حجر نارى (جرانيت الهورنبلند) متحلل من تأثير العوامل الجوية
-
- ١٨ - الصخر الذى تتكون منه اغلب العوينات حجر نارى (جرانيت) متحلل من تأثير العوامل الجوية

نمرة التاريخ الجهة حسب
ممسلسلة سنة ٩٢٣ البطاقات المقدمة

العينات

١٩ -	التقطت داخل كهف الماء في العوينات قرب منسوب الماء وتوجد رقع كثيرة منه	حجر ناري (عرق الكوارتز أو المرو)
٢٠ -	التقطت داخل كهف المياه بالعوينات	دواسب جيرية من المياه الجارية (ترافرتين)
٢١ -	من سقف كهف الماء بالعوينات اغلب الصخور المكونة للكهف وللجبل من هذا النوع	حجر ناري (جرانيت الهورنبلند) متحلل بفعل المؤثرات الجوية ومغطى بقشرة حديدية لامعة ربما كانت من تأثير المياه
٢٢ ٨ مايو	من جارة شزو قرب العوينات	حجر ناري (كوارتزيت) دقيق التركيب
٢٣ ١٠ مايو	بين العوينات واردى	قطعة من الحجر الرملى النوبى
٢٤ ١٣ مايو	موجود منشور فوق الرمل الاحمر قرب اردى لا يوجد سوى الرمل الاحمر وهذا الصخر	قطعة من طبقة حديدية تحتوى على الهيماتيت (او أكسيد الحديد) من الحجر الرملى النوبى

نمرة التاريخ حسب الجهة
مسلسلة سنة ٩٢٣ البطاقات المقدمة

العينات

٢٥ ١٦ مايو تلال اردى طين احمر غامق وبه نسبة صغيرة من
الرمل (ويطحن الى مسحوق طوبى
غامق)

٢٦ ١٦ مايو صخور تلال اردى طين احمر طوبى وبه نسبة صغيرة من
الرمل (ويطحن بسهولة الى مسحوق
احمر طوبى ساطع)

٢٧ ١٩ مايو تلال اجاه رمل ميكائى رفيع ناعم يختلف لونه بين
الاحمر والاصفر وبه نسبة صغيرة
من الجير .

عن جريدة السياسة عدد يوم الثلاثاء ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٣

قصيدة أمير الشعراء

تحية للرحالة المصرى المقدام

لعمركم حسنين

جادت عبقرية شوقي بك بهذه الآية التى حيا بها رحالة مصر
الكبير فاضاف الى شعره الأخلق الوصفى الخالد درة يتلألأ
سناها وتسحر الأفتدة وان من البيان لسحرا
وقد ألقى فى حفلة التكريم التى أقيمت للرحالة المصرى
بكازينو سان استفانو بالاسكندرية مساء الأمس تحت رعاية حضرة
صاحب الجلالة الملك

أقدم فليس على الأقدام ممتنع
واصنع به المجد فهو البارع الصنع
للناس فى كل يوم من عجائبه
ما لم يكن لامرئ فى خاطر يقع

هل كان في الوهم أن الطير يخلفها
 على السماء لطيف الصنع مخترع
 وإن أدراجها في الجو يسلكها
 لأنس جنود سليمان لها تبع
 أعياء العقاب مداهم في السماء وما
 راموا من القبة الكبرى وما قرعوا
 قل للشباب بمصر عصركم بطل
 بكل غاية إقدام له ولم
 أس الممالك فيه همة وحجى
 لا الترهات لها أس ولا الخدع
 يعطى الشعوب على مقدار ما نبغوا
 وليس يبخسهم شيئاً إذا برعوا
 ماذا تعدون بعد البرلمان له
 إذا صفاركمو بالدولة اضطلمعوا
 البر ليس لكم في طوله لجم
 . والبحر ليس لكم في عرضه شرع
 هل تنهضون عساكم تلحقون به
 فليس يلحق أهل السير مضطجع

لا يعجبكمو ساع بتفرقة
 ان المقص خفيف حين يقطع
 قد أشهدوكم من الماضي وما نبشت
 منه الضغائن ما لم تشهد الضبع
 ما للشباب وللماضي تمر بهم
 فيه على الجيف الاحزاب والشيع
 ان الشباب غد فليهدم لغد
 وللمسالك فيه الناصح الورع
 لا يمنعنكمو بر الابوة أن
 يكون صنعكم غير الذي صنعوا
 لا يعجبكم الجاه الذي بلغوا
 من الولاية والمال الذي جمعوا
 ما الجاه والمال في الدنيا وان حسنا
 الا عوارى حظ ثم ترتجع
 عليكم بخيال المجد فائتلفوا
 حياه وعلى تمشاله اجتمعوا
 وأجلوا الصبر في جد وفي عمل
 فالصبر ينفع ما لا ينفع الجزع

وان نبغتم فني علم وفي أدب
 وفي صناعات عصر ناسه صنع
 وكل بنيان قوم لا يقوم على
 دعائم العصر من ركنيه منصرع
 شريف مكة حر في ممالكه
 فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا

كم في الحياة من الصحراء من شبه
 كلباتها في مفاجاة الفتى شرع
 وراء كل سبيل فيهما قدر
 لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
 فلست تدري وان كنت الحريص متى
 تهب ريحاهما أو يطلع السبع
 ولست تأمن عند الصحو فاجئة
 من العواصف فيها الخوف والهلع
 ولست تدري وان قدرت مجتهداً
 متى تحط رحالا أو متى تضع

ولست تملك من أمر الدليل سوى
ان الدليل وان ارداك متبع
وما الحياة اذا اظمت وان خدعت
الا سراب على صحراء يلتبع
اكبرت من (حسين) همة طمعت
تروم مالا يروم الفتية القنع
وما البطولة الا النفس تدفعها
فيما يبلغها حمدا فتندفع
ولا يبالي لها أهل اذا وصلوا
طاحوا على جنبات الحمد أم رجعوا
رجالة الشرق ان البيد قد علمت
بأنك الليث لم يخلق له الفرع
ماذا لقيت من الدو السحيق ومن
قفر يضيق على السارى ويتسع
وهل مررت بأقوام كفطرتهم
من عهد آدم لا خبت ولا طبع
ومن عجيب لغير الله ما سجدوا
على الفلا ولغير الله ما ركعوا

كيف اهتدي لهم الاسلام وانتقلت
 اليهم الصلوات الخمس والجمع
 أجزت مصر ثناء أنت موضعه
 فلا تذب من حياء حين تستمع
 ولو جزتك الصحاري جثتنا ملكا
 من الملوك عليك الريش والودع
 شوقي

كلمة شكر

لم أكن لأوفق التوفيق الذى نلته فى رحلتى أو أتمكن من اتمامها بالنجاح الذى كتبه لى الله لو لم آنس برأى أصدقائى المخلصين وأنل مساعدة الذين تفضلوا بمد يد المساعدة الى حيث كنت فى حاجة إليها . ولا أقل من أن أسجل لهم جميعاً تقديرى لليد التى أبدوها والنصائح التى أبدوها وأثبتت هذا فى كتابي الذى أقدمه لأبناء وطنى وملء نفسي الأمل أن أكون قد قمت ببعض ما يفرضه علىّ الاخلاص فى خدمته .

أتقدم بالشكر للدكتور جون بول مدير مصلحة مساحة الصحراء المصرية فقد تفضل بتلخيص النتائج العلمية لرحلتى فى الذيل الاول من هذا الكتاب وساعدنى كثيراً بإرشاداته فى استعمال الاجهزة التى صحبتها فى رحلتى

وأسجل شكرى مرة اخرى للدكتور بول وللمستر براون وغيرهم من أعضاء مصلحة المساحة المصرية لقيامهم بتحضير خرائط رحلتى التى أثبتت احداها فى هذا الكتاب

وأثنى الشاء البطر على الدكتور هيوم وعلى المرحوم المستر مون الموظفين بمصلحة المساحة الجيولوجية لمساعدتهما بتقسيم

النماذج الجيولوجية التي أحضرتها معي وعمل التقرير الذي وضعته في الذيل الثاني لهذا الكتاب واني مدين لحضرة حسن بك عبادي لتفضله بترجمة تقرير الدكتور بول ولحضرة حسن بك صادق المفتش بالقسم الجيولوجي بمصلحة المساحة الذي تفضل أيضاً بترجمة تقريرى الدكتور هيوم والمرحوم المستر مون الى اللغة العربية .

وقد تفضل اللواء سبنكس باشا ومشعلاني بك بوزارة الحربية فتعهدا جزءاً كبيراً من أدوات الرحلة من حقائب وجعب وأواني فأدت وظيفتها على مايرام واني لأشكرهما على العناية والارشادات التي بذلاها في تحضيرها .

وقد تكرم صديقاى المخلصان السيد عبد العال الادريسي وولده السيد ميرغنى الادريسي فقدا الى النصيح الخالص والمساعدة العظيمة فلهما منى مزيد الشكر والامتنان .

وقد قام بمساعدتي مساعدة نافعة في الجزء الأول من الرحلة الكولونل هنتر باشا المدير السابق لمصلحة الحدود والكولونيل مكدونيل حاكم الصحراء الغربية والملاجور دى هلبرت والكابتن هتون والكابتن هاريسون من ضباط مصلحة أقسام الحدود وعبد العزيز فهمى افندى مأمور السلوم واحمد كامل افندى مأمور سيوه والملازم لولر قومندان سيوه واني لأقدم لهم جميعاً مزيد شكرى

وعند وصولي السودان مهد لي الطريق بعناية المرحوم السر
لجستاك باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان سابقاً فأقدم
بالشكر الى السيدة قرينته اللادي ستاك

ولا تفوتني هذه المناسبة بدون أن أقدم خالص امتناني لجميع
أخواني السودانيين وكذلك موظفي السودان الذين قاموا بمساعدتي
عند انتهاء الرحلة وخصوصاً سعادة مدونتر باشا القائم بمنصب
حاكم السودان العام واللواء هدلستون باشا القائم بأعمال سردار
والامير الای حافظ بك قائد فرق الخرطوم (الآن اللواء حافظ باشا)
والمستر ماك ميكل السكرتير الملكي المساعد والكابتن فيلبس
وصمويل عطيه بك واحمد السيد الرفاعي افندي والمستر شارل
ديبوى القائم بأعمال حاكم دارفور والصاغ احمد حلمي أركان حرب
الفاشر والمستر كريج حاكم كردفان والبكباشي احمد خليل أركان
حرب الابيض (والآن ياور حضرة صاحب الجلالة الملك)

هذا وأسجل شكري الخالص لحضرة صاحب العزة احمد
بك لطفي السيد على تفضله بكتابة المقدمة الشيقة التي صدرت بها
الكتاب ولحضرة صاحب العزة احمد بك شوقي شاعر الشرق على
أبياته الرقيقة التي تكرم بنظمها عند عودتي من الرحلة وعلى بيتيه
العامرين اللذين زينت بهما غلاف الكتاب

وأختم كلمتي بإسداء مزيد شكرى لأحمد أفندى رامى وجميع
 من تفضل من اخوانى بتصفح هذا الكتاب وتكرم بإبداء
 ملاحظته وإرشاداته فى تقديمه للقراء

أحمد محمد حسنين

فهرست المجلد الثاني

صحيفة	
٢٠٧	الفصل الخامس عشر - الواحطان المجهولتان اركنو. والعوينات
٢٢٤	» السادس عشر - الى واحة البوينات
٢٤٠	» السابع عشر - السير ليلا الى اردى
٢٦٤	» الثامن عشر - دخولنا السودان
٢٨٤	» التاسع عشر - الى فراوية على قلة الزاد
٣٠١	» العشرون - نهاية الرحلة
٣١٥	مذكرة عن نتيجة الرحلة في رسم الخرائط
٣١٧	المقدمة
٣٢٢	معدل سير الساعة
٣٢٦	خطوط العرض الفلكية
٣٣١	انحراف البوصلة
٣٣٦	النتيجة
٣٣٧	تصحيات عن المسافات المقدرة
٣٣٩	خطوط الطول المستنتجة
٣٤٤	الارتفاعات المستنتجة فوق سطح البحر
٣٤٦	ملخص المواقع الجغرافية الرئيسية والمناسيب
٣٤٧	تكوين خريطة الطريق بمقياس١
٣٤٨	اضافات لمعلومات الرحلة الجغرافية

تابع الفهرس

صحيفة	
٣٥٠	بر أبو الطفل
٣٥١	زغين
٣٥٢	تيزر بو
٣٥٢	بوزيما
٣٥٤	الكفرة
٣٦٠	واحتا اركنو والعوينات
٣٦٧	أردى
٣٦٨	أجاه
٣٦٨	عنيباه
٣٦٩	باو
٣٧١	الخلاصة
٣٧٤	استنتاجات من المعلومات الجيولوجية
٣٨١	مذكرات جيولوجية عن رحلة الرحالة بقلم المسترف.و.مون
٣٩٥	{ بيان العينات (النماذج) الجيولوجية التي جمعها الرحالة في رحلته من السلوم الى دارفور
٤٠٠	{ قصيدة أمير الشعراء تحية للرحالة نقلا عن جريدة السياسة عدد ٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٣
٤٠٦	كلمة شكر

فهرست

بما اشتمل عليه المجلد الثاني من الصور

صورة الرحالة يرصد الشمس بالتيودوليت على يسار الصفحة رقم ٢٠٨

» جبال اركنو » » » ٢١٢

» العوينات » » » ٢١٦

» معسكر الرحالة بالعوينات » » » ٢٢٠

» مطبخ القافلة في مغارة بالعوينات » » » ٢٢٢

» بئر في العوينات » » » ٢٢٤

» اعداد قرب وفناطيس المياه قبيل السفر من العوينات الى
اردى على يسار الصفحة رقم ٢٢٨

» النقوش التي وجدها الرحالة على الصخور في العوينات
على يسار الصفحة رقم ٢٣٢

» صبي من الجرعان بالعوينات » » » ٢٣٦

» فتاة تبوية بملابس البدو » » » ٢٣٨

» تبوى بمعطف من الفرو » » » ٢٤٠

» القافلة تجتاز غرود الرمال بين العوينات واردى
على يسار الصفحة رقم ٢٤٤

» تلال صخرية بين العوينات واردى » » » ٢٤٨

» أول شجرة لقيتها القافلة في الصحراء بين العوينات واردى
على يسار الصفحة رقم ٢٥٢

» القافلة في أرض ذات كلاً قرب بئر أردى » » » ٢٥٤

تابع فهرست الصور

صورة وادى اردى	على يسار الصفحة رقم ٢٥٦
» بر اردى	» » » » ٢٦٠
» طريق صخرى وعربى بر اردى	» » » » ٢٦٤
» امرأتين من قبيلة البديات	» » » » ٢٦٨
» حسناء من قبيلة زغاوة	» » » » ٢٧٠
» الرحالة وقافلته داخل الحدود السودانية في طريقهم الى الفاشر	» » » » ٢٧٢
» صبية وأختها من قبيلة البديات	» » » » ٢٧٦
» بر قرب الفاشر	» » » » ٢٨٠
» امرأة من قبيلة فور	» » » » ٢٨٤
» سوق بقرية أم برو	» » » » ٢٨٨
» غادة من قبيلة البديات	» » » » ٢٩٢
» ركب شيخ قبيلة زغاوة في استقبال الرحالة بأم برو	» » » » ٢٩٦
» رسول الرحالة الى مدير دارفور بالفاشر لاسعاف القافلة بالزاد	» » » » ٣٠٠
» صبيتين من قبيلة فور	» » » » ٣٠٨
» الرحالة على جواده مع رجال قافلته المرافقين له في رحلته	» » » » ٣١٢

